دوستويفسكي

مُذلّون مُهانون

ترجمة: سامي الدروبي

المركز الثقافي العربي

دوستویفسکی

مُذلون مُهانون

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

الكتاب

مُذلون مهانون (رواية)

تأليف

دوستويفسكي

ترجمة

سامي الدروبي

الطبعة

الثانية، 2013

عدد الصفحات: 560

القياس: 21.5 x 14.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-402-4

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب : 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca _casa_bey@yahoo.com

تقديم

كتب دوستويفكسي هذه الرواية عند عودته من السجن في المنفى، فيمكن القول إنها جسر بين ما أنتجه من قصص في أيام الشباب وبين الأعمال الكبيرة التي كتبها في سنّ النضج. وقد استقبل النُقّاد هذه الرواية الحافلة الصاخبة، عند ظهورها استقبالاً متفاوتاً أشد التفاوت، فمنهم من تحمّس لها أكبر الحماسة، ومنهم من ظلمها أكبر الظلم. وكان دوستويفكسي نفسه بين الذين ظلموها. كتب يقول سنة 1864، في مجلة «العصر»:

«أنا أعلم حق العلم أن في كتابي هذا دمى كثيرة ليست كائنات إنسانية» وأضاف: «لم أدرك هذا طبعاً حين كنت في حمى العمل السريع ولم أكد أشعر به». ويردد دوستويفسكي ما قاله بعض النُقّاد في حق هذه الرواية من أنها بعيدة عن الواقع، ومن أنها مفككة بعض التفكك، فها هو ذا يقول في الاعتذار عن ذلك إنه كتبها في ظروف خاصة فرضت عليه أن يسرع في الكتابة ما أمكن الإسراع، لأن المجلة الناشئة التي شرع في إصدارها أخوه، وهي «الزمان»، كانت في حاجة إلى رواية تنشر في أعدادها المتسلسلة تباعاً، فلم يتسع وقته لبناء روايته البناء المُحكَم، ولا لصقلها الصقل الفني الذي يرضى عنه. وعندنا أن دوستويفسكي قد ظلم نفسه حين اعترف للظالمين من نُقّاده ببعض ما عابوه على روايته. فالرواية ليست مفككة إلا في نظر من يقرؤها قراءة عجلى، فيتيه في سراديبها دون

أن يلاحظ ارتباط أجزائها بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، ويصرفه الغوص في أعماق النفس الإنسانية عن رؤية الجمال الشعري في صياغتها نفسها. وكان دوستويفسكي يدرك حتماً أنه يظلم نفسه حين يعترف لنُقّاده الظالمين بما أخذوه على الرواية، سواء أكان ذلك من قبيل المجاراة لهم والتقرب منهم أم كان من قبيل الشعور بأن عبقريته قادرة على ما هو خير من ذلك انسجاماً وشاعرية؛ فها هو ذا يستدرك قائلاً: «ولكن إليكم ما كنت أعرفه حين شرعت في كتباتها: «1 - أن روايتي هذه ستشتمل على شعر ولو لم تنجح، 2- وأنها ستشتمل على فصول تفيض حرارةً وقوةً؛ 3- وأنها ستشتمل على وصف صادق وفني لشخصيَّتَيْن حيَّتَيْن إلى أبعد الحدود. وكانت هذه الثقة تكفيني. وقد خرجت الرواية غريبة بعض الغرابة، غير أن فيها قرابة خمسين صفحة أعتز بها».

والحق أن دوستويفسكي، حتى في دفاعه هذا عن كتابه، كان خجولاً متهيباً متردداً، فالشخصيات التي يصورها في هذه الرواية حية أصيلة صادقة كلها، والخيط الذي ينظم أجزاء الرواية بعضها ببعض يربط هذه الأجزاء ربطاً محكماً قوياً، والشعر يترقرق في الرواية من أولها إلى آخرها، ولا شك أن دوستويفسكي كان حين استسلامه للإلهام الخصب والوحي المتدفق أثناء كتابة الرواية أصدق نظرة وأصدق حكماً منه حين نظر إلى الرواية ناقداً بعد ذلك. أية شخصية في هذه الرواية يمكن أن توصف بأنها غير واقعية؟ إن جميع الشخصيات التي يصوِّرها واقعية مستمدَّة من الحياة؛ لا من الحياة المرضية غير الطبيعية فحسب، بل من الحياة السوية السليمة أيضاً. إن شخوص هذه الرواية الذين قد يتراءى للنظرة السطحية الأولى أنهم مرضى، ليسوا بمرضى في الواقع. وما أصدق ما قاله هنري

ترويا بهذا الصدد! قال هنري ترويا: «إننا لا نشعر، في الوهلة الأولى، بأن هناك أي شيء مشترك بيننا وبين أولئك الذين يصفهم دوستويفسكي من المتشردين، والفوضويين، والسكارى، والمدمنين، وأشباه القديسين، وقتلة آبائهم، والمصابين بالهستيريا... إلخ. إننا لم نلتقِ بهم يوماً في هذه الحياة. وسلوكنا المعتاد يختلف عن سلوكهم اختلافاً كاملاً. ومع ذلك فنحن نشعر بأنهم معروفون لنا، مألوفون عندنا، على نحو سري عجيب. إننا نفهمهم وإننا نحبهم. بل إننا نتعرف أنفسنا فيهم. فكيف يمكن تعليل هذا التجاوب وهذا التعاطف معهم، ما داموا هم أشخاصاً مرضى، وما دمنا نحن أفراداً أسوياء من حيث المبدأ؟ من ذا الذي يستطيع أن يزعم أن دوستويفسكي كان يمكن أن يجتذب هذه الأعداد الكبيرة من جماهير القرّاء الذين ما ينفكون يتزايدون، لو قد توفر على دراسة المجانين والمدمنين وأضرابهم دون غيرهم؟ الحقيقة هي أن مجانين دوستويفسكي ليسوا مجانين إلى الحد الذي نتوهمه من أول وهلة. كل ما هنالك أنهم ما لا نجرؤ أن نكونه. إنهم يعملون ويقولون ما لا نجرؤ أن نعمله وأن نقوله. إنهم يظهرون إلى النور ما نكبته نحن في ظلمات اللاشعور. إنهم نحن، إذا لوحظنا ورُصدنا من داخل. هذه الطريقة في التقاط المناظر، وهي أقرب ما تكون إلى عمل الجراح، تتناول ما هو مختبئ في أبعد الأغوار من أعماقنا... إنه يصوِّر عالمنا الداخلي المختفي، أما العالم الخارجي فيبقى غامضاً كأنه في حلم. ولئن كان دوستويفسكي يخضع أحياناً للإغراء الذي يغري بإلصاق عنوان طبي على مخلوقاته، فهو إنما يفعل ذلك ليبرر سلوكهم العجيب الشاذ، وليبرر أقوالهم المتدفقة من تلقاء نفسها بما يشبه الوحي والإلهام، أمام قرّاء مفتونين بالكلام المنطقي والحديث

المتسق. إنهم ليسوا بمرضى، ما داموا بغير أجسام، أو قل إن أجسامهم ليست إلا فكراً. وكل من أدرك ذلك، فسوف يقرأ دوستويفسكي ناسياً ما يتصف به أبطاله من طابع المرض، فلا يرى فيهم إلا الصراع الروحي الذي يمثّلونه بغير أجساد وغير تعب.

«ومع ذلك، إذا لم تكن شخصيات دوستويفسكي شخصيات مختلفة حقاً، فإنه لم يستطع أن يصوِّر هذه الشخصيات ذلك التصوير الدقيق كل الدقة، ولا أن يبث فيها الحياة على هذه الصورة الرائعة، إلا لأنه كان هو نفسه يعاني بعض الاختلال. لقد كانت نوبات الصرعة تلقيه باعترافه هو نفسه، إلى ملذات رهيبة. كان وهو في ذروة هذا التوتر العصبي، يعاني الموت حياً، ويتصل بالوجه الآخر من هذا العالم الذي نعيش فيه، فيفهم ما لا سبيل إلى فهمه؛ ثم يعود إلى الأرض بعد التشنج الأخير مبهوراً مفؤوداً. فهذه القدرة على التحليق فوق الظرف الإنساني، ثواني أو دقائق، تتيح له أن يؤكد وجود منطقة وسيطة لا هي الواقع ولا هي الحلم. فعلى مشارف هذه الحماسة، تزدوج الشخصية، ويسود الفكر، ولا يبقى للجسد وزن، ولا قوة ولا قيمة... وفي رحاب هذا الضياء الذي فوق الطبيعة، لا تبقى فروق ألوان... إن السعادة، عند دوستويفسكي وعند أبطاله، هي الوَجْد... وإن الشقاء هو التلاشي... إن في وسع كل إنسان أن يقول مثله: «لم أزد خلال حياتي كلها على أن أدفع إلى النهاية القصوى ما لم تجرؤ أنت أن تدفعه إلا إلى منتصف الطريق...»».

ومن أجل هذا فإن هذه الرواية التي قد يصفها ناقد سطحي بأنها «غريبة» أو بأنها «ملفّقة، أو بأنها «مفككة»، تؤثر في نفس القارئ الذي يتعاطف مع أبطالها ويستسلم كاستسلام المؤلف لحياتهم

ومشاعرهم، فإذا هي تنبض في نظره، بل تنبض في قلبه وتهزّ أعمق أعماقه. وإن في هذه الرواية لكثيراً من حياة دوستويفسكي نفسه. إنها توشك أن تكون اعترافات، وأن تكون مرآة تعكس نظرته البكر إلى الحياة والوجود في هذه المرحلة من أيامه. ولا يصعب على القارئ أن يتعرف في سِمات بطلها إيفان بتروفتش وفي ملامح روحه وفي أحداث حياته، شخصية الكاتب نفسه. إن إيفان بتروفتش الذي يقص هذه الحكاية هو دوستويفسكي نفسه: عرف الفقر والبدايات الصعبة الشاقة والسند يحظى به من ناقد كبير هو بيلنسكي، وعرف لحظة قصيرة من شهرة ومجد، وهو يحمل في مزاجه التناقض بين فكر قوي جبار منظم ممتلئ رجولة، وبين حساسية مفرطة، وأعصاب مهتزة، وصحة مهددة وروح مرهقة. غير أن بين المؤلف والبطل فرقاً كبيراً؛ فالمؤلف، وقد بلغ الأربعين من عمره وأنضجته تجربة المعتقل بالمنفى، وعاش حياة مزروعة بالمكائد، يبدأ الآن كتابة عمل ضخم جبار، ويملك ناصية موهبته ويهتدي إلى ينابيعه الثرة أثناء ذلك بجهاد شاق بطيء، أما بطله فهو يصل إلى نهاية حياته ولما يزل شاباً في مقتبل العمر. إنه يكتب ذكرياته في المستشفى منتظراً خاتمة المطاف من عمره القصير. ولا شك أن في إيفان بتروفتش هذا، أحد أبطال «مُذَلُّون مُهَانون»، شيئاً كرهه دستويفسكي في نفسه ونفر منه، أعني تلك الرومانسية العاطفية الإنسانية التي عبّر عنها في «الفقراء» وفي «الليالي البيضاء». ولكن هذا لا ينفي أن إيفان بتروفتش يُمتحن في هذه الرواية امتحاناً قاسياً مر به دستويفسكي نفسه في حياته، حين عرف ألكسندرا ديمتروفنا: فإنه حين لم تقبله ألكسندرا التي يحبها هو حباً عارماً قوياً، لم يأخذ بندب حظه ولا بإظهار العذاب والألم، بل وضع خير ما عنده في خدمة عواطف حبيبته - وهي تُسمى في هذه

الرواية ناتاشا - وفي خدمة علاقاتها بغريمه «السعيد». وهذا الموقف كان بعينه موقف ذلك الموظف الصغير ماكار دييفوشكين، أحد شخوص روايته «الفقراء»، وكان موقف ذلك المتنزه الحالم الذي وصفه دوستويفسكي في قصة «الليالي البيضاء». يظهر أن هذا الموضوع كان يحاصر ذهن دوستويفسكي محاصرة قوية، وذلك يتفق أيضاً مع اهتماماته الأساسية في الأعمال التي سيكتبها في المستقبل. فمن أعماق الإخفاق القاسي الذي يُمنى به هؤلاء الشخوص الثلاثة في هذه الأعمال الثلاثة يكتشف هؤلاء الشخوص في أنفسهم طاقة جبارة تخلصهم من قوى اليأس المرير وندب الحظ العاثر: هذه الطاقة الجبارة هي «الشفقة» هي «الرحمة» التي تكشف عن أنبل ما في القلب، وتجعل صاحبها يقبل التضحية، في ذات نفسه، بما في كل حب من توق إلى الامتلاك. وهذا التأثير القوي الذي تؤثره الرحمة في القلوب والذي هو أعمق من جميع أعماق الشر نحن نجده لدى جميع شخوص «مُذَلُّون مُهَانون» تقريباً، نجده في هذا الحب الغريب الذي تحمله ناتاشا وكاتيا كلتاهما وهما الغريمتان المتنافستان للشاب الطائش الخفيف أليوشا: أن إيفان بتروفتش يتساءل في بعض اللحظات، ويتساءل معه القارئ أيضاً، كيف أمكن أن تفتتن فتاة مثل ناتاشا طهارة وحرارة وعقلاً، بشاب يبلغ ما يبلغه أليوشا من تفاهة و «فراغ» وتردد وأثرة، وكيف أمكنها أن تتولّه بحبه! وها هو ذا دوستويفسكي يجيب على هذا التساؤل بعبارات عنيفة قوية تعري ما يتصف به الحب الجارف من «التباس» و «تناقضات». إن ناتاشا، حين تنظر إلى حبها، تدرك في قرارة نفسها أن حبها إنما تداخله شفقة و «رحمة»، وكذلك كاتيا. فهي رغم ما يتصف به أليوشا من ضعف وتفاهة إنما تحبه كما تحب أم ابنها. وهي تفصح عن هذه

الحقيقة بلسانها نفسه: إنها تشعر نحوه أحياناً بشفقة. إنها حين تنظر إلى ما فيه من خفة ساحرة، ومن ثرثرة مثالية، ومن تناقض وتفكك وتذبذب، ترى فيه «إنساناً مسكيناً» فتشفق عليه، بل إنها لتبلغ من ذلك حداً لا يكاد يصدقه العقل فهي تحب حتى خيانته لها مع نساء بغايا. . . . ذلك أنها تريد أن ترى أنه «رجل»، وتحب أن تغفر له، أن تصفح عنه، تحب أن تسامح وتعفو. . . إن حبها مزيج من حب وشفقة. . . بل إن في حبها شيئاً من «الإحسان»، بالمعنى المسيحي. . . وإذا كان الهوى يصطرع مع هذا «الإحسان» فإن «الإحسان» هو الذي يكتب له النصر، وإن الهوى هو الذي يمنى بالهزيمة. إن دوستويفسكي يرينا وراء إخفاق الحب انتصار الإنسان. . . لقد قبلت ناتاشا القطيعة؛ وارتضت أن ترى غريمتها وأن تناقشها. وها هي ذي تتنازل لها عن حبيبها، بل وتسألها أن تحقق للشاب سعادته.

ومن شأن تغلغل الشفقة في ملكوت الحب أن يخرّب النفوس - ذلك الجنون. تلك لحظة من لحظات الصراع، في نظر دوستويفسكي، بين قوى ما سيحدث للأمير ميشكين في رواية «الأهبل»، وأن ترمي بها إلى الخير وقوى الشر في كل إنسان. ويكتسي الحب المخفق، عند دوستويفسكي، دلالة خاصة، فهو كالإدمان والشهوة يكشف لنا عن أنفسنا على حقيقتها، وينير بضيائه بنية شخصيتنا، ويكون مرآة لكياننا النفسي الداخلي.

فإذا نظرنا إلى هذا العالم الذي تدور فيه أحداث الرواية ويضطرب فيه شخوصها، إذا نظرنا إلى هذا العالم من خارج، رأيناه عالم جريمة واستحالة. فالبشر الشرفاء النبلاء أصحاب العواطف القوية، والمبادئ الثابتة - مثل إيفان بتروفتش، وناتاشا، والصغيرة نيللي -

يخفقون، على حين أن أليوشا الضعيف، وكاتيا الطفلة في أنانيتها سيعرفان شيئاً من سعادة، ولن يضيعا على كل حال؛ كما أن سميث والعجوز أخمنيف، وهما إنسانان مستقيمان ولكنهما في استقامتهما شديدا العزة والكبرياء، سيكونان السبب في شقاء ذويهم، على حين أن الظافر الأكبر والمنتصر الأعظم إنما هو ذلك الوغد الحقير اللئيم الذي لا يتورع عن شيء ولا يحجم عن شر: الأمير فالكوفسكي: فله النساء، وله المال، وله الاعتبار والجاه، وله كل قوى هذا العالم. ذلك ما نراه في هذا العالم: «الشر قوي على هذه الأرض، فإن لم تقف في مواجهته إلا فضائل صغيرة، فلواء النصر معقود له. ولعل هذه النتيجة هي التي خلص إليها دستويفسكي». ذلك ما قاله بيير باسكال في كلام له عن دستويفسكي. إن دستويفسكي يطرح مشكلة الشر في في هذه الرواية العنيفة طرحاً خفياً، وسيزيد طرحه لها قوة وسيجسّدها مزيداً من التجسيد في أعماله المقبلة التي ستدور في الواقع حول هذا الموضوع: كيف نكافح قوى الشر التي هي في الإنسان جزء من ظروف وجوده. صحيح أن دوستويفسكي لم «يعالج» شيئاً من هذا بدراسة صريحة في «مُذَلُّون مُهَانون». وهذه الرواية المعقَّدة الغنية شعراً، شعراً قاتماً مظلماً، تسطع بألف لون من ألوان الجمال.. ولكن قاعها يظل مظلماً مظلماً إلى أبعد حدود الظلام.. قال جورج هالداس: «إن هذا القاع المظلم، هذا القاع المؤلف من خوف وقلق، وبؤس واختلال عصبي، يذكّرنا ببودلير «سام باريس» (وقد وُلد الشاعر الفرنسي والروائي الروسي في سنة واحدة: 1821)، فالكاتبان، على اختلاف عبقريتيهما، يتشابهان أكبر التشابه في إدراك الخطر الذي يهدد عافية البشر النفسية، ويحسان «الشر» إحساساً واحداً من حيث هو أساس الوجود، ويحسان

«الخطيئة» هذا الإحساس نفسه تبعاً لذلك. وهما قادران قدرة واحدة على أن يكثفا مصير إنسان في بضع كلمات، ويعرفان معرفة واحدة كيف يضعانه في موضعه من الوجود، وكيف يرسمان نظرة واحدة من نظراته إلى واحدة من مضيئات ذكريات طفولته، فإذا هي أشبه بقوس قزح فوق حياته الخربة؛ وهما أخيراً يملكان إحساساً واحداً بجحيم العواصم التي يترسب فيها الشقاء. وحسبك أن تقرأ هذه الفقرة من فقرات هذه الرواية القاتمة المظلمة المتحركة «مُذَلُّون مُهَانون» حتى ترى في هذه الفقرة بذرة الرواية كلها، قصيدة شعرية تجمعها وتلخّصها: «إنها قصة رهيبة: قصة امرأة هجرها صاحبها وما يزال يعيش على أنقاض سعادتها، قصة امرأة مريضة هدها الألم وانصرف عنها جميع الناس، وأنكرها الإنسان الذي أساءت إليه في الماضي وفقد عقله هو الآخر تحت وطأة أنواع العذاب والذل التي لا يمكن أن يحتملها بشر، قصة امرأة استبدّ بها اليأس فأخذت تطوف في شوارع بطرسبرغ الباردة القذرة، تطلب الصدقات من الناس مع ابنتها التي ترى أنها ما تزال طفلة صغيرة، قصة امرأة فنيت بعد ذلك خلال شهور في قبو رطب، ورفض أبوها أن يمنّ عليها بغفرانه إلى آخر لحظة من حياتها، حتى إذا ثاب إلى صوابه فهرع إليها ليغفر لها لم يجد في مكان ابنته إلا جثة باردة. إنها قصة غريبة، قصة علاقات عجيبة لا يكاد يفهما المرء، بين شيخ هرم ارتد إلى الطفولة وبين حفيدة له كانت تفهمه على صغر سنها، وكان لها من نفاذ الفكر ما لا يصل إليه كثير من الناس خلال حياتهم الهادئة الرخية. إنها قصة مظلمة، قصة من تلك القصص السوداء الأليمة التي كثيراً ما تجري دون أن يلمحها أحد، كأنها أسرار خفية، تحت سماء بطرسبرغ الثقيلة، في الزوايا المعتمة المستسرة من المدينة الكبيرة، وسط

اصطخاب الحياة والأنانية الضاربة والمصالح المصطرعة والفجور الكالح والجرائم الخبيئة، في كل هذا الجحيم من الحياة المجنونة الشاذة».

ويختم جورج هالداس كلامه بقوله: «ذلك، بقلم المؤلف نفسه، مدخل جيد إلى متاهة دوستويفسكي التي لا تشكل روايته «مُذَلُّون مُهَانون» إلا مرحلة أولى منها».

وعبث، بعد ذلك، أن نحاول تلخيص أحداث هذه الرواية المتشابكة المتداخلة الأجزاء والفصول.

الجُزْءُ الأَوَّلُ

الفصل الأول

في الثاني والعشرين من شهر مارس (آذار) من العام الماضي وقع لي حادث من أغرب ما يقع من حوادث.. كنت قد قضيت النهار كله أبحث عن منزل أستأجره. فقد كان بيتي القديم رطباً جداً وكنت في ذلك الوقت أعاني سعالاً شديداً. كنت منذ الخريف أود أن أترك هذا البيت، إلا أنني سوَّفت حتى الربيع. انقضى النهار دون أن أجد ما يرضيني. فقد كنت أريد أن يكون البيت مستقلاً لا جيران لي فيه، وكان يمكن أن أكتفي بغرفة، ولكن لا بد أن تكون الغرفة واسعة (وكان لا بد طبعاً أن يكون أجرها زهيداً)، فقد لاحظت أن الغرفة الصغيرة تُضيّق الخناق على الأفكار نفسها، وكنت أحب دائماً، حين أفكر فيما سأكتب من قصص، أن أسير في الغرفة جيئة وذهاباً، وأذكر في هذه المناسبة أن التفكير في مؤلفاتي والتأمل فيما سأعمد إليه من أسلوب في تأليفها كانا دائماً أحبَّ إلى نفسي من كتابتها. وصدقوني إذا قلت لكم إن ذلك لا يرجع إلى الكسل.. لكنني لا أدري له سبباً..

ولقد كنت، منذ الصباح، أشعر بشيء من الإعياء، فلما جاء الغروب شعرت بأنني مريض، وانتابني نوع من الحمى. ثم إني قد ظللت على قدميَّ النهار كله، وأخذ مني التعب مأخذه. وفي المساء، قُبَيل الشفق، مررت بشارع «الصعود». إني أحب شمس مارس (آذار) في بطرسبرغ، وأحب الغروب خاصة حيث يكون النهار

بارداً نيّراً. إن الشارع كله يضيء فجأة ويغرق في أنوار جميلة. أخذت البيوت كلها تتألق، فإذا ألوانها الشهباء أو الصفراء أو الخضراء الكابية تفقد منظرها المتجهم في طرفة عين. وشعرت كأن نفسي تشرق، وشعرت كأن رعشة تسري في جوانحي: نظرة جديدة، ومعان جديدة! ما أعجب ما يستطيع أن يفعله في نفس إنسان شعاع من شمس!...

ولكن شعاع الشمس غاب، واشتد البرد، وأخذ ينقر الأنوف... وتكاثف الظلام، وأخذت مصابيح الغاز تتلألأ في المخازن والحوانيت. فلما وصلت إلى مستوى مقهى موللر على الطرف الثاني من الشارع، رأيتني أتسمر في مكاني، ورأيتني أنظر إلى الطرف الآخر، كأنما أوجست أن أمراً خارقاً سيقع لي على الفور. وفي هذه اللحظة تماماً أبصرت على ذلك الطرف الآخر رجلاً عجوزاً وراءه كلبه. لأتذكر الآن أن صدري انقبض في تلك اللحظة انقباضاً شديداً، تحت وطأة إحساس مزعج لم أستطع أنا نفسي أن أعرف كنهه.

لست بالإنسان المتطيّر، ولا أكاد أؤمن بمشاعر التنبؤ. ومع ذلك فقد وقعت لي في حياتي حوادث كثيرة لا يمكن تعليلها، كما وقع ذلك لجميع الناس فيما أظن. مثال ذلك هذا العجوز الذي رأيته: لماذا شعرت فوراً، حين أبصرته، أن شيئاً غير عادي سيقع لي في المساء؟ على أنني كنت مريضاً، والمشاعر المرضية تكاد تكون دائماً خداعة.

كان العجوز يقترب من المقهى بخطوات بطيئة متقلقلة، يقدم رجليه كأنهما عصوان، لا يكاد يثنيهما، وقد تقوس ظهره، وأخذ يضرب بعصاه بلاط الرصيف. لم أرَ في حياتي شكلاً أعجب ولا أغرب من شكل هذا العجوز.

لقد كان يؤلمني منظره دائماً حين كنت ألقاه في مقهى موللر. فقامته الطويلة، وظهره المحدودب، ووجهه الذي لاح فيه فناء ابن الثمانين، وسرواله العتيق المتفتق، وقبّعته المدوّرة المتشوّهة التي يرجع عهدها إلى عشرين عاماً خلت والتي تغطي جمجمة عارية إلا من كشة صغيرة من الشعر على النقرة تماماً، كشة صفراء لا بيضاء، وحركاته التي تبدو خالية من المعنى حتى لكأنها حركات نابض آلي، كل ذلك كان يفاجئ حتماً نظر من يراه لأول مرة. وإنه لغريب حقاً أن يرى المرء عجوزاً في هذه السن، وحيداً، لا يلاحظه أحد، لا سيما وأنه يبدو كمجنون أفلت من قبضة حُرَّاسه. وقد فاجأ نظري نحوله الشديد. هذا إنسان لا يكاد يكون له جسم. إنه عظم وجلد. وكانت عيناه كبيرتين، ولكن منطفئتين، تحفُّ بهما هالة زرقاء قاتمة، وكانتا تنظرانِ إلى الأمام دائماً، لا تنحرفان يمنةً ولا يسرة قط، ويقيني أنهما ما كانتا تريان شيئاً البتة. تراه ينظر إليك، ولكنه يسير نحوك كأن أمامه فضاء. لقد لاحظته عدة مرات، حين ظهر في مقهى موللر منذ مدة يسيرة، لم يعرف أحد من أين أتى، وكان يصحبه كلبه دائماً. وما ارتأى أحد من زبائن المقهى يوماً أن يتجه إليه بكلمة، ولا فكّر هو أن يتجه إلى أحد من روّاد المقهى يوماً بكلمة.

قلت في نفسي وقد تسمّرت في مكاني على الطرف الثاني من الشارع، وأخذت أتابعه بنظري متابعة لا حيلة لي في دفعها: «لماذا يجرّ نفسه إلى مقهى موللر، ما له ولهذا المقهى؟».

أخذ يغلي في نفسي اضطراب شديد، نتيجةً للمرض والتعب. ثم تابعت أسائل نفسي: «بماذا يفكر هذا الرجل؟ ماذا يدور في رأسه؟ ألا يزال قادراً على أن يفكر في أي أمرٍ من الأمور؟ إن وجهه ميت لا يعبّر عن شيء البتة. ثم أين عثر على هذا الكلب الكريه الذي لا

يفارقه لحظة، كأنه جزء منه لا ينفصل عنه، والذي يشبهه هذا الشبه العظيم؟».

لقد كان الكلب يبدو في الثمانين من العمر هو أيضاً. نعم، لا بد أنه كان في الثمانين... فهو يبدو أكبر سناً من أي كلب في العالم؛ حين رأيته أول مرة، تراءى لي على الفور أن هذا الكلب لا يمكن أن يكون كسائر الكلاب؛ إنه كلب خارق؛ ينطوي ولا شك على شيء عجيب سحري؛ لا بد أن يكون جنياً في هيئة كلب، ولا بد أن مصيره قد ارتبط بمصير صاحبه بروابط سرية مجهولة... حين تراه توافق فوراً على أن آخر مرة ذاق فيها الطعام ترجع إلى عشرين سنة خلت. إنه نحيل كهيكل عظمي، بل قل كصاحبه، وقد سقط كل شعره تقريباً، حتى عن ذَنَبه الذي كان يضعه دائماً بين ساقيه، والذي يبس كأنه عصى. وكانت أذناه الطويلتان تتدليان حزينتين. أقسم ما رأيت في حياتي كلباً أبغض إلى النفس من هذا الكلب، ولا أدعى إلى النفرة. وحين كان الاثنان يسيران في الشارع، العجوز من أمام والكلب من خلف، وهو يمس ببوزه حوافي معطف صاحبه كأنه مربوط به، كانت مشيتهما بل كان منظرهما كله كأنما يصرخ في كل خطوة قائلاً: «نحن عجوزان، نعم نحن عجوزان». ولا أنسى أنه تراءى لي أيضاً ذات يوم أن العجوز وصاحبه قد فرّا من صفحة من صفحات كتاب هوفمان الذي صوَّره جافارني*، وأنهما يطوفان في أرجاء العالم كإعلان متجول عن هذا الكتاب.

واجتزت الشارع، ودخلت إلى المقهى وراء العجوز. كان سلوك العجوز في المقهى غريباً جداً؛ حتى أن موللر الذي يقف في صدر المقهى وراء البسطة أخذت تظهر على وجهه، في الأيام الأخيرة، علائم التململ من هذا الزائر المزعج. لم يكن هذا الزبون يطلب

شيئاً قط. وكان في كل مرة يتجه قُدُماً نحو المدفأة، ويجلس على مقعد إلى جانبها. فإذا لم يجد ذلك المقعد خالياً ظل خلال لحظة من الوقت واقفاً في حيرة غبية أمام الشخص الذي احتل مكانه، ثم أسرع كالمشدوه إلى الطرف الآخر قرب النافذة. وهناك يختار أحد المقاعد، يجلس عليه ببطء، ويرفع قبّعته، ثم يلقي بنفسه إلى وراء مستنداً على ظهر الكرسي، ويظل ساكناً هكذا ثلاث ساعات أو أربعاً. لم يتناول جريدة في يوم من الأيام، ولا نطق بكلمة، ولا سمع أحد صوته. كان يكتفي بأن يظل جالساً يحملق أمامه... إلا أن نظرته مشدوهة خالية من الحياة بحيث يصح أن يراهن المرء على أنه لا يرى شيئاً مما يدور حوله، ولا يسمع شيئاً. أما الكلب فإنه بعد أن يدور مرتين أو ثلاثاً في مكانه، يقعو حزيناً بين قدمي سيده، ويدسّ بوزه بين حذاءيه، ويزفر زفرة عميقة، ثم يتمدد بكامل جسمه على الأرض، ويظل ساكناً هو الآخر خلال السهرة كلها، كما لو كان يموت أثناء ذلك. إن المرء ليستطيع أن يتصور أن هذين الكائنين كانا يقبعان ميتين في مكان ما، خلال النهار كله، حتى إذا غابت الشمس بُعِثا من الموت على حين غرة، لا لشيء إلا ليأتيا إلى مقهى موللر فيقوما هكذا بواجب سري يجهله جميع الناس. وكان العجوز بعد أن يظل جالساً ثلاث ساعات أو أربعاً، ينهض من مكانه، ويتناول قبعته ويمضي إلى بيته؛ كان الكلب ينهض هو الآخر، ويتبع صاحبه ذاهلاً، بخطى بطيئة كخطاه، جاعلاً ذَنَبَهُ بين قائمتيه، خافضاً رأسه. كان روّاد المقهى في المدة الأخيرة يتحاشون العجوز بشتى الصور، ويمتنعون حتى عن الجلوس قربه، كأنهم يشمئزون منه. أما هو فكأنه لا يلاحظ شيئاً من ذلك البتة.

كان معظم روّاد هذا المقهى من الألمان، يَفِدون إليه من أرجاء

شارع «الصعود»، وجميعهم من أصحاب الحوانيت: بقالين، خبازين، صباغين، صانعي قبعات، سراجين، إلخ.. وكان صاحب المقهى كثيراً ما ينضم إلى حلقاتهم، يجلس إلى موائدهم، ويشرب معهم. وكانت كلاب صاحب المقهى وأطفاله تأتي كذلك إلى الزبائن، فكان الزبائن يداعبون الكلاب والأطفال جميعاً. وكان جميع الزبائن يعرف بعضهم بعضاً، ويقدِّر بعضهم بعض. وبينما يستغرق الزبائن في قراءة الصحف الألمانية، كنت تسمع من وراء الباب، في منزل صاحب المقهى، أغنية «حبيبي أوغسطين»* تعزفها على البيانو، بنغمات رقيقة، الابنة الكبرى لصاحب المقهى، وهي ألمانية قصيرة شقراء الضفائر، ما أشبهها بفأرة بيضاء. كان جميع الناس يرتاحون إلى سماع أنغام الفالس. وكنت أذهب إلى مقهى موللر في الأيام الأولى من كل شهر أقرأ الصحف الروسية.

حين دخلت إلى المقهى رأيت العجوز قد جلس قريباً من النافذة، ورأيت كلباً ممدداً بين رجليه على عادته. فجلست في أحد أركان المقهى دون أن أقول شيئاً، وطرحت على نفسي هذا السؤال: «لماذا دخلت إلى هنا، مع أنني لست في حاجة إلى ذلك قط، ومع أنني مريض، أحوَجُ إلى الذهاب إلى البيت لأحتسي قليلاً من الشاي وأنام؟» وانتابني شعور بالانقباض. قلت في نفسي وأنا أتذكر ذلك الإحساس الغريب المرضي الذي شعرت به حين أبصرت الرجل في الشارع: «ما لي ولهذا الرجل؟ لماذا أهتم بأمره؟ بل ما لي ولهؤلاء الألمان المملين جميعاً؟ علام هذا القلق السخيف من تُرهات لا قيمة لها؟ هذا القلق الذي ألاحظه على نفسي في الأيام الأخيرة، والذي يمنعني من أن أحيا، وأن ألقي على الحياة نظرة واضحة، كما أشار إلى ذلك ناقد عميق نافذ البصيرة في نقده المرّ لقصتي الأخيرة؟»

على أنني رغم التردد والحزن، ظللت في مكاني لم أبرحه، وكان شعوري بالمرض يتفاقم أثناء ذلك، حتى بدا لي أنه ليس يحسن أن أترك هذا الجو المعتدل اللطيف في المقهى، فتناولت جريدة «فرانكفورت»، وما قرأت منها سطرين حتى أخذني الكرى. هؤلاء الألمان لا يزعجونني: إنهم يقرأون ويدخنون، ومن حين إلى حين، في كل نصف ساعة تقريباً، يفضي بعضهم إلى بعض، في صوت خفيض، بنبأ من أنباء فرانكفورت، أو يروي بعضهم لبعض قولاً أو نكتة للفكاهي الألماني الشهير «زافير»*، ثم يعودون ليستغرقوا في قراءتهم، وقد ازدادوا بقوميتهم زهواً.

غفوت ما يقرب من نصف ساعة، ثم استيقظت على رعشة قوية. كان لا بد أن أعود إلى بيتي حتماً. ولكن، في هذه اللحظة، وقع بصري على مشهد صامت في المقهى، منعني من الخروج مرة أخرى. سبق أن قلت إن العجوز متى جلس على كرسيه وجّه نظره إلى ناحية من النواحي لا يحوّله عنها أبداً خلال السهرة كلها. وقد اتفق غير مرة أن كنت أنا هدف النظرة العنيدة السخيفة التي لا ترى شيئاً ولا تميز شيئاً، فكنت أشعر بامتعاض شديد لا يُحتمل، وكنت أنتقل إلى مكان آخر بأقصى سرعة. أما في هذه اللحظة فإن نظرة العجوز قد وقعت على ضحية أخرى، هي رجل ألماني قصير بدين، مفرط العناية بهندامه، ذو ياقة منشاة قاسية، ووجه أحمر صارخ الحمرة. كان هذا الرجل زبوناً عابراً، هو تاجر في ريفا، اسمه آدم ايفانتش شولتس، كما عرفت ذلك فيما بعد، وكان صديقاً حميماً لصاحب المقهى، إلا أنه لم يكن يعرف العجوز ولا عدداً كبيراً من روّاد المقهى. كان يقرأ في جريدة دورفباربير (حلاق القرية)*، ويحتسي كأسه جرعات صغيرة، حين رفع رأسه فجأة رأى العجوز

يحدق فيه. فشُدِهَ من ذلك واضطرب. إن آدم ايفانتش رجل سريع التأذي شديد الاهتياج، شأنه في ذلك شأن جميع الألمان «النبلاء». لقد بدا له غريباً ومهيناً أن يتفرس فيه هذا العجوز بمثل هذا الإلحاح والبرود وقلّة الاكتراث. ولكنه كظم غيظة، وحوّل نظره عن هذا الزبون الفج، ودمدم في لحيته ببضع كلمات، ثم اختبأ وراء جريدته دون أن يقول شيئاً. غير أنه لم يستطع أن يظل على هذه الحال، فما هي إلا دقائق حتى ألقى من وراء جريدته نظرة مرتابة، فلاحظ تلك النظرة العنيدة عينها وذلك التحديق الأبله نفسه. وسكت آدم ايفانتش هذه المرة أيضاً، ولكن حين حصل هذا الأمر مرة ثانية انفجر غيظه ورأى من واجبه أن يدافع عن نبالته، وأن لا يدع أحداً يسيء أمام حفل من الناس إلى نبيل المدينة الجميلة، مدينة ريفا، التي لعله كان يُعدّ نفسه ممثّلاً، فإذا هو، في حركة من عيل صبره، يرمي بجريدته على المنضدة، بل يضرب المنضدة بعصا الجريدة في قوة، ويلتهب وجهه كبراً وخيلاء، وقد احمرّ من الخمرة والشجاعة جميعاً، ويأخذ يحدِّق بعينيه الصغيرتين المشتعلتين إلى العجوز المثير. من ينظر إلى هذين الشخصين، الألماني وخصمه، في تلك اللحظة يخيل إليه أن كلاً منهما يريد أن يهلك الآخر بما في نظرته من قوة مغناطيسية، وينتظر أن يضعف خصمه فيخفض بصره. وقد أثار صوت العصا ووضع إيفانتش العجيب، انتباه جميع الحاضرين. فإذا هم يرجئون ما هم فيه من مشاغل ليراقبوا الخصمين باهتمام خطير صامت. وأصبح المشهد مضحكاً، إلا أن مغناطيسية العينين الصغيرتين المتحديتين، عيني آدم إيفانتش القرمزي، لم تؤثرا أي تأثير، فكان العجوز يتابع تحديقه الجريء في السيد شولتس، دون أن ينتبه إلى شيء، وكان شولتس يستشيط غيظاً حتى ليكاد يجن، ولم يلاحظ العجوز حتماً أنه

أصبح هدف نظرات جميع الناس. لكأنه على القمر لا على الأرض. وأخيراً نفذ صبر آدم إيفانتش، فانفجر:

صرخ بالألمانية في صوت خشن حاد، وهيئة مهددة متوعدة:

- لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

غير أن خصمه ظل على صمته، كأنه لم يفهم السؤال ولا سمعه. فقرر آدم إيفانتش أن يتكلم بالروسية:

- أسألك لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

قال ذلك وقد زاد سخطه وحنقه، ثم أردف يقول فجأة:

- أنا معروف في البلاط، بينما أنت غير معروف.

ولم تطرف عين العجوز. وسَرَت بين الألمان ضجة استياء، حتى سمع موللر نفسه الضجة، فدخل إلى حجرة المقهى، فلما أطلعوه على الأمر، تراءى له أن العجوز أصم، فانحنى على أذنه، وقال له بأعلى صوته، وهو يتفرس في عيني هذا الزائر العجيب:

- إن السيد شولتس يطلب إليك أن لا تنظر إليه هكذا.

فإذا بالعجوز يلقي نظره على موللر، بلا شعور، ثم إذا بوجهه الذي ظلّ إلى ذلك الحين ساكناً هادئاً يُسفِرُ فجأة عن علائم خوف وأمارات اضطراب قلقة. وأخذ يتحرك، فانحنى نحو قبعته وهو يئن أنة خافتة، وأسرع فتناولها، وتناول عصاه، ثم نهض يتهيأ لترك القاعة وقد لاحت على فمه ابتسامة حزينة، هي الابتسامة الذليلة على فم الفقير البائس الذي يُطرد من مكان احتله خطأ. هذه السرعة الطيِّعة الذليلة التي ظهرت على العجوز البائس المرتعد أثارت الشفقة، وأثارت ذلك الشعور الذي يجمّد القلب في الصدر، فإذا بالحضور جميعاً وعلى رأسهم آدم إيفانتش ينظرون إلى الأمر نظرة أخرى. كان واضحاً أن العجوز لا يمكن أن يقصد الإساءة إلى أحد،

وإنه على العكس يشعر في كل لحظة بأن في وسع الآخرين أن يطردوه من كل مكان طرد المتسوّلين.

وكان موللر رجلاً طيباً عطوفاً، فقال له وهو يربت على كتفه مواسياً:

- لا، لا، اجلس. إن السيد شولتس يرجوك أن لا تحدق فيه هذا التحديق. إنه رجل معروف في البلاط.

غير أن العجوز البائس لم يزدد فهماً للأمر، بل اشتد اضطرابه، وانحنى على الأرض يتناول منديله، وهو منديل أزرق قاتم تملؤه الثقوب، كان قد سقط من قبعته. وأخذ ينادي كلبه المتمدد على الأرض بلا حراك، كأنه غارق في نوم عميق، داسّاً بوزه بين رجليه. نادى كلبه بصوت هرم يرتجف:

- آزور، آزور.

إلا أن آزور لم يتحرك.

فكرر العجوز نداءه بلهجة خائفة:

- آزور، آزور.

ثم هز الكلب بعصاه، ولكن الكلب ظل على وضعه لم يتحرك، وسقطت العصا من بين يدي العجوز فمال على الأرض، وجثا على ركبته، وأنهض بيديه رأس آزور. مسكين آزور! لقد مات: لفظ أنفاسه الأخيرة بلا ضوضاء ولا جلبة بين قدمَيّ سيده، لفظها عن شيخوخة أو عن جوع، من يدري؟ ونظر إليه العجوز لحظةً في ذهول، كأنه لم يفهم أن آزور قد مات. ثم انحنى في رفق نحو هذا الذي كان خادمه وصديقه، فوضع وجهه الشاحب على رأسه الساكن. وساد الصمت لحظة من الوقت. ورانت علينا عاطفة التأثر والحزن. وأخيراً، نهض البائس، وقد هرب الدم من جسمه، مرتعشاً كمن انتابته حمى.

فقال موللر الرؤوف يريد أن يواسي العجوز:

- يمكن أن نحنِّطه. نعم يمكن أن نحنِّطه، إن فيدور كارلوفيتش كروجر يجيد التحنيط.

ثم أضاف مؤكداً، وهو يتناول العصا من الأرض ويمدها إلى العجوز:

- إن فيدور كارلوفيتش كروجر فنان عظيم.

فقال السيد كروجر يؤيد هذا الكلام في تواضع وهو يتقدم إلى الأمام:

- نعم إنني أجيد التحنيط إجادةً عظيمة.

والسيد كروجر هذا، ألماني فاضل، نحيل، مترنح، أحمر الشعر، على أنفه المعقوف نظارتان.

وأضاف موللر يقول وقد أخذت نظرته تلتهب حماسة:

- إن فيدور كارلوفيتش كروجر موهوب في تحنيط جميع أنواع الحيوانات تحنيطاً ممتازاً.

فانبرى السيد كروجر يدعم قول صاحبه:

- نعم إنني موهوب في تحنيط جميع أنواع الحيوانات.

ثم أضاف يقول في وثبة من السخاء العظيم:

- وسأحنِّط لك كلبك مجاناً.

فصرخ إيفانوفتش شولتس بلهجة كاسرة:

-لا، سأدفع لك أنا أجر تحنيط الكلب.

قال ذلك وقد تضاعفت حمرة وجهه، والتهب هو الآخر كرماً وسماحة، وحسب نفسه سبب هذه الكوارث كلها.

كان واضحاً أن العجوز يصغي إلى هذا كله دون أن يفهم شيئاً، وكان جسمه ما يزال يختلج ويضطرب.

وهتف موللر حين رأى الزائر العجيب يريد أن يذهب:

- انتظر! اشرب قدحاً من الكونياك.

وقدَّم له قدح الكونياك فتناول العجوز القدح بلا شعور، إلا أن يديه كانتا تضطربان فما وصل القدح إلى شفتيه إلا وكان نصف الشراب قد سُفح، حتى إذا وضع القدح على شفتيه، عاد فرده إلى الطبق دون أن يذوق قطرة واحدة، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة لا تتفق وهذا الجو، وخرج من المقهى بخطى سريعة متقطعة تاركاً آزور. ظل جميع الناس واقفين مندهشين تنطلق من صدورهم صيحات الدهشة والأسف، ويقول بعضهم لبعض، بالألمانية، محملقاً:

- قصة عجيبة.

وهرعت في إثر العجوز.

على خطوات من المقهى، حين تلتفت إلى اليمين، تجد شارعاً ضيّقاً مظلماً يزدحم ببيوت ضخمة. ألهمني قلبي أن العجوز قد دار سائراً في هذا الشارع الضيق. وكان البيت الثاني من ناحية اليمين في هذا الشارع بسبيل البناء، تغطيه السقالات، وكان الحاجز الذي يحف بالبيت يعتدي على الرصيف ويبلغ وسط الشارع الضيق، وقد ألصق به رصيف خشبي للمارة. في ركن قاتم وراء هذا الحاجز وجدت العجوز. كان جالساً على حافة الرصيف وقد وضع رأسه في كفيه وأسند ذراعيه إلى ركبتيه، فجلست إلى جانبه.

قلت وأنا لا أكاد أدري كيف أبدأ:

- لا تحزن على آزور. تعال، سأوصلك إلى بيتك. هدئ روعك. سأمضي على الفور لأبحث عن عربة. أين تسكن؟.

ولم يجب العجوز، ولم أدرِ ماذا أعمل.

لم يكن في الشارع مارة. وفجأة أمسك العجوز بيدي، وقال بصوت أجش، لا يكاد يُفهَم:

- إنني أختنق، أختنق.

فهتفت وأنا أنهض، وأنهضه في مشقة وعناء:

- ستمضي الآن إلى بيتك، تحتسي قليلاً من الشاي وتنام. سأذهب بك إلى بيتك في عربة. هيا حالاً. وسأستدعي لك طبيباً، إنني أعرف طبيباً..

ولا أتذكر الآن ما الذي قلته أيضاً. وأراد أن ينهض، فتحامل على نفسه لحظة، لكنه ما لبث أن سقط، وعاد يدمدم بصوت أجش له صفير. فانعطفت لازداد اقتراباً منه، وأصغيت، فإذا هو يحشرج:

- فاسيلي أوستروف، الشارع السادس... الشارع السادس..

وصمت.

- أتسكن في فاسيلي أوستروف؟ ولكنك لم تكن ذاهباً إلى هناك. وإلا كان يجب أن تمضي إلى الشمال لا إلى اليمين. سأذهب بك إلى هناك حالاً.

ولم يتحرك العجوز، فتناولت يده، لكن اليد سقطت كأنها لا حياة فيها، فنظرت إلى وجهه ولمسته، فعرفت أنه مات. خيِّل إليَّ أن كل هذه الأمور قد وقعت لي في حلم.

وقد كلفتني هذه المغامرة كثيراً من المتاعب والمساعي. لقد اكتشفت منزل العجوز، وظهر أنه لا يقيم في فاسيلي أوستروف، وإنما يقطن على بعد خطوتين من المكان الذي مات فيه، في الطابق الخامس تحت السقف من منزل كلوجي، في مسكن مستقل يشتمل على مدخل صغير، وحجرة واسعة منخفض سقفها، ذات فجوات ثلاث بمثابة النوافذ. كان يعيش حياة بائسة. بيته لا يحتوي من

الأثاث إلا على منضدة، وكرسيين، «وديوان» عتيق عتيق، صلب كأنه من حجر، مهترىء يخرج القش من جميع جوانبه. وحتى هذا «الديوان» كان ملك صاحب البيت. إن الداخل إلى هذا البيت يدرك أنه ما اشتعلت فيه نار منذ أمد طويل، ويلاحظ كذلك أن ليس فيه شموع. وأنا الآن مقتنع بأن العجوز ما كان يذهب إلى مقهى موللر إلا نشداناً للضوء والدفء. وقد وجدنا على منضدته إبريقاً من الآجر فارغاً، وقطعة من الخبز يابسة، ولم نجد في بيته قرشاً واحداً، بل لم نجد لدفنه ملابس غير التي كان يلبسها فاضطر أحدهم أن يتبرع لجثمانه بقميص. كان واضحاً أنه لا يعيش في وحدة تامة. وإن ثمة شخصاً كان يأتي إليه، ولو من حين إلى حين، ووجدنا في درج المنضدة جواز سفر. فلقد كان المتوفي أجنبياً، إلا أنه من الرعايا الروس، وكان اسمه جرمي سميث، وكان ميكانيكياً، وله من العمر ثمان وسبعون سنة. ووجدنا على المنضدة كتابين: الأول موجز في الجغرافيا، والثاني إنجيل باللغة الروسية على هامشه إشارات كتبت بالقلم الرصاص. فاشتريت الكتابين. وسألنا سكان البيت وصاحب البيت عن الرجل فتبيّن أنهم لا يعرفون من أمره شيئاً. وكان البيت يضم عدداً كبيراً من السكان، كلهم من أصحاب المِهَن ومن النساء الألمانيات اللواتي يستخدمن بعض الخدم ويؤجِّرْنَ في دورهنّ غرفاً. ولم يستطع مدير البيت، وهو من طبقة النبلاء، أن يقول إلا القليل عن هذا المستأجر القديم. قال إنه كان يتقاضى أجر سكنه ستة روبلات في الشهر، وإن المتوفي قد مكث أربعة أشهر، إلا أنه في الشهرين الأخيرين لم يدفع قرشاً واحداً، فكان لا بد من إخراجه من المنزل. وسألناه هل كان يأتي لزيارته زائر، فلم يستطع أن يجيب عن هذا السؤال إجابة شافية. ذلك أن البيت كان كبيراً والناس يذهبون

ويجيئون بكثرة، ولا يمكن أن يتذكر المرء جميع من يجيئون ويذهبون. وكان البواب في إجازة ببلده. وهو يقوم بالخدمة في هذا البيت منذ أربع سنين أو خمس، لعله كان يمكن أن يوضح لنا بعض الأمور، إلا أنه قد سافر إلى بلده منذ خمسة عشر يوماً، وترك ابن أخيه ينوب عنه في عمله، وهو شاب صغير لمّا يعرف بعدُ نصف المستأجرين معرفة شخصية. ولا أدري على وجه الدقة كيف انتهى هذا التحقيق، إلا أننا أخيراً دفنا العجوز. وكان مما كلفت به نفسي من أعمال ومساعٍ أن ذهبت أثناء تلك الأيام إلى فاسيلي أوستروف، الشارع السادس، وما ضحكت من نفسي إلا حين وصلت إلى هناك! ما عسى أن أرى في الشارع السادس غير صفوف من بيوت؟ ولكنني تساءلت: تُرى لماذا ذكر العجوز، وهو يموت، الشارع السادس وفاسيلي أوستروف؟ أتراه كان يهذي؟.

وزرت مسكن سميث خالياً فأعجبي، فحجزته، ذلك أنه يتوفر فيه شيء هام، هو أن الغرفة واسعة، وإن كانت واطئةً جداً. كان يتراءى لي في الأيام الأولى أن رأسي سيصطدم بالسقف في كل لحظة. إلا أنني سرعان ما تعودت. والحق أنه ما كان لي أن أجد مسكناً أحسن من هذا المسكن بعشرة روبلات في الشهر. كان يسكرني طرباً أن أشعر أنني في بيتي. ولم يبق إلا أن اهتم بأمر الخدمة، فقد كان من المستحيل أن يعيش المرء في هذا المسكن دون أن يخدمه أحد قط، ووعدني البواب أن يمر بي مرة كل يوم، في المدة الأولى على الأقل. وقلت لنفسي: من يدري! فلعل أحداً يأتي مستفسراً عن العجوز. وانقضى على موته مع ذلك خمسة أيام دون أن يأتي أحد.

الفصل الثاني

في ذلك الوقت، أي منذ سنة تماماً، كنت أساهم في تحرير بعض الصحف، وأكتب مقالات قصيرة، وأؤمن إيماناً قاطعاً بأنني سأتوصل إلى كتابة شيء عظيم جميل. كنت قد شرعت في كتابة رواية كبيرة. . . المهم في الأمر أن نتيجة ذلك كله هو أنني الآن في المستشفى وأنني قد أموت عما قريب. وإذا كنت سأموت، فلا معنى لكتابة يوميات.

ولكن هذه السنة الأخيرة الشاقة من حياتي تعود إلى ذاكرتي رغم إرادتي بغير انقطاع. وأحب الآن أن أسجل كل شيء، ولولا أنني خلقت لنفسي هذا الشاغل، لمُتُّ ضجراً وسآمة فيما أعتقد. إن تلك المشاعر الماضية تقلقني إلى حد العذاب، العذاب الكاوي. فإذا جرى بها قلمي على الورق ترتبت وتطامنت وأصبحت أقل شبهاً بالهذيان منها الآن. وإن للكتابة نفسها قيمتها، فهي تهدئني وتقع برداً وسلاماً على قلبي، وتوقظ عاداتي القديمة، عادات الكاتب، وتوجِّه ذكرياتي وأحلامي نحو العمل، نحو الفعل. . . أجل، إنها لفكرة حسنة هذه الفكرة. . ثم إنني أستطيع أن أورث هذه الأوراق للخادم: إنه على الأقل سيلصقها حول النوافذ حين يضع أُطر الشتاء.

لقد بدأت قصتي من منتصفها، لا أدري لماذا! وإذا كنت أريد حقاً أن أكتب، فينبغي أن أبدأ من البداية. فهيا بنا إلى البداية. إن قصة حياتي التي سأرويها لن تكون طويلة على كل حال.

لم أولد هنا، إنما ولدت في مقاطعة ن . . . البعيدة. يجب أن نفترض أن أهلي كانوا أناساً محترمين، إلا أنهم تركوني يتيماً منذ الطفولة، فنشأت في بيت نيقولا سرجتش أخمنيف، وهو رجل من صغار الملاكين، كفلني بدافع الشفقة، ولم يكن له من الأولاد إلا ابنة وحيدة، هي ناتاشا، تصغرني بثلاث سنين. فنشأنا معاً كما ينشأ أخوان. آه يا طفولتي العزيزة! ما أبله أن أتحسر عليك وأنا في الخامسة والعشرين من العمر، وألاّ أحتفظ منك قُبَيل موتي إلا بذكرى تفيض حماسة وحرارة واحتراماً! كانت الشمس في تلك الأيام مشرقة متألقة، تختلف عن شمس بطرسبرغ، وكانت قلوبنا الصغيرة تخفق بكثير من الحمية والنشوة والفرح! وفي تلك الأيام كانت تحيط بنا، من حولنا،حقولٌ وغابات، لا كتلٌ من أحجار ميتة كالتي تحيط بنا اليوم. ما أجمل حديقة فاسيلوفسكوئي التي كان نيقولا سرجتش مديرها. في تلك الحديقة كنا نتنزه، أنا وناتاشا؛ وكانت هناك، بعد الحديقة، غابة كبيرة رطبة، تهنا فيها ذات يوم من أيام الطفولة. . . ما أجمل ذلك العهد! ما أروعه! كانت الحياة تكشف لنا عن نفسها لأول مرة، فتّانة ساحرة، وكانت روحنا تمتلئ نشوة بمعرفتها! لكأن وراء كل شجرة، وكل دغل، كائناً يحيا حياة مجهولة. كان هذا العالم الخيالي يختلط في ذهننا بالعالم الواقعي. حتى إذا تكاثف ضباب المساء في الوديان العميقة، وغلّف الأدغال بخصلات بيضاء كالسبائخ، والتصق بأغوار وادينا الكبير، كنا، أنا وناتاشا، نلقي على الوهدة نظرات مستطلعة خائفة، وقد أمسك كل منا بيد الآخر، نتوقع أن ينبجس منه أحد على حين غرة، ينادينا من قلب الضباب في قرارة الوادي؛ وكانت حكايات خادمنا العجوز تصبح في نظرنا هي الحقيقة عينها. في ذات مرة، بعد مدة طويلة من ذلك، تذكّرَت

ناتاشا أننا وجدنا في أحد الأيام كتاب «قراءة الطفل»، فهربنا فوراً إلى الحديقة من ناحية الغدير، وجلسنا على مقعدنا المفضّل الذي كان يقع تحت شجرة كثيفة من أشجار الجميز، وبدأنا هنالك نقرأ أسطورة «ألفونس ودالند»*. حتى الآن لا أستطيع أن أتذكَّر تلك الحكاية دون أن تقوم في نفسي ثورة داخلية غريبة. وحين ذكّرتُ ناتاشا، بعد ذلك بسنين، بالسطرين الأولين من هذه الحكاية: «ولد ألفونس، بطل القصة، في البرتغال، أما أبوه دون رامير... إلخ، كدت أنفجر باكياً. لا شك أن ذلك بدا مضحكاً إلى أبعد الحدود، ولعل هذا هو الذي جعل ناتاشا تبتسم لحماستي تلك ابتسامة غريبة جداً. على أن ناتاشا ما لبثت أن آبت إلى نفسها (أذكر ذلك) وأخذَتْ هي ذاتها تذكُرني بالماضي رجاة أن تواسيني، حتى إنها شعرت بالتأثر هي الأخرى. كانت ليلة رائعة! واليوم الذي أُرسلت فيه إلى مدرسة داخلية في مركز المقاطعة (يا إلهي ما أكثر ما بكيت في ذلك اليوم!) ثم فراقنا الأخير، يوم ودعت فاسيليفسكوئي الوداع الأخير! كنت قد أنهيت دراستي في المدرسة الداخلية، وكنت ذاهباً إلى بطرسبرغ لأدخل الجامعة. كنت يومئذ في السابعة عشرة من عمري، وكانت هي في الخامسة عشرة. تقول ناتاشا إنني كنت يومئذ من الخراقة بحيث لا يسع من يراني إلا أن يضحك. وفي لحظة الوداع، مضيت بها إلى ركن بعيد، لأفضي إليها بأمر خطير إلى أقصى حدود الخطورة. إلا أن لساني جمد على حين غرة وخرس، واعتراني ارتباك. إنها تتذكر أنني كنت في اضطراب عظيم. واضح أن الحديث لم يبدأ. كنت لا أدري ماذا أقول، ولعلها ما كان لها أن تفهم ما أقول لو قلت شيئاً. وأخذت أبكي بكاء مراً، وذهبت دون أن أنبس بكلمة. ولم نلتقِ مرة أخرى إلا

بعد ذلك بمدة طويلة، في بطرسبرغ. فمنذ سنتين جاء أخمنيف العجوز إلى بطرسبرغ لبعض أمره، وكنت قد سرت في طريق الأدب منذ قليل.

الفصل الثالث

كان نيقولا سرجتش أخمنيف سليل عائلة نبيلة، انهارت منذ زمن طويل، ولكنه ورث عن أبويه أرضاً واسعة، ومائة وخمسين نفساً. وفي الحادية والعشرين من عمره انتمى إلى سلاح الفرسان. كانت حياته تسير على أحسن حال، إلى أن اتفق في ذات مساء شقي، بعد ست سنين من الخدمة، أن فقد في القمار كل ما يملك. فلم يجد سبيلاً إلى النوم في ليلته كلها. وفي مساء اليوم التالي، ظهر مرة أخرى في قاعة اللعب، وقامر على حصانه، وهو آخر شيء بقي له، فربح، وما فتئ يراهن مرة بعد مرة حتى استرد، بعد نصف ساعة، إحدى قراه، وهي قرية صغيرة تدعى أخمنيفكا، عدد سكانها خمسون نسمة في الإحصاء الأخير؛ فلما ربح هذه القرية توقف عن اللعب، حتى إذا جاء الغد، طلب إحالته على المعاش، وهكذا فقد مائة نفس بلا رجعة. وبعد شهرين أُحيل على المعاش برتبة ملازم أول، فمضى إلى قريته الصغيرة، ولم يتحدث منذ ذلك اليوم خلال حياته كلها عن تلك الخسارة التي مُني بها في اللعب، وكان قادراً رغم ما عُرف عنه من طيب القلب أن يتشاجر مع كل من تسوّل له نفسه التحدث عن تلك الخسارة. وفي قريته انصرف إلى إدارة أملاكه في همة ونشاط، حتى إذا بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، تزوج فتاة نبيلة فقيرة، هي أنا آندريفنا خوميلوف التي لم تكن تملك أية بائنة، ولكنها تلقت تعليمها في مدرسة نبيلة بمركز المقاطعة، هي

مدرسة مون روفيش، وكانت تتباهى طوال حياتها بأنها تربَّت في تلك المدرسة، رغم أنه ما كان لأحد أن يعرف ماذا كانت تلك التربية على وجه الدقة. وبرهن نيقولا سرجتش على أنه مدير ممتاز، فكان المالكون من جيرانه يتعلمون منه كيف تُدار الأملاك. وكانت قد انقضت على ذلك سنون عديدة، حيث وصل من بطرسبرغ فجأة، على الأرض المجاورة لأرضه، إلى قرية فاسيليفسكوني التي بلغ عدد سكانها تسعمائة نسمة، صاحبُها الأمير بطرس ألكسندروفتش فاسيليفسكي، فأثار وصوله جلبة كبيرة في جميع الأراضي المجاورة. كان الأمير ما يزال شاباً وإن لم يكن في ريعان الشباب. وكان في رتبة عالية، على صِلات بالمقامات العُليا. كان رجلاً جميلاً، وغنياً، وكان بعد هذا كله أرمل، وهذا أمر يهم سيدات المنطقة وفتياتها كثيراً من غير شك. وتناقل الناس حديث الحفاوة البالغة التي استقبله بها حاكم المنطقة، وهو يمتّ إليه ببعض القربى، وقالوا «إنه من لطفه ورقته قد التفت يحيّي جميع سيدات القرية» إلخ إلخ. وصفوة القول إن الأمير كان من ألمع شخصيات المجتمع الراقي في بطرسبرغ، هذه الشخصيات التي قلما تظهر في الأقاليم، والتي إذا جاءت إلى الأقاليم، أحدث مجيئها جلبة وكثيراً من الاهتمام. على أن الأمير لم يكن في الواقع لطيفاً رقيق الحاشية، ولا سيما مع أولئك الذين ليس في حاجة إليهم، والذين يرى أنهم دونه ولو بقليل؛ حتى إنه لم يتنازل أن يتعرف إلى جيرانه من الملاّكين، وسرعان ما نشأ عن ذلك أن أصبح له أعداء كثيرون. وما أشد ما دهش الناس حين عنَّ له فجأة أن يزور نيقولا سرجتش. والواقع أن نيقولا سرجتش هو من أقرب جيرانه إليه. استقبل الأمير في منزل أخمنيف استقبالاً حافلاً، وافتتن به الزوجان كلاهما، وخاصةً أنا اندريفنا التي تحمست لزيارته كثيراً. وما هي إلا مدة يسيرة حتى أصبح الأمير من أصدقائهما

الحميمين، فكان يأتي لزيارتهما كل يوم، ويدعوهما إلى منزله، ويروي لهما النوادر والمَلَح، ويعزف على البيانو السيئ الذي يملكانه. ودهش الزوجان أشد الدهشة: كيف يمكن أن يقال عن رجل مثله رقيق الحاشية لطيف محبب أنه صلف متعجرف قاس أناني، كما كان يُجمع على ادعاء ذلك كل الجيران؟ يجب أن نعتقد على كل حال أن الأمير قد استلطف نيقولا سرجتش، هذا الرجل الغر البسيط المستقيم النزيه النبيل. ثم إن كل شئ قد اتضح بعد ذلك. لقد جاء الأمير إلى فاسيليفسكوني لكي يطرد وكيله، وهو رجل ألماني مستهتر، طماع، صاحب نظريات في الزراعة، وشعر أبيض جليل محترم، ونظارتين، وأنف أقنى، ولكنه رغم كل هذه المزايا كان يسرق بلا حياء ولا اعتدال، وكان فوق ذلك قد قتل بالجلد عدة فلاحين. وقد عرف إيفان كارلوفتش أخيراً على حقيقته، فأخذ يتعاظم ويتحدث عن الأمانة الألمانية، ومع ذلك لم يسع الأمير إلا أن يطرده، بل لقد طرده شر طردة. وكان الأمير في حاجة إلى وكيل، فوقع اختياره على نيقولا سرجتش، وهو مدير ممتاز، وأشرف الناس طراً، ما في ذلك شك. ولعل الأمير كان ينمنى كثيراً أن يتقدم نيقولا سرجتش من تلقاء نفسه، فيقترح أن يكون مديراً لأملاك الأمير. إلا أن هذا لم يقع. وفي ذات صباح تقدم الأمير بهذا العرض، في كثير من الاحترام والمودة. فرفض أخمنيف في أول الأمر، إلا أن ضخامة الراتب قد أغرت أنا آندريفنا، كما أن الأمير قد ضاعف لطفه ورقَّته وتودده، فبدد ذلك تردد أخمنيف، وبلغ الأميرُ هدفه. يجب أن نعتقد أن الأمير يعرف الناس خير معرفة. وقد أدرك حق الإدراك، خلال هذه الفترة القصيرة التي انعقدت فيها الصِّلات بينه وبين أسرة أخمنيف، أنه إزاء رجل ممتاز، وفهم أن عليه أن يستميل أخمنيف بمظاهر المودة والصداقة، وأن يشده إليه من القلب، وإلا فليس للمال وزن لدى

أخمنيف. ثم إن الأمير في حاجة إلى وكيل يستطيع أن يثق به ثقة عمياء وأن يطمئن إليه اطمئناناً مطلقاً إلى الأبد، حتى لا يحتاج إلى وضع قدميه مرة أخرى في فاسيلفسكوني، فعلى هذا انعقدت نيته. وقد بلغ من افتتان أخمنيف به أن هذا الأخير قد آمن حقاً بصداقته. إن نيقولا سرجتش واحد من أولئك الرجال الممتازين، الحالمين، السُذَّج، الذين تعج بهم بلادنا، روسيا، أولئك الرجال الطيبين الذين متى أحبوا أحداً (يعلم الله لماذا) محضوه الحب خالصاً ونذروا أنفسهم له، ومضوا في تعلقهم به أحياناً إلى حد يبعث على الضحك.

وانقضت على ذلك سنون. وازدهرت أملاك الأمير ازدهاراً عظيماً. وظلت علاقات المالك بوكيله صافية لم يعكرها أحد من الطرفين، ولكنها كانت تقتصر على مراسلات عادية جافة تتعلق بالأعمال. وكان الأمير لا يتدخل في أمور الإدارة التي تولاها نيقولا سرجتش، غير أنه كان يسدي إليه أحياناً ببعض النصائح، فكانت هذه النصائح تلقى من نيقولا سرجتش الدهشة والإعجاب، لما تشتمل عليه من روح عملية واقعية. كان واضحاً أن الأمير لا يكره النفقات الكثيرة فحسب، بل يعرف كذلك كيف يحصّل المال، ويعرف من أين تؤكل الكتف. وبعد خمس سنين أو ست من زيارته فاسيلفسكوني أرسل إلى نيقولا سرجتش وكالة تخوّله شراء أرض ممتازة من هذه المنطقة نفسها، يسكنها أربعمائة نفس. وطار لبّ نيقولا سرجتش فرحاً. لقد كان يتابع نجاح الأمير وتقدُّمه كأنه أخوه. إلا أن فرحته بلغت أقصاها حيث بعث إليه الأمير ذات يوم ببرهان جديد رائع على ثقته به، وإليكم كيف تم ذلك... غير أنني أرى أنه لا مندوحة لي من ذكر بعض خصائص حياة هذا الأمير فالكوفسكي، الذي هو إحدى الشخصيات الرئيسية في قصتي هذه:

الفصل الرابع

سبق أن قلت إنه أرمل. كان قد تزوج في ريعان شبابه، وكان زواجه قائماً على الطمع في المال. لم يكن قد ورث عن أبويه اللذين فقدا كل ثروتهما في موسكو، أي شيء تقريباً وكانت فاسيلفسكوني قد حُجزت. وكان الأمير مَديناً بأموال طائلة. وفي الثانية والعشرين من عمره، اضطر إلى العمل في إحدى الوزارات بموسكو، وكان لا يملك شروى نقير، فدخل الحياة أشبه بـ «شحاذ سليل أسرة عريقة»، إلا أنه تزوج بابنة أحد تجار الخمور، وهي ابنة متقدمة في السن، فأنقذه زواجه هذا مما كان فيه من فقر وعَوَز. وقد خدعه حموه في أمر البائنة، ومع ذلك استطاع بفضل مال امرأته أن يسترد أرض أسرته وأن يعيدها إلى حالها. وكانت ابنة البائع هذه التي كُتب عليه أن يتزوجها لا تكاد تعرف الكتابة، ولا تجيد أن تضم كلمتين إحديهما إلى الأخرى، وكانت دميمة، لا تملك إلا مزية هامة واحدة، هي أنها طيبة القلب مطواعة. وقد استغل الأمير هذه المزية أحسن استغلال. وترك الأمير زوجته بعد سنة من زواجهما، وكانت قد أنجبت له ولداً، تركها هي والولد لأبيه بموسكو، وسافر هو يعمل في مقاطعة س. . . . حيث استطاع بالمكائد والمؤامرات، وبفضل قريب له شهير ببطرسبرغ، أن يحصل على وظيفة مرموقة. كانت نفسه ظمأى إلى المنزلة العالية والتقدم والحياة الراقية، وإذ أدرك أنه لا يستطيع أن يعيش مع امرأته في بطرسبرغ أو في موسكو، قرر أن يبدأ في الأقاليم،

بانتظار أن يحقق ما هو أحسن من ذلك. ويقال إنه منذ السنة الأولى من حياته مع امرأته كاد يقتلها بغلاظته وفظاظته. وكانت هذه الشائعة تثير حنق نيقولا سرجتش دائماً، فكان يدافع عن الأمير في حرارة وحماسة، مؤكداً أن الأمير لا يمكن أن يقترف أمراً شائناً. وبعد سبع سنين أو ثمان ماتت الأميرة، فما لبث زوجها الذي ظل أرمل، أن مضى يقيم في بطرسبرغ. وحتى في بطرسبرغ كان ظهوره أمراً يثير الانتباه. إنه ما يزال شاباً، وسيم الطلعة، ثري، أوتي مزايا بارعة، وذكاء لا ينكر، وذوقاً، ومرحاً لا ينضب معينه، وكان يبدو أنه لا ينشد السعادة ولا الحماية، وإنما يطلب الدعة والاستقلال. وتحدث عنه جميع الناس فقالوا إن فيه ما يفتن ويسحر ويسيطر. وأُعجبت به النساء أيّما إعجاب، وانعقدت بينه وبين إحدى ربات الجمال في المجتمع الراقي علاقة افتضح أمرها، فزاده ذلك نجاحاً مع السيدات. وكان يبذل المال سخياً، رغم إحساسه القوي الفطري بالاقتصاد والذي يبلغ أحياناً حدّ البخل، وكان يخسر أموالاً طائلة على موائد القمار حيث يحب ذلك، دون أن يتحرك حاجباه بتقطيب يسير. إلا أنه لم يأت إلى بطرسبرغ نشداناً للهو، وإنما كان عليه أن يسير في طريقه، وأن يعزز مركزه. وتوصَّل الأمير إلى أهدافه. إن الكونت ناينسكي، قريبه الشهير، الذي ما كان ليلتفت إليه لو قد جاء إلى بطرسبرغ رجلاً عادياً، قد أذهله ما أحرز من نجاح في المجتمع، فرأى أن من الممكن ومن الضروري أن يلتفت إليه التفاتاً خاصاً، حتى لقد رضي أن يأخذ إلى بيته ابنه الصغير الذي يبلغ من العمر سبع سنين، ليتولى تربيته. وفي هذه الفترة إنما تقع رحلة الأمير إلى فاسيلفسكوني، وصداقته مع أسرة أخمنيف. وحصل أخيراً بواسطة الكونت على وظيفة هامة في إحدى كبريات سفاراتنا، فسافر إلى الخارج. وبعد ذلك أصبحت

الشائعات التي سارت بين الناس بصدده غامضة بعض الغموض: قيل فيما قيل إنه قد وقعت له في الخارج مغامرة مزعجة، ولكن لم يستطع أحد أن يعرف شيئاً عن حقيقة هذه المغامرة. ولم يعرف الناس إلا أنه استطاع أن يزيد أملاكه أربعمائة نفس، كما أشرت إلى ذلك فيما سبق. ثم لم يعد من الخارج إلا بعد عدة سنين، وكانت رتبته قد علت، وعيّن فوراً لوظيفة هامة في بطرسبرغ. وقال الناس في أخمنيفكا إنه على وشك الزواج بفتاة من أسرة عريقة غنية شهيرة. وقال نيقولا سرجتش وهو يفرك يديه سروراً: «هذا سيد عظيم». وكنت أيامئذ في الجامعة ببطرسبرغ، وأذكر أن أخمنيف كتب إليّ ذات يوم يطلب مني أن أفهم هل لهذه الشائعة ما يبررها، وكتب إلى الأمير يسأله أن يشملني بحمايته ورعايته، إلا أن الأمير لم يجبه على رسالته. ولم أستطع إلا أن أعلم أن ابن الأمير الذي تربى أولاً في منزل الكونت، ثم في المدرسة الثانوية، قد أتى إلى بطرسبرغ يُتِمّ دراسته في العلوم، وهو في الثامنة عشرة من عمر. فكتبت إلى أخمنيف في ذلك وذكرت له أن الأمير يحب ابنه كثيراً، ويحيطه بجميع ضروب العناية والتدليل، ويفكر في مستقبله منذ الآن. وكنت قد علمت ذلك كله من الطلاب رفاق الأمير الشاب. وفي تلك البرهة إنما تلقّى نيقولا سرجتش من الأمير، ذات صباح، رسالة صعقته من الدهشة.

إن الأمير الذي اقتصر حتى ذلك الحين في علاقاته بنيقولا سرجتش على مراسلات جافة تتعلق بالأعمال، كما أشرت إلى ذلك من قبل، يصف له الآن في رسالته تلك حياته العائلية تفصيلاً، بلهجة ودية لا تحفُّظ فيها ولا كلفة. إنه يشتكي من ابنه، ويقول إن سلوكه السيئ يحز في نفسه، وإنه وإن كان ينبغي أن نسرف في النظر إلى طيش طفل مثله نظرة الجد والأسى (كان واضحاً أنه يحاول أن

يبرئه)، قد قرر أن يرسله إلى الريف يقضي فترة من الوقت تحت إشراف أخمنيف. وقال الأمير في رسالته إنه «يعتمد اعتماداً كاملاً على صديقه الممتاز النبيل نيقولا سرجتش، وعلى أنا آندريفنا بوجه خاص»، فهو يرجوهما أن يقبلا ولده الطائش في بيتهما، وأن يرداه إلى الصواب في العزلة، وأن يصلحا من طبعه العابث خاصة، «وأن يبثا فيه المبادئ السليمة القاسية، هذه المبادئ التي لا غنى عنها في الحياة». وبديهي أن أخمنيف العجوز قد قبل هذه المهمة بفرح عظيم. وصل الأمير الشاب، فاستقبلته أسرة أخمنيف كأنه ابنها. وما هي إلا برهة قصيرة حتى أحبه نيقولا سرجتش حبا جامحاً شديداً كما كان يحب ابنته ناتاشا. وحتى بعد القطيعة النهائية التي وقعت بين الأمير وأسرة أخمنيف ظل العجوز يتحدث أحياناً في صفاء ومرح عن أليوشا، وهو الاسم الذي تعوّد أن ينادي به الأمير الصغير ألكسي بتروفتش. والحق أن الأمير الصغير كان فتى رائعاً: فتى جميلاً، ضعيفاً، عصبياً كامرأة، لكنه مرح بسيط، أوتي نفساً كريمة قادرة على الإحساس بأنبل المشاعر، وقلباً محباً مستقيماً يعرف الجميل. وقد أصبح معبود أسرة أخمنيف، وكان لا يزال طفلاً رغم أنه في الثامنة عشرة من عمره. كان من الصعب على المرء أن يتصور الأسباب التي حملت أباه على إبعاده هذا الإبعاد، رغم أنه يحبه كثيراً فيما يقولون. وقيل فيما قيل إن الفتى كان يعيش في بطرسبرغ حياة فراغ وطيش، وإنه كان لا يحب أن يعمل، وإنه كان لذلك يؤلم والده أشد الإيلام. ولم يتجه نيقولا سرجتش إلى أليوشا بسؤال، لأن الأمير بطرس ألكسندروفتش قد أخفى في رسالته السبب الذي حمله على إبعاد ولده. وتحدث الناس كذلك عن حماقة لا تُغتفر ارتكبها أليوشا، عن علاقة له بسيدة، وعن دعوة إلى مبارزة، وعن خسارة

فادحة في القمار. بل لقد ألمعوا إلى أموال اؤتمن عليها فأنفقها. وسَرَت كذلك شائعة تقول إن الأمير قرر إبعاد ابنه لا لخطيئة ارتكبها الابن، بل لأنانية في نفس الأب. وكان نيقولا سرجتش يدفع هذه الشائعات في قوة ويستاء منها أشد الاستياء، لا سيما وأنه لاحظ أن أليوشا يحب أباه حباً لا حدود له، ويتحدث عنه في كثير من الحماسة والحميا، وكان واضحاً أن الابن خاضع لتأثير أبيه خضوعاً تاماً. وكان أليوشا يشير في بعض الأحيان إلى كونتيسة غازلها هو وأبوه في آن واحد، وإلى أنه غلب أباه، فغضب أبوه غضباً شديداً: كان يروي هذه الحادثة دائماً في ضحكة مرحة ذات رنين. إلا أن نيقولا سرجتش سرعان ما كان يوقفه عن الكلام. وكان ألكسي يؤيد كذلك الشائعة القائلة إن أباه يحب أن يتزوج مرة أخرى.

انقضى على الابن في منفاه ما يقرب من سنة. وكان يبعث إلى أبيه، في مواعيد محددة، برسائل متزنة رصينة، وبلغ من تآلفه أخيراً مع فاسيلفسكوئي أنه حين أتى أبوه إلى الريف في الصيف (وكان قد أخبر بذلك أسرة أخمنيف مقدماً) طلب إليه هو نفسه أن يسمح له بالبقاء أطول مدة ممكنة في فاسيلفسكوئي، مؤكداً أن الحياة في الريف هي الحياة التي تناسبه. كانت قرارات أليوشا تصدر كلها عن فرط حساسيته العصبية، وعن قلبه الحر العنيف، وعن خفّته التي تبلغ أحياناً حداً غريباً، وعن استعداده النادر للتأثر بأي مؤثر، وعن فقدان الإرادة فقداناً تاماً. ونظر الأمير إلى طلبه هذا نظرة ارتياب.. ومهما يكن من أمر، فإن نيقولا سرجتش قد أنكر «صديقه» القديم: لقد تغير الأمير بطرس ألكسندروفتش تغيُّراً هائلاً. وأصبح يشاكس نيقولا سرجتش ويعانده معاندة شديدة على حين فجأة. ويوم راجع حساب الأرض أظهر شراهة كريهة وبخلاً شنيعاً وريبة لا تفهم. وقد أحزن

ذلك أخمنيف الممتاز إلى أعماق نفسه، وظل مدة طويلة يحاول أن لا يصدق عينيه. لقد جرى كل شيء في هذه المرة على خلاف ما جرى في المرة الأولى حيث زار الأمير فاسيلفسكوئي منذ أربع عشرة سنة. وقد حرص الأمير على أن يتعرف إلى جميع الجيران، من ذوي المكانة طبعاً. ولكنه أصبح لا يذهب لزيارة نيقولا سرجتش، وأصبح يعامله معاملة رئيس لمرؤوس، وفجأة وقع حادث لا يُفهم: وقعت قطيعة عنيفة بين الأمير ونيقولا سرجتش، ليس لها سبب ظاهر. وصار الناس يسمعون من كلا الطرفين شتائم في حق الآخر. واستاء أخمنيف استياءً شديداً فترك فاسيلفسكوئي، إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، إذ انتشرت في جميع ضواحي المنطقة، على حين غرة، وشايات مشينة. قالوا فيما قالوا إن نيقولا سرجتش، وقد عرف طبع الأمير الصغير، حاول أن يستغل جميع عيوبه لمصلحته، وإن ابنته ناتاشا (وكانت في السابعة عشرة من عمرها) عرفت كيف توقع الفتى في حبائل حبها، وإن الأب والأم يرعيان هذا الحب، وإن تظاهرا بأنهما لا يلاحظان شيئاً، وإن ناتاشا هذه الفتاة الماكرة التي «لا أخلاق لها»، قد سحرت لب الفتى تماماً، وبلغت من تأثيرها فيه أنه ظل سنة كاملة لا يكاد يرى أية فتاة من الفتيات النبيلات، صادقات النبالة، اللواتي تعج بهن البيوت الشريفة في الأراضي المجاورة. وقالوا إن العشيقين قد عزما أمرهما على الزواج، في قرية جريجوريفو الواقعة على بُعد خمسة عشر فرسخاً من فاسيليفسكوئي، على غير علم من أبوي ناتاشا، في الظاهر، وعلى علم منهما في الواقع، فهما يعرفان تفاصيل الأمر، وهما اللذان درَّبا ابنتهما وقادا خطواتها إلى ذلك. وصفوة القول: ما من كتاب برمته يمكن أن يستوعب كل ما لفقه الثرثارون من الجنسين في

المنطقة بهذا الصدد. ولكن الأعجب من هذا كله أن الأمير صدق هذا الكلام، حتى لقد جاء إلى فاسيلفسكوئي لهذا الغرض، على أثر وِشاية بعث بها صاحبها إلى الأمير في رسالة لم يذيّلها بتوقيعه. وبديهي أنه ما كان لأحد يعرف نيقولا سرجتش ولو قليلاً، أن يصدق كلمة واحدة من هذه الاتهامات التي أُلصقت به، ومع ذلك فإن جميع الناس قد اضطربوا، وثرثروا، وهزوا الرؤوس.. وأدانوه إدانة قاطعة. وكان أخمنيف أصلف من أن يبرئ ابنته أمام المرجفين. منع امرأته منعاً باتاً من الدخول مع الجيران في أية مناقشة أو توضيح. أما ناتاشا التي قالوا في حقها هذه الأقاويل كلها فإنها حتى بعد انقضاء سنة كاملة على ذلك لم تعرف من أمر هذه الأقاويل شيئاً، فقد كتموا عنها هذه القصة في كثير من الحذر، فكانت خلال ذلك كله مرحة بريئة، كطفلة في الثانية عشرة من العمر.

وفي أثناء ذلك كانت الخصومة تتفاقم. ولم يهدأ روع السُّعاة. حتى لقد ظهر واشون وشهود استطاعوا أن يقنعوا الأمير بأن هذه الإدارة الطويلة التي تولاها نيقولا سرجتش لم تكن مثال الأمانة والنزاهة. بل زعموا أكثر من ذلك: قالوا إن نيقولا سرجتش قد أخفى عن الأمير، منذ ثلاث سنين، أثناء بيع غابة صغيرة، اثني عشر ألف روبل فضة، وإنهم يستطيعون أن يثبتوا ذلك إثباتاً واضحاً شرعياً أمام القاضي، لا سيما وأن بيع هذه الغابة قد تم بدون وكالة من الأمير، وأن نيقولا قد تصرف في هذا الأمر على هواه، وأنه لم يقنع الأمير بضرورة البيع إلا بعد انقضاء مدة على البيع، وأنه دفع للأمير، ثمناً للغابة، مبلغاً يقلّ كثيراً عن المبلغ الذي تقاضاه فعلاً. وواضح أن هذا كله كان محض افتراء، وقد ثبت ذلك فيما بعد، غير أن الأمير قد صدّق كل شيء، ونعت نيقولا سرجتش على رؤوس

الأشهاد بأنه لص. ولم يحتمل أخمنيف هذه الشتيمة، فرّد عليها بمثلها. وتبع ذلك شجار فظيع. وأُقيمت الدعوى على الفور. وسرعان ما خسر نيقولا سرجتش الدعوى، إذ أعوزته بعض الوثائق ولأنه ما من أحد يحميه، وما من سابق خبرة له فيما ينبغي عمله في مثل هذه الشؤون. فحُجزت أملاكه. جن جنون العجوز. فترك كل شيء، وقرر أن يقيم في بطرسبرغ ليلاحق قضيته بنفسه تاركاً في الريف رجلاً مجرباً يثق به. ولعل الأمير أدرك أنه قد أساء إلى الرجل في غير حق. غير أن الإهانة التي وجهها كل من الطرفين إلى الآخر كانت فادحة جداً، حتى لم يبق محل لصلح. وقد بذل الأمير الحانق قصاراه ليحوِّل الدعوى في الوجهة التي تتفق ومصلحته، أي حاول جهده أن يغتصب من وكيله السابق آخر لقمة يسد بها رمقه.

الفصل الخامس

إذاً لقد أتت أسرة أخمنيف إلى بطرسبرغ تستقر فيها. ولن أصف لقائي مع ناتاشا بعد طول البعاد. حسبي أن أذكر أنها خلال هذه السنين الأربع لم تبرح مخيّلتي قط. صحيح أنني لا أتذكر على وجه الدقة العاطفة التي كانت تقوم في نفسي حين كنت أفكر فيها، غير أنني سرعان ما أدركت حين لقيتها أن القدر قد وعدني بها، وفي أول الأمر، في الأيام التي أعقبت وصولها، تراءى لي أنها لم تكبر خلال هذه السنين، لكأنها ما تغيرت أبداً، لكأنها ما تزال تلك الطفلة الصغيرة التي عرفتها. إلا أنني بعد ذلك كنت أكتشف لديها في كل يوم صفة جديدة أجهلها، صفة جديدة كأنها أُخفيَت عني عن قصد، وما كان أسعدني بهذا الاكتشاف! وكان العجوز في المدة الأولى من إقامته ببطرسبرغ عصبياً مضطرباً عنيفاً. كانت قضيته تسير سيراً سيئاً: فكان يتألم ويحنق ويخرج عن طوره ولا يني ينظر في أوراقه وملفاته، لا يتسع وقته للالتفات إلينا. أما أنا آندريفنا فكانت كمن طاش صوابه، وكانت في أول الأمر لا همّ لها إلا التفكير. وكانت بطرسبرغ تخيفها. فكانت تتأوه وترتجف وتبكي حسرة على حياتها السابقة، وعلى أخمنيفكا، وعلى أن ناتاشا في سن الزواج وليس هناك من يفكر فيها، وكانت تسترسل في الإفضاء إليّ لعدم وجود سامع آخر أخلق مني بهذه المسارات الحميمة.

وفي تلك اللحظة على وجه الدقة، أي بعد وصولهم بمدة قليلة،

كنت قد فرغت من كتابة روايتي الأولى التي استهللت بها حياتي الأدبية. وكنت في حيرة من أمري لا أدري كيف أصرّف الرواية. ولم أكن قد تحدثت عنها إلى أسرة أخمنيف. وكانوا قد أنّبوني على أنني أعيش بغير عمل، لا ألتحق بخدمة ولا أحاول أن أجد وظيفة. وكان العجوز يوجه إليّ نقداً مراً لاذعاً؛ يفعل ذلك طبعاً بدافع ما يحمل لي في نفسه من حب الأب لابنه. وكنت من جهتي أستحي أن أحدثهم عن العمل الذي أقوم به. ثم كيف أبلغهم وجهاً لوجه أنني لا أنوي أن أجد وظيفة بل أحب أن أكتب روايات؟ لهذا كذبت عليهم حتى ذلك الحين، فزعمت أنني لم أجد عملاً، وإنني بصدد البحث عن عمل. ولم يكن وقت نيقولا سرجتش يتسع للتحقيق في صدق هذه المزاعم. وأذكر أن ناتاشا التي كانت تستمع إلى أحاديثنا جرّتني ذات يوم إلى ركن منعزل، وقد لاح في وجهها معنى غريب. وتضرعت إليّ باكية أن أفكر في مستقبلي، ثم طرحت عليّ بعض الأسئلة، محاولةً أن تعرف ماذا أعمل على وجه الدقة، ولكنني لم أفض إليها بشيء، فحملتني على أن أعاهدها أن لا أضيّع نفسي في حياة الفراغ والكسل. صحيح أنه ما كان لي أن أعترف لها بمشاغلي. ولكنني أذكر أنني كنت أوثر على جميع ما قاله النُقَّاد في روايتي من تقريظ عظيم، وعلى جميع المديح الذي سمعته بعد ذلك، كنت أوثر على هذا كله كلمة واحدة من التشجيع تخرج من بين شفتي ناتاشا. وظهرت روايتي أخيراً. وكانت قد أحدثت ضجة في عالم الأدب قبل أن تظهر بمدة طويلة. ما أشد فرحة ب. . . حين قرأها مخطوطة. . لقد فرح كطفل. أما أنا فإن سعادتي لم تشرق في تلك الدقائق الأولى المسكرة التي ترافق النجاح، بل حين لم أكن قد قرأت الرواية لأحد ولا عرضتها على أحد: في تلك

الليالي الطويلة التي ملأتها حميا الأمل، وطيوف الأحلام، والانكفاء الجامح على العمل، في تلك الساعات التي عشت فيها مع خيالي، مع الشخوص التي خلقتها كائنات حقيقية لا وهمية كأنها من أقربائي. كنت أحب هذه الشخوص، أفرح معها وأحزن معها، وكثيراً ما أذرف الدموع صادقة سخية من الحزن على بطلي الشاحب. لا أستطيع أن أصف الفرح الذي شاع في وجه العجوزين لما أحرزت من نجاح. لقد دهشا في أول الأمر دهشة عظيمة، وبدا لهما ذلك غريباً إلى أبعد حدود الغرابة. أما آنا آندريفنا فإنها لم تستطع أن تصدق أن الكاتب الجديد الذي يحتفل به الجميع ويقرظه الجميع هو فانيا عينه، فانيا الذي.. إلخ إلخ. فكانت تهز رأسها استغراباً.

على أن العجوز ظل مدة طويلة في غير اطمئنان، بل لقد أصبح في رعب، وأخذ يأسف على تضييعي حياة الوظيفة، ويتحدث عن الحياة المضطربة المستهترة التي يحياها الكُتّاب بوجه عام. إلا أن استمرار حديث الناس عنها، وما كانت تنشره الصحف من ملاحظات، وكلمات الإطراء التي سمعها من شخصيات يؤمن بصدقها وإخلاصها، كل ذلك حمله على تغيير رأيه. حتى إذا رأى أي مبلغ من المال يمكن أن يربحه المرء من عمل أدبي، زال تردده نهائياً، وانتقل من الشك إلى إيمان مطلق حار، وسُرَّ لسعادتي كما يُسَرُّ طفل، وسرعان ما استسلم لآمال عريضة مجنونة، وأحلام ساطعة باهرة فيما يتعلق بمستقبلي، فكان يتصور لي مشاريع جديدة في كل يوم، وما كان أكثر مشاريعه، وأصبح ينظر إليّ بشيء من الاعتبار لم أعهده فيه من قبل. على أنني أذكر أن شكوكه كانت تعاوده من حين إلى حين، وتصيب القلب من أحلامه وآماله، وتشيع فيه القلق من جديد.

«كاتب، شاعر... هذا شيء مضحك. متى استطاع شاعر أن

يشق طريقه، وأن يحتل منزلة عالية؟ كل هؤلاء الناس غاوون مغروورون لا يصلحون لشيء». وقد لاحظت أن هذه الشكوك والأسئلة الشائكة كانت تتوارد إلى ذهنه في الغالب الأعم عند هبوط الغسق. كان صاحبنا العجوز يصبح عند المساء أكثر عصبية واهتياجاً وارتياباً. وكنا، أنا وناتاشا، نعرف ذلك، وننتظره ضاحكين منه. وأذكر أنني كنت أرفه عن العجوز بأن أقص عليه نوادر عن سوماروكوف الذي عيّن جنرالاً، وعن درجافين الذي أهديت إليه علبة ملأى بالذهب، وعن الزيارة التي قامت بها الإمبراطورة للومونوسوف*.. وكنت أحدثه عن بوشكين وجوجول.

فكان، ولعله يسمع هذه الأقاصيص لأول مرة، يرد عليّ بقوله:

- أعرف هذا أيها الأخ، أعرف كل هذا. اسمع يا فانيا! يسرّني على كل حال أن طعامك ليس من شعر. الأشعار، يا عزيزي، خزعبلات. لا تناقشني، ولا تعاندني، صدّق هذا العجوز الذي يتحدث إليك. أنا لا أريد لك إلا الخير. الشعر خزعبلات وترهات باطلة وعمل لا يجدي! حسن أن يَنْظُمَ الشعر طلاب المدارس الثانوية، أما أنتم الشباب فالشعر يقودكم إلى مستشفى المجانين. لنسلّم بأن بوشكين كان رجلاً عظيماً، ثم ماذا؟ أشعار، لا أكثر!... أشياء زائلة.. على أنني لم اقرأ له إلا قليلاً.. أما النثر فشيء آخر! في النثر يستطيع الكاتب أن يثقّف الناس. أن يتحدث عن حب الوطن، أو عن النضال بوجه عام.. نعم! أنا لا أحسن التعبير عن أفكاري يا عزيزي، ولكنك تفهم ما أريد أن أقوله... وما كنت لأقوله لولا أنني أحبك.

وفيما هو يقول هذا الكلام أتيت بكتابي وجلسنا جميعاً نتناول الشاي حول المائدة المستديرة. فأردف العجوز يقول بلهجة من يشعر أنه يرعاني ويحميني:

- نعم، نعم، اقرأ لنا هذا، اقرأ لنا ما كتبت هاهنا. إن الناس يتحدثون عنك كثيراً. سنرى، سنرى.

فتحت الكتاب وتهيأت للقراءة. وكانت روايتي قد خرجت من المطبعة في ذلك المساء نفسه، فما إن حصلت على نسخة منها حتى هرعت إلى منزل أسرة أخمنيف لأقرأها.

كان يؤسفني جداً أنني لم أستطع أن أقرأها لهم قبل ذلك في المخطوطة التي كانت بين يدي الناشر! لقد بكت ناتاشا ألماً، وأنّبتني وقرّعتني على أن غيرها يطّلع على آثاري قبل أن تطّلع عليها هي. ولكن ها نحن جالسون حول المنضدة المستديرة. واصطنع العجوز هيئة جادة ناقدة. كان يريد أن يصدر حكمه في قسوة، وأن «يكوّن رأيه بنفسه». والعجوزة كذلك اصطنعت هيئة وقورة جليلة، حتى لتوشك أن ترتدي قبّعتها الجديدة احتفالاً بهذا الاجتماع الذي تحلّقنا فيه للقراءة. كانت قد لاحظت منذ زمن طويل أنني أنظر إلى ابنتها الفاتنة ناتاشا نظرة حب عميق، وأن فكري يتّقد حين أراها، وأن نظري يضطرب حين أتوجه إليها بكلام، وأن ناتاشا، هي الأخرى، أصبحت تلقي عليّ نظرات أحدّ من نظراتها السابقة. نعم! جاءت أخيراً هذه اللحظة، جاءت في برهة نجاح وآمال واسعة، وفي قلب السعادة المطلقة. جاء كل شيء في آن واحد دفعة واحدة. وكانت العجوز قد لاحظت أيضاً أن زوجها أخذ يطريني ويثني عليّ كثيراً، وينظر إلينا أنا وناتاشا نظرة خاصة. وفجأة يخامر العجوز خوف: رغم كل شيء لست كونتاً ولا أميراً، حتى ولا موظفاً كبيراً في كلية الحقوق؛ لستُ إلا شاباً ذكياً جميلاً! إن آنا أندريفنا لا ترغب نصف رغبة. كانت تقول لنفسها عني: «إن الناس يغبطونه، لا أدري لماذا! كاتب، شاعر.. وماذا أن يكون امرؤ كاتباً؟».

الفصل السادس

قرأت لهم روايتي في جلسة واحدة. بدأنا بعد احتساء الشاي وسهرنا حتى الساعة الثانية من الصباح. في أول الأمر كان العجوز يقطب ما بين حاجبيه. كان ينتظر أن يسمع شيئاً قد لا يفهمه ولكنه رفيع، فإذا هو، بدلاً من ذلك، لا يسمع إلا وقائع يومية مبتذلة معروفة هي ما يقع حولنا في كل يوم. كان ينبغي أن يكون البطل شخصاً عظيماً، أو شخصاً ظريفاً، أو رجلاً من رجال التاريخ، على طراز روسلافيلف أو يوري ميلوسلافسكي*. وها هو ذا يرى أن البطل في قصتي موظف صغير هيِّن الشأن بل غبي بعض الغباء، لم يبقَ على سترته أزرار. وأنا أروي قصته بأسلوب بسيط، بسيط جداً، لا يزيد ولا ينقص عن اللغة التي يتخاطب بها الناس كل يوم.. شيء غريب!.. وكانت العجوز تلقي على نيقولا سرجتش نظرات حائرة مستفهمة، بل كانت تصعِّر خدها كأن شيئاً قد أزعجها. كنت أقرأ في وجهها: «هل يستحق هذا الكلام أن يُطبع في كتاب، وهل تستحق هذه السخافات أن تُسْمَع وأن يُدْفع ثمنها مال؟» أما ناتاشا فكانت تصغي إصغاءً شديداً، وتتلقف الكلام في شراهة واضحة، ولا تحوِّل بصرها عني أبداً، وتنظر إلى شفتي كيف تلفظان كل كلمة من الكلمات بل كانت شفتاها الجميلتان تتحركان مع شفتيَّ. والآن هل تصدقون؟ إنني قبل أن أنهي قراءة نصف الكتاب كانت الدموع تنهمر من أعين جميع مستمعيَّ. كانت آنا أندريفنا تبكي بكاءً صادقاً، وتشارك بَطلي

آلامه، وتتمنى مخلصة لو تستطيع أن تعينه في شقائه (فهمت ذلك من تأوهاتها وحركاتها). أما العجوز فقد ترك جميع أحلام العظمة والرفعة وقال: «يرى المرء في البداية أن القصة ليست ذات بال. . إلا أنها تأسر اللب. إنها تجعل المرء يفهم ما يدور حوله، وتذكره به، فيشعر أن كل إنسان، مهما يكن خامل الذهن، فهو إنسان، وهو أخ». وكانت ناتاشا تصغي إلى القصة، فتنهمر الدموع من عينيها، وتشد على يديّ من تحت المنضدة خِلْسَةً، بقوة؛ حتى إذا انتهت القصة، ونهضت من مكانها، كانت خداها ملتهبتين كالجمر احمراراً، وكانت تترقرق في مآقيها دموع صغيرة. فجأة، أمسكت بيدي فقبّلتها، وتركت الغرفة راكضة. فتبادل أبوها وأمها نظرة صامتة. قال العجوز وقد دهشته حركة ابنته:

- هم. . إنها شديدة الحماسة! لا بأس مع ذلك، لا بأس، هذه حماسة كريمة نبيلة.

ثم دمدم وهو يسحب نظرته نحو امرأته:

- إنها ابنة طيبة. .

كان يريد أن يبرئ ابنته، ويريد في الوقت نفسه أن يبرئني.

وما لبثت ناتاشا أن عادت مرحة وسعيدة، فلما مرت بجانبي، قرصتني دون أن تقول كلمة واحدة. كان العجوز يهم أن يبدأ إعلان رأيه «الجدّي» في قصتي، إلا أنه لفرحه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فاسترسل في حماسة يقول:

- قصتك جميلة يا عزيزي فانيا، قصتك جميلة يا صديقي. لقد سررت بها، سررت بها جداً. . لم أكن أتوقع هذا. صحيح أنها لا تتناول موضوعاً عظيماً، لا تتناول موضوعاً رفيعاً. . هذا واضح. ففي غيرها من القصص يتحدثون عن «تحرير موسكو»*، ويصفون

موسكو نفسها، فمتى قرأ المرء السطر الأول من تلك القصص شعر أنه يحلّق في الفضاءات العُلى، كالنسر إن صح التعبير. ولكن الأمر في قصتك، يا عزيزي، أبسط من ذلك، وأقرب إلى الأفهام. ولهذا السبب نفسه إنما تعجبني قصتك. إن المرء يفهمها في يسر! إنها أقرب إلى النفس إن صح التعبير.. كأن كل ما تتحدث عنه قد وقع لي أنا نفسي! ما قيمة تلك الموضوعات النبيلة التي لا نفهم منها شيئاً؟ غير أنني لو كنت في مكانك، لعنيت بالأسلوب أكثر من ذلك.. أنت ترى أنني أطري قصتك، ولكن مهما يكن من أمر فإن قصتك تعوزها الرفعة... على كل حال، لا بأس، الآن فات الأوان... فقد طُبع الكتاب وانتهى الأمر.. ولكن ربما في الطبعة الثانية؟ سيُطبع الكتاب طبعة ثانية، فيما أظن؟ وسيدرّ عليك مالاً جديداً، هم؟

قالت آنا أندريفنا:

هل يُعقل أن تكون قد ربحت كل هذا المال؟ إن المرء لينظر إليك فما يكاد يصدق! آه يا إلهي، في أي وجه ننفق نحن مالنا الآن!..

وتابع العجوز كلامه، وقد ازداد حماسة:

- صحيح، يا فانيا، أن عملك هذا ليس وظيفة، إلا أنه مهنة على كل حال. سيقرأ قصتك كثير من كبار الشخصيات. ثم لقد ذكرت لي أن جوجول كان يتقاضى راتباً من الحكومة في كل سنة، وأنهم أوفدوه إلى الخارج. ليتهم يفعلون هذا لك أيضاً؟ هذا ممكن، أليس كذلك؟ ولكن لعل الأوان لم يحن بعد! يجب أن تكتب أشياء أخرى أيضاً، أليس كذلك؟ إذن اكتب يا عزيزي، اكتب بلا إبطاء! لا تتهاون في الكتابة! يجب ألا ينام المرء عن العمل!

قال ذلك قولة من لا يخامره ريب، في نُبل لم يسعني معه أن أوقفه عن الاسترسال في الأحلام، وأن أبرد خياله. واستأنف يقول:

- ثم إن من الممكن مثلاً أن يهدوا إليك علبة ملأى بالذهب.. لِمَ لا؟ ليس للهبات حدود ولا قواعد. قد يحبون أن يشجعوك في عملك.

ثم أضاف بصوت منخفض ولهجة رصينة وهو يغمز بعينه اليسرى:

- ومن يدري، فقد تُستقبل في البلاط! أم لا؟ لعل الوقت لم يحن بعد؟

وقالت آنا أندريفنا فيما يشبه التحسّر:

- في البلاط!

فأجبت وأنا أضحك ملء قلبي:

- لم يبق إلا أن تجعلوني جنرالاً.

وأخذ العجوز نفسه يضحك. لقد كان راضياً كل الرضى، مرتاحاً كل الارتياح!

وكانت ناتاشا تهيئ لنا العشاء أثناء ذلك، فهتفت تقول:

- هلا تفضل صاحب المعالي بالنهوض إلى المائدة!

وانفجرت ضاحكةً، وركضت نحو أبيها، فعانقته بذراعيها الملتهبتين عناقاً قوياً، وهي تقول:

- أبت، أبت العزيز.

وتأثر العجوز، فربّت على خد ناتاشا الذي أصبح بلون الأرجوان، كأنه كان ينتظر أن يفعل ذلك عند أول فرصة تسنح، وقال:

- هيا، هيا. أنت تعلم أنني أقول هذا بلا تفكير. سيّان أن تكون جنرالاً وأن لا تكون! هيا بنا الآن إلى العشاء. اسمع يا فانيا: لقد

قلت ذلك لأنني أحبك. ولئن لم تكن جنرالاً (وهيهات!) لأنت على كل حال شخصية شهيرة، أنت مؤلف!

فاعترضت ناتاشا تقول:

- يقولون الآن «كاتب»، يا أبي.

- ولا يقولون «مؤلف»؟ لم أكن أعرف ذلك. إذن فلنقل «كاتب». هذا ما أردت أن أقوله على كل حال. طبعاً لن يسموك رئيس البلاط لأنك كتبت قصة، وما ينبغي أن نفكر في هذا، ولكن في وسعك أن تشق طريقك: أن تصبح «ملحَقاً» في إحدى السفارات مثلاً. يمكن أن تُرْسَل إلى الخارج، إلى إيطاليا، لتسترد صحتك، أو إلى مكان آخر، لتنهي دراستك. هذا ممكن، من يدري! وقد يقدمون لك مساعدات مالية. طبعاً ينبغي لك، من جهتك، أن تسلك سلوكاً نبيلاً، أن يكون ذلك مكافأة لك على عملك، يجب أن تنال المال والألقاب جزاء عمل حقيقي تقوم به، لا كيفما اتفق على سبيل الحماية والرعاية!

فأضافت آنا أندريفنا وهي تضحك:

- ولكن عليك ألا تكون عندئذ صَلِفاً متكبِّراً!

وقالت ناتاشا:

- ويجب، خاصة، يا أبت، أن يُمْنَحَ وساماً، وإلا فما قيمة هذا كله؟

قالت ذلك وقرصتني في ذراعي مرة أخرى.

ونظر العجوز إلى ناتاشا مزهواً، وكان خداها ملتهبين، وكانت عيناها الصغيرتان تلمعان في مرح كنجمتين، وقال:

- إنها تسخر مني دائماً.. ربما أكون قد أسرفت في الخيال كثيراً يا أولادي. ولكن هذا شأني دائماً. كذلك كنت في حياتي كلها...

ولكن، يا فانيا حين أنظر إليك أرى أنك بسيط جداً. .

- آوه، أبت، كيف تريد له أن يكون!

- لا. ليس هذا ما أردت أن أقوله. مع ذلك، يا فانيا. . إن وجهك ليس وجه شاعر. يقولون عن الشعراء إن وجوههم شاحبة، وشعرهم طويل، وإن في عيونهم شيئاً. . مثال ذلك جوته وغيره. لقد قرأت هذا في كتاب «آبادونا»*. . ماذا؟ هل قلت سخافة جديدة؟ ما هذه البنت التي تقهقه ضاحكة عليّ؟ أنا، يا أصدقائي، لست مثقفاً، ولكنني أستطيع أن أحس وأن أشعر. على كل حال دعونا من الوجه، ليس هذا بالمصيبة الكبرى. أنا أرى وجهك جميلاً، إنه يعجبني كثيراً. ليس هذا ما أردت أن أقوله. . ولكن يجب أن تكون شريفاً، يا فانيا، يجب أن تكون رجلاً شريفاً. هذا هو الشيء الأساسي. يجب أن تعيش حياة شريفة، وألاّ تسرف في حُسن الظن بنفسك. إن الطريق واسعة أمامك. قم بعملك في إخلاص. ذلك ما أردت أن أقوله، ذلك على وجه الدقة ما أردت أن أقوله.

يا له من عهد جميل! كنت أقضي في منزلهم جميع ساعات فراغي، جميع سهراتي. وكنت أحمل إلى العجوز أنباء العالم الأدبي، وأنباء الأدباء الذين أخذ على حين غرة - يعلم الله لماذا - يُعنى بأمرهم في شغف قوي، حتى لقد أخذ يقرأ مقالات النقد التي يكتبها ب*. . كنت قد حدثته عنه كثيراً، وكان هو لا يكاد يفهمه، إلا أنه كان يطريه في حماسة ويشكو شكوى مُرَّة من خصومه الذين يكتبون في «جريدة الشمال».

وكانت العجوز تراقبنا، أنا وناتاشا، في يقظة تامة. إلا أنها لم تفاجئنا يوماً! كنا قد تبادلنا أنا وناتاشا كلمة: ألقيت عليها سؤالاً،

فخفضت رأسها ودمدمت بصوت خافت تقول: نعم. ولكن العجوزين قد عرفا الأمر كذلك. لقد حزرا، وفكّرا، وظلت آنا أندريفنا مدة طويلة تهز رأسها. كان ذلك يبدو لها غريباً. لم تكن تثق بي. فكانت تقول:

- لقد وُفّقتَ إلى الآن يا إيفان بتروفتش، وطار صيتك بين الناس، ولكن هبْكَ لم تُوفَّق في المستقبل، فما عسى أن يقع حينذاك؟ أليس من الأفضل أن تجد لك وظيفة؟

وعزم العجوز أمره، بعد أن فكر مدة طويلة، فقال ذات يوم:

- اسمع ما سأقوله لك يا فانيا: لقد رأيت، ولاحظت .. وأعترف لك أنه يسرني أن تكونا أنت وناتاشا... فلا بأس في هذا الأمر أبداً. ولكنكما يا فانيا ما زلتما كلاكما صغيرين، وأرى أن آنا أندريفنا على حق. يحسن أن نتريث. إنك تنعم بموهبة ممتازة.. ولكن الموهبة شيء والعبقرية شيء آخر.. إنك لا تنعم بعبقرية كما زعموا ذلك من قبل، وإنما تنعم بموهبة لا أكثر (بالأمس كنت أقرأ النقد الذي كتبوه عنك في «جريدة الشمال»، ولقد نعتوك نعوتاً سيئة، ولكن لا قيمة لهذه الجريدة). نعم، إن الأمر على ما ترى: الموهبة ليست بالثروة الطائلة. وأنتما فقيران كلاكما. لننتظر سنة ونصف سنة، أو لننتظر سنة على أقل تقدير، فإذا سارت الأحوال على ما يرام، ورسخت قدماك في هذا الطريق، كانت ناتاشا لك. أما إذا لم تُوفَّق، فإنني أترك البتّ في الأمر لك. أنت رجل شريف، فكّر في الأمر.

ووقفت المسألة عند هذا الحد. وإليكم ما حدث بعد سنة:

نعم، كان ذلك بعد سنة على وجه الدقة تقريباً. في صباح يوم من أيام سبتمبر (أيلول)، دخلت على العجوزين في المساء، مريضاً،

مرهق الروح، وتهالكت على كرسي كمن أُغمي عليه، حتى راودهما خوف حين رأياني على هذه الحال. ولكن لئن أخذ رأسي يدور حينذاك، ولئن كان قلبي مضطرباً من شدة الحزن بحيث اقتربت من باب البيت عشر مرات، وعشر مرات ارتددت عنه دون أن أدخل، فما ذلك لأنني لم أوفّق في مهنتي؛ ولا لأنني لم أحصل بعد على المجد ولا على المال؛ ولا لأنني لم أُعيّن بعد ملحَقاً ولا أُرْسِلت إلى إيطاليا لأسترد صحتي، بل لأن الإنسان يمكن أن يعيش عشر سنين في سنة، ولأن ناتاشا قد عاشت خلال هذه السنة، عشر سنين، هي الأخرى. كان ثمة « لا نهاية» تفصل بيننا الآن.

ها أنذا جالس أمام العجوز، صامتاً، أعجن حوافي قبّعتي المشوّهة، بيد ذاهلة. كنت جالساً أنتظر أن تدخل ناتاشا، لا أدري لماذا؟ كانت ملابسي فقيرة خَلِقة، وكنت أشعر بأنني مريض. كنت قد نحلتُ وهزُلت وجهاً وجسماً. كنت قد أصبحت شاحباً، ولكن هيهات أن يشبه وجهي في شحوبه وجه شاعر، وفي عينيّ ما كانت تلتمع تلك الروعة وتلك العظمة التي طالما فكر فيهما الطيب نيقولا سرجتش. وكانت العجوز تنظر إليّ في شفقة غير متكلفة، كأنها بينها وبين نفسها تقول: « أهذا هو الذي أوشك أن يكون خطيب ناتاشا. . اللهم مغفرتك وعونك!». سألتني في صوت متأوّه ما زال يرنّ في أذني إلى الآن:

- هل لك بقليل من الشاي يا إيفان بتروفتش؟ (وكان السماور يغلي فوق المائدة). كيف حالك يا عزيزي؟ إنك تبدو مريضاً.

مازلت أراها كأنها أمامي. تكلّمني وفي عينيها يلوح همٌّ آخر، هو ذلك الهم نفسه الذي جعل نظرة زوجها في هذه اللحظة مظلمة قاتمة وهو جالس أمام فنجان الشاي غارق في أفكاره وتأملاته. كنت أعلم

أن قضيتهم مع الأمير لم تسر وفق مصلحتهم، إنهم في هذه اللحظة مهتمون بها كثيراً، وإن ثمة مزعجات أخرى قد وقعت لهم. فالأمير الصغير الذي هو أصل هذه الدعوى كلها، قد انتهز الفرصة منذ خمسة أشهر أو ستة، فزار أسرة أخمنيف فاستقبله العجوز، الذي كان يحب «عزيزه» أليوشا كأنه ولده، ويأتي على ذكره كل يوم تقريباً، استقبله في فرح، أما آنا أندريفنا فتذكرت عندئذ فاسيلفسكوئي فامتلأت عيناها بالدموع. وأخذ أليوشا يتردد إليهم، وزادت زياراته لهم، على غير علم من أبيه، ورفض نيقولا سرجتش، في استياء، أن يحتاط للأمر، لأنه رجل شريف صريح مستقيم. إنه لإبائه ونبله، لم يشأ حتى أن يفكر فيما عسى أن يقوله الأمير لو عرف أن ابنه عاد يُستقبل في بيت أخمنيف؛ وكان في دخيلة نفسه يحتقر كل هذه الشكوك. ولكن العجوز لم يكن يعلم هل يملك من القوة ما يمكنه من احتمال إهانات جديدة. وأصبح الأمير الصغير يزورهم كل يوم تقريباً، وكان العجوزان يقضيان معه أوقاتاً طويلة ممتعة، وكان يبقى في المنزل سهرات بكاملها، إلى ما بعد منتصف الليل في كثير من الأحيان. وطبيعي أن يحيط الأب علماً بكل شيء في آخر الأمر. وقد فسح ذلك مجالاً لأشنع الأقاويل والتخرصات. فأرسل الأمير إلى نيقولا سرجتش رسالة مهينة فظيعة تحمل ذلك الاتهام القديم نفسه. وحظر على ابنه حظراً قاطعاً أن يزور أسرة أخمينف. وقع هذا قبل زيارتي بخمسة عشر يوماً. كان العجوز قد انحدر إلى حزن عميق. كيف؟ أتُقحم ابنته الحبيبة ناتاشا، مرة أخرى، في افتراءات حقيرة سافلة كهذه؟ وهل يترك هو هذا كله دون أن يطلب تسوية كريمة! وأصابه المرض من شدة الألم حتى لزم فراشه في الأيام الأولى من ذلك. كنت أعلم هذا كله. فقد وصلتني القصة جملة

وتفصيلاً، رغم أنني في المدة الأخيرة، منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع، كنت مريضاً مرهقاً، فلزمت سريري في بيتي ولم أجئ إلى زيارتهم قط. ولكني كنت أعلم أيضاً.. كلاً، بل كنت أقدِّر، أو أعلم على غير يقين أن هنالك شيئاً آخر، غير هذه القصة، يقلقهم أكثر من أي شيء آخر في العالم. كنت ألاحظهم في قلق معذب وخوف رهيب. نعم، كنت خائفاً معذباً. كنت خائفاً أن أعرف الحقيقة، كنت خائفاً من تصديق الأمر الواقع، كنت أتمنى بكل قواي أن أبعد الدقيقة الحاسمة. ومع ذلك ما جئت إليهم إلا لهذا الغرض. كنت في ذلك مدفوعاً إليهم دفعاً لا حيلة لي في رده.

سألني العجوز فجأة، كأنه يسترد صوابه:

- نعم يا فانيا، ألم تكن مريضاً؟ لماذا لم تأتِ إلينا خلال هذه المدة كلها؟ إنني مقصِّر في حقك: وقد هممت غير مرة أن أذهب إليك أزورك، فكان يحول بيني وبين ذلك طارئ.

وعاد العجوز يفكر.. أجبته:

- كنت مريضاً.

فأجاب بعد خمس دقائق:

- ها! لا استغرب هذا! لقد نصحتك في ذلك اليوم، وحذَّرتك فلم تصغ إلى كلامي. هم! لا يا عزيزي فانيا، لقد عاشت آلهة الفن دائماً جائعَة، في كوخ متداع، وستظل كذلك.. نعم.

لا! ما كان العجوز خليّ البال مشرق المزاح، ولو لم يكن مجروح القلب لما حدثني عن آلهة الفن الجائعة. ونظرت إلى وجهه، فإذا هو شاحب شديد الشحوب، وفي عينيه قلق وحيرة وفكرة اتخذت صورة سؤال لا قبل له بحله. كان عنيفاً قارصاً، على خلاف عادته. وكانت امرأته تنظر إليه في قلق، وتهز رأسها من حين

إلى حين، حتى إذا حوّل نظره عنا لحظة من اللحظات نظرت إليّ مشيرة إليه خلسة بحركة من رأسها.

سألت آنا أندريفنا التي بدا الهمّ جاثماً على صدرها خانقاً:

- كيف حال ناتاليا نيقولايفنا؟ أهي في البيت؟

فأجابت تقول، وكأن سؤالي هذا قد أربكها:

- نعم.. نعم.. يا عزيزي.. ستأتي على الفور.. أثلاثة أسابيع لا نراك؟ لا، هذا كثير. مسكينة هذه البنت، لقد أصبح غريباً أمرها. لا يستطيع المرء أن يعرف أهي مريضة أم غير مريضة. ليَحْمِها الله!

ونظرت إلى زوجها وجلة؛ فأجاب نيقولا سرجتش متكلفاً وهو يغص بكلامه:

- ماذا تقولين؟ ليس بها شيء.. إن البنت تكبر، ولم تعد طفلة صغيرة. هذا كل ما في الأمر. مَنْ ذا الذي يستطيع أن يفهم أحزان الفتيات ونزواتهن؟

فقالت آنا أندريفنا في لهجة مُرّة:

- نعم.. نزوات!

وسكت العجوز، وأخذ ينقر بأصابعه على المنضدة.

سألت نفسي وأنا أوجس شراً مستطيراً: «رباه! أيكون قد وقع بينهما شيء؟».

واستأنف العجوز يسألني:

- وكيف الحال عندكم هناك؟ ألا يزال ب... يكتب نقداً؟

قلت:

- نعم.

قال في غير مبالاة:

- نقد هه! ما قيمة هذه الأشياء كلها؟!..

الفصل السابع

كانت تحمل قبعتها بيدها، فلما دَخَلَتْ وضَعَتها على البيانو، ثم اقتربت ومدت إليَّ يدها صامتة. كانت شفتاها تختلجان اختلاجاً خفيفاً، كأنما هي تريد أن تقول بضع كلمات على سبيل الترحيب، غير أنها لم تقل شيئاً.

لم أكن رأيتها منذ ثلاثة أسابيع. وأخذت أنظر إليها الآن في حيرة ورعب. ما أشد ما تغيرت خلال هذه الأسابيع الثلاثة! وانهدّ قلبي ألماً حين رأيت خديها شاحبين، وشفتيها يابستين كأن قد جففتهما حمى، وحين رأيت عينيها تتقدم تحت أهدابهما الطويلة بنار متأججة وعزيمة كاسرة.

ولكن، يا إلهي، ما كان أروع جمالها في تلك اللحظة! ما رأيتها في حياتي، لا قبل ذلك اليوم المشؤوم، ولا بعده، في مثل هذا الجمال الفاتن! أهذه هي ناتاشا، أهذه هي بعينها تلك البنت الصغيرة التي كانت منذ سنة، تصغي إليَّ وأنا أقرأ قصتي، لا تحوّل عني بصرها، وتحرك شفتيها كأنها تقرأ معي، وتضحك ذلك الضحك المرح كضحك الأطفال، وتمزح في ذلك المساء مع أبيها ومعي أثناء تناول طعام العشاء؟ أهذه هي بعينها ناتاشا التي قالت يومئذ في هذه الغرفة، وقد انخفض رأسها واصطبغ وجهها بحمرة قانية: نعم؟

ودوى صوت ناقوس أصم يدعو إلى صلاة المساء، فارتجفت ناتاشا ورسمت العجوز إشارة الصليب.

- كنت تنوين الذهاب إلى صلاة المساء يا ناتاشا، وها هو ذا الناقوس يدق. هيا اذهبي يا صغيرتي، هيا اذهبي يا صغيرتي، هيا اذهبي إلى الصلاة، الحمد لله على أن الكنيسة غير بعيدة! وبذهابك إلى الصلاة تقومين بنزهة صغيرة! لماذا تحبسين نفسك في البيت؟ أنظري كم أنت شاحبة! لكأنك يا بنيتي قد أصابتك عين.

قالت ناتاشا ببطء وبما يشبه الهمس:

- قد.. لا.. أذهب.. اليوم.

ثم أضافت وقد ازداد شحوب وجهها:

- أشعر بأنني مريضة.

- بل الأحسن أن تذهبي يا ناتاشا.. كنت تريدين الخروج منذ هنيهة، حتى لقد جئت بقبعتك. اذهبي إلى الصلاة يا بنيتي، اذهبي إلى الصلاة، عسى ربك أن يرد إليك عافيتك.

قالت آنا أندريفنا ذلك تشجع ابنتها، وهي تنظر إليها وجلة كأنما هي تخشاها.

- نعم نعم.. اذهبي إلى الصلاة يا ناتاشا، وسيكون لك من ذلك نزهة قصيرة. وإن أمك على حق فيما تقول.. وسيصحبك فانيا.

تراءت لي بسمة مُرَّة تطوف في شفتي ناتاشا. واقتربت من البيانو فتناولت قبّعتها، ووضعتها على رأسها، ويداها ترتجفان..

كانت كأنها تتحرك بلا شعور، كأنها لا تفهم شيئاً مما تعمل. وكان أبواها يتابعان حركاتها في انتباه شديد.

قالت بصوت خافت لا يكاد يُسمع:

- وداعاً.

- علام الوداع يا ملاكي! إنك غير ذاهبة إلى بعيد! على أن هذه النزهة القصيرة ستفيدك كثيراً، ستتنشقين الهواء النقي. انظري كم

أنت شاحبة. ها! نسيت (إنني أنسى كل شيء)، لقد فرغت من صنع التميمة. خطتها منذ لحظة على دعاء مستجاب يا ملاكي، احمليها يا ناتاشا. أسأل الله أن يمنّ عليك بالصحة.. ليس لنا غيرك يا بنيتي.

قالت العجوز ذلك وأخرجت من منضدة شغلها الصليب الصغير، صليب تعميد ناتاشا، وقد علّقت في سلكه تميمة منذ قليل.

- احمليه يا بنيتي، ففيه البركة والعافية. في الماضي، كنت أرسم لك إشارة الصليب هكذا كل مساء، قبل أن تنامي، وكنت أدعو لك، وكنت ترددين معي الدعاء. أما الآن فقد تغيرتِ يا ناتاشا! أصبحت صلوات أمك نفسها لا تخفّف عنك!

وغرقت العجوز في دموعها.

قبّلت ناتاشا يدها دون أن تقول كلمة، واتجهت نحو الباب. ولكنها تراجعت فجأة، واقتربت من أبيها. كان صدرها يرتجف من شدة الانفعال. وقالت بصوت مختنق وهي تتهالك على ركبتيها أمامه:

- صلّب أنت أيضاً يا أبت.

وظللنا جميعاً واقفين، مضطربين لهذه الحركة المفاجئة. وظل أبوها ينظر إليها لحظات، حائراً لا يفهم، ثم صاح والدموع تنفجر من عينيه:

- حبيبتي ناتاشا، بنيتي الصغيرة، عزيزتي، ماذا بك؟ ما الذي يعذبك؟ لماذا تبكين ليل نهار؟ إنني أرى كل شيء يا بنيتي، وأنهض من فراشي كل ليلة، فأمضي إلى باب مخدعك أستمع إلى بكائك. أنا لا أنام الليل. قولي لأبيك كل شيء يا ناتاشا. أسرّي إلى أبيك بكل شيء يا ناتاشا ونحن..

ولم يتم كلامه، بل أنهضها، وضمها إلى صدره، فشدّت جسمها

إليه شداً قوياً، وأخفت رأسها في كتفه، وأجابت وهي تغص بدموع خفية مخنوقة:

- لا شيء.. لا شيء.. كل ما هنالك أنني أشعر بإعياء.

قال الأب:

- أسأل الله لك الرضى يا بنيتي الغالية. أسأله لك طمأنينة الروح، وأسأله أن يحميك من كل سوء. أدعو لك الله يا حبيبتي، وعسى أن ترقى إليه دعوات هذا الخاطي، أنا.

وأضافت العجوز:

- وأنا كذلك أسأل الله لك الرضى.

ودمدمت ناتاشا تقول:

- وداعاً.

وتوقفت قرب الباب لحظة، وألقت على أبويها نظرة أخيرة، وأرادت أن تقول شيئاً، ولكنها لم تستطع، فخرجت من الغرفة مسرعة، وهرعت أنا في إثرها أوجس شراً.

الفصل الثامن

كانت تسير صامتة، خافضة الرأس لا تنظر إليّ. ولكنها حين وصلت إلى آخر الشارع ودخلت الرصيف، توقفت فجأة وأمسكت بيدي. . قالت بصوت منخفض:

- إنني أختنق! إن كابوساً يجثم على صدري، إنني أختنق.

فصرخت جزعاً أقول:

- عودي يا ناتاشا.

فقالت وهي تنظر إليّ في حزن لا يمكن وصفه:

- ألست ترى يا فانيا أنني مضيت إلى الأبد، وأنني تركتهم إلى غير رجعة؟

شعرت كأن قلبي قد تحطم. كنت أوجس هذا كله حين مضيت إلى زيارتهم. كأن كل هذا قد عرض لخيالي في مثل الضباب، بل لعله عرض لخيالي قبل ذلك اليوم بزمن طويل، إلا أن كلامها، في هذه اللحظة، وقع في نفسي موقع الصاعقة.

وسرنا على الرصيف في حزن. كنت لا أستطيع الكلام، كنت أتخيل وأتأمل. . كنت طائش اللب تماماً. . وأخذني دوار. . كان هذا يبدو لي أمراً جنونياً، أمراً مستحيلاً!

قالت أخيراً:

- لا شك أنك تعذّني مجرمة يا فانيا!

فأجبت دون أن أعي ما أقول:

- لا.. ولكن.. ولكني لا أصدق.. هذا غير ممكن!

- بل هو ممكن يا فانيا، هذا ما وقع فعلاً! لقد تركتهم، ولا أدري ماذا ينتظرهم من مصير، بل لا أدري ماذا ينتظرني أنا من مصير.

- أأنت ذاهبة إليه يا ناتاشا؟ نعم؟

- نعم.

فصرخت في حماسة:

- ولكن هذا مستحيل يا عزيزتي المسكينة ناتاشا! هذا جنون! ستقتلينهم قتلاً.. ستقتلين نفسك.. هل تعلمين هذا يا ناتاشا؟

- أعلمه.. ولكن ماذا أستطيع أن افعل؟ أصبحت لا أملك من أمري شيئاً.

قالت ذلك وفي كلامها يأس هائل كأنها ذاهبة إلى العذاب.

فقلت متوسلاً:

- عودي يا ناتاشا، عودي قبل أن يفوت الأوان.

وكنت كلما ازددت حماسة وإلحاحاً في التوسّل إليها، ازددت شعوراً بأن توسلاتي في هذه اللحظة ذاهبة أدراج الرياح، وأنها عبث لا طائل تحته.

- أفاهمة أنت يا ناتاشا ماذا تصنعين بأبيك؟ هل فكرت في هذا؟ أنت تعلمين أن أباه عدو أبيك! أنت تعلمين أن الأمير قد أهان أباك، وأنه اتهمه بالاختلاس، وأسماه لصاً.. وأنت تعلمين أن بينهما الآن دعوى.. ثم، يا ناتاشا، هذا كله بسيط إذا قيس بغيره. هل تعلمين يا ناتاشا (رباه! إنك تعلمين هذا كله) أن الأمير قد اتهم أبويك بأنهما هما اللذان حاولا، عمداً، أن يربطا بينك وبين أليوشا، حين كان يعيش أليوشا عندكم في الريف؟ فكري في الأمر يا ناتاشا، وحسبك

أن تتصوري مدى الآلام التي عاناها أبوك حين طرقت سمعه هذه الفرية. لقد غدا شعره كله أبيض في هاتين السنتين الأخيرتين. انظري إليه. لا سيما.. ولكنك تعلمين هذا كله يا ناتاشا! آه، يا إلهي، يا رب السموات. لست أتكلم عن الكارثة التي تحل بهما إذا هما فقداك إلى الأبد. أنت ثروتهما، أنت كل ما بقي لهما في شيخوختهما! لست أتكلم عن هذا، ولا أريد أن أتكلم عنه، فينبغي أن تعرفيه بنفسك. ولكن تذكري أن أباك يرى أن هؤلاء الناس المتعجرفين قد افتروا عليك ظلماً وعدواناً، وأنهم أهانوك، وأن عليه أن ينتقم لك. والآن، الآن خاصةً، يستيقظ هذا كله، وتنبعث هذه العداوة كلها، لأنكم استقبلتم أليوشا. وقد أهان الأمير أباك مرة أخرى، وما زال العجوز يغلي حنقاً من هذه الإهانة الجديدة، فإذا بكل هذه الاتهامات تبدو فجأة صادقة! إن جميع الذين يعرفون القضية سيقولون إن الأمير كان على حق، وسيتهمونك وأباك! وما عسى أن يصبح أبوك من هذا كله؟ سيقتله العار والشنار! وممن تأتيه هذه الصدمة الفظيعة؟ منك أنت، أنت ابنته الوحيدة، طفلته الغالية! وأمك؟ لن تعيش بعد زوجها العجوز لحظة واحدة.. ناتاشا، ناتاشا، ماذا تفعلين؟ عودي يا ناتاشا، كوني عاقلة!

كانت صامتة. وأخيراً ألقت عليّ نظرة كأنها تحمل معنى اللوم. وكان في هذه النظرة من الألم الحاد، والعذاب الشديد، ما أفهمني أن قلبها في هذ اللحظة ينزف. فهمت مدى ما كلّفها قرارها هذا من ألم، وفهمت أنني بما أقول من كلام أعذّبها وأمزّقها دون طائل، فهمت هذا كله، ومع ذلك لم أستطع أن ألجم نفسي عن الكلام؟ وتابعت أقول:

- ثم لقد قلت، منذ لحظة، لآنا أندريفنا إنك قد لا تخرجين إلى

الصلاة. معنى هذا أنك كنت تريدين البقاء.. وأنك لم تعزمي أمرك عزماً قاطعاً، فما الذي جدّ إذن؟

لم تجب ناتاشا على هذا كله إلا ببسمة مُرّة. ولماذا سألتها عن هذا كله؟ كان في وسعي أن أفهم أنها قد عزمت أمرها، وأنها لن تعدل عن قرارها. ولكنني كنت أنا نفسي خارجاً عن طوري.

- هل يُعقل أن تحبيه إلى هذا الحد؟

قلت ذلك وأنا أنظر إليها منقبض الصدر، ولا أكاد أفهم ما أقول.

فأجابت وعلى شفتيها تلك البسمة المُرّة نفسها:

- بم تريد أن أجيبك يا فانيا؟ إنك ترى: لقد أمرني أن آتي، وها أنذا أنتظر.

فعدت أتوسّل إليها، كالغريق الذي يتعلق بقشة!

- ولكن اسمعيني يا ناتاشا، اسمعيني. مازلنا نستطيع أن نتدبر الأمر، وأن نخرج منه على نحو آخر، ولن يكون عليك إلا أن تلزمي بيتك لا تبارحينه. وسأقول لك كل ما يجب عليك أن تفعليه يا صغيرتي العزيزة، يا ناتاشا. سأتولى تدبير الأمور: المواعيد.. وكل شيء. كل ما أطلبه إليك هو ألا تخرجي من البيت بعد الآن؟ سآتي إليك برسائله، لم لا؟ هذا أفضل مما يقع الآن. سأعرف كيف أفعل ذلك. سأخدمكما كليكما. سترين.. ولن تضيّعي نفسك كما تفعلين الآن، يا عزيزتي الصغيرة ناتاشا.. إنك تضيعين نفسك تماماً يا ناتاشا، تماماً تماماً. اقبلي رجائي: سيسير كل شيء على ما تريدين، ستحبينه وسيحبك ما شاء لكما الحب.. ومتى انتهى أبواكما من التخاصم (وسينتهيان من التخاصم حتماً)، فعندئذ..

قالت وهي تضغط يدي بقوة، وتبتسم من خلال الدموع:

- حسبك يا فانيا، أسكت يا فانيا، يا فانيا الطيب النبيل. إنك

رجل شهم وشريف. أما من كلمة سيئة تقولها لي؟ لقد بدأت أنا بهجرك، وها أنت تغفر لي كل شيء، ولا تفكر إلا في سعادتي! تريد أن تنقل رسائلنا!

وانفجرت باكية.

- أعرف كم أحببتني، يا فانيا، وكم تحبني الآن. ومع ذلك لم توجه إليّ كلمة لائمة أو كلمة مُرّة خلال هذه المدة كلها! وأنا، أنا، كم أنا مجرمة في حقك يا فانيا! أذكر الوقت الذي قضيناه معاً؟ أواه! كان الأفضل ألاّ أعرفه، ألاّ ألقاك أبداً! كان ينبغي أن أعيش معك، يا فانيا، يا صديقي العزيز! لا، إنني لا أستحقك! إنك ترى كيف أنا: في لحظة كهذه أحدثك عن سعادتنا الماضية، مع أنك تتألم بدون أن أحدثك عن ذلك! ها قد انقضت أسابيع ثلاثة لم تزرنا خلالها: أقسم لك، يا فانيا، أنه لم يخطر على بالي مرة واحدة أنك حقدت عليّ أو كرهتني. أنا أعلم لماذا ذهبت: لقد أردت أن لا تزعجنا، ألاّ تكون بيننا بمثابة لوم حي. ما كان أشقّ عليك أن ترانا! لطالما انتظرتك يا فانيا، لطالما انتظرتك! اسمع يا فانيا، لئن كنت أحب أليوشا كمن جنّت، كمن فقدت صوابها، فلعلني أحبك أنت أكثر مما أحبه هو. بل إنني لأشعر وأعرف أنني لا أستطيع أن أعيش بدونك. لا غنى لي عنك. أنا في حاجة إلى روحك، إلى قلبك الذهبي.. أسفاً يا فانيا، ما أمرّ وما أقسى هذا الوقت الذي نعيشه!

أغرقتها الدموع. نعم، إنها شقية! وتابعت كلامها، بعد أن خنقت عبراتها:

- آه يا فانيا، ما كان أشد شوقي إلى رؤيتك! لقد نحُلتَ كثيراً يا فانيا، وفي وجهك تبدو علامات المرض، إنك شاحب جداً. هل كنت مريضاً حقاً يا فانيا؟ آه ما أسوأني، لم أفطن إلى هذا ولا خطر

لي على بال. وها أنا ذا أتكلم عن نفسي طوال الوقت. ماذا يكتب الصحفيون الآن؟ وروايتك الجديدة، هل قطعت في كتابتها أشواطاً جديدة؟

- ما لنا وللروايات؟ ما لنا ولأموري الخاصة الآن يا ناتاشا؟ دعينا منها الآن، ولتذهب إلى الشيطان! قولي لي يا ناتاشا: أهو الذي أصر على أن تأتي إليه؟

- لا.. لم يطلب ذلك وحده، والأصح أنني أنا التي طلبت ذلك. صحيح أنه قاله، ولكنني أنا أيضاً.. اسمع يا صديقي، سأقص عليك كل شيء. لقد وجدوا له فتاة غنية، ذات مكانة مرموقة، ومن أسرة عظيمة. ويصرّ أبوه إصراراً قاطعاً على أن يزوجه إياها، وأنت تعلم أن أباه رجل ماكر، خراج ولاج! لقد دبر الأمر تدبيراً محكماً، وفي رأيه أن مثل هذه الفرصة لن تُعرَض خلال عشر سنين: علاقات، مال إلخ. ثم إن الفتاة جميلة جداً على ما يقال، وهي مثقفة ورقيقة. إنها حسنة في جميع الوجوه. حتى إن أليوشا نفسه مفتون بها. وأكثر من هذا إن أباه يريد أن يتخلص منه بأقصى سرعة، ليستطيع أن يتزوج هو أيضاً، لذلك أخذ على نفسه أن يقطع صلاتنا بأي طريقة! إنه يخاف مني، ومن تأثيري في أليوشا..

فقاطعتها دهشاً:

- ولكن هل يعرف الأمير حبكما؟ أظن أنه كان يشتبه اشتباهاً، بل لست واثقاً من أنه كان يشتبه!

- بل هو يعرف كل شيء، كل شيء.

- من أنبأه؟

- أليوشا هو الذي قصّ عليه كل شيء في المدة الأخيرة. قال لي هو نفسه إنه قصّ على أبيه كل شيء.

- يا إلهي! ولكن ما هذه الحكاية! يروي لأبيه كل شيء، في مثل هذه اللحظة!

فقاطعتني ناتاشا تقول:

- لا تؤاخذه، يا فانيا، ولا تسخر منه! يجب ألاّ تحكم عليه حكمك على غيره من الناس. كن عادلاً. إنه ليس مثلك ولا مثلي، إنه طفل، لم يربّوه كما يجب أن يربّى، إنه لا يفهم ما يفعل. في وسع أول تأثر جديد أن ينتزعه من كل ما عاهد عليه نفسه منذ لحظة. ليس له إرادةً، قد يقطع لك عهداً، ثم إذا هو في اليوم نفسه يقطع عهداً آخر، وهو في كلا العهدين صادق. إنه قادر على اقتراف أي عمل سيىء، ولكن ما ينبغي أن تؤاخذه على أنه اقترف عملاً سيئاً، وإنما ينبغي أن ترثي لحاله! وهو قادر كذلك على التضحية، أية تضحية! ولكن في لحظة أولى، ثم ينسى كل شيء في لحظة أخرى! إنه قادر على أن ينساني أنا، إذا لم أكن إلى جانبه دائماً. هذا هو أليوشا.

- ولكن يا ناتاشا، لعلّ هذا كله أقاويل وإشاعات. هل يستطيع أليوشا ان يتزوج؟ إنه طفل!

- قلت إن لأبيه خطة واضحة!

- وكيف عرفت أن خطيبته جميلة، وأنه مفتون بها!

- قال لي ذلك هو بنفسه.

- كيف؟ يقول لك هو نفسه إنه قادر على أن يحب امرأة غيرك، ثم يطلب إليك مثل هذه التضحية؟

- لا، يا فانيا، لا. إنك لا تعرفه. إنك لم تره إلا قليلاً. ولا بد أن تعرفه معرفة أوثق حتى تستطيع أن تقطع فيه برأي. ليس في الدنيا قلب أنبل ولا أنقى من قلبه! وهل كان الأفضل أن يكذب عليّ؟ أما

عن انسياقه واستسلامه فيكفي أن أبتعد عنه أسبوعاً واحداً حتى ينساني ويحب امرأة غيري. ولكنه متى عاد فلقيني أرتمي على قدميّ مرة أخرى. ومن حُسن الحظ أنني أعرف أنه لم يكتم عني شيئاً، ولولا هذا لقتلتني الشكوك. نعم يا فانيا، لقد عزمت أمري: إذا لم أكن إلى جانبه دائماً، في كل لحظة، انتهى حبه، فنسيني، وهجرني. هكذا خُلق. تستطيع أية امرأة أخرى أن تجذبه وأن تقوده. وما عساني فاعلة يومئذ؟ سأموت من غير شك.. وما الموت؟ ليتني أموت الآن.. أما أن أعيش بدونه فهذا ما لا أطيقه: إن ذلك لأسوأ من الموت، وأقسى من كل أنواع العذاب! آه أيا فانيا، يا فانيا، هيِّن عليّ أني هجرت أبي وأمي في سبيله! دعك من المواعظ والأخلاق! لقد قررت كل شيء. يجب أن أكون إلى جانبه في كل ساعة، في كل لحظة. ليس في وسعي أن أتراجع. أعرف أنني أضيّع نفسي، وأنني أضيّع معي آخرين..

قالت ذلك ثم صرخت فجأةً وهي ترتعد من أخمص قدميها إلى قمة رأسها:

- آه يا فانيا.. ماذا يكون من أمري إذا صح أنه لا يحبني، إذا صدق ما قلته لي منذ لحظة (الواقع أنني لم أقل ذلك)، إذا كان يغشني، إذا كان ظاهره الاستقامة والصدق، وباطنه الخبث والغرور! إنني أدافع عنه الآن أمامك، وربما كان هو في هذه اللحظة يضحك من أعماق نفسه مع امرأة أخرى؛ وأنا، أنا المخلوقة المرذولة، أترك كل شيء، وأسعى في الشوارع أبحث عنه! آه، فانيا.

وانطلقت من صدرها آهةٌ أليمةٌ انفرط لها قلبي هلعاً. وفهمت أن ناتاشا قد فقدت آخر رمق من سيطرتها عل نفسها. وإنه ما كان لغير غيرة جنونية بالغة أوجها أن تسوقها إلى قرار أحمق هذا الحمق.

وتأججت في نفسي كذلك غيرة طافحة، ولم أستطع أن أصمد أكثر مما صمدت، وطغى عليّ شعور سيء، فقلت:

- ناتاشا، شيء واحد لا أفهمه: كيف تستطيعين أن تحبيه بعد الذي قلته عنه! إنك لا تحترمينه، بل إنك لا تثقين بحبه، ومع ذلك تمضين إليه بلا رجعة، وتفقديننا جميعاً من أجله! ما معنى هذا؟ سيعذّبك طوال حياتك، وستعذبينه أيضاً. إنك تحبينه أكثر مما يستحق يا ناتاشا، نعم تحبينه أكثر مما يجدر بك أن تحبيه. إنني لا أفهم مثل هذا الحب.

فأجابت وقد امتقع لونها كأنما بتأثير ألم جسمي:

- نعم، أحبه كمجنونة. ولم أحبك يوماً مثل هذا الحب، يا فانيا. أنا أعرف أنني فقدت صوابي، وأنني لا أحبه كما ينبغي أن يكون الحب. إسمع يا فانيا: هل تعلم أنني، حتى قبل هذا الوقت، وفي أسعد لحظاتنا، كنت أشعر أنه لن يأتيني بغير العذاب؟ نعم كنت أشعر بذلك، ولكن ما عساني أفعل، والعذاب الذي يسببه لي هو عينه سعادة! هل تراني أبحث عن الفرح إذ أمضي إليه؟ ألست أعلم منذ الآن ما ينتظرني معه، وما سأحتمله منه؟ اسمع، لقد أقسم أنه يحبني، وقطع لي جميع أنواع العهود، وأنا لا أصدق من وعوده شيئاً، ولا أقيم لها وزناً قط، ومع ذلك كنت أعلم أنه لا يكذبني، وأنه لا يستطيع أن يكذبني. وقد قلت له، أنا نفسي، إنني لا أريد أن أربطه بشيء، وهذا أفضل، فما من أحد يحب أن يُربط، وأنا في طليعة من لا يحبون ذلك، على أنني سعيدة بأن أحتمل كل شيء، كل شيء. ولست أطمع إلا في أن يكون معي، في أن انظر إليه! في وسعه أن يحب غيري، وإني أقبل ذلك، شريطة أن أكون أنا أيضاً إلى جانبه.. أهذه حقارة يا فانيا؟

سألتني هذا السؤال فجأة وهي ترفع إليّ نظرة ملتهبةً. وأيقنت، لحظة، أنها تهذي. وأردفت تقول:

- إنها حقارة أن أتمنى هذه الأمور، أليس كذلك؟ نعم! إنني أعترف أنا نفسي بأن هذه حقارة! وإذا هجرني فسأجري وراءه إلى آخر الدنيا، ولو صدّني، ولو طردني شرّ طردة. اسمع! إنك تنصحني الآن بالعودة إلى المنزل. ولكن ما عسى أن تكون نتيجة ذلك؟ إن عدت إلى المنزل، فسأخرج منه في الغد. يكفي أن يصدر إليّ أمره بالخروج حتى أخرج. يكفي أن يناديني بصفرة، يكفي أن يناديني كما ينادي كلب صغير حتى أجري وراءه.. لا تحدثني عن العذاب. إنني لا أخشى عذاباً هو مصدره. سأعرف أن عذابي هو مصدره. وحسبي ذلك حتى أكون سعيدة.. ولكن يا فانيا، لا تحدث أحداً بهذا.

ساءلت نفسي: « وأبوها؟ وأمها؟» وبدا لي أنها نسيتهما نسياناً تاماً!

قلت:

- وعلى هذا لن يتزوجك يا ناتاشا!

- بلى، لقد وعدني بذلك، وعدني بكل شيء. ومن أجل هذا يستدعيني الآن، من أجل أن نتزوج خفية في الريف. ولكنه لا يدري ماذا يفعل، ولعله لا يعرف كيف يتم الزواج. أهذا زوج؟ حقاً إن الأمر لمضحك وإذا تزوج فسيكون شقياً، وسيأخذ يصب عليّ ضروب اللوم، وأنا لا أريد أن يلومني يوماً.. سأترك له إذن حرية التصرف، ولن أطالبه بشيء. وإذا شقي بعد الزواج؟ لماذا أجعله شقياً؟

- ناتاشا! أتحلمين؟ أنت إذن ماضية إليه الآن رأساً؟

- لا، لقد وعدني بأن يجئ إلى هنا ليأخذني، اتفقنا.

ونظرتْ إلى بعيد في لهفة، ولكنها لم تر أحداً. هتفتْ في استياء:

- ولكنه لم يجئ بعد، أتصلين أنت قبله؟

وكأن ناتاشا ترنحت من هول الضربة وتصعّر وجهها ألماً. . قالت في ضحكة صغيرة مُرّة:

- وقد لا يأتي أبداً. أول أمس كتب إليّ يقول: إن لم أعده بالمجيء، فسيكون مضطراً إلى إرجاء عزمه على السفر معي والزواج بي، وسيمضي به أبوه إلى خطيبته. كتب إليّ ذلك ببساطة كأن هذا أمر بسيط. . وماذا إذا ذهب إليها يا فانيا؟

لم أجب. وضغطت يدي بقوة، وأخذت عيناها تلتمعان. . قالت بصوت لا يكاد يسمع:

- إنه عندها. . كان يأمل ألاّ آتي، حتى يذهب إليها، وحتى يقول بعد ذلك إنه كان على حق، وإنه أنذرني فلم آت، وقد أعذر من أنذر. إنه يملّني ويهجرني، آه، يا إلهي، إنني مجنونة. ألم يقل لي في المرة الماضية إنني أضجره؟ ماذا أنتظر إذن؟

- هذا هو!

ذلك ما هَتَفَت به، إذ لمحته على الرصيف من بعيد. وارتجفت ناتاشا، وأطلقت من صدرها صرخة، وثبتت نظرتها على أليوشا الذي كان يقترب، وفجأة تركت يدي، وهرعت نحوه. وحث خطاه هو أيضاً، وما هي إلا دقيقة واحدة حتى كانت بين ذراعيه.

لم يكن في الشارع أحد سوانا. تعانق الحبيبان وأخذا يتباوسان ويضحكان. كانت ناتاشا تضحك وتبكي في آن واحد، كأنهما التقيا بعد فراق طويل. كان الدم قد صعد إلى خديها الشاحبتين. كأنها أصبحت في طورٍ آخر.

- . . ولمحني أليوشا، فما لبث أن اتجه نحوي.

الفصل التاسع

نظرت إليه نظرةً فاحصةً، رغم أنني رأيته كثيراً قبل هذه اللحظة وحدّقت في عينيه، كأن نظرته تستطيع أن تحل جميع شكوكي، وأن تفهمني كيف استطاع هذا الطفل أن يسحر ناتاشا، وأن يبعث في قلبها حباً كهذا الحب المجنون، الذي ينسيها حتى واجبها الأول، ويحملها على التضحية الهوجاء بما كان إلى الآن أقدس شيء عندها. وتناول الأمير يدي كلتيهما، وضغطهما بقوة، واخترقت نظرته الرقيقة الصافية قلبي.

شعرت أنني قد أكون مخطئاً في حكمي عليه، لأنه غريمي. والحق أنني لم أكن أحبه، ولعلني الشخص الوحيد الذي ما أَحَبَّه يوماً، من بين جميع الذين عرفوه. كثير من الأمور كانت تنفّرني منه حتماً حتى ملبسه الأنيق، ولعل ملبسه كان ينفرني لأنه أنيق مسرف في الأناقة. فقد أدركت، فيما بعد، أنني كنت حتى في هذه الناحية متحيزاً غير منصف في الحكم عليه. كان فارع القامة، حسن البنية، رقيقاً ناعماً. وكان وجهه البيضاوي دائم الشحوب. وكان شعره أشقر ذهبياً، وعيناه زرقاوين واسعتين، رقيقتين ساجيتين، يلتمع فيهما على حين غرة، في بعض الأحيان، مرح كمرح الطفولة بريء، وكانت شفتاه رقيقتين بلون الياقوت، رُسمتا أروع رسم، وأطبقتا على معنى الجد فيه دائم الأحوال تقريباً، وذلك يجعل ابتسامته البريئة الساذجة، حين يبتسم فجأة، أمراً غير متوقع، ويزيد في سحرها، فإذا أنت

حين تراها لا تلبث مهما تكن حالتك النفسية، أن تشعر فوراً بالحاجة إلى أن ترد عليها بابتسامة مثلها تماماً. كان ملبسه أنيقاً، ولكن على غير تكلف. كان واضحاً أن هذه الأناقة في أدق التفاصيل لا تكلفه أي جهد، كأنه قد فطر عليها. صحيح أن له بعض العادات السيئة التي يؤسف لها، كالخفة، والغرور، والاستهانة. إلا أنه ساذج مسرف في السذاجة، بريئ إلى أقصى حدود البراءة، فإذا ارتكب بعض الأخطاء كان أول من يعترف بها وهو يضحك. أعتقد أن هذا الطفل ما كان له أن يكذب يوماً على سبيل المزاح، وأنه إذا كذب، كذب دون أن يرى في كذبه أي شيء سيئ. حتى أنانيته جذابة، لا لشيء إلا لأنها صريحة لا تتستر ولا تتخفى. كان ضعيفاً، خجولاً يثق بالناس، وليس له من إرادة البتة. إن الإساءة إليه ومخادعته لا تقلان سوءاً عن الإساءة إلى طفل ومخادعته. إنه بريئ أكثر مما ينبغي لمن في مثل سنه من براءة، وهو لا يكاد يفهم من الحياة الواقعية شيئاً، وسيظل كذلك حتى حين يبلغ من عمره أربعين عاماً: كأن مثل هؤلاء الأشخاص قد قضي عليهم أن يظلوا قُصّراً إلى الأبد. أعتقد أنه ما من أحد كان يستطيع أن لا يحبه. إنه يداعبك كالطفل. صدقت ناتاشا: قد يرتكب عملاً سيئاً، إذا سِيقَ إلى ارتكابه سوقاً، ولكنني أعتقد أنه متى أدرك النتائج المترتبة على هذا العمل، مات ندامة. ولقد كانت ناتاشا تدرك أنها ستهيمن عليه، وأنه سيكون ضحيتها، وكانت تتذوق منذ الآن لذة الحب الجنوني ولذة تعذيب المحبوب، ولعلها من أجل هذا إنما سارعت فسبقته إلى التضحية بنفسها في سبيله. ولكنه كان يحبها هو أيضاً حباً عنيفاً، كان هذا ظاهراً في نظراته الملتهبة. لقد كان يتأملها في وجد ونشوة عظيمة. وألقت عليّ ناتاشا نظرة انتصار. كانت في هذه اللحظة قد نسيت كل

شيء: أهلها، والوداع، والوساوس.. كانت سعيدة.
وهتفت تقول:
- فانيا، لقد أذنبت في حقّه، ولست جديرة به. اعتقدت يا أليوشا أنك لن تأتي. انس هواجسي السيئة هذه يا فانيا. سأمحو هذه الهواجس السيئة.
قالت ذلك وهي تنظر إليه في حب لا نهاية له. وابتسم أليوشا، وقبّل يدها، وقال ملتفتاً إليّ دون أن يدع تلك اليد:
- وأنت، لا تتهمني كذلك. لطالما وددت أن أقبّلك كأخ. لقد حدثتني عنك كثيراً. حتى الآن لم نكد نتعارف، وكنا على غير تفاهم تام.
ثم أضاف بصوت منخفض، وقد احمرّ وجهه قليلاً، وطافت في شفتيه ابتسامة جميلة لم يسعني إلا أن أستجيب لها بابتسامة مثلها، قال:
- سنكون صديقين، و.. سامحني.
أيدته ناتاشا بقولها:
- نعم نعم يا أليوشا، إنه منا، إنه أخونا، ولقد سامحنا، وبدونه لن نكون سعيدين. سبق أن قلت لك ذلك. أه يا أليوشا، إننا طفلان قاسيان! ولكننا سنعيش نحن الثلاثة معاً..
وتابعت كلامها متجهة إليّ، وقد أخذت شفتاها ترتجفان:
- ستعود الآن إليهم، إلى البيت. إنك إنسان نبيل، وإذا لم يغفرا لي، فلعلهم يلينون بعض اللين، حين يرون أنك قد سامحتني. حدثهم عن كل شيء بالكلمات التي تخرج من قلبك. ستجد الكلمات المناسبة.. دافع عني، أنقذني. اشرح لهم جميع الدواعي، أفهمهم كل ما فهمته أنت. هل تعلم يا فانيا أنني ربما ما كنت لأعزم

أمري على هذا لولا أنك كنت اليوم معي. لقد كان مجيئك مجيء السلام إلى قلبي، فما إن رأيتك حتى أملت أن تعرف كيف تنقل إليهما النبأ، أو على الأقل أن تلطّف وقع الصدمة على قلبيهما في أول الأمر. آه يا رب، يا رب. قل لهما يا فانيا على لساني، إنني أعرف أنه يستحيل أن يغفرا لي الآن، وإن غفرا لي، فلن يغفر الله لي. ولكن قل لهما أيضاً إنني سأظل أباركهما وأدعو لهما الله طوال حياتي، ولو لَعَنَاني. إن قلبي كله معهما! آه، يا رب! لماذا لا نكون جميعاً سعداء! لماذا، لماذا؟

ثم هتفت فجأة، كأنها تعود إلى نفسها، وهي ترتجف من الخوف، وتغطي وجهها بيديها:

- يا إلهي، ماذا فعلت؟

- وأمسك أليوشا بذراعيها، وشدها إليه دون أن يقول شيئاً. وانقضت بضع دقائق في صمت.

قلت وأنا أنظر إليه نظرة عتب:

- كيف أمكنك أن تطلب إليها مثل هذه التضحية!

- لا تتهمني. ثق أن هذه الآلام جميعها، على قسوتها، لن تدوم طويلاً. إني لعلى قناعة بهذا مطلَقة. وإنما نحن في حاجة إلى القدرة على احتمال هذه الدقيقة. وقد قالت لي هي هذا الشيء نفسه. أنت تعلم أن سبب كل شيء هو هذا الصلف العائلي، هذه الخصومات السخيفة، ولا سيما هذه الدعاوى! ولكن (كن واثقاً أنني فكرت في هذا طويلاً) لا بد لهذه الأمور أن تنتهي ذات يوم. سيلتئم شملنا من جديد، وسنكون عندئذ سعداء كل السعادة. سيتصالح أهلنا متى رأوا سعادتنا. ومن يدري فلعل زواجنا أن يكون هو أساس الصلح. أعتقد أن الأمر لا يمكن أن يكون على غير هذا النحو، ما رأيك أنت؟

فسألته وأنا ألقي نظرة إلى ناتاشا:

- إنك تتحدث عن الزواج، فمتى تتزوجان؟

- غداً أو بعد غد. بعد غد على أبعد تقدير، هذا مؤكد. الحق أنني لا أدري بعد، وإذا شئت الصدق قلت إنني لمّا أتخذ أي قرار. كنت أظن أن ناتاشا لن تأتي. وكان أبي يريد جازماً أن يذهب بي إلى خطيبتي (لعلك تعلم أنه يريد أن يزوجني بإحدى الفتيات، لقد حدثتك ناتاشا عن هذا، أليس كذلك؟ ولكنني أنا لا أريد) لهذا لم أستطع أن أعزم أمري على قرار حاسم بعد. ولكننا سنتزوج بعد غد حتماً، رغم كل شيء. أو هذا على الأقل ما يتراءى لي الآن، لأن الأمر لا يمكن أن يكون على غير هذا النحو. سنسافر، منذ الغد، إلى بسكوف. لي هناك صديق من رفاق المدرسة، شاب شهم، يسكن بسكوف، غير بعيد من هنا، في الريف. قد أقدمه إليك فتعرفه. وفي القرية كاهن، بل لا أدري هل في تلك القرية كاهن أو لا. كان ينبغي أن نستعلم عن هذا قبل الآن، ولكن الوقت لم يتسع. على كل حال. هذه الأمور كلها سفاسف في الواقع، ما دام الشيء الأساسي مقرراً. نستطيع أن ندعو كاهناً من قرية مجاورة، ما رأيك؟ هناك قرى كثيرة حول هذه القرية! والشيء الوحيد الذي يؤسف له أن وقتي لم يتسع لكتابة كلمة إلى صديقي، كان ينبغي أن أنبئه بقدومي، فقد لا يكون في القرية الآن.. على كل حال ليس هذا أهم شيء. فمتى عزم المرء، تهيأت الأمور من تلقاء نفسها، أليس كذلك؟ وإلى أن تتهيأ الأمور، أي إلى غد أو إلى بعد غد إذا اقتضى الأمر، ستبقى ناتاشا هنا في بيتي. لقد استأجرت بيتاً مستقلاً نستطيع أن نقيم فيه متى عدنا. لا أستطيع بعد الآن أن أعيش في منزل أبي، أليس كذلك؟ ستأتي أنت لزيارتنا، والبيت جميل لطيف. وسيأتي

أصدقائي، أصدقاء المدرسة، لزيارتي. وسنقيم حفلات ساهرة.

نظرت إليه في غم مضطرب. وكانت ناتاشا تنظر إليّ نظرة من يتوسل أن لا أقسو في الحكم عليه وأن أكون متسامحاً. كانت تصغي إلى كلامه، وعلى شفتيها ابتسامة حزينة، كأنها في الوقت نفسه تعجب به، تماماً كما يعجب المرء بطفل لطيف مرح، حين يسمع ثرثرته فارغة ولكن لطيفة. فألقيت عليها نظرة عتب، وأخذت أشعر بانزعاج لا يحتمل.

سألته:

ـ وأبوك؟ أأنت واثق أنه سيغفر لك؟

ـ حتماً. (ماذا يستطيع أن يفعل؟ طبعاً سيستاء في أول الأمر، وسيلعنني، هذا لا أشك فيه. هكذا طبعه، إنه قاس جداً معي، وقد يشكوني أيضاً إلى آخر. سيستعمل سلطته الأبوية على وجه الإجمال. ولكن ليس لهذا كله كبير شأن، إنه يحبني حباً جامحاً. سيغضب، ولكنه سيغفر لي آخر الأمر. ويومئذ يتصالح الجميع ونصبح كلنا سعداء، وأبوها كذلك.

ـ وإذا لم يغفر لك؟ هل فكرت في هذا؟

ـ سيغفر لي حتماً، ولكن قد لا يغفر لي بسرعة. على كل حال، سأبرهن على أنني ذو إرادة قوية. إنه يشاجرني دائماً لأنني ضعيف الإرادة، خفيف. سيرى الآن هل أنا خفيف حقاً. . سأتحمل بعد اليوم تبعة أسرة، وليس هذا بالأمر الهّين، لن أكون بعد الآن طفلاً، سأكون كغيري من الناس، كأولئك الذين ينهضون بأعباء أسرة. سأعيش من عملي. وناتاشا تقول إن هذا خير ألف مرة من أن يعيش المرء عالة على غيره، كما نفعل جميعاً الآن، ليتك تعرف كل ما قالته من كلام جميل رائع، ما كان لي أن أتخيله أنا نفسي. لم

أترعرع بين مثل هذه الأفكار، لم يربّوني هذا النوع من التربية! أنا نفسي أعرف أنني خفيف، وأنني لا أكاد أصلح لشيء، ولكن هل تعلم؟ لقد راودتني أول أمس فكرة مدهشة. سأقولها لك، وإن لم يكن هذا أوانها، إذ يجب أن تعرفها ناتاشا، وأن تسدي إلينا أنت بنصيحتك.

إليك الفكرة: سأكتب أقاصيص أبيعها للجرائد، مثلك. ستساعدني لدى الصحفيين، أليس كذلك؟ إني أعتمد عليك، وقد قضيت الليلة البارحة كلها أتخيل رواية، هكذا، على سبيل التجربة، ومن الممكن أن يخرج من ذلك شيء جميل جداً، هل تعلم؟ لقد اقتبست الموضوع من ملهاة سكريب*.. ولكن دعنا من هذا الآن سأقص عليك ذلك فيما بعد. المهم هو أن يدفعوا ثمن الرواية مالاً وافراً. هل يدفعون لك مبالغ كبيرة؟

لم أستطع أن أحبس ضحكة صغيرة ارتسمت على شفتي.

فقال مبتسماً هو الآخر:

- إنك تضحك.

ثم أضاف في سذاجة لا يمكن تصورها:

- لا.. إسمع.. لا تحكم عليّ بالظواهر.. إنني أملك كثيراً من روح الملاحظة حقاً - سترى ذلك أنت بنفسك. لماذا لا أحاول؟ قد يخرج من ذلك شيء.. على أنك قد تكون على حق.. إنني لا أعرف شيئاً من الحياة الواقعية.. وهذا ما تقوله لي ناتاشا أيضاً، بل هذا ما يقوله لي جميع الناس. فأي كاتب يمكن أن أكون؟ إضحك، إضحك، صحّح آرائي. إنك من أجلها إنما تفعل ذلك، لأنك تحبها. سأقول لك الحقيقة. إنني لا أستحقها. أنا أشعر بذلك. وهذا قاس عليّ جداً، ولست أدري كيف تستطيع ناتاشا أن تحبني

كل هذا الحب. وأعتقد أنني قادر على التضحية بحياتي في سبيلها! الحق أنني لم أكن أخشى شيئاً حتى هذه اللحظة، ولكنني الآن خائف. لست أدري في أي طريق نقذف بأنفسنا! رباه، كيف يصح لإنسان مخلص لواجبه أن تعوزه القدرة والقوة على تحقيق هذا الواجب؟ ساعدنا أنت على الأقل يا صديقنا! أنت الصديق الوحيد الذي بقي لنا! لا تؤاخذني إذا أنا اعتمدت عليك هذا الاعتماد كله. إنني أعتبرك رجلاً نبيلاً إلى أقصى حدود النبل، أفضل مني ألف مرة. ولكنني سأصلح من أمري، كن على ثقة من هذا، وسأكون جديراً بكما.

وضغط يدي مرة أخرى، وفي عينيه أشرقت عاطفة طيبة كريمة. كان يمد إليّ يده في كثير من الثقة، ويعتقد اعتقاداً راسخاً بأنني صديقه!

وتابع كلامه يقول:

- وستساعدني هي على إصلاح أمري. ثم إنه لا ينبغي أن يكون رأيك فينا سيئاً جداً، ولا تسرف في الحزن علينا. فإن أملي كبير رغم كل شيء، وسنتحرر من كل الهموم المادية. مثلاً إذا لم تنجح روايتي (ولا أكتمك أنه خطر على بالي أن هذه الرواية سخيفة، وإنما حدثتك عنها الآن لأعرف رأيك لا أكثر) أقول إذا لم تنجح روايتي فإنني أستطيع، إذا اقتضى الأمر، أن أعطي دروساً في الموسيقى. أنت لا تعلم أنني قدير في الموسيقى، فاعلم الآن ذلك. ولن أستحي أن أعيش من هذا العمل، إن آرائي بهذا الصدد «عصرية» جداً. أضف إلى هذا أنني أملك كثيراً من التحف الثمينة وأدوات الزينة وهي لا تفيدني في شيء فسأبيعها، وسنستطيع أن نعيش بثمنها مدة طويلة. ثم إنني في أسوأ الاحتمالات، أستطيع أن أعيّن لوظيفة

في الدولة، وسيُسر أبي لهذا سروراً عظيماً، فهو يحضّني دائماً على الانتماء إلى وظيفة من الوظائف، وأنا أرفض بدعوى أن حالتي الصحية لا تساعدني على ذلك (وقد تقدمت فعلاً بطلب). فإذا رأى أن الزواج قد أفادني، وجعلني عاقلاً رصيناً، وأدخلني الوظيفة، سره ذلك، فغفر لي.

- ولكن، يا ألكسي بتروفتش، هل فكرت في القضية القائمة الآن بين أبيك وأبيها؟ ثم هل فكرت فيما سيجري هذا المساء في بيت أهلها؟

قلت ذلك وأنا أومىء إلى ناتاشا التي امتقع لونها عند سماع هذا الكلام حتى لكأنها ميتة. كنت بلا شفقة ولا رحمة.

- نعم نعم، إنك على حق. الأمر فظيع. لقد فكرت في هذا قبل الآن، وتألمت كثيراً، وعذبني ضميري. ولكن ما العمل؟ إنك على حق، ليت أبويها، على الأقل، يغفران لنا! آه لو تعلم كم أحبهما! إنهما لي بمثابة الأهل، وانظر كيف أكافئهما! آه من هذه الدعاوى وهذه القضايا! لا تستطيع أن تتصور قسوة هذه الأمور علينا الآن! ولماذا يتخاصمون! إننا متحابون جميعاً، ومع ذلك نتخاصم! ينبغي أن نتصالح، وألا نعود إلى ذكر هذا الموضوع أبداً! هذا ما كنت أفعله لو كنت مكانكم. إن ما تقوله يخيفني. ناتاشا، إنها فظيعة هذه المؤامرة التي ندبّرها، وقد قلت لك ذلك من قبل، وأنت التي تلحين وتصرّين: ولكن اسمع يا إيفان بتروفتش، لعل هذه الأمور جميعها أن تنحل على خير ما نحب. ما رأيك؟ سوف يتصالحون أخيراً! ونحن الذين سنعمل لذلك. هذا ما سيحدث حتماً! لن يقاوموا طويلاً إزاء حبنا.. قد يلعنوننا الآن، ولكننا، نحن، سنظل نحبهم، ولن تطول مقاومتهم بعد ذلك. إن أبي ذو قلب طيب في بعض الأحيان،

لا تستطيع أن تتصور إلى أي حد! وهو في بعض الظروف يقدّر الأمور قدرها، رغم مظهره القاسي. ليتك رأيته اليوم وهو يخاطبني ويسدي إليّ بنصائحه، إذن لعرفت مدى رقته ونعومته. وها أنا ذا في هذا اليوم نفسه أعصي إرادته! لشد ما يؤلمني هذا! وما السبب في هذا كله؟ أفكار خاطئة استقرت في ذهنه. جنون. لو قد نظر إلى ناتاشا مرة واحدة، وجالسها نصف ساعة، إذن لوافق على زواجنا موافقة تامة.

قال أليوشا ذلك وهو يلقي على ناتاشا نظرة حب رقيق ملتهب، وتابع يقول:

- طالما تخيلت، في لذة ونشوة، أنه متى رآها أحبها، وأنها ستفتنهم جميعاً بلا استثناء. ما من أحد منهم رأى فتاة مثلها في حياته. إن أبي يظن أنها بنت ماكرة متلاعبة.. عليّ أنا أن أرد إليها اعتبارها، وسأفعل ذلك! آه يا ناتاشا، إن كل الناس يحبونك، كل الناس، وليس هناك أحد يستطيع أن لا يحبك.. أحبيني أنت يا ناتاشا، رغم أنني لا أستحقك، أنت تعرفين من أنا على كل حال. ناتاشا، ليس بيننا وبين السعادة إلا قليل. لا، لا، أعتقد أن هذا المساء سيجلب، لنا جميعاً السعادة والسلام والوئام! بورك هذا المساء! أليس كذلك يا ناتاشا؟ ولكن ماذا دهاك يا ناتاشا؟ رباه، ما بك يا ناتاشا؟

كانت شاحبة شحوب الأموات. كانت تحدق في أليوشا طوال الوقت، وهو يتحدث ويطنب في الحديث. كانت نظرتها تزداد قلقاً وسكوناً، وكان وجهها يزداد شحوباً واصفراراً. حتى لقد تراءى لي أنها أصبحت في آخر الأمر لا تصغي إلى الحديث، كأنها في غيبوبة. فلما صاح بها أليوشا كانت كمن يصحو من غيبوبة على حين

فجأة، فإذا هي تعود إلى نفسها، وتنظر حولها، ثم تهرع نحوي بغتة، وتخرج من جيبها رسالة تمدها إليّ، كأنها تحاول أن تخفي ذلك عن أليوشا. كانت الرسالة إلى أهلها، مؤرَّخة بتاريخ الأمس، وقد نظرت إليّ، وهي تناولني الرسالة، نظرة ملحاحاً، كأنها تحاول بهذه النظرة أن تتعلق بي: كان في وجهها يأس هائل، لن أنسى في حياتي هذه النظرة الفظيعة. واستبد بي الخوف أنا أيضاً، ورأيت أنها في هذه اللحظة إنما تشعر بهول ما أقدمت عليه. وحاولت أن تقول لي شيئاً، بل لقد بدأت بالكلام، ولكنها أغمي عليها فجأةً، واستطعت أن أمسك بها قبل أن تقع، وامتقع لون أليوشا رعباً، وأخذ يحك صدغيها، ويقبّل يديها وشفتيها. وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق عادت إلى وعيها. كانت العربة التي جاء بها أليوشا تقف غير بعيد منا، فناداها أليوشا، فلما استقرت ناتاشا في العربة، تناولت يدي كالمجنونة وسقطت على أصابعي من عينيها دمعة محرقة. وتحركت العربة.

ظللت في مكاني مدة طويلة أتابع العربة حتى غابت عن نظري. في هذه اللحظة ماتت سعادتي كلها، وتحطمت حياتي. شعرت من ذلك بألم حاد.. وعدت أدراجي ببطء، إلى العجوزين. كنت لا أعلم ماذا سأقول لهما، ولا كيف أدخل عليهما. كان فكري مخدراً، وكانت ساقاي تترنحان تحتي.

تلكم هي قصة سعادتي كلها. هكذا انتهى حبي. سأعود الآن لأكمل قصتي التي قطعتها.

الفصل العاشر

بعد موت سميث بأربعة أيام أو خمسة، ذهبت إلى غرفته أسكنها. كنت قد شعرت خلال ذلك النهار كله بحزن لا يطاق. كان الجو قاتماً بارداً. وكان يهطل ثلج رطب يمازجه مطر. وفي المساء فحسب، ظهرت الشمس في طرفة عين، وانسل أحد أشعتها إلى غرفتي انسلالاً يحدوه حب الاستطلاع من غير شك. وبدأت أندم على أنني هجرت منزلي. كانت الغرفة مع ذلك واسعة، لكنها واطئة، مدخنة، تفوح فيها رائحة الهواء الفاسد، وكانت فارغة فراغاً مزعجاً، رغم وجود بعض الأثاث. منذ تلك اللحظة شعرت أنني سأفقد في هذا المنزل ما بقي لي من عافية. وقد تحقق ذلك.

قضيت الصباح كله في عراك مع أوراقي أصنّفها وأرتبها. وكنت قد نقلتها في كيس الوسادة لأنني لا أملك حقيبة، فتكومت واختلطت. حتى إذا انتهيت من ترتيبها جلست للكتابة. كنت في ذلك الوقت ما أزال بسبيل كتابة روايتي الكبيرة. إلا أنني لم أجد في نفسي ميلاً إلى العمل. كان ثمة هموم أخرى تتزاحم في فكري. . .

رميت القلم، وجلست قريباً من النافذة. كان المساء يهبط، وازداد شعوري بالحزن. وهاجمتني أفكار سود شتى. لقد تراءى لي دائماً أنني سأنتهي في بطرسبرغ إلى الفناء، وكان الربيع يقترب، فبدا لي أنني سأنتعش وأحيا من جديد متى خرجت من هذه القوقعة إلى الهواء الطلق، متى تنشقت الرائحة الطرية، رائحة الحقول والغابات.

إنني لم أر الحقول والغابات منذ مدة طويلة! وخطر على بالي، فيما خطر، أن من الأفضل أن أنسى نسياناً تاماً كل ما كان، وكل ما عشته في هذه السنين الأخيرة.. أن أنسى كل شيء، أن أجدد روحي، وأستأنف حياتي بقوى جديدة. كنت أحلم بهذا، وأنتظر أن أبعث بعثاً جديداً. قلت في نفسي «أذهب إلى مستشفى من مستشفيات المجانين عند الاقتضاء، حتى يتحرك كل شيء في الدماغ ويعود إلى مكانه، ثم أشفى». كان بي ظمأ إلى الحياة، كنت أؤمن بالحياة. ولكنني أتذكر الآن أنني ما كدت أفكر في هذا حتى أخذت أضحك، وسألت نفسي: وبعد خروجي من مستشفى المجانين، ما عساني فاعلاً؟ أليس كتابة روايات، دائماً.

هكذا كنت أحلم وأتأمل، وكان الوقت أثناء ذلك ينقضي. وكان الليل يهبط. ولقد كنت في ذلك المساء على موعد مع ناتاشا. لقد أرسلت إليّ الليلة البارحة بطاقة تدعوني فيها إلى المجيء إليها. فلما تذكرت ذلك قفزت من مكاني، وأخذت أهيىء نفسي. كان بي على كل حال رغبة ملحة في أن أنتزع نفسي من هذا المنزل بأقصى سرعة ممكنة، ولو إلى أي مكان، تحت المطر، في الثلج الموحل.

وكنت كلما تكاثفت الظلمة أشعر أن غرفتي تزداد اتساعاً. وتخيلت أنني، في كل ليلة، في هذا الركن، سأرى سميث: سيكون جالساً يحدق فيّ كما كان يحدق في آدم إيفانوفتش، بالمقهى، وآزور بين قدميه. وفي هذه اللحظة تماماً، وقع حادث هزني هزاً قوياً.

ينبغي أن أكون صريحاً على كل حال: قد يكون هذا راجعاً إلى اهتياج أعصابي، إلى هذه الإحساسات الجديدة في المسكن الجديد، إلى هذه الكآبة الأخيرة؛ المهم على كال حال أنني قد أخذت أعاني متى اقترب المساء هذه الحالة النفسية التي تغشاني كثيراً في الليل،

في أيام مرضي هذه، هذه الحالة التي أسميها «ذعراً غريباً». إنها أضنى أنواع الخوف وأكثرها تعذيباً للنفس. هي خوف من خطر لا أستطيع أن أحدده أنا نفسي، من هلاك لا يمكن تصوره، ولا وجود له في طبيعة الأشياء، لكنه قد ينتصب أمامي الآن، في هذه اللحظة نفسها، مستهتراً بجميع حجج العقل، كواقع لا يمكن دفعه، مخيف جهنمي فظيع. هذا الخوف يشتد ويقوى في العادة شيئاً بعد شيء رغم جميع ما يخلص إليه العقل من نتائج، حتى أن الفكر ينتهي أخيراً، مع أنه في مثل هذه اللحظات قد يكتسب مزيداً من الصفاء والوضوح، إلى أن يفقد كل قدرة على معارضة الإحساسات ومقاومتها، فإذا المرء لا يصغي إليه وإذا الفكر عاجز. وهذا الازدواج يزيد ما يشعر به المرء من قلق مذعور يتوقع شيئاً رهيباً. أغلب ظني أن هذه الأحوال هي بعض ما يشعر به أولئك الذين يخشون عودة الموتى. إلا أن غموض الخطر كان يقوي عذابي وأنا فيما أنا فيه من قلق.

أذكر أنني كنت ملتفتاً إلى الحائط أتناول قبعتي من على المنضدة، حين خطر على بالي، فجأة، في تلك اللحظة تماماً، أنني متى التفتّ إلى الوراء فسأرى سميث حتماً؛ سيفتح الباب أولاً في رفق، وسيظل في العتبة يجيل النظر في الغرفة، سيدخل بعد ذلك صامتاً في هدوء، خافض الرأس، وسيقف أمامي يتفرّسني بعينيه القلقتين، ثم يأخذ يضحك مني، على حين بغتة، ضحكة صامتة طويلة، مكشراً عن لثة ليس فيها أسنان، وجسمه سيهتز من هذه الضحكة اهتزازاً يستمر مدة طويلة.

ارتسم هذا المشهد في خيالي، على حين فجأة، كصورة واضحة دقيقة إلى أقصى حدود الوضوح والدقة؛ وفي الوقت نفسه رسّخ في

نفسي اعتقاداً لا يتزعزع، اعتقاد جازم مطلق بأن هذا كله سيتحقق حتماً، وأنه واقع لا محالة، بل إنه قد حصل فعلاً، ولكنني لا أراه لأنني ملتفت إلى الحائط، وربما كان الباب يُفتح الآن. والتفتّ بسرعة: فإذا الباب يفتح فعلاً، في رفق، وهدوء، تماماً كما تصورت قبل لحظة. صرخت. ومضت مدة طويلة دون أن يظهر أحد، كأن الباب قد فُتح من تلقاء نفسه. وفجأة ظهر في العتبة مخلوق غريب: بدا لي في هذه العتمة أن عينيه تحدقان فيّ بإلحاح ولجاجة، فسَرَت في جسمي كله قشعريرة باردة. وفيما أنا في هذا الذعر الهائل رأيت أن الزائر طفلة، طفلة صغيرة، ولو كان الزائر سميث نفسه فلعلني ما كنت لأُذعر كل هذا الذعر الذي انتابني لدى ظهور هذه الطفلة هذا الظهور الغريب في غرفتي، في هذه الساعة، في مثل هذه اللحظة.

قلت إنها فتحت الباب بهدوء كبير، وبطء كبير، كأنها تخاف أن تدخل. وبعد أن دخلت وقفت في العتبة، وتفرّستني طويلاً كأنها مصعوقة من فرط الدهشة، وأخيراً خطت نحوي خطوتين، ووقعت أمامي، دون أن تنبس بكلمة. وتأملتها من كثب. إنها طفلة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها قصيرة القامة، نحيلة شاحبة كأنها ناهضة من مرض خطير، وعيناها تلتمعان ببريق قوي. كانت تشد إلى صدرها، بيدها اليسرى، «شالاً» مهترئاً مثقباً يغطي صدرها، وهي ترتعد من برد المساء. كانت ملابسها مما يمكن أن يوصف حقاً بأنه أسمال بالية. وكان شعرها الأسود الكثيف المنفوش يتهدل على كتفيها خصلاً. وبقينا هكذا متسمرين، دقيقتين أو ثلاث دقائق، يتفرس كل منا الآخر.

سألتني بصوت أجش لا يكاد يُسمع، كأن صدرها أو حلقها يؤلمها:

ـ أين جدّي؟

فتبدد، لدى هذا السؤال، كل الذعر الغبي الذي كنت أشعر به. إنها تسأل عن سميث. ها هي إذن آثاره تظهر.

ـ جدك؟ مات منذ مدة!

قلت ذلك دون تبصر، وسرعان ما ندمت على هذا الجواب. ظلت واقفة على وضعها نفسه مدة دقيقة تقريباً، ثم إذا هي، فجأة، تأخذ ترتعد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ارتعاداً قوياً عنيفاً كأنها على أبواب نوبة. فأمسكتها لأمنعها من السقوط. وبعد بضع دقائق تحسّنت حالها، ورأيت أنها تبذل جهداً فوق طاقة البشر لتخفي عني اضطرابها. قلت:

ـ سامحيني، سامحيني، يا بنيتي. لقد أبلغتك الخبر بقسوة.. وقد لا يكون هذا الخبر صحيحاً يا بنيتي المسكينة!.. عمن تبحثين؟ عن العجوز الذي كان يسكن في هذا المنزل؟

فدمدمت تقول في جهد، وهي تنظر إليّ قلقة:

ـ نعم.

ـ إذن هو.. هو الذي مات.. ولكن لا تحزني يا صغيرتي. لماذا لم تجيئي قبل هذا الوقت؟ ومن أين تجيئين الآن؟ لقد دفنوه أمس... لقد مات فجأة، بغتة.. أنت إذن حفيدته؟

لم تجب البنت على أسئلتي هذه المضطربة السريعة، بل دارت دون أن تنبس بكلمة، وخرجت من الغرفة بهدوء. كنت من فرط الاضطراب بحيث لم أمنعها من الخروج، ولم أطرح عليها أسئلة أخرى. وتوقفت مرة أخيرة في العتبة، والتفتت نحوي نصف التفاتة لتقول:

ـ وآزور أيضاً مات؟

ـ نعم، آزور أيضاً مات.

وبدا لي سؤالها عجيباً، لكأنها مقتنعة بأن آزور لا بد أن يموت هو والعجوز في وقت واحد. وبعد أن سمعت جوابي، خرجت من الغرفة دون ضجة، وأغلقت وراءها الباب في كثير من الهدوء.

وبعد دقيقة، هرعت وراءها، وأنا ألوم نفسي على أنني تركتها تمضي. كانت قد خرجت في سكون تام، حتى أنني لم أسمع فتح الباب الثاني المطل على السلّم، فقدّرت أنها لم تخرج بعد، فوقفت عند المدخل أصيخ بسمعي. ولكن كل شيء كان هادئاً، وما من صوت يسمع، إلا صرير باب يغلق في الطابق الأسفل، ثم يعود كل شيء إلى الصمت.

وهبطت على السلّم بسرعة. كان السلّم بين الدور الخامس والدور الرابع يدور حلزونياً، ثم يمضي بعد ذلك مستقيماً. وكان مظلماً قذراً، أسود، كسائر السلالم التي نراها في هذه العمارات من العاصمة، هذه العمارات المقسمة إلى منازل صغيرة. وكان في هذه اللحظة مظلماً ظلمة تامة، فلما وصلت إلى الدور الرابع وأنا أتلمس طريقي تلمساً، توقفت كأنما اعتقدت فجأة أن هاهنا، عند المدخل، شخصاً يختبئ عني، فأخذت أتلمّس بيدي. كانت البنت هنالك فعلاً، في الركن تماماً، مسندة وجهها إلى الحائط، تبكي في صمت.

ـ اسمعي، ما الذي يخيفك؟ هل أخفتك إلى هذا الحد؟ إنها غلطتي. لقد تكلم عنك جدك وهو يموت.. كانت آخر كلماته عنك.. ثم لقد بقيت كتبه عندي. إنها لك طبعاً. ما اسمك يا بنيتي؟ أين تسكنين؟ الشارع السادس..

ولكني لم أتم كلامي، فقد انطلقت من صدرها صرخة مذعورة،

كأنها خافت أن أعرف أين تسكن، ودفعتني بيدها الصغيرة النحيلة المعروقة، وأسرعت تهبط السلم. وتبعتها. كنت لا أزال أسمع وقع أقدامها تحت.. وفجأة لم أعد أسمع وقع أقدام. وحين قفزت إلى الشارع، لم تكن هناك. وبعد أن ركضت بسرعة حتى «شارع الصعود»، أدركت أن البحث عنها عبث: لقد اختفت. قلت في نفسي لعلها اختبأت في مكان ما وهي تهبط السلم.

الفصل الحادي عشر

ولكن ما إن وضعت قدمي على رصيف الشارع القذر، حتى اصطدمت فجأة برجل مستغرق في حلم عميق، يسير مطرق الرأس بخطى سريعة. فما كان أشد دهشتي حين نظرت إليه فإذا هو العجوز أخمنيف. كان هذا المساء مساء المصادفات العجيبة. كنت أعرف أن العجوز كان قبل ذلك بثلاثة أيام يعاني مرضاً، وها أنذا ألقاه فجأة في الشارع، في مثل هذا الجو الرطب! ثم إنه لا يكاد يخرج أبداً في المساء؛ ومنذ ذهبت ناتاشا، أي منذ ستة أشهر تقريباً، أصبح حبيس البيت لا يبرحه أبداً، وسرَّ بلقائي أكثر مما عهدت فيه من سرور حين يلقاني، سرّ سرور من يعثر أخيراً على صديق يستطيع أن يشاركه أفكاره. تناول يدي، وضغطها بقوة، وجرني باتجاهه دون أن يسألني إلى أين أنا ذاهب. كان ثمة شيء يشغل باله، وكان مستعجلاً قلقاً. قلت لنفسي: ترى أين يذهب؟ وكان من الخطأ أن أطرح عليه هذا السؤال. فلقد أصبح شكاكاً إلى أبعد حدود الشك، حتى لقد يرى في أبسط سؤال أو ملاحظة غمزاً مهيناً أو إساءةً خطيرة.

ونظرت إليه بطرف العين: كان وجهه وجه مريض. لقد نَحُلَ في المدة الأخيرة نحولاً شديداً. ولاحظت أنه لم يحلق ذقنه منذ ما يقرب من أسبوع. كان شعره الذي أبيضّ تماماً، يخرج من تحت قبعته. المشوهة فوضى، ويتدلى خصلاً طويلة على ياقة معطفه العتيق البالي. وكنت قد لاحظت أن له لحظات غيبوبة: من ذلك أن ينسى

في بعض الأحيان أنه ليس وحده في الغرفة، فيأخذ يكلم نفسه، ويحرك يديه ببعض الإشارات. كان منظره إذ ذاك مؤلماً.

ـ قل لي يا فانيا. ماذا وراءك؟ إلى أين كنت ذاهباً؟ أما أنا فقد خرجت لبعض الأعمال. كيف حالك؟

ـ وأنت كيف حالك؟ كيف تخرج وقد كنت مريضاً منذ زمن قصير؟

لم يجب العجوز على سؤالي، وبدا لي أنه لم يسمعني.

ـ كيف حال آنا أندريفنا؟

ـ بخير، بخير.. ثم إنها مريضة هي أيضاً.. لا أدري ماذا بها.. لقد أصبحت حزينة.. وهي تذكرك وتتحدث عنك كثيراً. لماذا لا تأتي إلينا يا فانيا؟ لعلك كنت آتياً إلينا الآن؟

ولكنه سألني فجأة وهو يلقي عليّ نظرة شك وحذر:

ـ ربما كان وجودي يزعجك؟

كان العجوز قد بلغ من فرط الحساسية وسرعة التهيج أنه لو جاءه جوابي بأنني غير ذاهب اليهم الآن، لعدّ الجواب إهانة فتركني على جفاء حتماً. فأسرعت أقول إنني ذاهب إليهم حقاً، لأزور آنا أندريفنا (كنت أعلم مع ذلك أنني متأخر، وأن وقتي لا يتسع للذهاب إلى ناتاشا).

ـ هذا حسن.. حسن جداً.

قال العجوز ذلك مطمئناً. وفجأة سكت وأخذ يفكر، كأنه لم يتمّ ما أراد قوله.

وبعد ذلك بأربع أو خمس دقائق كرر يقول:

ـ نعم هذا حسن.

قال ذلك على نحو آلي، كمن يستيقظ من حلم عميق.

ثم أردف:

ـ هل تعلم يا فانيا؟ لقد كنت لنا دائماً بمثابة ابن. لم يرزقنا الله ابناً، أنا وآنا أندريفنا، فأرسلك إلينا لتكون لنا بمنزلة الابن. هذا ما خطر على بالي دائماً.. نعم. ولقد كان سلوكك معنا دائماً سلوك الابن البار الذي يحترم أبويه ويحبهما. رضي الله عنك يا فانيا كما نرضى عنك كلانا، وكما نحبك.. نعم!

وأخذ صوته يرتجف، انتظر ما يقرب من دقيقة.

ـ نعم... هل كنت مريضاً يا فانيا؟ لماذا لم تأت إلينا طوال هذه المدة؟

فقصصت عليه قصة سميث، وقلت، على سبيل الاعتذار، أن هذه المسألة هي التي شغلتني، وأنني عدا ذلك كنت على وشك أن أمرض، وأن هذه المتاعب كلها هي التي حالت بيني وبين قطع هذه المسافة البعيدة إلى فاسيلي أوستروف لزيارتهم (في فاسيلي أوستروف إنما كانوا يسكنون في ذلك الوقت). وكاد يفلت من لساني أنني قد أتيح لي مع ذلك أن أزور ناتاشا، لكنني فطنت فتوقفت.

وقد اهتم العجوز كثيراً بقصة سميث، وأصغى إليها باهتمام شديد. ولما علم أن مسكني الجديد أرطب من مسكني القديم وربما كان أسوأ منه أيضاً، وأن أجرته ستة روبلات، غضب غضباً شديداً. لقد أصبح سريع الغضب نافد الصبر. وكانت آنا أندريفنا هي الوحيدة التي تستطيع أن تهدئ من روعه، في بعض الأحيان لا في جميع الأحيان.

صرخ فيما يشبه الكره:

ـ هِمْ.. هل هذا من الأدب يا فانيا. لقد أوصلك أدبك إلى هذا المسكن الحقير، وسيوصلك يوماً إلى المقبرة.. قلت لك هذا منذ زمان، تنبأت به منذ مدة طويلة! وماذا جرى لصاحبك ب.. أما يزال يكتب نقداً؟

ـ لقد مات مصدوراً. تعرف ذلك. أظن أنني ذكرت لك هذا الأمر.

ـ مات.. هِمْ.. مات.. هذا طبيعي. هل ترك شيئاً لامرأته وأولاده؟ لقد ذكرت لي أنه كان متزوجاً.. لماذا يتزوج مثل هؤلاء الناس؟

ـ كلا، لم يترك شيئاً.

فهتف في حنق كأن الأمر يتصل به اتصالاً وثيقاً، كأن المتوفى ب.. أخوه:

ـ طبيعي.. لم يترك شيئاً، لم يترك شيئاً أبداً. هل تعلم يا فانيا أنني أدركت منذ زمان، منذ الوقت الذي كنت لا تكلّ فيه عن كيل الثناء له، أنه سينتهي إلى هذا المصير؟ هل تتذكر؟ لم يترك شيئاً البتة! الكلام سهل! هِمْ.. لقد نال المجد، بل لعله مجداً خالداً، ولكن الجد لا يطعم خبزاً يا بني. منذ ذلك الوقت تنبأت بكل هذا لك أنت أيضاً يا عزيزي. كنت أهنئك على نجاحك في الأدب، ولكنني كنت بيني وبين نفسي أوجس شراً. إذن لقد مات ب..؟ وكيف لا يموت؟ إن الحياة جميلة، وهذا المكان جميل.. انظر!

قال ذلك وأشار بحركة من يده سريعة غير مقصودة، إلى فضاء الشارع يملؤه الضباب وتنيره أشعة قناديل ضعيفةً مهتزة، وإلى البيوت القذرة، وإلى بلاط الأرصفة يلتمع من الرطوبة، وإلى المارة الناتئة عظامهم من فرط النحول، المتقلصة وجوههم من شدة الهَمّ، إلى كل هذه اللوحة التي تلفها سماء بطرسبرغ قبةً قاتمة ملطخة بحبر أسود. وشارفنا الميدان. فأمامنا في الظلام ينتصب تمثال نيقولا الأول، تضيئه من الأسفل مصابيح الغاز، وتقوم وراءه كاتدارئية القديس إسحاق كتلة كبيرة قائمة تخترق السماء المظلمة*.

ـ قلت لي يا فانيا إن هذا الرجل كان رجلاً طيباً، نظيفاً، شريفاً، ذا قلب نبيل. هِمْ.. إنهم جميعاً هكذا، هؤلاء الناس ذوو القلوب النبيلة، لا يجيدون إلا أن يزيدوا عدد اليتامى! ويُخيَّل إليّ أنه كان فرحاً بالموت. هه هه.. فرحاً بالذهاب إلى أي مكان بعيد، ولو إلى سيبيريا. ماذا تريدين أيتها الصغيرة؟

قال هذه العبارة الأخيرة فجأة إذ رأى على الرصيف طفلة تطلب صدقة.

هي طفلة صغيرة نحيلة، في السابعة من عمرها، أو في الثامنة على أكثر تقدير ترتدي أسمالاً قذرة. كانت قدماها عاريتين في حذاء مثقب، وكانت تحاول أن تغطي جسمها الصغير المرتعش من شدة البرد بما يشبه معطفاً صغيراً مهترئاً أصبح منذ مدة طويلة قصيراً عليها. وكان وجهها النحيل المريض الشاحب، ملتفتاً نحونا. كانت تنظر إلينا خجلى لا تقول شيئاً، وتمد يدها المرتعشة بنوع من الخوف والتردد. وحين رآها العجوز أخذ يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، واستدار نحوها مسرعاً، حتى أنها من فرط سرعته خافت، فارتعدت، وابتعدت.

ـ ماذا تريدين يا صغيرتي؟ ماذا تريدين؟ تريدين إحساناً! خذي! خذي هذا لك.

قال ذلك وأخذ يبحث في جيبه مرتجفاً من شدة الانفعال، فأخرج منها قطعتين من النقود أو ثلاثاً، إلا أنه رأى ذلك قليلاً، فأخرج محفظته وسحب منها ورقة روبل (هي كل ما وجده) ووضع الورقة والنقود جميعاً في يد السائلة الصغيرة.

ـ المسيح يحميك يا صغيرتي، يا بنيتي!

ورسم إشارة الصليب عدة مرات على الطفلة البائسة، بيد

مرتعشة. ولكنه انتبه إلى وجودي فجأة، ولاحظ أنني أنظر إليه، فقطب حاجبيه وسار بخطى سريعة.

واستأنف يقول بعد فترة طويلة من صمت غاضب:

ـ إنني لا أستطيع يا فانيا أن أحتمل منظر هذه المخلوقات الصغيرة البريئة ترتجف من البرد في الشارع بسبب آبائها الملعونين. ولكن أية أم ترضى لطفلتها مثل هذه الحالة الكريهة إن لم تكن هي نفسها بائسة! لا شك أن هنالك، في الركن، يتامى أُخَر، ولعل هذه الطفلة كبراهم، ولعل الأم مريضة هي نفسها..

ليس هؤلاء الأطفال أبناء أمير.. في الأرض يا فانيا أطفال كثيرون ليسو أبناء أمراء! هم!

وصمت دقيقة، كأنما أوقفه عن الكلام أمر ما. ثم استأنف يقول مرتبكاً بعض الارتباك:

ـ اسمع يا فانيا، لقد وعدت آنا أندريفنا.. أعني اتفقنا على أن نتبنى يتيمة.. أي يتيمة.. ولكن يجب أن تكون فقيرة طبعاً، وأن تكون صغيرة أيضاً، نتبناها فتكون لنا.. فهمت؟ وإلا قتلنا الضجر.. عجوزان يعيشان وحيدين.. هِمْ.. ولكن اسمع: لقد عارضت آنا أندريفنا قليلاً هذا. كلّمها أنت إذن في الموضوع، لا على لساني طبعاً، بل كأن الاقتراح يأتي منك على غير سابق علم لك بالأمر.. برهن لها على ضرورة هذا. هل تفهم؟ كنت أريد أن أرجوك في هذا الأمر منذ مدة طويلة، عسى أن نقنعها، إذ يؤلمني أن أطلب إليها ذلك بنفسي. ولكن حسبي سخافات! ما لي ولهذا كله؟ ما شأني وشأن ابنة صغيرة! ما أنا في حاجة إلى هذا ولكنني قصدت من ذلك إلى التسلي، إلى أن أسمع صوت طفل. ثم إنني، والحق يقال، إنما أريد ذلك من أجل عجوزتي. فلأن يكون معنا طفلة صغيرة فذلك

أدعى إلى مرحها من أن تعيش معي وحدي. وتلك كلها تفاهات على كل حال. إسمع يا فانيا، لن نصل أبداً إذا نحن سرنا سيرنا هذا. فلنركب عربة. يجب أن لا نبتعد. إن آنا أندريفنا تنتظرنا.

وحين وصلنا إلى آنا أندريفنا كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف.

الفصل الثاني عشر

كان الزوجان العجوزان يحب كل منهما الآخر حباً عظيماً. لقد ربط الحب وربطت الإلفة الطويلة بينهما برباط لا ينفصم.

على أن نيقولا سرجتش، في هذه المدة الأخيرة، بل قبل ذلك في أسعد أيامه، كان لا يظهر لآنا أندريفنا عاطفته كثيراً، حتى لقد كان يعاملها أحياناً في خشونة، ولا سيما أمام الآخرين. إن في أصحاب النفوس الحساسة، المرهفة، الرقيقة، نوعاً من العناد في بعض الأحيان، فترى أحدهم يأبى أن يعبّر للشخص الذي يحبه عن حبه، لا بين الناس فحسب، بل وفي الخلوة أكثر مما بين الناس، ويندر أن تفلت منه ملاطفة، ولكنها إن أفلتت كانت عنيفة قوية عارمة، على قدر انحباسها مدة طويلة من الزمان. هكذا كان سلوك العجوز أخمينف مع عزيزته آنا أندريفنا منذ أيام الصبا. كان يحترمها ويحبها إلى غير حد، وكانت هي امرأة نبيلة القلب تفيض شهامة ولا تعرف شيئاً غير أن تحب، وكان يغضبه منها في بعض الأحيان أنها تسرف في التعبير له عن حبها. ولكن بعد ذهاب ناتاشا أصبح العجوزان كلاهما أرق مما كانا من قبل. أصبحا يشعران، والآلام تحزّ في نفسيهما أنهما الآن وحيدان في هذا العالم. ومع أن نيقولا سرجتش أصبح في بعض الأحيان مظلم النفس إلى أبعد حد، فإنهما لا يستطيعان الآن أن يفترقا، ولو ساعتين، دون أن يشعرا بقلق وألم. وقد اتفقا ضمناً على أن لا يتحدثا عن ناتاشا أبداً، كأنها لم تكن، حتى لقد كانت آنا

أندريفنا لا تجرؤ أن تذكر ناتاشا أمام زوجها بكلمة، رغم أن ذلك كان يؤلمها. إنها في أعماق قلبها قد غفرت لناتاشا منذ مدة طويلة. وقام بيني وبينها نوع من الاتفاق: أن أنقل إليها أخبار ابنتها الغالية كلما زرتها.

كانت العجوز تمرض حين تنقطع عنها أخبار ناتاشا مدة طويلة، حتى إذا جئتها ببعض الأنباء، اهتمت بأدق التفاصيل، وأخذت تمطرني بوابل من الأسئلة، فكانت صحتها تنتعش حينئذ وتتحسن؛ وفي ذات مرة كادت تموت رعباً حين علمت أن ناتاشا مريضة، وأوشكت أن تذهب إليها لتزورها. إلا أن ذلك صعب جداً. كانت في أول الأمر، حتى أمامي، تأبى أن تعبّر عن رغبتها في رؤية ابنتها، وكانت دائماً، بعد أحاديثنا عن ناتاشا، وبعد أن تحصل مني على جميع الأنباء التي تريد معرفتها، لا تنسى أن تحاول ضبط عواطفها، فتزعم أنها على اهتمامها بمصير ابنتها، تعتبر جريمتها جريمة نكراء لا يمكن أن تُغتفر. ولكن هذا كله كان تصنّعاً. وكانت تبلغ من شدة القلق في بعض الأحيان أنها تأخذ تبكي، مغدقة على ناتاشا أمامي أحرّ العواطف، مطلقة عليها أعذب الأسماء، شاكيةً نيقولا سرجتش مُرّ الشكوى، حتى لقد أخذت على مسمع منه تغمز، في رفق وأناة، من كبرياء الناس شاكيةً قسوة قلوبهم، قائلة إننا لا نغفر الإساءات، وإن الله لا يغفر لمن لا يغفرون. إلا أنها لم تكن تذهب إلى أبعد من هذا أمامه. في تلك اللحظات ما يلبث العجوز أن يقسو ويُظلم وجهه، ويصمت مقطباً حاجبيه، أو يأخذ على حين فجأة يتحدث بصوت عال جداً وفي غير لباقة عن أشياء أخرى، أو يتركنا وحدنا ويذهب إلى غرفته، ويدع بذلك لآنا أندريفنا أن تسكب همها كله في صدري دموعاً وتفجُّعاً. وكان يذهب إلى غرفته أيضاً عند كل زيارة

من زياراتي، بعد أن يحييني، ليتيح لي أن أنقل إلى آنا أندريفنا كل ما أحمل من أنباء جديدة عن ناتاشا. وهذا ما فعله في ذلك اليوم، فما إن دخلنا على آنا أندريفنا حتى قال:

ـ أنا ذاهب إلى غرفتي يا فانيا، لأنني مبلل أريد أن أغيّر ملابسي. إبقَ أنت هنا يا فانيا. لقد وقع له حادث في منزله؛ قصّ عليها هذا الحادث. سأعود بعد قليل..

وخرج مسرعاً، يحاول ألاّ ينظر إلينا، كأنما يؤنبه ضميره على أنه جمعنا. وفي مثل هذه الحالات، لا سيما حين يعود إلينا، كان يبدو خشناً معي ومع آنا أندريفنا، بل فظاً مزعجاً، كأنه يلوم نفسه ويقرعها على ضعفها وتهاونها.

وقد أصبحت آنا أندريفنا في المدة الأخيرة لا تخفي عني شيئاً ولا تتصنع ولا تتكلف، فلما خرج زوجها قالت:

ـ أرأيت؟ إنه دائماً هكذا معي. وهو يعلم مع ذلك أننا ندرك كل حِيَله. لماذا يتكلف أمامي؟ أأنا غريبة عنه؟ ولقد كان كذلك مع ابنته. إن في وسعه أن يغفر لها، ومن يدري! فلعله يريد أن يغفر لها. إنه يبكي في الليل. لقد سمعته بأذني. لكنه يحافظ على مظهر الصلابة والقسوة. ولقد أفقده الضعف صوابه.. قل لي يا عزيزي، يا إيفان بتروفتش، قل لي حالاً: إلى أين ذهب؟

ـ من؟ نيقولا سرجتش؟ لا أدري: هذا ما كنت أريد أن أسألك عنه.

لقد ذعرت حين رأيته يخرج وهو مريض، في هذا الجو السيىء ليلاً. قلت لنفسي لا بد أنه خارج لأمر خطير. وهل ثمة ما هو أخطر من القضية التي تعرفها؟ قلت ذلك لنفسي ولكني لم أجرؤ أن أسأله. لقد أصبحت لا أجرؤ أن أسأله عن شيء. يا إلهي، أصبحت

بسببه، وبسببها، طائشة اللب. قلت لنفسي: لعله ذاهب إليها، لعله قرر أن يصفح عنها. ذلك أنه يعرف كل شيء؛ إنه على علم بكل ما يتعلق بها، على علم حتى بآخر أنبائها. أنا مقتنعة بأنه يعرف جميع أخبارها، رغم أنني لا أفهم من أين يأتي بهذه الأخبار. كان في مساء أمس قلقاً جداً، وما يزال كذلك إلى اليوم. ولكن لماذا لا تقول شيئاً؟ تكلم يا عزيزي. ماذا حدث؟ لقد انتظرتك انتظار المهدي، وترقبت حضورك من لحظة إلى أخرى. إذن لقد هجر الحقير ناتاشا؟

قصصت على آنا أندريفنا كل ما أعرفه. لقد كنت صريحاً معها دائماً. أبلغتها أن ناتاشا وأليوشا سائران إلى الانفصال حقاً، وأن الأمر في هذه المرة أخطر من جميع الخلافات التي وقعت بينهما قبل ذلك. وذكرت لها أن ناتاشا أرسلت إليّ أمس رسالة تسألني فيها أن آتي إليها هذا المساء، في الساعة التاسعة، وإنني لهذا السبب لم أفكر في المجيء إليهم اليوم، وأن نيقولا سرجتش هو الذي قادني على غير إرادة مني، وشرحت لها، بتفصيل، أن الموقف الآن حرج، وأن والد أليوشا، وقد عاد منذ خمسة عشر يوماً تقريباً، لا يريد أن يسمع شيئاً، وأنه قرّع أليوشا تقريعاً عنيفاً قاسياً، وأن الأخطر من هذا كله أن أليوشا لا يأخذ على خطيبته شيئاً، بل إنه، فيما يقال، مغرم بها. وأضفت إن ناتاشا، فيما أقدّر، قد كتبت رسالتها إليّ وهي في حالة اضطراب شديد؛ فهي تقول في رسالتها إن كل شيء سيتقرر هذا المساء، والغريب أن تكتب إليّ أمس ترجوني أن أحضر اليوم، في ساعة معينة هي التاسعة. لذلك لا بد لي، حقاً، من الذهاب بأقصى سرعة.

أخذت العجوز تقول مضطربة:

- اذهب إليها يا عزيزي، اذهب إليها، ستتناول قليلاً من الشاي

متى عاد. آه أين السماور؟ نعم سوف تتناول قليلاً من الشاي، ثم تنتحل عذراً مقبولاً لتذهب. وغداً تعود حتماً لتقص عليّ كل شيء. وأرجوك أن تبكر. يا إلهي! هنالك مصيبة جديدة أسوأ من المصائب السابقة! قلبي يحدثني بأن نيقولا سرجتش على علم بكل شيء. أنا شخصياً أطّلع على أشياء كثيرة بواسطة ماتريونا، وماتريونا تطلع على هذه الأشياء بواسطة آجاتي، وآجاتي قريبة ماري فاسلفنا التي تسكن في بيت الأمير.. ولكنك تعرف كل هذا. لقد كان نيقولا في حالة غضب هائل، حتى كاد ينفجر صارخاً في وجهي، إلا أنه ندم على فعلته، فأبلغني أنه في ضيق مالي.. كأنما ليزعم أنه إنما يصرخ لأنه في ضيق مالي. ولكنك تعلم حالتنا المالية. وبعد الغداء ذهب لينام فألقيت من خلال الشق (إن في باب غرفته شقاً لا يعرفه)، فرأيته راكعاً، يا صديقي، أمام صور القديسين يصلي. فحين رأيت ذلك خارت قواي واصطكت ركبتاي. لم يشرب قدح الشاي الذي اعتاد أن يشربه، ولا نام بعد الظهيرة على عادته، بل تناول قبعته وخرج. وفي الساعة الخامسة لم أجرؤ أن أطرح عليه أي سؤال؛ ولو قد سألته عن شيء لصرخ في وجهي. لقد اعتاد أن يصرخ في وجهه ماتريونا غالباً، وفي وجهي أنا أحياناً. ومتى بدأ يصرخ تتعطل ساقاي وأشعر كأن شيئاً في قلبي ينتزع. شيء فظيع. وحين خرج ظللت أصلي، وأدعو الله، ساعة كاملة، أن يلهمه الرشد وأن يرده إلى الصواب. ولكن أين رسالة ناتاشا، أرنيها!

أريتها الرسالة. وكنت أعلم أن أملها الخفي المفضل هو أن يرضى أليوشا، الذي تنعته تارة بالحقارة، وتارة بأنه صبي أرعن غير ذي شعور، أن يتزوج ناتاشا، وأن يوافق أبوه، الأمير بطرس ألكسندروفتش، على هذا الزواج. وقد زلّ لسانها مرة أمامي،

فأفصحت عن أملها هذا، وإن عادت عن كلامها بعد ذلك، نادمةً على أنها قالته. ولكن ما كان لها أن تجرؤ يوماً على إعلان أملها هذا أمام نيقولا سرجتش، رغم أنها تعلم أن العجوز يشتبه في ذلك، حتى لقد لامها عليه، في ذات مرة، لوماً غير مباشر. أعتقد أنه لو أيقن بأن هذا الزواج ممكن.. للعن ناتاشا إلى الأبد، ولانتزعها من قلبه إلى غير رجعة.

هذا ما كنا نعتقد به جميعاً: لقد كان ينتظر أن تعود ابنته إليه، ويتمنى ذلك من أعماق قلبه، ولكنه ينتظر أن تعود وحدها، نادمةً على فعلتها، نازعة من قلبها ذكرى أليوشا. كان ذلك هو الشرط الوحيد الذي يشترطه للصفح عنها، وهو شرط لم يعلن عنه، ولكنه في نظره شرط معقول، ولا بد منه.

ـ إنه ضعيف الإرادة، هذا الصبي، ضعيف الإرادة، ضعيف الشعور. لقد قلت دائماً إنهم لم يحسنوا تربيته، ولد طائش. أيهجرها من أجل هذا الحب؟ يا إلهي! ما عسى أن يكون مصير هذه المسكينة! وماذا أَحبَّ في الأخرى؟ إنني لا أفهم؟

ـ سمعت من يقول إنها فتاة فاتنة. ثم إن ناتاليا نيقولايفنا تقول هذا أيضاً.

لا تصدق، إنكم أيها الرجال طائشون تفتتنون بكل فتاة، ولئن أطرت ناتاشا جمالها فما ذلك إلا كرم منها وسماحة، إنها لا تعرف كيف تحتفظ بأليوشا فتغفر له كل شيء، ولكنها تتألم! كم مرة خانها، هذا اللص، هذا المجرم! آه يا إيفان بتروفتش، لقد أطاش الصلف صوابهم جميعاً! ليت عجوزي على الأقل يهدئ من روعه، ويصفح عن صغيرتي الحبيبة ويردها إلى هنا، فأستطيع أن أقبّلها، أن أنظر في وجهها. هل نحلت؟ ·

ـ نعم، يا آنا أندريفنا.

ـ آه يا صديقي! وقد نزلت بي نازلة يا إيفان بتروفتش، بكيت طوال الليل وطوال النهار.. ولكنني سأقص عليك ذلك فيما بعد! كم مرة أوشكت أن أسأله أن يغفر لها! ولكنني لا أجرؤ على مكاشفته بذلك صراحة، فألمعت إلماعاً خفياً بعيداً. لقد خانتني الجرأة، مخافة أن يغضب فيلعنها إلى الأبد.. وهو لم يلعنها إلى الآن، وإذا كنت أخشى شيئاً فهو أن يفعل ذلك. ويا ويلي إذا لعنها! إذا لعن الأب، فإن الله يجازي. وهكذا أعيش كل يوم في رعب دائم. وأنت يا إيفان بتروفتش، ألاً تستحي؟ نشأت في بيتنا، ودللناك تدليل الأبوين لولدهما، ثم تتوهم أنها فتاة فاتنة! ماذا أصاب عقلك؟ فاتنة! وهذه ماريا فاسيلفنا تشتط أكثر من ذلك.. لقد أخطأتُ فدعوتها مرة إلى تناول القهوة أثناء غياب زوجي لأعماله طوال الصباح، فقصَّت عليّ جميع خفايا المسألة. إن الأمير، أبا أليوشا، على علاقة أثيمة بكونتيسة. ويقال إن الكونتيسة تلومه منذ مدة طويلة على أنه لم يتزوجها، أما هو فيؤجل دائماً. وهذه الكونتيسة معروفة بسوء سلوكها، منذ كان زوجها على قيد الحياة، وحين مات زوجها سافرت إلى الخارج وعاشرت إيطاليين وفرنسيين! ووجدت بعض البارونات؛ وهنالك إنما اصطادت أيضاً الأمير بطرس ألكسندروفتش، وفي أثناء ذلك كانت تكبر ابنة زوجها، زوجها الأول، أحد تجار الخمور. وكانت الكونتيسة تبذِّر أموالها يمنة ويسرة، وكانت كاترين فيدوروفنا يشتد ساعدها أثناء ذلك، والمليونان اللذان خلفهما لها أبوها كانا يزيدان، ويقال إنها تملك الآن ثلاثة ملايين. قال الأمير لنفسه على الفور: «هذه فرصة لتزويج أليوشا» (إنه ثاقب البصر، ولا يدع الفرصة تفلت منه). أما قريبها الكونت، وهو رجل رفيع المنزلة

يُستقبل في البلاط، فهو كذلك موافق. ثلاثة ملايين، ليست مزحة. بقي أن توافق الكونتيسة. ومضى الأمير إلى الكونتيسة يبلغها رغبته. وتدللت الكونتيسة وتمنّعت. هذه امرأة لا مبادئ لها، فيما يقولون، وهى وقحة. وقد سمعت أن الناس هنا لا يقبلون زيارتها في بيوتهم. هنا شيء، وفي البلاد الأجنبية شيء آخر. قالت: «كلا، يا أمير، أنت تتزوجني، أما ابنة زوجي فلن تكون امرأة أليوشا». ويقال إن الفتاة تحب امرأة أبيها حباً عظمياً؛ إنها تعبدها عبادة، وتطيعها في كل أمر. يظهر أنها لطيفة، أنها ملاك! ويعرف الأمير كيف يخاطب الكونتيسة وكيف يؤثر فيها. قال لها: «اسمعي يا كونتيسة، لقد أنفقت أنت جميع أموالك، وغرقت في الديون، فإذا تزوجت ابنة زوجك بأليوشا، وكلاهما غر ساذج، استطعنا أن نسيطر عليهما وأن نجعلهما تحت وصايتنا، فتحصلين على المال أنت أيضاً. مالك وللزواج بي!». إنه امرؤ ماكر محتال!.. ماسوني! جرى هذا منذ ستة أشهر، ولم تعزم الكونتيسة أمرها، ولكن يقال الآن إنهما سافرا إلى فارصوفيا، وأنهما اتفقا هنالك. ذلك ما قيل لي. إن ماريا فاسيلفنا هي التي قصّت عليّ ذلك كله، من البداية إلى النهاية. وقد سمعته هي من مصدر موثوق. هذه هي المسألة إذن: مسألة مال، مسألة ملايين، أما أن تقول إن الفتاة فاتنة... فهذا ما لا أريد أن أسمعه!

أدهشني ما روته آنا أندريفنا. إنه عين ما سمعته من أليوشا نفسه منذ مدة قصيرة. وقد حلف وهو يقصّ على هذا أنه لن يرضى لنفسه، ما عاش، أن يتزوج في سبيل مال. لكنه قال إن كاترين فيدوروفنا قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً. وقال ربما تزوج أبوه أيضاً، رغم تكذيبة الإشاعات، خشية إغضاب الكونتيسة. وقد سبق أن قلت إن أليوشا يحب أباه كثيراً: كان يعجب به أشد الإعجاب، وكان يعتز به

أكبر الاعتزاز، ويرى فيه عرَّافة بل نبياً.

وتابعت آنا أندريفنا تقول وقد ازداد استياؤها مما قلت في حق خطيبة الأمير الشاب المقبلة من ثناء:

ـ وليست هي من أسرة نبيلة! إن ناتاشا أَليَق به منها. وهي ابنة تاجر خمور، وناتاشا من سلالة عريقة في حلبة النبل. إن عجوزي قد فتح بالأمس (نسيت أن أقول لك ذلك) صندوقه الصغيرة وظل طوال السهرة جالساً أمامي يقلب الأوراق القديمة التي تضم تاريخ أسرتنا العريقة... كان في وجهه اهتمام وجد. وكنت مشغولة بحياكة الجرابات، لا أجرؤ على النظر إليه؛ ولاحظ أنني صامتة فغضب، ثم دعاني إليه وظل طوال الليل يشرح نسب الأسرة، فاتضح أننا، نحن أسرة أخمنيف، كنا من النبلاء منذ عهد إيفان الرهيب*، وأن أهلي أنا، أسرة شوميلوف كانوا منذ أيام ألكسي ميخائيلوفتش. والوثائق متوفرة لدينا، ويشير إلى ذلك تاريخ كرامازين. ترى من هذا، يا عزيزي، إننا لا نقل عن غيرنا من هذه الناحية. وحين أخذ العجوز يشرح لي، فهمت على الفور ما يدور في رأسه. هو أيضاً يحرجه أن يحتقروا ناتاشا. ليس لهم من فضل علينا إلا الغنى. ليستهتر هذا اللص، بطرس ألكسندروفتش، في سبيل الثروة ما شاء له الاستهتار: إن جميع الناس يعرفون أنه امرؤ قاسٍ بشع كريه. ويقال إنه دخل اليسوعية سرا بفارصوفيا، هل هذا صحيح؟

ـ سخافات!

قلت ذلك وقد أزعجتني هذه الإشاعة بالرغم مني، وشاقني أكثر من ذلك أن أعلم أن نيقولا سرجتش قد قلب أوراق أسرته، مع أنه ما كان تباهى بمحتّده قبل ذلك أبداً.

وتابعت آنا أندريفنا تقول:

ـ إنهم جميعاً حقراء، ليس لهم قلوب. ولكن قل لي يا عزيزي، كيف حالها هي، حمامتي؟ أهي حزينة؟ هل تبكي؟ لقد حان موعد ذهابك إليها، ماتريونا، ماتريونا، يا بنت ال.. ! قل لي يا عزيزي: هل أهانوها؟ قل يا فانيا، تكلم.

هل كان في وسعي أن أقول شيئاً؟ لقد انفجرت العجوز باكية منتحبة. سألتها ما هي المصيبة الجديدة التي كانت تريد أن تقصها عليّ منذ قليل.

ـ آه يا عزيزي، ما كفانا الذي نحن فيه من مصائب، كأننا لم نشرب الكأس حتى الثمالة! لعلك تذكر، يا صديقي، أو لعلك لا تذكر أنه كان عندي نيشان ذهبي وضعت فيه صورة صغيرة لعزيزتي ناتاشا يوم كانت هذه الملاك في الثانية من عمرها. وقد عهدنا برسم هذه الصورة، أنا ونيقولا سرجتش، إلى رسام مرّ بالبلدة عرضاً.. أرى أنك قد نسيت! وكان الرسام بارعاً، عنى برسم الصورة، ووضع فيها كل حبه وقلبه. كان لناتاشا يومئذ شعر ذهبي كأنه الزبد نعومة. وقد رسمها مرتدية غلالة شفافة يرى من ورائها جسمها الصغير: كانت جميلة جمالاً لا يكل المرء من النظر إليه. وقد طلبت إلى الرسام يومئذ أن يضيف إليها جناحين، ولكنه أبى. هذا النيشان، أخرجته من صندوقي، بعد هذه المشاكل العظيمة التي مرت بنا، وعلقته إلى عنقي بحبل، وصرت أحمله مع صليبي، وأخاف أن يبصره زوجي، لأنه كان قد أمر بأن تُرمى أو تحرق جميع الأشياء التي يمكن أن تذكر بناتاشا. ولكن كان لا بد لي، أنا، من أن أستطيع رؤية صورتها، فكنت أنظر إليها من حين إلى حين، فأبكي وكان هذا البكاء يسري عني، وكنت في بعض الأحيان، حين أخلو

إلى نفسي، ألتهم الصورة بالقُبَل التهاماً، كأنما أنا أقبّل ناتاشا نفسها، وكنت أناديها بأرق الأسماء، وأرسم عليها إشارة الصليب في كل ليلة. كنت أتحدث إليها بصوت عال، حين أكون وحدي، وأطرح عليها سؤالاً فأتخيل أنها تجيبني، فأطرح عليها سؤالاً آخر. آه يا فانيا، لشدّ ما يؤسفني أن أقصّ عليك باقي الحكاية. كان يسعدني أنه لا يعرف من أمر النيشان شيئاً ولا لاحظ شيئاً. ولكني تفقدت النيشان صباح الأمس فلم أجده! لم يبق إلا الحبل معلقاً في عنقي. كان النيشان قد انفصل عن الحبل، ولا شك أنه سقط. حزنت لهذا أشد الحزن. وأخذت أبحث وأبحث، ولكن دون جدوى. غاب النيشان ولم أعثر له على أثر. تساءلت أين عساه اندس؟ وقلت لنفسي: لا شك أنه سقط في سريري، فغاب بين ثناياه. ونبشت السرير، قلبته رأساً على عقب، فلم أجد شيئاً، وقلت: إذا كان قد سقط في مكان ما، فلا بد أن يعثر به أحد، ومن عسى يعثر به غيره هو، وغير ماتريونا؟ أما ماتريونا، فلا، لأنها مخلصة لي كل الإخلاص.. ماتريونا، هلاّ أتيت بالسماور؟ قلت: وإذا كان هو قد وجده، فما عسى أن يقع؟ وظللت لا أعمل شيئاً غير الانتحاب والبكاء، ولا أستطيع أن أحبس دموعي. وأصبح نيقولا سرجتش أكثر رقة ولطفاً في معاملتي، وأصبح الحزن يفيض في وجهه حين ينظر إليّ، كأنه يعرف لماذا أبكي، فيرثي لحالي. عندئذ قلت لنفسي: كيف يمكنه أن يعلم ذلك؟ لعله إذن قد عثر على النيشان فعلاً فرماه من النافذة؟ إنه لا يتورع عن هذا. لا شك أنه رماه، وأنه الآن حزين ندماً على أنه رماه. عندئذ ذهبت إلى فناء البيت أبحث عن النيشان مع ماتريونا، ولكننا لم نجد شيئاً. لقد غاب النيشان تماماً. وقضيت الليلة كلها أبكي وأنتحب. كانت تلك هي الليلة الأولى التي لا أرسم

فيها على ابنتي إشارة الصليب. آه يا عزيزي! إن هذا نذير شؤم. وقد قضيت النهار كله أبكي بلا انقطاع. وكنت أنتظر وصولك كأنك رسول من السماء، لعلك تواسيني على الأقل.

وأخذت العجوز تبكي بكاء مراً.

ثم استأنفت فجأة تقول، وقد أشرقت في وجهها سعادة:

ـ ها. . نسيت أن أقول لك: هل حدثك عن اليتيمة؟

ـ نعم، يا آنا أندريفنا. قال لي إنكما فكرتما في الأمر طويلاً، وإنك وافقت على تبني طفلة يتيمة ليس لها أبوان. هل هذا صحيح؟

أنا لم أفكر في هذا أبداً يا صديقي، وأنا لا أريد أية يتيمة. . لأنها ستذكّرنا بحظنا التعيس، بشقائنا. لا أريد أحداً غير ناتاشا. ليس لي إلا ابنة واحدة، ولن يكون لي غير ابنة واحدة. ولكن قل لي يا فانيا: ترى ما معنى تفكيره في تبني طفلة يتيمة؟ أتراه فكر في ذلك، مواساةً لي، لأنه يرى دموعي، أم ليطرد ذكرى ابنته من خياله طرداً تاماً ويتعلق بطفلة أخرى؟ ماذا قال لك عني؟ كيف بدا لك؟ قاتم الوجه غاضباً؟ هُس. ها هو ذا يعود. . ستقول لي فيما بعد. لا تنس أن تعود غداً.

الفصل الثالث عشر

دخل العجوز، فلفّنا بنظرة مستطلعة، كأنه كان خجلاً من أمر من الأمور، فقطب حاجبيه واقترب من المائدة.

ـ أين السماور؟ ألم يُؤْتَ بالسماور؟

ـ بل ها هو ذا، ها هو ذا.

لقد جاءت ماتريونا بالسماور منذ رأت نيقولا سرجتش يدخل علينا، كأنها كانت تنتظر دخول سيدها حتى تضع السماور على المائدة. إنها خادمة عجوز مخلصة، لكنها أكثر خادمات الأرض نزوات وانتقادات وعناداً. كانت تخشى نيقولا سرجتش فتحبس لسانها أمامه، لكنها لا تتحرج مع آنا أندريفنا، بل تعاملها معاملة خشنة، ولا تتورع عن إظهار طمعها في السيطرة على سيدتها، مع كونها تحمل لها ولناتاشا حباً عميقاً صادقاً. وكنت قد تعرفت إلى ماتريونا هذه في أخمينفكا.

دمدم العجوز يقول بصوت خافت:

ـ كأنما ليس يكفي أن تكون ثياب المرء مبللة، فيضنّون عليه بالشاي.

وما لبثت آنا أندريفنا أن غمزتني بعينها. كان العجوز لا يحتمل غمزات الأعين هذه المختلسة؛ ومع أنه في هذه اللحظة حاول أن لا ينظر إلينا، فقد كان واضحاً في وجهه أنه أدرك أن آنا أندريفنا قد غمزتني في هذه اللحظة.

وبدأ فجأة يقول:

ـ لقد خرجت لبعض الشؤون.. خرجت لمشكلة من هذه المشاكل السخيفة القذرة.. هل قلت لك إنهم حكموا عليّ؟ ليس لديّ أدلة، فالأوراق اللازمة تعوزني، وقد جرى التحقيق بغير عدل...

إنه يتحدث عن القضية التي بينه وبين الأمير. لقد كانت هذه القضية تسير ببطء، وكانت تتطور إلى غير مصلحة نيقولا سرجتش.

سكتّ لا أدري بم أجيب، فنظر العجوز إليّ نظرة ارتياب. واستأنف يقول كأنما أغضبه سكوتنا:

ـ ثم ماذا؟ الأفضل أن تنتهي هذه القضية بسرعة. لن يجعلوني حقيراً ولو حكموا عليّ بالمصاريف. إن ضميري مرتاح، وليقضوا بعد ذلك بما يشاؤون! على الأقل سأكون قد نفضت يدي من هذه القضية. قد يدمرونني ولكنهم سيتركونني بعد ذلك وشأني.. سأدع كل شيء، وأسافر إلى سيبيريا.

لم تستطع آنا أنادريفنا أن تحبس لسانها فأسرعت تقول:

ـ ولكن لماذا كل هذا البعد؟

فأجاب العجوز في غلظة كأنما ساءه جوابها:

ـ وممّ نحن هنا قريبون؟

فقالت آنا أندريفنا وهي تلقي عليّ نظرة قلقة:

ـ على كل حال.. من الناس..

فصرخ وهو يلقي عليّ وعلى زوجه نظرته الغضبى:

ـ أي ناس؟ اللصوص؟ المتخرصين؟ الخونة؟ هؤلاء يوجد منهم في كل مكان. لا تخافي. سنجد منهم في سيبيريا أيضاً. وإذا شئت ألا تأتي معي، ففي وسعك أن تبقي هنا. لن أجبرك على شيء.

فهتفت المسكينة آنا أندريفنا:

ـ نيقولا سرجتش، عزيزي، أبقى هنا بدونك؟ أنت تعلم أن ليس غيرك في هذا العالم أحـ...

وارتبكت، فصمتت، وأدارت نحوي نظرة مذعورة، كأنها تتوسل إليّ أن أتدخل، أن أسعفها؛ وكان العجوز مهتاجاً يختلج كل عضو من أعضائه.

كان يستحيل أن يُعارَض. قلت:

ـ هذه فكرة حسنة يا آنا أندريفنا. إن الحياة في سيبيريا ليست سيئة إلى الحد الذي يتصوره الناس. إذا نزلت المصيبة، وكان لا بد لكم من بيع أخمنيفكا، فإن مشروع نيقولا سرجتش يكون مشروعاً رائعاً، إنه يستطيع أن يجد في سيبيريا عملاً ممتازاً، وعندئذ...

ـ أنت على الأقل يا إيفان تقول قولاً رصيناً. لقد فكرت في الأمر طويلاً. سأترك كل شيء وأسافر.

هنا صرخت آنا أندريفنا وهي تضرب كفاً بكف:

ـ هذا ما لم أكن أتوقعه. أأنت تقول مثله أيضاً يا فانيا؟ هذا ما لم أكن أتوقعه منك أنت أيضاً يا إيفان بتروفتش... لم تلق منا إلا المحبة، والآن...

قاطعها العجوز قائلاً:

ـ ها ها ها! وماذا كنت تظنين إذن؟ مم كنت تحسبين أن نعيش؟ فكري قليلاً! لقد تبدد ما لنا، وأوشك أن ينفد آخر كوبك نملكه! أم تُراك ستطلبين إليّ أن أذهب إلى الأمير بطرس ألكسندروفتش أسأله العفو والصفح؟

فما إن سمعت العجوز اسم الأمير حتى أخذت ترتجف ذعراً، وإذا بملعقتها التي كانت بيدها تسقط على صحنها فتحدث رنيناً.

وشعر أخمنيف بحماسة، وبفرح شرير عنيد، فأخذ يقول:

ـ حقاً هذا ما يجب أن أفعله! أليس كذلك يا فانيا؟ ألاً يجب عليّ أن أذهب إلى الأمير؟ لماذا؟ لماذا السفر إلى سيبيريا؟ أليس من الأفضل، منذ الغد، أن أرتدي أحسن ما عندي من ثياب، وأن أصفف شعري، وأن أظهر في أجمل حلة: تهيئ لي آنا أندريفنا قميصاً جديداً (لا بد من هذا حين يذهب المرء إلى شخص عظيم كالأمير!) وأشتري قفازات حتى أكون في أبهى زي، وأمضي إلى صاحب السمو أقول له: «سيدي الأمير، يا من أحسنت إليّ وكنت لي خير سند وعضد، يا أبت الرؤوف، اغفر لي، واشفق عليّ، وهب لي من لدنك كسرة خبز، لأن لي امرأة وأطفالاً صغاراً!» أليس كذلك يا آنا أندريفنا؟ أهذا ما تريدينه؟

فقالت وقد ازداد ارتجافها:

ـ أنا لا أريد شيئاً يا عزيزي.. وقد قلت ما قلت حماقةً وطيشاً. عفوك إذا كنت قد أزعجتك.. لكن لا تصرخ..

يقيني أنه كان حين يرى دموع زوجته المسكينة وذعرها يحزن حزناً شديداً ويتأثر أعظم التأثر، ويقيني أنه كان أكثر تألماً منها، إلا أنه ما كان يستطيع أن يملك زمام نفسه. وهذا ما يتفق في بعض الأحيان لأشخاص أوتوا نبل القلب وكرم النفس، إلا أنهم عصبيون، فهم رغم كل ما في قلوبهم من نبل وكرم ينساقون مع حزنهم وغضبهم إلى حد التلذذ بالحزن والغضب، محاولين أن ينفضوا ما في نفوسهم مهما كلف الأمر، ولو بالإساءة إلى شخص بريء، بل إنهم ليفضلون أن يكون هذا الشخص أقرب الناس إليهم. فالمرأة مثلاً تحتاج أحياناً إلى الشعور بأنها شقية مُذَلّة، ولو لم يكن هنالك شقاء ولا إذلال. وهنالك كثير من الرجال يشبهون النساء في هذا،

ولو لم يكونوا من ضعاف الرجال، ولا ممن يشبهون المرأة شبهاً كبيراً. ولقد كان العجوز يشعر بالحاجة إلى التشاجر، وإن كان هذا يؤلمه أول من يؤلم.

أذكر أن فكرة خطرت على بالي حينئذ. تساءلت: ترى أليس من الممكن أن يكون منذ قليل قد قام بمحاولة من النوع الذي دار في خلد آنا أندريفنا؟ من يدري؟ لعل الله قد أوحى إليه بهذه الخطة، فكان ذاهباً إلى ناتاشا، ثم عدل عن ذلك في الطريق، أو لعل شيئاً قد وقع، فتزعزع قراره، فعاد إلى بيته غاضباً، مهاناً، خجلاً مما شرع فيه، ومما خالجه من عواطف، يبحث عن شخص يصب على رأسه الغضب الذي أيقظه فيه ضعفه، ويختار لهذا الغرض أولئك الذين يقدّر أنهم يشعرون بهذه الرغبات عينها، وبهذه العواطف نفسها، أو لعله، وقد أراد أن يغفر لابنته، قد تصور ما سيجيش في نفس عجوزته المسكينة من حماسة وفرح، فلما أخفق في مشروعه كانت عجوزه أول من يتحمل نتائج هذا الإخفاق.

وحين رآها حزينة محطَّمة، ترتعد أمامه حزناً، تأثر تأثراً شديداً. وكأنه خجل من ثورته، فكظم غيظه لحظة. وصمتنا جميعاً، وحاولت ألاّ أنظر إليه. لم تدم هذه اللحظة طويلاً. فلقد كان لا بد له أن يتكلم مهما كلف الأمر، ولو بانفجار، ولو بلعنات. فقال فجأة:

ـ اسمع يا فانيا. إن ما سأقوله يؤلمني، وما كنت أحب أن أقوله. ينبغي أن أتكلم بصراحة، بلا لفّ ولا دوران، كما يليق بكل رجل شريف مستقيم.. هل تفهمني يا فانيا؟ يسرني أن تكون الآن هنا، ولهذا أريد أن أتحدث بصراحة، وذلك حتى يفهم الآخرون أن جميع هذه السخافات، وهذه الدموع، وهذه التنهدات، وهذه الآلام،

تزعجني أخيراً. إن الشخص الذي انتزعته من قلبي، ولعلني إذا فعلت ذلك قد آلمت قلبي وأدميته، لن يعود إلى قلبي أبداً. نعم، سأفعل ما قلته. إنني أتحدث الآن عما وقع منذ ستة أشهر، علّ تفهمني يا فانيا؛ ولئن كنت أتحدث عن ذلك الآن بمثل هذه الصراحة، فلكي لا تخطئ التقدير يوماً فتسيء فهم كلامي (قال ذلك وهو يثبت فيّ نظراته الملتهبة ويتحاشى نظرات زوجته المذعورة). أعود فأقول: لا أريد بعد الآن هذه السخافات. إن الأمر الذي يضنيني أكثر من كل شيء، ويثير أعصابي هو أن الجميع يظنون أن من الممكن أن تخامرني عواطف حقيرة مسكينة إلى هذا الحد، كأنني امرؤ غبي تافه.. يظنون أنني أجنّ الآن ألماً. كل هذا سخف. لقد انتزعت عواطفي القديمة ونسيتها إلى الأبد. لم يبق لي من ذكريات، كلا ثم كلا ثم كلا!.

ونهض فجأة، وضرب بيده على المنضدة، فأخذت الأقداح ترن.

ـ نيقولا سرجتش، ألا ترحم آنا أندريفنا؟ انظر ماذا تفعل بها.

قلت ذلك وقد نفد صبري، ونظرت إليه فيما يشبه الاستياء. إلا أنني ما زدت بهذا على أن أصب فوق النار زيتاً، فإنه ما إن سمع كلامي حتى قال وهو يرتجف ويمتقع لونه:

ـ لا! لست أرحم أحداً، إذا ليس يرحمني أحد. لا أرحم أحداً لأنهم في بيتي يحيكون المؤامرات عليّ، أنا الذي تلوث شرفي، في سبيل ابنة فاجرة، خليقة بكل أنواع العقاب واللعن.

- نيقولا سرجتش، يا عزيزي، لا تلعنها!.. اعمل ما تشاء، ولكن لا تلعنها!

فصرخ العجوز بصوت أقوى:

- بل سألعنها، لأنني أنا الذي أُهنت وتطلبون مني فوق ذلك أن

أذهب إلى هذه المعلونة أطلب منها العفو والمغفرة! نعم، نعم، هذا ما يُراد مني. إنكم تعذبونني بهذا كل يوم، ليل ونهار، في عقر بيتي، بالدموع، والإهانات والتلميحات السخيفة! تريدون أن يرقّ قلبي... إسمع يا فانيا: (قال هذا متوجهاً إليّ وهو يسارع فيسحب من جيبه، بيد مرتعشة، أوراقاً) هذه خلاصات من الملف. إنني أُنعت بأنني لص، محتال. وبأنني سرقت الرجل الذي أحسن إليّ! لقد ثلم شرفي بسببها خذ. انظر أنظر!.

وأخذ يسلّ من جيب سترته أوراقاً شتى يرميها على المنضدة واحدة بعد واحدة، محاولاً أن يعثر بينها، وهو يرتجف ويهتز، على الورقة التي كان يريد أن يطلعني عليها. غير أنه لم يجدها، فنفد صبره، فانتزع من جيبه كل ما وجدته فيها يده، فإذا نحن نسمع، فجأة، رنين شيء ثقيل يسقط على المنضدة.. فانطلقت من صدر آنا أندريفنا صرخةً. كان ذلك الشيء هو النيشان الذي فقدته.

ما كدت أصدق عينيّ. وصعد الدم إلى رأس العجوز، فاحمرّ وجهه حتى صار كالأرجوان. وارتعش. فوقفت آنا أندريفنا، مكتفةً ذراعيها، وألقت على زوجها نظرة توسل وضراعة. كان وجهها يشرق بأمل مشعّ. ما هذا الاحمرار الذي يصبغ وجه العجوز، ما هذا الاضطراب؟ لا، إنها لم تخطئ. لقد فهمت الآن كيف ضاع النيشان.

فهمت أن زوجها هو الذي وجده، وأنه سُرّ به، وأنه لعله ارتعش فرحاً، فأخفاه عن جميع الأنظار، وأنه خلا إليه خفية يتأمل وجه ابنته الحبيبة في حبّ لا حدَّ له دون أن يرتوي من النظر فيه؛ وأنه لعله فعل ما فعلته الأم المسكينة، فحبس نفسه يتحدث مع عزيزته ناتاشا، ويتخيل أجوبتها، ويجيب عليها، وأنه، في الليل، وقد أمضّه القلق،

خنق تنهداته في صدره، وداعب الصورة المحبوبة وأغرقها بالقُبَل، ودعا بالغفران لتلك التي يأبى أمام الجميع أن يراها، ويصرّ على أن يلعنها.

ـ إذن ما زلت تحبها يا عزيزي!

بهذا هتفت آنا أندريفنا، دون أن تستطيع كبح جماحها أمام هذا الأب الصارم الذي كان منذ دقيقة يلعن ناتاشا.

ولكنه ما إن سمع صرختها حتى لمع في عينه غضب مجنون. فتناول النشيان ورماه بقوة على الأرض، وأخذ يدوسه برجليه في حنق محموم.

قال وهو يلهث من انقطاع أنفاسه:

ـ لعنها الله، لعنها الله لعنة أبدية، أبدية.

فهتفت العجوز الطيبة تقول:

ـ يا إلهي. يدوس ناتاشا، ناتاشا، يدوس وجهها الصغير، يدوسه. طاغية، صلف، قاسي القلب، مغرور!

فلما سمع العجوز امرأته، توقف كالمجنون، مذعوراً مما فعله. وفجأة تناول النيشان عن الأرض، وهرع يخرج من الغرفة. ولكنه ما إن سار بضع خطوات حتى سقط على ركبته، واستند بيده إلى أريكة أمامه، ثم أسقط عليها رأسه خائر القوى محطماً.

كان ينتحب كطفل، كامرأة. النحيب يكاد يشق صدره. لقد أصبح العجوز الرهيب، في طرفة عين، أضعف من طفل. أصبح الآن عاجزاً عن اللعن، أصبح لا يستحي من أحد؛ وها هو ذا ينفجر حباً، فيُغرق بالقُبَل، على مرأى منا، الصورة التي كان يدوسها برجليه منذ دقيقة. إن الحب العنيف الذي يحمله لابنته والذي كظمه طوال هذه المدة ينفلت الآن في قوة لا تقاوم، ويحطم كيانه كله.

هتفت آنا أندريفنا تقول وهي تبكي، وتنحني على زوجها وتقبّله:

ـ اغفر لها، اغفر لها. ردها إلى بيت أبويها يا عزيزي. وسيجزيك الله في يوم الحساب خير جزاء على تواضعك وتسامحك!

فصرخ بصوت أجش مختنق:

ـ مستحيل، مستحيل. لن يكون هذا أبداً. لن يكون أبداً.

الفصل الرابع عشر

وصلت إلى ناتاشا متأخراً، في الساعة العاشرة. كانت يومئذ في فونتانكا قرب جسر سيمونوفسكي، في الطابق الرابع من عمارة حقيرة يملكها التاجر كولوتوشكين. وكانت في المدة الأولى التي أعقبت ذهابها تسكن مع أليوشا في منزل جميل، صغير، لكنه أنيق مريح، غير أن موارد الأمير الصغير ما لبثت أن نضبت، فهو لم يعمل أستاذاً للموسيقى، بل أخذ يقترض، وأغرق نفسه في ديون ثقيلة باهظة. وأنفق المال في تزيين منزله، وفي تقديم الهدايا لناتاشا؛ وكانت ناتاشا تحتج على هذا التبذير، وتؤنّبه، وتبكي. وكان أليوشا، العاطفي، يقضي في بعض الأحيان أسبوعاً برمته يحلم في الهدايا التي سيقدمها لناتاشا، ويتخيل وقعها في نفسها. كان يجعل من ذلك عيداً، وينبئني في حماسة بما سيعمله وبما يحلم به. وكان إزاء تقريع ناتاشا وبكائها يغرق في كآبة تبعث على الشفقة، وكانا بعد ذلك يتخذان من هذه الهدايا موضوع ملامات وأحزان ومشاجرات. ثم إنه كان ينفق كثيراً من المال بغير علم ناتاشا، فقد كان رفاق السوء يجرونه إلى أماكن مشبوهة يخون فيها ناتاشا مع نساء بغايا. غير أنه كان لا يزال يحب ناتاشا كثيراً، بل لقد كان يحبها حباً معذباً، وكثيراً ما كان يأتي إليها مهدّماً حزيناً يعلن أنه لا يستحق إصبع ناتاشا الصغير، وأنه فظ شرير، وأنه عاجز عن فهمها وأنه غير جدير بحبها. صدق أليوشا. لقد كان بين الاثنين تفاوت عظيم. كان هو يشعر أمامها بأنه

طفل، وكانت هي تعامله دائماً على أنه طفل. كان يأتي إليّ في بعض الأحيان باكياً منتحباً يعترف لي بعلاقاته مع هذه الفتاة أو تلك من النساء، ويتوسل إليّ في الوقت نفسه ألاّ أبوح بشيء من هذا لناتاشا: فإذا عاد إليها بعد كل هذه الاعترافات، وجلاً مرتجفاً (وكان لا بد أن يصحبني في مثل هذه الأحول، قائلاً إنه لا يستطيع أن يقع بصره عليها بعد ارتكابه جريمته، وإنني الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يساعده) أدركت ناتاشا بنظرة واحدة أنه عائد من جريمة. وكانت ناتاشا غيورة جداً، ولكنها، لا أدري كيف، كانت تغفر له هذه الحماقات دائماً. وكان الأمر يتم في العادة على النحو التالي: يدخل أليوشا معي ويتوجه إليها بالكلام خجلاً ويلقي عليها نظرات وجلة، فتحزر فوراً أنه ارتكب إثماً، ولكنها لا تدع قناعتها تظهر في وجهها، ولا تبدأ الحديث عن ذلك قط، ولا تطرح على أليوشا أي سؤال، بل تزداد مداعباتها له، ويزداد لطفها ومرحها، ولم يكن ذلك منها لعباً ولا مكراً. إن هذه المخلوقة الرائعة تجد في الصفح لذة لا نهاية لها، فكأنها ترى في العفو نفسه فتنة حادة ليس لها نظير. والحق أن أليوشا لم يكن له علاقة حتى ذلك الحين إلا بامرأة تدعى جوزفين. فإذا رأى لطف ناتاشا وتسامحها لم يسعه إلا أن يعترف لها بكل شيء من تلقاء نفسه، ليتخفف من ذنبه «وليعود كما كان»، على حد تعبيره. حتى إذا نال منها الصفح والمغفرة، التهب حماسة، وأخذ في بعض الأحيان يبكي فرحاً وحباً، يضمها بين ذراعيه يغرقها بالقبل، ثم يسيطر عليه الفرح، فيطفق يقصّ، في براعة الطفل، تفاصيل مغامراته مع جوزفين، ويضحك ملء شدقيه، ويكيل المديح والإطراء لناتاشا. وكانت السهرة تنتهي هكذا في مرح. وحين نفد ماله أخذ يبيع من أشياء البيت؛ وبتأثير إلحاح ناتاشا وجد بيتاً صغيراً في فونتاكا اكتراه بأجر دون أجر

البيت الأول. واستمرا على بيع ما يملكان من تحف، حتى أن ناتاشا باعت ملابسها، ثم وجدت عملاً، فلما علم أليوشا بذلك هوى إلى حضيض اليأس، وأخذ يلعن نفسه، ويصرخ أنه يحتقر ذاته، غير أنه لم يعمل شيئاً من شأنه أن يصلح هذا الحال. وقد نضبت الآن هذه الموارد الأخيرة ذاتها، لم يبق إلا عمل ناتاشا، غير أن الأجر الذي كانت تتقاضاه زهيد لا يغني ولا يسمن من جوع.

وفي أول الأمر، حين كانا لا يزالان يسكنان معاً، قامت بين أليوشا وبين أبيه مشاجرة عنيفة. كانت نية الأمير في تزويج ابنه من كاترين فيدوروفنا فيليمونوفنا، ابنة زوج الكونتيسة، ما تزال في حيز التفكير، إلا أن الأمير كان يحرص على تحقيق هذه الفكرة حرصاً شديداً، فكان يأخذ ابنه إلى بيت خطيبته المقبلة، ويشجعه على الإعجاب بها، ويحاول أن يقنعه بقبول الفكرة بالقسوة تارة وبالعقل تارة أخرى. إلا أن المشروع أخفق بسبب الكونتيسة؛ عندئذ غضّ الأمير طرفه عن علاقة ابنه بناتاشا، وترك الأمر للزمن؛ فقد كان يأمل، لعلمه بخفة ابنه وطيشه، أن هذا الحب سيزول في القريب. حتى لقد أصبح في الأيام الأخيرة لا يخشى أن يتزوج ابنه من ناتاشا، وأصبح على مثل اليقين من أنه لن يتزوجها، وأما العشيقان فقد أجّلا تحقيق هذه الفكرة إلى أن يتم الصلح بينهما وبين أبوي ناتاشا، أي إلى أن تتغير الظروف تغيراً تاماً. وكان واضحاً من جهة أخرى أن ناتاشا لا تحب أن يدور الكلام حول هذا الموضوع. وقد زلّ لسان أليوشا مرة أمامي فقال إن أباه مسرور من هذه العلاقة، وإن الأمر الذي يعجبه في هذا كله هو إذلال أخمنيف وتحقيره. وكان مع ذلك، محافظةً منه على المظاهر، يستمر على إبداء استيائه من ابنه، حتى لقد قلّل المساعدات التي يتفضل بها عليه، وهي قليلة قبل ذلك

(كان الأمير بخيلاً جداً على ابنه)، وهدده بأن يمنع عنه حتى هذه المساعدات الطفيفة. ولكن بعد ذلك بقليل، سافر الأمير مع الكونتيسة إلى بولونيا، لأعمال تتعلق بالكونتيسة. والحق أن أليوشا كان أصغر من أن يتزوج، إلا أن الخطيبة كانت من الغنى بحيث يستحيل على الأمير أن يدع الفرصة تفلت منه. ووصل الأمير أخيراً إلى هدفه، وبلغ إلى أسماعنا أن مسألة الخطوبة قد سوّيت؛ وفي هذا الوقت الذي أصفه كان الأمير قد عاد إلى بطرسبرغ، واستقبل ابنه في حب وحرارة، إلا أن استمرار علاقته بناتاشا قد أدهشه وساءه، فأخذ يشك، ويرتجف، وطلب إلى ابنه بلهجة قاسية صارمة أن يقطع علاقته بناتاشا، ثم ارتأى أن يعمد إلى وسيلة أفضل من هذه الوسيلة، فقاد ابنه إلى منزل الكونتيسة. كانت ابنة زوج الكونتيسة فتاة جميلة، وإن كانت ما تزال أشبه بطفلة، وكان لها قلب طيب رقيق، وروح صافية بريئة، وكانت مرحة، خفيفة الظل، رقيقة الشعور. كان الأمير يقدّر أن هذه الشهور الستة قد فعلت فعلها في ابنه، وأن ناتاشا لم يبق لها في نظره ما كان لها من سحر، وأنه لن ينظر الآن إلى خطيبته المقبلة نظرته إليها منذ ستة أشهر. وكان تقدير الأمير صحيحاً بعض الصحة فحسب. . لقد افتتن أليوشا حقاً. ويجب أن أضيف إلى ذلك أن الأب أصبح يتلطف مع ابنه فجأة (مع امتناعه عن إعطائه المال). وشعر أليوشا أن هذا التحبب يخفي وراءه قراراً حاسماً لا يتزعزع، فكان يشكو من ذلك، ولكن أقل مما كان يمكن أن يشكو لو أنه لا يرى كاترين فيدوروفنا كل يوم.

كنت أعلم أن أليوشا لم يزر ناتاشا منذ أربعة أيام. وحين مضيت إليها بعد أن تركت منزل أخمنيف كنت أتساءل قلقاً عما عسى أن تنبئني به. ولمحت، من بعيد، نوراً في النافذة. كنا قد اتفقنا فيما

بيننا على أن تضع شمعة على مسند النافذة حين تكون في حاجة ملحة إلى رؤيتي، حتى إذا اتفق لي أن مررت قريباً من بيتها (وكان يتفق لي ذلك في كل مساء تقريباً) أدركت من هذا النور الذي لا تضعه إلا في بعض الأحوال، أنها تنتظرني، وأنها في حاجة إليّ. ولقد أصبحت في هذه الأيام الأخيرة تُكْثِرُ من وضع الشمعة..

الفصل الخامس عشر

وجدت ناتاشا وحدها. كانت تذرع الغرفة بخطى بطيئة، وقد كتفت ذراعيها، وغرقت في تفكير عميق. وكان على المنضدة سماور منطفئ ينتظرني منذ مدة طويلة. فلما رأتني قدمت إليّ يدها مبتسمة، دون أن تنبس بكلمة. كان وجهها شاحباً، ينضح بمعاني الألم.

كان في ابتسامتها عذاب، ورقة، وإذعان.

وقد ازداد ظل عينيها الزرقاوين الصافيتين ظلاماً، وازداد شعرها كثافة، نتيجة نحولها ومرضها.

قالت وهي تمد يدها:

ـ ظننت أنك لن تجيء، حتى لقد بدا لي أن أبعث مافرا لتأتيني بأنبائك، وقلت لنفسي لعلّ المرض قد عاوده ثانية.

ـ ليس الأمر كذلك، وإنما حجزت. سأقص عليك كل شيء. ولكن انبئيني أولاً بما بك يا ناتاشا! ما الذي حدث؟

فقالت مستغربة:

ـ لا شيء.. لماذا هذا السؤال؟

ـ ولكنك كتبت إليّ.. كتبت إليّ أمس أن أجيء، حتى لقد حددت لمجيئي ساعة معينة لا أستقدمها ولا أستأخرها. وهذا شيء جديد لا عهد لي بمثله من قبل.

ـ ها.. نعم.. لقد كنت أنتظره أمس.

ـ ولم يجئ بعد؟

ـ لم يجئ.

وصمتت لحظة، ثم أضافت:

قلت لنفسي: إن لم يجئ فلا بد لي من حديث معك.

ـ وهذا المساء، هل كنت تنتظرينه؟

ـ لا. إنه في هذا المساء هناك.

ـ هل تعتقدين أنه لن يأتي بعد الآن أبداً؟

أجابت وهي تنظر إليّ نظرة جادة خطيرة:

ـ ليست هذه هي المسألة. سيعود.

كان واضحاً أن سرعة أسئلتي تزعجها. وصمتنا، نطوف في الغرفة طولاً وعرضاً.

واستأنفت بعد مدة تقول مبتسمة:

ـ انتظرتك مدة طويلة جداً يا فانيا. هل تعلم ماذا كنت أفعل؟ كنت أذهب وأجيء وأنا أنشد بعض القصائد. هل تتذكر: الناقوس الصغير، الطريق تحت الثلج: «السماور يغلي على المائدة المصنوعة من شجر السنديان». لقد قرأنا هذه القصيدة معاً:

«هدأت العاصفة، والقمر يضيء السماء*.

«والليل ينظر إلى الأرض بالملايين من عيونه الكابيه».

ثم:

«وفجأة خُيِّل إليّ أنني أسمع صوتاً يجيش بعاطفة حارة،

ويتحد برنين الناقوس الصغير، ويقول:

«سيأتي يوم يُلقي فيه صديقي برأسه على صدري.

«الحياة في منزلي ناعمة رخية!

«ما يكاد الفجر يداعب جليد نافذتي

«حتى يغلي السماور على مائدتي المصنوعة من خشب السّنديان،
«وحتى تتراقص النيران في مدفأتي،
«وترسل أضواءها الحمر إلى السرير، في الركن،
«تحت الستارة ذات الأزهار..»

إنه لَشِعْرٌ جميل يا فانيا، شِعْر يؤثر في القلب تأثيراً قوياً. يا لها من لوحة واسعة غنية! ليس في اللوحة إلا خطوط قليلة، ولكنك تستطيع أن تنسج حولها ما تشاء. هناك شيئان أساسيان: هذا السماور، وهذه الستارة ذات الأزهار. هذا كله مألوف، تراه في البيوت البورجوازية من مدينتنا الصغيرة، حتى لكأنني أرى البيت نفسه: منزل جديد، ما تزال تحفّ به سلالم خشب، لم يتم طلاؤها بعد.

وهذه لوحة أخرى:

ثم سمعت هذا الهاتف نفسه يقول،
حزيناً كصوت الناقوس الصغير:
«أين صديقي القديم؟
أخشى أن يدخل، وأن يغرقني بالقبل والدغدغات!
ما هذه الحياة التي أحياها!
مسكني كله حجرة مظلمة حزينة.
الريح تعوي...
وثمة شجرة وحيدة، شجرة كرز، أمام نافذتي.
إلا أن الجليد يحجبها عن نظري.
ولعلها ماتت منذ زمان بعيد.
ما هذه الحياة التي أحياها؟
لقد ذبلت ستارتي.

وهأنا ذا أضرب في غرفتي، مريضة، لا أعرف أهلي.
لا أحد هنالك يؤنبني: ليس لي أصدقاء.
ما أنا، بعد، إلا ثرثارة عجوز. . .»

«أضرب في غرفتي مريضة. . .» ما أجمل كلمة «مريضة» في هذا الموضع! لا أحد هنا يؤنبني: ما أكثر ما في هذا البيت من عاطفة، وحنين! ما أكثر ما فيه من ألم، ألم الذكرى.. يا إلهي! ما أجمل هذا الشِّعْر، ما أصدق هذا الشعر!

وصمتت، كأنما هي تختنق اختناقة ألمت بحلقها. وقالت بعد دقيقة:

- عزيزي فانيا.

ثم صمتت مرة أخرى، كأنها نسيت ما كانت تريد أن تقوله، أو كأنها قالت ما قالته دون تفكير، بدافع من تأثر سريع.

وكنا أثناء ذلك ما نزال نذرع الغرفة. وأمام الأيقونة، كان هنالك قنديل يشتعل. كانت ناتاشا، في المدة الأخيرة، تزداد تُقى وتمسكاً بالعبادة يوماً بعد يوم، ولا تحب أن تتحدث في هذا.

- أغداً عيد؟ أرى قنديلك مشتعلاً.

- لا. . . ولكن إجلس يا فانيا، لا بد أنك تعبت. هل تريد قليلاً من الشاي؟ لم تحتس شيئاً من الشاي بعد؟

- لنجلس يا ناتاشا، لقد شربت نصيبي من الشاي.

- من أين أنت الآن آت؟

- من عندهم (هكذا كنا نسمي أبويها).

- من عندهم؟ كيف اتسع وقتك؟ أذهبت إليهم من تلقاء نفسك، أم أنهم دعوك؟

وأمطرتني بوابل من الأسئلة. وامتقع لونها بتأثير انفعالها.

قصصت عليها بالتفصيل لقائي مع أمها، وحكاية النيشان، قصصت عليها ذلك كله بدقة، دون أن أخفي عنها شيئاً، وكانت تصغي إليّ بشراهة، وتلتهم كل كلمة من كلماتي التهاماً، والتمعت في عينيها دموع. وحين قصصت عليها حكاية النيشان اضطربت اضطراباً شديداً، فكانت كثيراً ما تقاطعني قائلة:

ـ انتظر يا فانيا، انتظر فصّل أكثر، إنك تسرف في الإجمال والإيجاز!..

فكنت أكرر الشيء مرتين وثلاثاً، وأجيب على كل سؤال من أسئلتها التي لا تنقطع.

ـ هل تعتقد حقاً أنه كان آتياً لرؤيتي؟

– لا أدري يا ناتاشا، بل إنني لا أستطيع أن أتصور ذلك. أما أنه يتألم لغيابك، وأنه يحبك، فهذا واضح. وأما أنه كان ذاهباً إليك، فهذا، هذا...

ـ وقد قبّل النيشان، أليس كذلك؟ وماذا قال وهو يقبله؟

ـ قال كلاماً كثيراً.. كان يطلق عليك أرقّ الأسماء، وكان يناديك..

ـ ناداني؟

ـ نعم.

وأخذت تبكي في صمت.

ـ مساكين!

ثم أضافت بعد لحظة:

ـ لا أستغرب أن يكون على علم بكل شيء. إنه كذلك على علم بأمور والد أليوشا.

قلت لها وجلاً:

ـ ناتاشا، يجب أن نذهب إليهم. .

فسألتني، وهي تصفر وتنهض عن مقعدها قليلاً:

ـ متى؟

كانت تظن أنني أقترح عليها أن نذهب إليهم فوراً.

ثم استدركت وهي تضع يديها على كتفيها وتبتسم ابتسامة حزينة:

ـ كلا يا فانيا، كلا يا صديقي، إنك تعود دائماً إلى هذا. . الأحسن ألاً تحدثني عن هذا الأمر بعد الآن.

فهتفت في حزن شديد:

ـ هذه الخصومة الكريهة، أليس لها إذن من نهاية أبداً؟ أبداً؟ أأنت من الكبرياء والصلف بحيث لا تريدين أن تقومي بالخطوة الأولى؟ عليك أنت أن تضربي المثل، أن تكوني القدوة. لعل أباك لا ينتظر غير هذا ليغفر لك. . إنه أبوك، وأنت التي أسأت إليه. احترمي كبرياءه: إنها كبرياء مشروعة طبيعية. يجب أن تذهبي إليه، وأنا واثق أنه سيصفح عنك بلا قيد ولا شرط.

ـ بلا قيد ولا شرط! مستحيل. لا تلمني يا فانيا، عبث. لقد فكرت في الأمر، وإني لأفكر فيه ليل نهار. ما انقطعت عن التفكير فيه ساعة واحدة منذ تركته. وكم مرة تحدثنا فيه معاً! أنت نفسك تعلم أن هذا مستحيل!

ـ حاولي

ـ كلا يا صديقي، لا أريد. إذا حاولت ذلك زدت حنقه عليّ. ما فات لن يعود، وأنت تعلم أنه يستحيل أن يعود. لن أستطيع أن أحيي تلك الأيام السعيدة، أيام طفولتي التي قضيتها معهم! وهب أبي غفر لي، فإنه لن يجد فيّ بعد الآن ابنته ناتاشا. إنه ما يزال يحب فيّ البنت الصغيرة، الطفلة، التي كان يدللها ويدغدغ رأسها على نحو ما

كان يفعل أيام كنت في السابعة من عمري أجلس على ركبتيه وأنشده أغانيّ الصغيرة. ومنذ طفولتي إلى آخر يوم، كان يأتي إلى سريري كل مساء يرسم عليّ إشارة الصليب قبل أن أنام. وقبل المصيبة بشهر واحد، اشترى لي قرطاً، دون أن يحدثني عنه قبل أن يشتريه، (وكنت أعلم كل شيء)، وكان يفرح فرح الطفل حين يتصور فرحتي بهديته. وقد ثار على الجيمع، وثار عليّ قبل الجميع، حين عرف، مني، أنني كنت على علم بأنه اشترى القرط منذ مدة طويلة. وقبل خروجي من البيت بثلاثة أيام لاحظ أنني حزينة، فما لبث أن قلق أشد القلق حتى مرض، بل لقد فكر - هل تصدق ذلك؟ - ليسرّي عني، في أن يأخذني إلى المسرح. حقاً، كان يريد أن يشفيني بهذه الوسيلة! أعود فأقول لك إن البنت الصغيرة هي التي كان يعرفها فيّ ويحبها، وما كان يريد أن يتصور أنني سأصبح ذات يوم امرأة... ما كان يدور في خلده. فإذا عدت الآن أنكرني ولم يعرفني، وإن صفح عني. لست الآن عين الشخص الذي أَحَبَّهُ، لست الآن طفلة، لقد عشت كثيراً. وإن رضي بي كما أنا، تنهد رغم ذلك أسفاً على السعادة الماضية، وحزن على أنني لست ما كنته في الماضي، حين كان يحبني طفلة. وما مضى يبدو دائماً أفضل! يا له من عذاب، تذكّر الماضي!

وكأنما صعد الدم إلى رأسها فصرخت تقطع حديثها بهذا الهتاف الذي يخرج من قلبها:

- آه يا فانيا، ما أجمل الماضي!..

قلت:

- كل ما تقولينه صحيح يا ناتاشا. وإنما ينبغي له الآن إذن أن يتعلم كيف يحبك وكيف يعرفك مرة أخرى، وخاصةً كيف يعرفك؛ ومتى عرفك أحبك، ما في ذلك ريب. وأرجو ألاّ يذهب بك الظن

إلى أنه لا يستطيع أن يعرفك وأن يفهمك، هو، هذا القلب النبيل.

ـ أواه يا فانيا، لا تكن ظالماً. كم هنالك من أمور كثيرة يجب أن تُفهم فيّ؟ ليس هذا ما أردت أن أقوله. هناك شيء آخر، اسمع يا فانيا: إن حب الأب، هو أيضاً، حب غيور. إن الذي يجرحه هو أن كل شيء بدأ وانتهى مع أليوشا بدونه، بدون أن يرى شيئاً، بدون أن يحزر شيئاً. وهو يعرف أن ذلك كله لم يدُر في خلده قبل وقوعه، وهو يرى أن ما انتهى إليه حبنا من نتائج شقية يرجع إلى «نفاقي» السفيه. لم أذهب إليه منذ بداية حبي، ولم أعترف له بعد ذلك بكل خلجة من خلجات قلبي؛ بالعكس، أخفيت كل شيء في نفسي، تواريت عن أبي؛ وأؤكد لك، يا فانيا، إنه في قرارة نفسه يجد في هذا من الإهانة أكثر مما يجده منها في نتائج حبنا، في هربي من منزلنا، في استسلامي لعشيقي. وهبه استقبلني الآن كأب، في حرارة وعاطفة رقيقة، فإن بذرة العداوة ستبقى. وغداً أو بعد غد، تبدأ الشكوك ويعود التأنيب. ثم إنه لن يغفر لي بلا قيد ولا شرط. لنسلم أنني قلت له الحقيقة مخلصة من أعماق قلبي، لنسلم أنني اعترفت له صادقةً بأنني أفهم مدى إساءتي إليه وإجرامي في حقه. وهبني، إذا لم يشأ أن يفهم ما كلفتني هذه السعادة مع أليوشا من آلام وما احتملت في سبيلها من عذاب، هبني أخرست ألمي من ذلك، واحتملت كل هذا: إنه لن يكتفي. لسوف يطلب مني تفكيراً مستحيلاً: سوف يسألني أن ألعن ماضيّ، أن ألعن أليوشا، وأن أندم على ما محضته من حب. سيطلب المستحيل: أن أستعرض الماضي، فأحذف من حياتنا هذه الأشهر الستة الأخيرة. ولكنني لن ألعن أحداً، ولا أريد أن أندم. . ما وقع كان لا بد أن يقع، لا يا فانيا، هذا الآن مستحيل. لم يحن الوقت بعد.

ـ ومتى يحين؟
ـ لا أدري، لا بد أن نتألم حتى النهاية في سبيل سعادتنا المقبلة، يجب أن نشتريها بآلام جديدة. إن الألم يُطَهِّر كل شيء. آه يا فانيا، ما أكثر ما نتألم في هذا الوجود.

صمتّ ونظرت إليها مفكراً.

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا يا أليوشا، أقول يا فانيا. (قالت ذلك وابتسمت لهذا الخطأ).

ـ الآن أرى ابتسامتك يا ناتاشا. من أين أتيت بها؟ ما كنت تبتسمين هكذا من قبل.

ـ ماذا بها، ابتسامتي؟

ـ ما تزال بها سذاجة الطفولة... ولكن حين تبتسمين يشعر المرء أن ثمة شيئاً يقبض صدرك. ما أشد ما نحلت يا ناتاشا! إن شعرك يبدو أكثف مما كان - ما هذا الثوب؟ أعندهم صنع أيضاً؟

قالت وهي تلقي عليّ نظرة تترقرق فيها العاطفة:

ـ إنك تحبني يا فانيا! ولكن قل لي ماذا تفعل أنت الآن؟ كيف يسير عملك؟

ـ لم يتغير شيء. ما زلت أكتب روايتي، إلا أن العمل صعب، لا يتقدم كثيراً. لقد نضب الإلهام. ولو تهاونت قليلاً، فقد أُخرِج شيئاً شائقاً طريفاً. ولكنها خسارة أن أفسد فكرة جيدة دارت في خيالي. إنها فكرة أحرص عليها أشد الحرص. ومن أجل مجلة، لا بد من إنجاز العمل في مواقيته المحددة، حتى لقد خطر ببالي أن أترك الرواية، وأن أتخيل بسرعة، قصة قصيرة، شيئاً فنياً رشيقاً، لا يشتمل على أية نزعة مظلمة قاتمة، شيئاً يسليّ جميع الناس ويمتعهم!

ـ مسكين أيها العامل! وسميث؟

ـ مات

ـ ألم يأت لرؤيتك؟ أكلمك جادة يا فانيا: أنت مريض، وأعصابك مهدمة، ولك أحلام غريبة.. حين قلت لي إنك استأجرت هذا المسكن، لاحظت كل ذلك.. وهل مسكنك رطب غير صحي؟

ـ نعم، وقد وقعت لي منذ قليل حادثة.. سأرويها لك فيما بعد.

لم تسمعني. كانت مستغرقة في تفكير عميق.

وقالت أخيراً وهي تنظر إليّ نظرة من لا ينتظر جواباً:

ـ لا أفهم كيف تركتهم! كنت محمومة!

يقيني أنني لو توجهت إليها بكلام في هذه اللحظة لما سمعتني.

قالت بصوت لا يكاد يفهم:

ـ فانيا، لقد رجوتك أن تأتي، لأن ثمة أمراً خطيراً أريد أن أفضي به اليك.

ـ ما هو؟

ـ سأتركه

ـ ستتركينه أم تركته؟

ـ يجب أن أنهي هذه الحياة. لقد أومأت إليك أن تأتي لأقصّ عليك كل ما تجمّع وتراكم في نفسي، كل ما أخفيته عنك حتى الآن.

كانت تبدأ دائماً بمثل هذا الكلام حين تريد أن تفضي إليّ بنواياها الخفية، وكان يتضح دائماً تقريباً أنني أكون على علم بأسرارها منذ مدة طويلة، وتكون قد باحت لي بها هي نفسها.

ـ ناتاشا، سمعتك تقولين هذا مائة مرة! صحيح أنكما لا تستطيعان أن تعيشا معاً، فعلاقتكما شيء غريب، ليس ثمة ما يجمع بينكما. ولكن... هل تقوين على هذا؟

ـ قبل الآن كان ذلك في مجال النية فحسب، أما الآن فقد عقدت العزم حاسماً قاطعاً. إنني أحبه حباً لا نهاية له، ومع ذلك أدرك أنني عدوته الأولى، إنني أسيء إلى مستقبله فيجب أن أردَّ إليه حريته. إنه لا يستطيع أن يتزوجني، لا يملك القوة على مقاومة أبيه، ولا أريد أن أربطه، وإنه ليسرني أن يحبَّ خطيبته. يجب أن أتركه! هذا واجبي... إذا كنت أحبه فينبغي أن أضحي بكل شيء في سبيله، أن أبرهن له على حبي، هذا واجبي! أليس كذلك؟

ـ ولكنك لن تستطيعي إقناعه.

ـ لن أحاول إقناعه، سأظل معه كما كنت من قبل، يستطيع أن يدخل متى شاء، ولكن يجب أن أبحث عن وسيلة تجعله يتركني بسهولة دون أن يعذبه ضميره. هذا ما يسعدني يا فانيا، ساعدني. بم تنصحني؟

قلت:

ـ ليس هناك إلا وسيلة وحيدة: أن تكفّي عن حبه وأن تحبي شخصاً آخر. ولكنني أشك في نجاح هذه الوسيلة. إنك تعرفين طبعه! ها قد مضى على غيابه عنك خمسة أيام. وإذا فرضنا أنه هجرك هجراً نهائياً فيكفي أن تكتبي إليه بأنك تهجرينه أنت حتى يسارع إليك على الفور.

ـ لماذا لا تحبه يا فانيا؟

ـ أنا؟

ـ نعم أنت أنت. إنك عدوه، سراً وعلانية! لا تستطيع أن تتحدث عنه دون شعور بالحقد. لاحظت مائة مرة أن أكبر لذة تشعر بها هي في إهانته وتسويد صفحته! نعم تسويد صفحته، أقول الحقيقة!

ـ قلت لي ذلك مائة مرة. كفى يا ناتاشا، لندع هذا الحديث.

قالت بعد صمت:

ـ أريد أن أترك هذا البيت. ولكن لا تزعل يا فانيا..

ـ وبعد ذلك؟ لا شك أنه سيوافيك في المسكن الجديد. ثقي أنني لم أزعل.

ـ الحب قوي: يستطيع حبٌّ جديد أن يحبسه عني. وهبه عاد إليّ، فلن يعود إلا إلى حين، ما رأيك؟

ـ لا أدري يا ناتاشا، كل شيء فيه لا شأن له بالمنطق. إنه يريد أن يتزوج الأخرى، ويريد في الوقت نفسه أن يستمر على حبك. يريد الأمرين في آن واحد.

ـ لو كنت واثقة من أنه يحبها، لعزمت أمري، وقطعت برأي. فانيا، لا تخف عني شيئاً. هل تعلم شيئاً لا تريد أن تبوح لي به!

وسددت إليّ نظرة قلقة فاحصة.

ـ لا أعلم شيئاً يا صديقتي، أقسم لك بشرفي. لقد كنت صريحاً معك دائماً. على أنه يخطر ببالي شيء: قد لا يكون مفتوناً بابنة زوج الكونتيسة إلى الحد الذي نتصوره. قد لا يكون هذا أكثر من حماسة عابرة..

ـ أتظن هذا يا فانيا؟ يا إلهي! ليتني كنت واثقة من ذلك! آه، لشد ما أتمنى لو أراه في هذه اللحظة، لا لشيء إلا لألقي عليه نظرة واحدة، فأقرأ في وجهه كل شيء! ولكنه لا يجيء، لا يجيء!

ـ ولكن هل تنتظرين مجيئه يا ناتاشا؟

ـ كلا. إنه عندها. أعلم ذلك. أرسلت من يأتيني بالأنباء. لشدّ ما أودّ لو أراها هي أيضاً! اسمع يا فانيا، سأقول لك شيئاً سخيفاً: يستحيل عليّ ألاّ أراها، ألاّ ألقاها أبداً. ما رأيك؟

وانتظرت جوابي قلقة:

ـ أن تريها؟ هذا ممكن. لكنك تعلمين أن رؤيتها لا تكفي.

ـ يكفي أن أراها، وبعد ذلك أحزر. إسمع، هل تعلم أنني أصبحت سخيفة: لا أعمل شيئاً غير الطواف في الغرفة وحدي، وتمضية الوقت بالتفكير؟ كأن في رأسي زوبعة، وهذا يتعبني! وقد خطرت على بالي فكرة يا فانيا: ألاً تستطيع أن تتعرف إليها، ما دامت الكونتيسة قد أطرت روايتك وقرظتها؟ (أنت قلت لي ذلك). إنك تذهب أحياناً إلى سهرات الأمير... وهي تذهب إليها كذلك. حاول أن تقدم نفسك إليها، أو لعل أليوشا نفسه يستطيع أن يقدمك إليها. وستقصّ عليّ كل شيء.

ـ ناتاشا، عزيزتي، سنتحدث في هذا فيما بعد. ولكن قولي لي الآن: هل تعتقدين حقاً أنك تقوين على تركه؟ أنظري في نفسك، هل تقولين ما تقولين هادئة؟.

فقالت بصوت لا يكاد يُفهم:

ـ نعم أقوى على ذلك. سأعمل كل شيء في سبيله. سأضحّي بحياتي كلها من أجله. ولكن هل تعلم يا فانيا؟ إنني لا أطيق أن يكون في هذه اللحظة عندها: لقد نسيني، إنه الآن إلى جانبها، يحدثها ويضحك، هل تتذكر، مثلما كان يضحك هنا.. إنه ينظر في عينيها. هكذا نظرته دائماً، في العينين، ولا يخطر بباله أنني هنا.. معك.

ولم تكمل كلامها، وألقت عليّ نظرة يائسة:

ـ ما هذا يا ناتاشا؟ ألم تقولي منذ لحظة، منذ لحظة..

فقاطعتني وهي تلقي عليّ نظرة ملتهبة:

ـ سننفصل جيمعاً، جميعاً. ولكن يا فانيا ما أقسى أن يبدأ هو بنسياني. آه يا فانيا، ما أشد عذابي. أنا نفسي لا أفهم: الفكر شيء، والواقع شيء آخر. رباه، أكاد أجن.

ـ كفاك يا ناتاشا، هدئي روعك!

ـ خمسة أيام، في كل ساعة، في كل دقيقة.. أراه في حلمي وفي يقظتي... أراه دائماً. هيا بنا يا فانيا. خذني إليه.

ـ هدئي نفسك يا ناتاشا..

ـ بل خذني إليه. من أجل هذا إنما انتظرتك. فانيا، فكرت في هذا الأمر ثلاثة أيام. من أجل هذا الموضع إنما كتبت إليك.. يجب أن تقودني إليه، لا تضن عليّ بهذا.. انتظرتك.. ثلاثة أيام.. إنه في هذا المساء هناك، إنه هناك، هيا بنا!

كانت كأنها تهذي. وسمعت ضجة تقوم في مدخل البيت: كأن مافرا مع أحد.

ـ اسمعي يا ناتاشا، ما هذا الذي أسمعه!

فأصاخت بسمعها وهي تبتسم ابتسامة من لا يصدق شيئاً، وفجأة امتقع لونها امتقاعاً مخيفاً رهيباً.

وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ يا إلهي، من هذا؟

وأرادت أن تمسك بي، غير أنني خرجت ألقى مافرا عند المدخل. إنه هو، أليوشا. كان يطرح أسئلة على مافرا، حاولت مافرا في أول الأمر أن تمنعه من الدخول. وسمعتها تقول له، كأنها هي سيدة المنزل:

ـ من أين أنت خارج هكذا؟ هه؟ أين كنت تتشرد؟ هيا امض، امض. بماذا تستطيع أن تجيب؟

ـ لست أخاف أحداً. سوف أدخل.

قال ذلك في شيء من الخجل.

ـ أدخل، ما أثقلك!

ـ نعم سأدخل. ها، أأنت هنا، أنت أيضاً؟ ما أحسن أن تكون أنت أيضاً هنا. ها أنا ذا هنا. أرأيت؟ كيف تراني؟

ـ ولكن ادخل، ماذا تخشى؟

ـ لست أخشى شيئاً، أؤكد لك، لأنني لست مذنباً، أشهد الله على ذلك! أنت تعتقد أن الخطيئة خطيئتي. سوف ترى الآن. سأشرح كل شيء على الفور. ناتاشا، هل أستطيع أن أدخل؟ (قال ذلك في ثقة مصطنعة وهو واقف أمام الباب).

ولم يجب أحد.

فقال وقد ظهر على وجهه القلق والخوف:

ـ ماذا؟

فأجبت:

ـ لا شيء، كانت هناك منذ لحظة. اللهم إلا أن..

ففتح أليوشا الباب في حذر، وأجال في الغرفة نظرة خجلى. لم يكن في الغرفة أحد.

وفجأة لمحها في ركن من الغرفة، بين الخزانة والنافذة. كانت واقفة هنالك، كأنها تختبئ، وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. حتى هذا اليوم، كلما فكرت في ذلك المشهد لا أستطيع أن أمنع نفسي عن الابتسام. اقترب أليوشا منها بخطى بطئية حذرة، وقال في خجل وهو ينظر إليها بنوع من الذعر:

ـ ناتاشا، ما بك؟

فأجابت وهي في حالة انفعال رهيب، كأنها هي المجرمة.

ـ ما بي؟ لا.. لا شيء.. هل.. تريد قدحاً من الشاي؟

فقال أليوشا وقد طار صوابه:

ـ ناتاشا، اسمعي. لعلك تعتقدين أنني مجرم. ولكنني لست

مجرماً. لست مجرماً أبداً. سترين، سأقصّ عليك كل شيء.

فتمتمت ناتاشا تقول:

ـ علام تقصّ كل شيء؟ لا ضرورة. ناولني يدك، فينتهي كل شيء، كما ينتهي دائماً.

وخرجت من ركنها، وقد تلوّن خدّاها.

كانت تغضّ طرفها، كأنما هي تخشى أن تنظر في وجه أليوشا.

فتهف أليوشا في حماسة:

ـ لو كنت مذنباً، لما جرؤت أن أنظر إليها.

والتفت إليّ يقول:

ـ أنظر، أنظر. إنها تعتقد أنني مذنب. كل شيء يدينني، كل الظواهر تلقي التبعة عليّ! خمسة أيام أغيب عنها، وقد سمعت من يقول لها إنني في بيت خطيبتي، ثم تصفح عني. تقول لي: ناولني يدك فينتهي كل شيء.. ناتاشا، عزيزتي، ملاكي! لست مذنباً، اعلمي هذا، لم أقترف أي عمل سيئ! بالعكس، بالعكس!

ـ ولكن كان عليك أن تذهب إلى هنالك.. لقد دعوك.. كيف أتيت إلى هنا.. كم الساعة الآن؟

ـ العاشرة والنصف. كنت هنالك.. ولكنني قلت إنني مريض، وخرجت. هذه المرة الأولى التي أكون فيها حراً بعد خمسة أيام، فأستيطع أن أفلت منهم وآتي إليك. الحقيقة أنه كان في وسعي أن آتي قبل الآن، ولكني آثرت أن لا أجيء.. لماذا؟ ستعرفين السبب بعد هنيهة، سأشرح لك كل شيء: وإنما أتيت لأشرح لك كل شيء. ولكني أقسم لك أنني، في هذه المرة، لست مذنباً في حقك أبداً، أبداً!

ورفعت ناتاشا رأسها وثبّتت نظرها فيه.. غير أن نظرة أليوشا

كانت من قوة إشعاعها بالصدق، والإخلاص، والفرح، بحيث يستحيل أن لا يُصدَّق. وخُيِّل إليّ أنهما سيصرخان، وأن كلاً منهما سيرتمي بين ذراعَيْ الآخر، كما حدث ذلك أكثر من مرة في مثل مناسبات التصالح هذه، إلا أن ناتاشا، وكأنما أخرستها السعادة، ألقت برأسها على صدره، وأخذت تبكي بكاء صامتاً على حين فجأة.. ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه، فإذا هو يرتمي على قدميها، ثم يقبّل يديها ورجليها.. كان كمن طاش صوابه وخرج عن طوره. وتقدمت إليّ ناتاشا بكرسي، فجلست عليه، وكانت ركبتاها تصطكان.

الجُزْءُ الثَّانِي

الفصل الأول

وما هي إلا دقيقة حتى كنا نضحك جميعاً كالمجانين. قال أليوشا وهو يغطينا جميعاً بصوته الرنان:

ـ يظنّان أن كل شيء هو الآن كما كان من قبل.. يظنّان أنني لا أقول إلا سخفاً... أؤكد لكما أن ما سأقوله هام جداً.. وبعد؟ ألن تسكتا؟

كان أليوشا يتحرّق شوقاً إلى قصّ قصّته. كان واضحاً لمن ينظر في وجهه أنه يحمل أنباء هامة، إلا أن هيئة الجَدّ التي كان يضفيها عليه زهوه الساذج بأنه يحمل هذه الأنباء سرعان ما أفرح ناتاشا، فأخذت تضحك، وأخذت أنا أضحك رغم أنفي. وكلما ازداد أليوشا حنقاً علينا ازددنا نحن ضحكاً. إن حنقه، ثم أسفه الساذج، انتهيا بنا إلى تلك الحالة التي يكفي فيها أن يُظْهِرَ صاحبنا طرف إصبعه حتى تنفجر في قهقهة لا تنتهي! وكانت مافرا، وقد خرجت من المطبخ، واقفة على باب الغرفة تتأملنا في استياء قاتم، وتأسف على أن ناتاشا لم تؤنب أليوشا بعد أن انتظرته خمسة أيام طوال، بدلاً من أن تضحك الآن مرحة هذا المرح.

وأخيراً توقفت ناتاشا عن الضحك، حين رأت أن قهقهاتنا تؤلم أليوشا، وسألته:

ـ ماذا تريد أن تقص علينا؟

وقالت مافرا، مقاطعة أليوشا، دون أن تحفل به البتة:

ـ هل أجيء بالسماور؟

فأجابها وهو يدفعها في سرعة بيده:

ـ اذهبي يا مافرا، أذهبي. سأقص عليكما كل ما وقع، وكل مع يقع، وكل ما سيقع، لأنني أعرف كل هذا. أرى، يا صديقيّ، أنكما تريدان أن تعلما أين كنت طوال هذه الأيام الخمسة، وهذا ما أريد أن أقصّه عليكما، إلا أنكما لا تدعان لي فرصة الكلام. والآن سوف أتكلم. فأقول قبل كل شيء: لقد خدعتك طوال هذه المدة يا ناتاشا، خدعتك منذ مدة طويلة، وهذا أهم شيء.

ـ خدعتني؟

ـ نعم منذ شهر. بدأت بذلك قبل وصول أبي: وقد حان أن أكون صريحاً كل الصراحة. منذ شهر، قبل أن يصل أبي، تلقيت منه رسالة طويلة كتمت عنكما أمرها. في هذه الرسالة يبلغني أبي، ببساطة تامة (بلهجة جدية خفت منها) أن زواجي قد تقرر، وأن خطيبتي فتاة هي الكمال بعينه، وأنني - طبعاً - لا أستحقها، وإنما يجب مع ذلك أن أتزوجها حقاً، وأن عليّ، تهيؤاً لهذا، أن أطرد من رأسي جميع الحماقات، إلخ. إلخ. تعرفين ماذا يقصد بالحماقات. وهذه الرسالة قد أخفيتها عنك.

فقاطعته ناتاشا تقول:

ـ لم تخفها عنا أبداً: لا داعي لأن تعتز بهذا. الواقع أنك قصصت علينا كل شيء في الحال. واذكر أنك أصبحت على حين غرة، طيباً جداً، لطيفاً جداً، لا تتركني أبداً، كأنك قد اقترفت ذنباً تريد أن تكفّر عنه، وقد رويت لنا الرسالة كلها أجزاء.

ـ مستحيل. إنني حقاً لم أروِ لكما الشيء الأساسي في الرسالة. ربما حزرتما شيئاً. هذا من شأنكما. أما أنا فلم أقص شيئاً. لقد

أخفيت عنكما الأمر، وتألمت من ذلك كثيراً.

أضفت وأنا أنظر إلى ناتاشا:

ـ أذكر يا أليوشا أنك كنت يومئذ تسألني النصيحة في كل لحظة، وقد حكيت لي كل شيء، أجزاء مبعثرة بطبيعة الحال، وعلى صورة افتراضات..

ـ لقد رويتَ لنا كل شيء. لا تعتزّ، أرجوك. أأنت تستطيع أن تخفي شيئاً؟ أأنت تستطيع المكر؟ مافرا نفسها تعرف كل شيء، أليس كذلك يا مافرا؟

فأجابت مافرا، وهي تمد رأسها من الباب:

ـ طبعاً. لقد حكيت لنا كل شيء في الأيام الثلاثة الأولى. أنت لا تستيطع أن تخبئ شيئاً.

ـ الحديث معك مزعج يا ناتاشا. أنت تعملين هذا كله انتقاماً. أذكر أنني كنت يومئذ كالمجنون. هل تذكرين يا مافرا؟

ـ كيف لا أذكر؟ واليوم أيضاً أنت كالمجنون!

ـ ليس هذا قصدي؟ أقصد هل تذكرين أنه لم يكن لدينا يؤمئذ شيء من المال، وأنك ذهبت ترهنين علبة سجائري الفضية! ولكن اسمحي يا مافرا أن أقول لك إنك تنسين نفسك أمامي، ولا تتحرجين من قول أي شيء. ناتاشا هي التي علمتك كل هذا. على كل حال، لنسلم بأنني رويت لكم كل شيء منذ ذلك الوقت، أجزاء مبعثرة (أتذكر هذا الآن)، ولكنكم لا تعرفون اللهجة، لهجة الرسالة. واللهجة في رسالة من الرسائل هي الشيء الأساسي. هذا ما أريد أن أقوله.

قالت ناتاشا:

ـ وكيف كانت لهجة تلك الرسالة؟

ـ اسمعي يا ناتاشا، إنك تسألينني هذا السؤال وكأنك تمزحين. أرجوك لا تمزحي. أؤكد لك أن الأمر خطير. كانت لهجة الرسالة من القسوة بحيث شعرت أن ذراعيَّ تسقطان من كتفي. لم يتفق لأبي في حياته أن خاطبني بمثل هذه اللهجة! اسمعي لهجة الرسالة.

ـ هات حدثنا عن لهجة الرسالة. ولماذا كان لا بد لك أن تكتم عني أمرها؟

ـ كي لا أرعبك، طبعاً. كنت آمل أن أرتب الأمور بنفسي. وبعد هذه الرسالة، منذ وصول أبي، بدأت متاعبي، وبدأ عذابي. كنت قد وطَّنت العزم على أن أجيبه بقوة، بجرأة، بكلام واضح، غير أن الفرصة لم تتح. فهو لم يطرح أي سؤال: إنه ماكر. حتى لقد كان يتصرف تصرف من يرى أن كل شيء مقرر، وأنه لا يمكن أن يكون بيننا أي نقاش أو خلاف. هل تسمعين: كان يتصرف تصرف من يعتبر أنه لا يمكن أن يكون بيننا أي نقاش أو خلاف! أي غرور هذا؟ وكان معي لطيفاً رقيقاً إلى أبعد حدود اللطف والرقة! ودهشت من هذا. إنه رجل ذكي، لو تعلمين ما أذكاه يا ناتاشا! لقد قرأ كل شيء، وهو يعلم كل شيء. يكفي أن تنظري إليه مرة واحدة، حتى يعرف أفكارك كما يعرف أفكاره، ولا شك أنهم لهذا إنما ما قالوا عنه: يسوعي. إن ناتاشا لا تحب أن أمدحه. لا تزعلي يا ناتاشا. بالمناسبة كان في أول الأمر لا يعطيني مالاً، ولكنه أعطاني بالأمس، يا ناتاشا، يا ملاكي، لقد انتهى بؤسنا. خذي. انظري. كل ما قطعه عني على سبيل العقوبة خلال ستة أشهر، رده إليّ بالأمس. أنظري كم أعطاني، لم أعدّ المبلغ إلى الآن. مافرا، أنظري ما أكثر ما نملك الآن من مال! لن نحتاج بعد اليوم إلى رهن ملاعقنا وأزرار الأكمام.

وأخرج من جيبه حزمة من الأوراق النقدية، تقارب قيمتها ألفاً وخمسمائة روبلاً فضة، ووضعها على المنضدة. ونظرت مافرا إلى الأوراق النقدية في دهشة، وهنّأت ألكسي. وكانت ناتاشا تستحثّه على إكمال كلامه. وتابع أليوشا يقول:

ـ تساءلت ماذا أفعل؟ كيف أعترض عليه؟ أحلف لكما أنه لو أساء معاملتي، ولم يكن رقيقاً إلى هذا الحد، لما فكرت في شيء من هذا، لأعلنت له بصراحة تامة أنني لا أريد، وأنني لست الآن طفلاً، وأن كل شيء قد انتهى، ولأصررت على هذا في عناد، صدقاني. ولكن ما عساي أستطيع أن أفعل والأمر كما تريان! ولكن ما ينبغي أن تتهماني. أرى أنك ممتعضة يا ناتاشا. لماذا تتغامزان؟ لا شك أنكما تعتقدان أنهم خدعوني، وأنني لا أملك ذرة من قوة الإرادة. إنكما مخطئان. إنني أملك قوة الإرادة. والبرهان على ذلك أنني رغم ظروفي هذه سرعان ما قلت لنفسي: «يجب عليّ أن أقص على أبي كل شيء». ثم بدأت، فقصصت عليه كل شيء، وأصغى أبي إلى كلامي حتى النهاية.

فسألته ناتاشا بلهجة قلقة:

ـ ماذا قلت له؟

ـ قلت له إنني لا أريد خطيبة أخرى، لأن لي خطيبة هي أنت. الحق أنني لم أقل له ذلك صراحة بعد. ولكنني هيأته لذلك، وسأعلنه له غداً. قررت هذا. وقبل كل شيء، ذكرت له أن من العار والحقارة أن يتزوج المرء من أجل المال، وأن من الغباوة من جهتنا أن نعدّ أنفسنا من الطبقة الارستقراطية (لأنني كنت أخاطبه بحرية تامة كأنني أخاطب أخاً لا أباً) ثم قلت له إنني متوسط الحال، وأن هذا هو الأساسي، وإنني أعتز بذلك، وإنني شبيه بكل الناس، لا أريد أن

أتميز على أحد.. أي شرحت له، على الجملة، كل هذه الأفكار السليمة الصحيحة.. وكنت أتحدث في حرارة واندفاع.. حتى لقد استغربت ذلك من نفسي.. وقلت له بصراحة: «ما نحن بالأمراء إلا اسماً! لقد ولدنا أمراء، ولكن ليس لنا من صفات الأمراء غير هذا.. نحن أولاً لسنا بالأغنياء، والغنى أهم شيء.. إن أكبر أمير في عصرنا هو روتشيلد. ثم إننا منذ زمان بعيد لم يبق لنا في المجتمع العالي من ذكر. آخرنا عمي سيمون فالكوفسكي، ولم يكن معروفاً إلا في موسكو، ولم يعرف فيها إلا لأنه فقد النفوس الثلاثمائة الأخيرة التي كان يملكها. ولولا أن أبي قد جنى بنفسه ثروة، لأصبح أحفاده يحرثون الأرض، كما يفعل بعض الأمراء. وإذن فليس ثمة ما نزهو به». أي أنني، على الجملة، قد أخرجت كل ما كان يغلي في نفسي، كل شيء، في قوة وعنف، بلا لف ولا دوران، بل لقد زدت على ذلك قليلاً. ولم يجب أبي على كلامي بشيء، واكتفى بأن أخذ يلومني على أنني تركت منزل الكونت ناينسكي، ثم قال بعد ذلك إن عليّ أن أتقرب من الأميرة ك.. اشبينتي، وإنني إذا أحسنت وفادتي لدى الأميرة ك. أحسنت وفادتي في كل مكان، وضمن مستقبلي، وراح يضرب على هذا الوتر.. وكان طوال الوقت يلمِّح إلى أنني تركتهم جميعاً منذ أصبحت أعيش معك يا ناتاشا، وأن هذا كان بتأثير منك. غير أنه حتى الآن لم يحدثني عنك حديثاً مباشراً، ومن الواضح أنه يتحاشى التعرض لهذا الموضوع. إننا نمكر كلانا، ويتربّص كل منا بالآخر، وثقي أنه سيأتي يوم...

ـ كل هذا حسن. ولكن قل لي كيف انتهى الأمر؟ ما الذي قرره؟ هذا أهم شيء. ما أكثر ثرثرتك يا أليوشا!

ـ الله أعلم! يستحيل أن يستخرج المرء من كلامه ما عزم عليه.

وأنا لست بثرثار، وإنما أقول كلاماً جاداً. لم يقرر شيئاً البتة. كان، وهو يسمع حججي، لا يزيد على أنه يبتسم، كأنه يرثى لحالي. أشعر أن في هذا احتقار لي، ولكنني لا أشعر منه بالعار. قال لي: «إنني أوافقك كل الموافقة على ما قلت، هيا نذهب إلى الكونت ناينسكي، ولكن لا تقل هنالك شيئاً مما قلته الآن. أنا أفهمك، أما هم فلن يفهموك». يظهر أنه هو نفسه لا يُستقبل استقبالاً حسناً جداً في كل مكان. إنهم يأخذون عليه شيئاً ما، وإنهم على وجه العموم يتجهمون له في هذا الوقت. ومنذ البداية استقبلني الكونت في عنجهية وتكبر، كأنما هو نسي نسياناً تاماً أنني ترعرت في بيته! إنه يأخذ عليّ أنني نسيت الجميل، والحق أن المسألة ليست مسألة نسيان جميل من جانبي، ولكن المرء يأخذ الملل والضجر بخناقه في بيت الكونت، لهذا السبب لم أذهب إليه. ثم إنه لا يراعي جانب أبي كثيراً، إنه لا يقيم له وزناً كبيراً، وقد أدهشني ذلك، وأثار حنقي. إن أبي المسكين ليكاد ينحني أمامه حتى يلامس الأرض. أعلم أنه يفعل ذلك من أجلي أنا، ولكنني لست في حاجة إلى شيء من ذلك. وأوشكت أن أصارح أبي بكل عواطفي، ولكنني أمسكت عن ذلك. وعلام أصارحه بعواطفي هذه! إنني إن فعلت لن أغير من قناعته شيئاً، ولن أزيد على أن أضاعف حزنه. حسبه ما هو فيه من حزن! عندئذ قلت لنفسي: سأمكر، وسأبزّهم جميعاً في الحيلة والمكر، وسأضطر الكونت إلى احترامي اضطراراً. وصدقاً لقد أدركت هدفي هذا على الفور، فما هو إلا يوم واحد حتى تغير كل شيء، وأصبح الأمير لا يداري أحداً غيري، وقد فعلت ذلك كله وحدي، بحيلتي ومكرى، حتى أدهشت أبي!

هتفت ناتاشا وقد نفذ صبرها:

ـ اسمع يا أليوشا، الأفضل أن تقص علينا الحكاية. كنت أظن أنك ستحدِّثنا عما يهمنا، وها أنت ذا تذكر لنا كيف ظهرت وتميزت في منزل الكونت! مالي أنا وللكونت! إنه لا يهمني.

ـ لا يهمها: إسمع يا إيفان بتروفتش! لا يهمها. ولكن تلك هي النقطة الأساسية. سترين، ستدهشين أنت نفسك. سيتضح لك كل شيء في النهاية، ولكن دعيني أتكلم. وأخيراً (نعم، ولماذا لا أتكلم بصراحة)، قد أكون يا ناتاشا، يا إيفان بتروفيتش، قد أكون أحمقاً، بل قد أكون (وهذا واقع) أبلهاً ولكن أؤكد لكما أنني في هذه المرة قد برهنت على كثير من المكر والحيلة، نعم. بل ومن الذكاء، وقلت لنفسي لا شك أنهما سيسران إذا علما أنني لست دائماً. . .غبياً.

ـ هوه. ماذا تقول يا أليوشا؟ هل لك أن تسكت؟

كانت ناتاشا لا تطيق أن يُنعت أليوشا بأنه غير ذكي. كم مرة زعلت، دون أن تعلن زعلها صراحة، حين كنت أبيِّن لأليوشا، في غير ما تحرّج، أنه قد ارتكب حماقة ما. . . كان هذا وتراً حساساً في نفس ناتاشا. كانت لا تطيق أن يُهان أليوشا، لا سيما وأنها كانت في أعماق نفسها تعرف حدوده. . . ولكنها لم تصارحه يوماً بشعورها خشية أن تجرح كرامته. أما هو فكان في مثل هذه اللحظات نافذ البصيرة جداً، فكان يحزر مشاعرها الخفية. وكانت ناتاشا ترى ذلك، وتحزن له حزناً كبيراً، ثم ما تلبث أن تأخذ بمداعبته وتدليله. . . لهذا السبب كان لكلام أليوشا في هذه اللحظة صدى في قلبها مؤلم. .

ـ أسكت يا أليوشا، كل ما هنالك أنك طائش. . هذا كل ما في الأمر، لمذا تحقِّر نفسك؟

ـ طيب. ولكن دعيني أتم كلامي. بعد استقبال الكونت، كان أبي

غاضباً عليّ. أقول انتظري قليلاً. وذهبنا إلى منزل الأميرة، وكنت قد سمعت أنها خرفت من الشيخوخة، وأنها عدا هذا صماء، وأنها تحب الكلاب إلى حد الجنون. ورغم ذلك، فإن لها في المجتمع الراقي تأثيراً كبيراً، حتى إن الكونت ناينسكي نفسه كان يتضاءل أمامها. وفيما نحن في الطريق إليها. رسمت خطتي، هل تعرفان علام أقمت هذه الخطة؟ أقمتها على أساس أن جميع الكلاب تحبني. هذه حقيقة أقولها لكما! لقد لاحظت ذلك. لا أدري ألأن بي قوى مغناطيسية أم لأنني أنا نفسي أحب جميع الحيوانات؟ المهم أن الكلاب تحبني. وبمناسبة المغناطيسية، أظن أنني لم أحدثكما أننا قد استحضرنا الأرواح منذ مدة. كنت عند أحد الخبراء باستحضار الأرواح، والغريب أن هذا الموضوع قد شوّقني كثيراً يا إيفان بتروفتش. لقد استحضرت روح يوليوس قيصر*.

- ما حاجتك إلى يوليوس قيصر؟ هذا ما كان ينقصك..

قالت ناتاشا ذلك وهي تنفجر ضاحكة.

- ولِمَ لا؟ أأنا.. لماذا لا يحق لي أن أستحضر روح يوليوس قيصر؟ فيم يسيء هذا إليه؟ إنها تضحك!

- طبعاً. لا يسيء إليه في شيء... آه يا صديقي العزيز!.. دعنا! وماذا قال لك يوليوس قيصر؟

- لم يقل شيئاً. كنت ممسكاً بقلم، وكان القلم يتحرك من تلقاء نفسه على الورقة ويكتب. كان يوليوس قيصر هو الذي يكتب، فيما قالوا لي. ولكنني لا أعتقد بهذا.

- وماذا كتب؟

- كتب شيئاً يشبه أن يكون «غط قلمك»* - ولكن أما كفاك ضحكاً؟

ـ حدثنا الآن عن الأميرة!

ـ إنك تقاطعينني دائماً. وصلنا إلى بيت الأميرة وأخذت ألاطف ميمي. وميمي هذه كلبة عجوز فظيعة، تثير الاشمئزاز، وهي إلى هذا عنيدة، وتعضّ، والأميرة مستطارة اللب بها، وهما تبدوان في سن واحدة. بدأت أحشو ميمي بالحلوى، وما هي إلا عشر دقائق حتى استطعت أن أعلمها كيف تمد قائمتها، وهذا أمر لم يستطيعوا أن يدربوها عليه طوال حياتها. فلما رأتها تفعل ذلك، طار عقلها فرحاً حتى كادت تبكي: «ميمي، ميمي، هاتي يدك! لقد علمها ذلك عزيزي أليوشا». ودخل الكونت ناينسكي: «ميمي، هاتي يدك!». ونظرت إليّ وهي تكاد تبكي من قوة العاطفة. يا لها من عجوز رائعة! لقد أثارت في قلبي الشفقة. ولم أدع الفرصة تمر، فلاطفتها ملاطفة ثانية. كان على علبة تبغها نقش يمثل صورتها وهي صبية، أي منذ ستين عاماً خلت. ووقعت علبة تبغها عى الأرض، فسارعت إلى التقاطها وقلت متجاهلاً: يا له من رسم بديع. إنه الجمال المثالي. فما أن سمعت هذا حتى ذابت تماماً، وأخذت تتودد إليّ وتحدثني في كل أمر: تسألني أين درست، وأين أسكن، وتطريني، وتقول إن لي شعراً رائعاً، إلخ إلخ. وقد زدت مرحها بأن قصصت عليها حكاية خليعة. إنها تحب هذا. صحيح أنها هددتني بإصبعها، إلا أنها ضحكت كثيراً. وحين انصرفت، قبّلتني، ورسمت عليّ إشارة الصليب، وأصرّت على أن أجيء إليها في كل يوم لأسليها، وصافحني الكونت بحرارة، وهو ينظر إليّ نظرة رقيقة حانية. أما أبي، فرغم أنه أحسن من على وجه الأرض وأشرفهم وأنبلهم، صدقوني أو لا تصدقوني، كاد يبكي من شدة الفرح، حين عدنا إلى البيت. لقد قبّلني وراح يفضي إليّ بأمور عن الحياة، والعلاقات

بالناس، والمال، والزواج: أمور عجيبة غاب عني فهم كثير منها، وفي تلك اللحظة إنما أعطاني المال. وقع ذلك بالأمس، وغداً سأعود إلى الاميرة، غير أن أبي رغم هذا أنبل إنسان على وجه الأرض، لا تسيئوا الظن فيه. صحيح أنه يبعدني عنك يا ناتاشا، ولكنه إنما يفعل ذلك، لأن حب المال قد أعماه، لأنه طامع في ملايين كاترين، ولأنك أنت لا تملكين هذه الملايين، على أنه لا يطمع في هذه الملايين إلا من أجلي أنا، وإذا كان لا ينصفك فلأنه يجهلك. وأي أب لا يرغب في سعادة ابنه؟ ليس الذنب ذنبه إن كان قد اعتاد على أن يقدّر السعادة بالملايين. إنهم جميعاً كذلك. يجب أن ننظر إليه على هذا الأساس لا على أساس آخر، حتى إذا فعلنا ذلك أدركنا فوراً أنه على حق. لقد أسرعت أجيء إليك يا ناتاشا لأقنعك بهذا، لأنني أعرف أنك تنظرين إليه نظرة سيئة، وطبيعي أن الذنب في هذا ليس ذنبك. ولست ألومك..

ـ إذن فكل ما حدث لك هو قيامك بتلك الوظيفة لدى الأميرة؟ هذا هو مكرك كله!

ـ ماذا تقولين؟ ليس هذا إلا بداية.. لقد حدثتك عن الأميرة، لأنني بواسطتها إنما أقبض على زمام أبي، هل تفهمين؟ ولكنني لم أبدأ قصتي الأساسية!

ـ إذن قصّها علينا بسرعة!

في هذا اليوم وقع لي حادث آخر غريب كل الغرابة، أدهشني وصعقني. لاحظي أنه إذا كان أبي والأميرة قد قررا زواجنا رسمياً، فما من شيء قد تمّ نهائياً حتى الآن: نستطيع أن ننفصل على الفور دون أية فضيحة. إن الكونت ناينسكي وحده على علم بالأمر، وهم يعدّونه قريباً وحامياً. ورغم أنني في هذين الأسبوعين الأخيرين قد

لقيت كاتيا كثيراً، فإننا حتى ليلة البارحة لم نتحدث في المستقبل، أي في الزواج، ولا.. نعم.. في الحب. ثم إنهم قد قرروا في بادئ الأمر أن يطلبوا موافقة الأميرة ك.. التي ينتظرون منها حماية عظيمة، وسَيْلاً من الذهب. إن ما ستقوله الأميرة سيقوله المجتمع الراقي، لأن لها علاقات هائلة.. وهم يريدون قطعاً أن يخرجوني إلى المجتمع وأن يجعلوني أشقّ طريقي. إلا أن الكونتيسة، زوجة والد كاتيا، هي التي تُلحّ على هذه الأمور. والواقع أن الأميرة لا تستقبل الكونتيسة في بيتها حتى الآن، وربما كان ذلك بسبب ما قامت به الكونتيسة من أعمال طائشة في الخارج، وإذا لم تستقبلها الأميرة لم يستقبلها الآخرون أيضاً. وإذن فخطبتي من كاتيا فرصة مواتية، لذلك فإن الكونتيسة التي كانت في أول الأمر تعارض هذا الزواج أفرحها اليوم كثيراً فوزي بحظوة الأميرة. غير أن هذا كله على الهامش، إليك الأمر الهام: لقد عرفت كاترين فيدوروفنا منذ العام الماضي، ولكنني كنت حينذاك طفلاً، ولم أكن أفهم شيئاً، لذلك لم أرَ فيها يومذاك شيئاً..

فقاطَعَتهُ ناتاشا:

ـ كل ما في الأمر أنك كنت تحبني أكثر مما تحبني الآن، فلم ترَ شيئاً، أما الآن..

فهتف أليوشا في عنف:

ـ اسكتي يا ناتاشا، أنت مخطئة كل الخطأ، وإنك لتهينينني بهذا الكلام!. ولن أجيبك. أصغي إلى بقية كلامي، تفهمي كل شيء!. ليتك تعرفين كاتيا! ليتك تعرفين روحها الرقيقة الصافية! ولكنك ستعرفين ذلك. المهم أن تصغي إلى كلامي حتى النهاية. منذ خمسة عشر يوماً، حين قادني أبي إلى كاتيا بعد وصوله أخذت أراقبُها

بانتباه، ولاحظت أنها تراقبني هي الأخرى، وأثار هذا فضولي. لست أتحدث الآن عما كنت قد انتويته من تعميق معرفتي بها، منذ وصلتني من أبي تلك الرسالة التي شدهتني. على كل حال سأسكت الآن عن الإشادة بمحاسنها، وإنما أكتفي بأن أقول ما يلي: هذه إنسانة أصيلة، هذه إنسانة قوية، قوية لأنها صافية مستقيمة، وهي من هذا كله بحيث أنني أصبحت إزاءها طفلاً لا أكثر، أخاً أصغر، رغم أنها لم تتجاوز السبعة عشرة من عمرها. وقد لاحظت كذلك شيئاً آخر: إنها حزينة حزناً عميقاً، كأنها تحمل في أعماقها سراً دفيناً. إنها غير ثرثارة. وهي في بيتها صامتة كل الوقت تقريباً، كأن بها خوفاً.. كأنها تفكر في أمر ما. ويظهر عليها أنها تخشى أبي. وهي لا تحب زوجة أبيها، أدركت ذلك: إن الكونتيسة هي التي تزعم، لأمر ما، أن ابنة زوجها تحبها بل تعبدها. هذا كذب. كل ما في الأمر أن كاتيا تطيعها طاعة عمياء، كأنهما اتفقتا على ذلك فيما بينهما. ومنذ أربعة أيام، بعد كل هذه الملاحظات، قررت أن أضع مشروعي موضع التنفيذ، وهذا ما فعلته مساء أمس، أي أن أقصّ على كاتيا كل شيء، أن أعترف لها بكل شيء، أن أستميلها إلى جانبنا، فأنهي المسألة دفعة واحدة..

فسألته ناتاشا بلهجة قلقة:

- تروي لها ماذا؟ تعترف لها بماذا؟

بكل شيء، بكل شيء.. وأحمد الله على أنه ألهمني هذه الفكرة. ولكن اسمعي، اسمعي! منذ أربعة أيام قررت أن أبتعد عنك، وأن أتولى بنفسي إنهاء كل شيء. ولو قد بقيت معك، إذن لترددت طوال الوقت، وأصغيت إلى كلامك، ولم أتخذ أي قرار، في حين أنني استطعت وحدي أن أضع نفسي في موضع من يقنع

نفسه في كل لحظة بأن عليه أن يضع حداً لهذه المسألة، فاستجمعت شجاعتي، ومضيت إلى النهاية! وقد وعدت نفسي بأن أعود إليك بقرار، وها أنا ذا أعود إليك بقرار!.

ـ كيف؟ ماذا حصل؟ قل، أسرع!

ـ المسألة بسيطة، ذهبت إليها رأساً، بإخلاص وجرأة.. ولكن قبل كل شيء يجب أن أروي لك حادثاً سبق هذا الحادث، وأثر فيّ تأثيراً قوياً. قبل أن نخرج تلقّى أبي رسالة. وقد دخلتُ في تلك اللحظة إلى حجرته، ووقفت قرب الباب، دون أن يراني. كان أبي من شدة تأثره بالرسالة يتكلم بينه وبين نفسه، ويصرخ صرخات التعجب، ويذهب ويجيء في الغرفة، خارجاً عن طوره، وأخيراً أخذ يضحك على حين فجأة. وكان يمسك الرسالة بيده. خفت أن أدخل، فتلبثت قليلاً، ثم جازفت ودخلت، وسُرَّ أبي كثيراً، وخاطبني بلهجة غريبة، وفجأة قطع كلامه، وأمرني أن أستعد للخروج على الفور، رغم أن الوقت لم يحن بعد. في هذا اليوم لم يكن عندهم أحد، كنا وحدنا، يا ناتاشا، وقد أخطأت إذا اعتقدت أن هناك سهرة اليوم يا ناتاشا. لقد أخطأ من أبلغك ذلك.

ـ لا تخرج عن الموضوع يا أليوشا، أرجوك. قل لي كيف قصصت على كاتيا كل شيء.

ـ من حسن الحظ أننا بقينا وحدنا، أنا وهي، ساعين كاملتين. أبلغتها، ببساطة، أن زواجنا مستحيل، رغم رغبتهم فيه، وأنني أرتاح إليها، وأنها وحدها تستطيع أن تنقذني. وكشفت لها عندئذ عن كل شيء. تصوري أنها كانت لا تعرف شيئاً عن قصتنا، يا ناتاشا. ليتك رأيت مدى تأثرها حيث قصصت عليها ذلك. في أول الأمر ظهر عليها ما يشبه الذعر، فامتقع لونها امتقاعاً شديداً. رويت لها قصتنا

كلها: أنك تركت بيتك من أجلي، أننا نعيش وحدنا، أننا نُعذّب ونُضطهد، أننا خائفان من كل شيء، وأننا نلجأ الآن إليها (كنت أتكلم باسمك أيضاً يا ناتاشا) بغية أن تقف هي نفسها إلى جانبنا، فتعلن لزوجة أبيها صراحة أنها لا تريد أن تتزوجني، وأن هذا هو السبيل الوحيد إلى نجاتنا، وأننا أصبحنا لا ننتظر أية معونة من غيرها. وقد استمعت إلى كلامي في كثير من الاستطلاع، ومن العطف! ما كان أجمل عينيها في تلك اللحظة! لكأن روحها كلها قد انتقلت إلى نظرتها! إن عينيها زرقاوان بلون السماء تماماً. قد شكرت لي أنني لم أشك فيها، ووعدتني أن تساعدنا بكل ما أوتيت من قوة. ثم ألقت عليّ بعض الأسئلة عنك، وقالت إنها تود لو تتعرف إليك، وسألتني أن أقول لك إنها تحبك منذ الآن حب الأخت أختها، وترجوك أن تحبيها أنت أيضاً كأنها أخت لك. وحين علمت أنني لم أرك منذ خمسة أيام أرسلتني إليك على الفور.

وظهرت على ناتاشا علائم التأثر.

صرخت وهي تلقي عليه نظرة تفيض بمعاني العتب:

- أليوشا، أليوشا، أتحمل كل هذه الأخبار، ثم تضيع الوقت بأن تقص علينا «شطاراتك» لدى أميرة طرشاء! أليوشا! وكاتيا؟ هل كانت مرحة، فرحة، وهي ترسلك إليّ؟

- نعم كانت سعيدة بأن أتيحت لها فرصة القيام بعمل نبيل، وكانت تبكي. ذلك أنها تحبني أيضاً، هل تعلمين يا ناتاشا؟ لقد اعترفت لي بأنها كانت قد بدأت تحبني، وأنها لا تلقى إلا قليلاً من الناس، وإنني أحظى بإعجابها منذ مدة طويلة. وقد ميزتني عن غيري خاصة، لأنها لا ترى حولها إلا خداعاً وكذباً، ولأنني ظهرت لها صادقاً شريفاً. نهضت عن مكانها وقالت لي: «سامحك الله يا

أليوشا، كنت أعتقد. . .» ولم تتم كلامها، بل انفجرت باكية، وخرجت من الغرفة. وقد اتفقنا أن تذهب في الغد إلى زوجة أبيها تعلن لها أنها لا تريد أن تتزوجني، وأن أمضي أنا إلى أبي أقول له كل شيء بقوة وجرأة. وقد لامتني على أنني لم أكاشفها بالأمر من قبل، قائلة: «إن الرجل الشريف يجب أن لا يخشى شيئاً». ما أنبلها يا ناتاشا! إنها لا تحب أبي أيضاً، وهي تصفه بأنه مخاتل وبأنه يسعى وراء المال. وقد دافعت عنه، لكنها لم تصدقني. وفي رأيها أنني إذا لم أنجح مع أبي (وهي على يقين من أنني لن أنجح) فيجب أن ألجأ إلى الأميرة ك. . أطلب حمايتها، فما من أحد منهم جميعاً يجرؤ على معارضتها. وقد تواعدنا أن نكون أخاً وأختاً. ليتك تعلمين أيضاً قصتها، ليتك تعلمين مدى ما تعاني من شقاء، ومدى ما تشعر به من تقزز واشمئزاز من حياتها مع زوجة أبيها، ومن كل هذا التمثيل!. . لم تذكر لي ذلك صراحة، كأنما هي تخشاني أنا أيضاً، ولكنني أدركته من بعض كلامها. ناتاشا، صدقيني، ليتها تراك، إذن لتحبّنك حباً ما بعده حب. لقد خلقتما كأختين، ويجب أن تحب كل منكما الأخرى. لقد فكرت في هذا يا ناتاشا، وهو صحيح: سأجمعكما، وسأبقى إلى جانبكما أتأملكما. لا أحب أن ينصرف ذهنك إلى غير ما ينبغي يا ناتاشا، ودعيني أتكلم عنها. إنني في حاجة إلى أن أحدثك عنها، ولكنك تعلمين أنني أحبك أكثر مما أحب أي شخص آخر، أكثر مما أحبها. أنت لي كل شيء.

كانت ناتاشا تنظر إليه صامتة، في حب يمازجه حزن. لكأن كلمات أليوشا كانت تلاطفها وتعذبها في آن واحد.

وتابع أليوشا كلامه يقول:

ـ لقد كونت رأيي في كاتيا منذ مدة طويلة، منذ خمسة عشر

يوماً. كنت أذهب إليهم في كل مساء.. وكنت حين أعود إلى البيت لا أزيد على أن أفكر فيكما، وأوازن بينكما.

فسألته ناتاشا مبتسمة:

ـ وأيتُنا غلبت الأخرى!

ـ تارة أنت، وتارة هي. ولكن الرجحان كان لك دائماً. حين أتحدث معها أشعر دائماً أنني أصبح خيراً مما كنت، أصبح أذكى، أنبل، إن صح التعبير. ولكن غداً، غداً يتقرر كل شيء!

ـ ولكنك تقول إنها تحبك، تقول إنك لاحظت ذلك بنفسك. ألاً تشفق إذن عليها؟

ـ بلى.. أشفق عليها.. ولكننا أحبة نحن الثلاثة، وإذن..

ـ إذن فالوداع.

قالت ذلك ناتاشا برفق، وهي تنظر إليه نظرة مضطربة.

ألا أن هذه المحادثة انقطعت فجأة، على نحو لم يكن في الحسبان أبداً. فمن المطبخ، الذي كان مدخل البيت، سمعنا ضوضاء خفيفة، كأن شخصاً قد دخل. وما هي إلا دقيقة حتى فتحت مافرا الباب، وأشارت بيدها خلسةً، تستدعي أليوشا، فالتفتنا جميعاً إليها، فقالت بلهجة عجيبة:

ـ هلا تفضلت فجئت؟ إن في الباب من يسأل عنك.

ـ يسألون عني في مثل هذه الساعة؟

قال أليوشا ذلك وهو يلقي علينا نظرة دهشة، وأضاف:

ـ سأرى!

في المطبخ كان يقف خادم الأمير، أبيه. إن الأمير، وهو في طريق عودته إلى بيته، أوقف عربته أمام منزل ناتاشا، وأرسل خادمه يسأل هل أليوشا هنالك. أبلغ الخادم رسالته هذه وانسحب على الفور.

قال ألوشا مضطرباً وهو يلفنا بنظرة سريعة:
ـ هذا غريب! لم يقع قط قبل ذلك. ما معنى هذا؟
ونظرت إليه ناتاشا نظرة قلقة خائفة. فجأة فتحت مافرا الباب مرة أخرى، وقالت في سرعة بصوت خافت:
ـ الأمير آتٍ بنفسه.
واختفت حالاً.
شحب لون ناتاشا، ونهضت عن مكانها، وأخذت عيناها تلتمعان على حين فجأة، واستندت إلى المنضدة في رفق، وجعلت تنظر، مضطربة، إلى الباب الذي سيدخل منه هذا الزائر الذي ما كان يتوقع أحد حضوره.
ودمدم أليوشا يقول وهو مضطرب ولكنه مسيطر على نفسه:
ـ لا تخافي شيئاً يا ناتاشا. أنا هنا. ولن أسمح له بالإساءة إليك.
وانفتح الباب، وظهر في العتبة شخص الأمير فالكوفسكي.

الفصل الثاني

لفتنا الأمير بنظرة سريعة يقظة. وما كان في وسعنا، بعد، أن ندرك، أجاء إلينا صديقاً أم عدواً. وأريد أن أصف مظهره تفصيلاً. لقد لفت انتباهي في ذلك المساء خاصةً.

كنت فيما رأيته قبل ذلك. هو رجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره ما تعداها، متناسب قسمات الوجه، جميل غاية الجمال. يتغير وجهه بتغير الظروف، ولكنه يتغير تغييراً تاماً، على حين فجأة، بسرعة هائلة، فينتقل من المودة إلى السخط، كأنما يضغط على زر. إن وجهه البيضاوي الضارب إلى السمرة، وأسنانه الرائعة، وشفتيه الرقيقتين الجميلتين، وأنفه المستقيم، المستطيل قليلاً، وجبينه العالي الذي لا ترى فيه أثراً من تغضن، وعينيه العسليتين الواسعتين، إن كل ذلك يجعله رجلاً جميلاً، ولكنك رغم هذا ذلك كله لا ترتاح إلى رؤيته. وما ينفّرك خاصةً في هذا الوجه أن تعبيره كأنه ليس منه، وإنما هو متكلف مدروس مستعار، فما أن تراه حتى تقتنع اقتناعاً قوياً بأنك لن تقرأ فيه معنًى صادقاً قط. واذا أنعمت النظر فيه أخذت تتصور وراء هذا القناع الدائم شيئاً خبيثاً، شريراً، مراوغاً، أنانياً إلى أقصى حد. إن عينيه العسليتين الواسعتين الجميلتين تخطفان بصرك خاصة، كأنهما الشيء الوحيد الذي لا يضع لإرادته، إذ حتى حين يريد أن ينظر إليك نظرةً رقيقة لطيفة، فإن أشعة نظرته تزدوج إنْ صح التعبير، فإذا أنت ترى مع الأشعة الرقيقة اللطيفة أشعة أخرى قاسية

شرسة فاحصة غادرة.. وهو فارع القامة، قوي البنية، على شيء من النحول، ويبدو أصغر من سنه كثيراً، فإن شعره الأشقر الناعم لم يكد يخالطه الشيب. وإن أذنيه ويديه وأطراف قدميه لتثير بجمالها الدهشة: إنها ذات جمال أرستقراطي. وكان أنيقاً في ملبسه، مرهف الذوق، وكان لبعض حركاته مظهر الشباب، وكان هذا يناسبه. كان يبدو كأنه الأخ الأكبر لأليوشا، ولا يمكن على كل حال أن يُظن أنه أب لشاب في مثل هذه السن.

تقدم من ناتاشا وقال لها وهو يلقي عليها نظرة واثقة:

ـ أعلم أن وصولي إلى منزلك في هذه الساعة، دون سابق إنذار، غريب ومخالف لجميع قواعد اللياقة، ولكنني آمل أن تعتقدي على الأقل بأنني شاعر بغرابة مسعاي. وإني لأعرف كذلك أنني إزاء شخص واسع الصدر سمح كريم. مُنّي علي بعشرة دقائق من وقتك، وأنا آمل أنك ستفهمينني وستحبذين ما أنا بصدده.

قال ذلك كله بطلف وتهذيب، على قوة وصلابة.

قالت ناتاشا، قبل أن تسترد رباطة جأشها:

ـ تفضل فاجلس.

فانحنى قليلاً، وجلس. ثم بدأ يقول وهو يشير إلى ابنه:

قبل كل شيء، اسمحي لي أن أقول له كلمتين.. يا أليوشا، حين ذهبت دون أن تنتظرني، بل دون أن تودعنا، جاء من يقول للكونتيسة إن كاترينا فيدوروفنا في حال سيئة. وكانت الكونتيسة على وشك أن تهرع إليها حين دخلت كاترين فيدوروفنا فجأة في حالة من سوء الهندام وفرط الاضطراب، فأعلنت لنا بغير لف ولا دوران أنها لا تستطيع أن تكون زوجة لك، وأضافت إلى ذلك أنها ستدخل الدير راهبة، وأنك سألتها المعونة، وأفضيت إليها بأنك تحب ناتاليا

نيقولايفنا. واضح أن هذا الاعتراف العجيب قد بعث عليه ما قصصته عليها من أمور عجيبة. كانت في حالة يرثى لها من الاضطراب، ولعلك تقدّر أنه كان لهذا في نفسي وقع قوي وأنه أخافني فلما مررت الآن في الشارع لمحت النور في نوافذ بيتك (قال ذلك وهو يلتفت إلى ناتاشا). فاستولت عليّ فكرة لاحقتني منذ زمان بعيد، فلم أستطع مقاومة فتنتها وإغرائها فدخلت. لماذا؟ سأقول لك ذلك حالاً، ولكنني أرجوك قبل كل شيء ألاّ تعجبي لغرابة ما سأقول. إن هذا كله قد جاءني عل حين فجأة..

قالت ناتاشا في تردد:

ـ آمل أن أفهم ما ستقوله وأن أقدّره حق قدره.

فنظر إليها الأمير نظرة ملحاحة، كأنما هو يحاول أن ينفذ إلى جميع دخائلها في لحظة واحدة. وأستأنف يقول:

ـ إنني أعتمد أيضاً على فطنتك ونفاذ بصيرتك. فلئن سمحت لنفسي أن آتي لرؤيتك هذا المساء، فلأنني أعرف من أخاطب. إنني أعرفك منذ مدة طويلة، رغم أنني قد ظلمتك في السابق، وتجنيت عليك، وأجرمت في حقك. اسمعي: أنت تعلمين أن بيني وبين أبيك خلافات قديمة، ولست أبرئ نفسي، فلعلي قد تجنيت عليه أكثر مما أظن حتى الآن، ولكن إذا صح هذا فإنما يصح لأنني أكون قد أخطأت الظن وضللت، فإنني امرؤ ريّاب شكاك، لا بد من الاعتراف بهذه الحقيقة. إنني أفترض الشر قبل الخير، وتلك صفة سيئة يتصف بها ذوو القلوب القاسية. غير أنني ما اعتدت أن أخفي نقائصي. لقد صدّقتُ جميع الوشايات، وحين هجرت أهلك خفت على أليوشا. بيد أنني ما كنت قد عرفتك بعد. ثم جاءتني الأنباء التي أرسلت في طلبها، تطمئنني شيئاً فشيئاً، وراقبت وأنعمت النظر،

وانتهيت إلى الاقتناع بأن شكوكي قائمة على غير أساس. عرفت أنك قد قطعت صلاتك بأهلك، وعلمت أن أباك يعارض في أمر زواجك بابني معارضة عنيفة لا هوادة فيها. ثم إنك، رغم ما لك من تأثير وسلطان على أليوشا، لم تحاولي حتى الآن أن تستغلي هذا السلطان فتُكرهيه على الزواج بك، وهذا وحده خليق بأن يرفع قدركِ في نظري، وأن يحسّن ظني فيك. على أنني أعترف لك بأنني، رغم ذلك، قد قررت يومئذ أن أقاوم زواجك بابني بكل ما أوتيت من قوة. أعرف أنني أفصح عن ضميري في شطط من الصراحة، ولكن في هذه اللحظة يجب أن أكون صريحاً قبل كل شيء.. وستوافقين أنت نفسك على هذا بعد أن تصغي إلى حديثي حتى نهايته. بعد أن هجرت منزلك بقليل، سافرت إلى بطسبرغ، ولكن مخاوفي بصدد أليوشا كانت قد ذهبت. كنت أعتمد على كبريائك النبيلة. كنت قد فهمت أنك، أنت نفسك، لا ترغبين في الزواج بأليوشا قبل أن تنتهي خصوماتنا العائلية. وإنك لا تريدين أن تزرعي الخلاف بيني وبين أليوشا، وإنك تعلمين أنه لو تزوج بك لما غفرت له هذا ما حييت، وإنك لا تريدين أن يقال عنك إنك تركضين وراء عريس من سلالة أمراء، وإنك متهالكة على الانتماء إلى أسرتنا العريقة؛ حتى إنك، بالعكس، قد أظهرت لنا احتقارك، ولعلك كنت تنتظرين أن آتي بنفسي إليك لأرجوك أن تشرّفينا بقبول ابني زوجاً لك. ومع ذلك ظللت عدواً لك لا يتزحزح عن عداوته. لا أريد أن أبرئ نفسي، ولكني لا أكتم عنك الأسباب التي دفعتني إلى مناصبتك العداء، وهذه هي الأسباب: إنك لا تملكين لا اسماً ولا ثروة. لست أنكر أنني غني، ولكنني أريد المزيد من الغنى. لقد هبطت أسرتنا، ونحن في حاجة إلى صِلات وإلى مال. وإن ابنة الكونتيسة زينائيد فيدوروفنا

على جانب عظيم من الثراء، وإن لم تكن ذات صِلات رفيعة. وإذا تأخرنا أقل تأخر، تقدم غيرنا فخطف الخطيبة: وما كان ينبغي أن ندع الفرصة تفلت منا؛ لذلك، ورغم أن أليوشا ما يزال صبياً، قررت أن أزوجه. ترين أنني لا أخفي عنك شيئاً. تستطيعين أن تنظري نظرة احتقار إلى هذا الأب الذي تسيِّره المصلحة والتقاليد البالية، فيحض ابنه على ارتكاب فعل سيىء. أليس فعلاً سيئاً أن يترك شاب فتاة نبيلة القلب ضحت في سبيله بكل شيء. وأساء إليها إساءات كبيرة؟ والسبب الثاني الذي دفعني إلى التفكير في تزويج ابني من ابنة زوج الكونتيسة زينائيد فيدوروفنا هو أن الفتاة جديرة بالحب والاحترام إلى أقصى حد. إنها جميلة، مهذبة، قوية الشخصية، ذكية جداً، رغم أنها ما تزال طفلة غرة من نواح كثيرة. وأليوشا ضعيف الشخصية طائش، قليل التبصر إلى أبعد الحدود، ولا يزال طفلاً رغم أنه في الثانية والعشرين من عمره. إنه لا يملك من المزايا إلا الكرامة وطيب القلب، وهما ميزتان خطرتان إذا ضمتا إلى نقائصه. وقد لاحظت منذ مدة طويلة أن تأثيري فيه أخذ يقل: فحماسة الشباب واندفاعاته تتغلب فيه على بعض الواجبات. قد أكون مسرفاً في محبته، ولكنني مقتنع بأنني أصبحت لا أستطيع السيطرة عليه وحدي، ولا بد مع ذلك من شخص يؤثر فيه تأثيراً مفيداً مستمراً. إن طبيعته خَضوع، ضعيفة، يسيطر عليها الحب. إنه يفضل أن يحب ويخضع على أن يقود ويُخضِع. وسيظل على هذه الحال طوال حياته. تستطيعين إذن أن تتصوري مدى فرحي حين التقيت بكاترين فيدوروفنا، المثل الأعلى للفتاة التي أتمناها امرأة لابني. غير أن الأوان كان قد فات، فقد كان ابني خاضعاً لتأثير فتاة أخرى بلا منازع: هي أنت. ولقد راقبته مراقبة يقظة حين عدت من بطرسبرغ

منذ أسبوع، فلاحظت فيه تغيراً حسناً أدهشني، لاحظت فيه صبوات نبيلة تترسخ وتشتد، رغم أنه ما يزال طائشاً، وما يزال طفلاً. لاحظت أنه أخذ يهتم لا بالترهات فحسب، بل بأمور رفيعة شريفة. إن له أفكاراً غريبة، متقلّبة، وأحياناً مستحيلة. غير أن رغباته، واندفاعاته، وقلبه، خير من ذلك، وهذا أساس كل شيء. لا مشاحة أن جميع هذا التحسن الذي أصابه يرجع الفضل فيه إليك. لقد جددت تربيته. وأعترف لك بأنني في تلك اللحظة إنما تراءى لي أنك تستطيعين أن تحققي سعادته أكثر من أي إنسان آخر. ولكنني طردت هذه الفكرة من ذهني، وأخذت أعمل، وخُيِّل إليّ أنني بلغت غايتي. ومنذ ساعة فحسب، كنت لا أزال أعتقد أن الظفر حليفي. إلا أن الحادث الذي وقع في بيت الكونتيسة قلب ظنوني رأساً على عقب، دفعة واحدة. والأمر الذي فجأني خاصة هو هذا الجد العنيد في أليوشا، هذه الصلابة في تعلقه بك، هذا الاستمرار وهذا العنف في تلك الصلة التي بينك وبينه. أعود فأقول لك: إنك قد جددت تربيته. وسرعان ما لاحظت أيضاً أن التغير الذي تم فيه أبعد مدى مما ظننت. فقد برهن اليوم أمامي على ذكاء ما كنت أظنه فيه، وبرهن في الوقت نفسه على رهافة في التفكير نادرة، ونفاذ في البصيرة عجيب. لقد اختار أضمن الطرق للخروج من الموقف الذي يظنه مأزقاً حرجاً، فمس في قلب الإنسان أرهف أوتاره، أعني روح الغفران والرد على الشر بالخير. مضى إلى الإنسانة التي أساء إليها، فطلب منها العطف والمعونة، اعتمد على كبرياء المرأة التي أصبحت تحبه، فاعترف لها بأنه يحب غيرها، وفي الوقت نفسه أيقظ في نفسها العطف نحو غريمتها، وحصل منها على الصفح والمغفرة، حتى وعدته بصداقة أخوية مخلصة مبرأة من الغرض. إن أعقل

الرجال وأحكمهم وأحذقهم يعجزون أحياناً عن بسط مثل هذا الأمر دون أن يجرحوا أو يسيؤا؛ والذين يستطيعون ذلك إنما هم ذوو القلوب الغضة النضرة الصافية كقلبه. أنا مقتنع بأنك لم تساهمي في مسعاه اليوم لا بالكلام ولا بالنصح. ولعلك لم تعلمي بهذا الأمر إلا في هذه اللحظة.. أأنا مخطئ؟

ـ لست مخطئاً!

قالت ناتاشا ذلك وقد احمرّ وجهها حتى أصبح بلون الجمر، وكانت عيناها تلتمعان ببريق عجيب كأنه الإلهام. لقد بدأ حديث الأمير يحدث فيها تأثيره.

وأضافت تقول:

ـ لم أرَ أليوشا منذ خمسة أيام. هو الذي تخيل هذا كله، ووضعه موضع التنفيذ.

قال الأمير مؤيداً:

ـ الأمر هكذا بلا شك. ولكن رغم ذلك، فإن هذا الفهم النافذ الذي لا عهد له به من قبل، وهذه العزيمة، وهذا الشعور بالواجب، وهذه الصلابة النبيلة، كل هذا إنما هو نتيجة من نتائج تأثيرك فيه. لقد استقر رأيي بهذا الصدد، وقد فكرت في هذا الموضوع أثناء عودتي إلى بيتي، وشعرت، بعد تفكير، أنني قادر على اتخاذ قرار حاسم. إن مشروع الزواج الذي أردته له قد تعطل، وليس في الإمكان استئناف الكلام فيه والسعي إليه: وهبي ذلك ممكناً، فليس ثمة ما يبرره ويحض عليه، ذلك أنني مقتنع، في الواقع، بأنك الإنسانة الوحيدة التي تستطيع أن تحقق سعادة ابني، وأنك حقاً خير مرشد له، وأنك قد أرسيت منذ الآن أسس سعادته المقبلة! ما أخفيت عنك شيئاً، وما أخفي عنك الآن شيئاً. إنني امرؤ مولع

بالتقدم والمال والشهرة والجاه، وأعترف بأن في ذلك كثيراً من سيطرة الآراء الخاطئة، ومع ذلك لا أريد أبداً أن أركل هذه الأمور بقدمي. ولكن هناك ظروفاً ينبغي للمرء فيها أن يأخذ باعتبارات أخرى، ظروفاً لا يستطيع المرء فيها أن يزن الأمور بميزان واحد.. ثم إنني أحب ولدي حباً عظيماً. وصفوة القول إنني انتهيت إلى هذه النتيجة، وهي أن أليوشا يجب ألاّ يتركك، لأنه إذا تركك ضاع لا محالة. وهل تحبين أن أعترف لك بشيء آخر؟ لعلني قد اتخذت هذا القرار منذ شهر، ولكنني الآن إنما أعترف لنفسي بأن ذلك القرار كان صائباً. وكان في إمكاني، طبعاً، كي أخبرك بهذا كله، أن آتي إليك غداً، وألا أزعجك في مثل هذا الوقت وقد انتصف الليل أو كاد، ولعل تعجّلي هذا أن يبرهن لك على شدة اهتمامي بهذا الموضوع، وعلى مدى صدقي فيه بوجه خاص. لست طفلاً صغيراً، ولا أستطيع، في هذه السن، أن أعزم على أمر قبل أن أنعم فيه النظر والتفكير. حين دخلت إلى هنا كان كل شيء قد تقرر في ذهني ورسخ. وإنني لأعلم أنه لا بد من الانتظار مدة طويلة حتى أقنعك بصدقي إقناعاً تاماً.. هل تريدين أن أبسُط لك الآن سبب مجيئي؟ جئت لأفي دَيْناً لك عليّ، لأسألك بما أحمل لك من احترام عظيم أن تحققي سعادة ابني بقبوله زوجاً لك! ولكن أرجوك ألاّ تحسبيني أباً رهيباً قرر، على سبيل حل المشاكل، أن يغفر لولديه، وأن يمن عليهما بالموافقة على سعادتهما! لا! لا! إنك لتهينينني إذا حسبتني كذلك! لا ولا تحسبي أني موقن منذ الآن بأنك موافقة على هذا الزواج، استناداً إلى ما أسلفت من تضحيات في سبيل ولدي. لا! أنا أول من يقول إن ابني ليس كفء لك و... (إنه مخلص وطيب).. وسيقر هو نفسه بهذا. ليس هذا كل شيء.. ليس هذا الأمر وحده

هو الذي قادني إلى هنا في مثل هذه الساعة. . لقد أتيت إلى هنا. . (قال ذلك ونهض من مكانه في احترام يشبه الإجلال) لأصبح صديقك! أنا أعلم أن ليس لي في هذا حق!. . ولكن اسمحي لي أن أحاول أن أكون جديراً بهذا الحق! اسمحي لي أن أؤمل ذلك!. .

قال هذا وانحنى أمام ناتاشا في احترام، وانتظر جوابها. كنت طوال حديثه أراقبه في انتباه يقظ، ولاحظ هو ذلك.

لقد ألقى خطابه في برود، وفي شيء من التحذلق، وفي نوع من الإهمال في بعض الفقرات. وكانت لهجته لا تناسب، في جميع مواضع الخطاب، هذه الاندفاعة التي ألقته إلينا في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، وفي مثل هذه الظروف على وجه الخصوص. كانت بعض عباراته تنبئ بأنها مهيأة، وكان في مواضع أخرى من هذا الخطاب الطويل، الغريب في طوله، أن يخفي تحت ألوان النكتة والمرح والمزاح شعوراً يحاول أن يعبّر عن ذاته. على أنني سأحلل هذا كله فيما بعد، فإنما نحن الآن في شأن آخر. لقد بلغ في كلماته الأخيرة من التدفق والعاطفة وصدق التعبير عن احترامه لناتاشا ما جعله يأسرنا ويسيطر علينا جميعاً، حتى لمع بين أهدابه في لحظة من اللحظات، شيء أشبه بدمعة. لقد أسر قلب ناتاشا النبيل، فنهضت كما نهض. ومدت إليه يدها دون أن تقول كلمة واحدة، وهي في حالة من الانفعال الشديد والتأثر العميق. فتناول يدها وقبّلها في حب ورفق وعاطفة. وكان أليوشا من فرط حماسته قد خرج عن طوره، فهتف:

- ألم أقل لك يا ناتاشا؟ كنت لا تصدقينني، كنت لا تصدقين أنه أنبل رجل على وجه الأرض! هل ترين الآن؟.

وارتمى على أبيه فقبّله في حماسة عنيفة، ورد أبوه بمثلها، ولكنه

أسرع فوضع حداً لهذا المشهد العاطفي، كأنما هو يستحي أن يظهر عواطفه.

قال وهو يتناول قبعته:

ـ كفى هذا. أنا ذاهب، لقد استأذنتكم في عشر دقائق، وهأنا ذا قد مكثت ساعة برمتها (قال ذلك وضحك ضحكة صغيرة). غير أنني أترككم منتظراً لقاءكم مرة أخرى بصبر فارغ، وشوق محرق، وأرجو أن يكون هذا اللقاء في أقرب فرصة ممكنة. هل تسمحين لي أن آتي لرؤيتكم علما اتسع وقتي لذلك؟

قالت ناتاشا:

ـ نعم، نعم، على قدر ما تستطيع!

وأضافت تقول خجلة مضطربة:

ـ إنني أود أن.. أحبك بأقصى سرعة ممكنة!

قال الأمير وهو يبتسم لكلامها:

ـ ما أصدقك، وما أشرف نفسك! إنك لا تحاولين إخفاء عواطفك حتى في قول كلمة لطيفة. ولكن صدقك أثمن من كل هذا اللطف الذي يتظاهر به الناس. نعم! أشعر أنه لا بد من مضي وقت طويل، طويل، قبل أن أستحق صداقتك!

فقالت ناتاشا مضطربة:

ـ كفى مجاملة!

ما كان أجملها في هذه اللحظة!

قال الأمير ينهي الحديث:

ـ لك ما تشائين. ولكن اسمحي لي بكلمتين أخيرتين. هل تستطيعين أن تتصوري مدى تعاستي؟ لن أستطيع أن آتي لرؤيتك غداً ولا بعد غد. لقد وصلتني في هذا المساء رسالة هامة جداً، يُطلب

إليّ فيها أن أساهم بلا إبطاء في قضية من القضايا. لا أستطيع أن أتخلص من هذا بوجه من الوجوه. سأترك بطرسبرغ في صباح الغد. أرجوك أن لا تظني أنني أتيت لرؤيتك في هذه الساعة المتأخرة من الليل لأنني ما كنت أستطيع أن آتي غداً أو بعد غد. إنك لا تظنين هذا حتماً، ولكن فكري الشكاك الرياب يصوّر لي ما يشاء! لماذا تراءى لي أنك ستظنين هذا لا محالة؟ يا لسوء ظني ما أشده! ما أكثر ما عاقني في هذه الحياة! لعل اختلافي مع أهلك أن يكون مرده إلى سوء هذا الظن هذا، إلى هذا الطبع السيئ الذي يسبب لي كثيراً من المتاعب! . . هذا اليوم هو يوم الثلاثاء. سأتغيب الأربعاء والخميس والجمعة. وآمل أن أعود ختماً في يوم السبت، وسآتي لرؤيتك في ذلك اليوم نفسه. هل أستطيع أن آتي لقضاء السهرة كلها!

ـ طبعاً طبعاً. سأنتظرك في مساء السبت بفارغ صبر!

ما أسعدني بهذا! سأزداد معرفة بك يوماً بعد يوم. . أنا ذاهب الآن. ولكنني لا أستطيع أن أذهب بدون أن أصافحك (قال هذا وهو يلتفت فجأة نحوي). سامحني. إننا جميعاً في هذه اللحظة نتحدث حديثاً متقطعاً. . لقد سعدت قبل اليوم، عدة مرات، بلقائك، حتى لقد قُدِّم كل منا للآخر. لا أستطيع أن أذهب دون أن أعبِّر لك عن مدى سروري بتجديد التعارف بيننا.

أجبت وأنا أتناول يده التي مدها إليّ:

لقد التقينا قبل اليوم، هذا صحيح، ولكنني لا أذكر أن أحدنا قُدِّم للآخر.

في منزل الأمير س. . السنة الماضية.

ـ عفواً، لقد نسيت هذا. وأعاهدك على ألاّ أنسى بعد هذه المرة. ستبقى هذه الأمسية ماثلة في ذاكرتي لا تبارحها.

ـ أصبت. وأنا كذلك لن أنسى هذا اللقاء. إنني أعرف منذ مدة طويلة أنك صديق ناتاليا نيقولايفنا وابني.. ونِعْمَ الصديق المخلص أنت! آمل أن أكون رابعكم. أليس كذلك؟ (قال هذا وهو يلتفت إلى ناتاشا).

ـ نعم إنه صديق مخلص، ويجب أن نجتمع نحن الأربعة.

قالت ناتاشا ذلك تلهمها عاطفة عميقة. مسكينة! لقد أضاء وجهها بفرح عظيم حين رأت أن الأمير لم ينس أن يتودد إليّ! ما أعظم ما تحبني!..

وأضاف الأمير يقول:

ـ لقيت كثيراً من المعجبين بموهبتك، وأعرف اثنتين من قارئاتك المتحمسات، يسرهما جداً أن تعرفاك شخصياً، وهما الكونتيسة، خير صديقاتي، وابنة زوجها كاترين فيدوروفنا فيليمونوفا. اسمح لي أن آمل ألان تضن عليّ بمتعة تقديمك إلى هاتين السيدتين.

ـ سيكون ذلك شرفاً عظيماً لي، وإن تكن علاقاتي في هذه الأيام قليلة..

ـ هلا سمحت بإعطائي عنوانك؟ أين تسكن؟ ولسوف يسرني جداً أن...

ـ إنني لا أستقبل أحداً في بيتي، أيها الأمير، في هذه الأيام على الأقل..

ـ ولكنني، وإن كنت لا أستحق أن أُستثنى، أريد أن..

ـ لك ما تشاء أيها الأمير ما دمت تصر، وسيسرني هذا جداً.. إنني أسكن في شارع ن.. عمارة كلوجن.

فهتف، كأنما شدهه هذا:

ـ منزل كلوجن؟ كيف؟ هل.. تسكن في هذا المنزل منذ مدة طويلة؟

قلت وأنا أنظر إليه على غير إرادة مني:

ـ كلا، لا أسكن فيه منذ مدة طويلة.. ورقم مسكني هو 44 .

ـ 44؟ وتعيش.. وحدك؟

ـ نعم وحدي.

ها.. ذلك أن.. يبدو لي أنني أعرف هذا المسكن. حسناً، هذا يسهّل عليّ.. سأذهب إليك حتماً. ثمة أشياء كثيرة أحب أن أقولها لك، وإنني لأنتظر منك أشياء كثيرة. تستطيع أن تتفضل عليَّ في أمور كثيرة. أرأيت؟ هاءنا ذا أبدأ على الفور بتقديم مطالب! والآن إلى اللقاء. هات يدك، مرة أخرى!

وصافحني، وصافح أليوشا، وقبَّل يد ناتاشا الصغيرة مرة أخرى، وخرج دون أن يرجو أليوشا اللحاق به.

ظللنا نحن الثلاثة مضطربين أشد الاضطراب. لقد تم هذا كله فجأة على غير توقع. وشعرنا جميعاً أن كل شيء قد تغير في طرفة عين، وأن شيئاً جديداً مجهولاً يبدأ. جلس أليوشا إلى جانب ناتاشا دون أن ينبس بكلمة، وقبّل يدها في رفق. وكان يلقي عليها من حين إلى حين نظرة انتظار لما ستقول.

قالت ناتاشا أخيراً:

ـ أليوشا، عزيزي، اذهب منذ الغد إلى كاترين فيدوروفنا.

ـ فكرت في هذا أيضاً، سأذهب حتماً.

ـ ولكن قد يشق عليها أن تراك.. فما العمل؟

ـ لا أدري يا عزيزتي. لقد فكرت في هذا. سأرى. سأتخذ قراراً. اسمعي يا ناتاشا، لقد تغير الآن كل شيء (لم يسع أليوشا ألاّ يقول هذا).

فابتسمت ناتاشا، وألقت عليه نظرة طويلة تفيض عطفاً وحباً.

ـ ما ألبقه! لقد رأى مسكنكِ الفقير، ولم يقل شيئاً...
ـ بصدد ماذا؟
فأجاب وقد احمرّ وجهه:
ـ بصدد الانتقال من هذا المسكن... أو شيء آخر...
ـ هل تريد أن تسكت يا أليوشا؟ ما هذا الكلام؟
ـ أريد أن أقول إنه لبق جداً. لقد أثنى عليك كثيراً. ألم أقل لك؟ نعم، إنه يستطيع أن يفهم كل شيء، وأن يشعر بكل شيء.. ولكنه تحدث عني حديثه عن طفل: إنهم جميعاً ينظرون إليّ نظرتهم إلى طفل! ولم لا؟ إنني في الواقع طفل.
ـ إنك طفل يا أليوشا، ولكنك أنفذ بصيرة منا جميعاً. إنك طيب يا أليوشا!
ـ لقد قال إن طيب قلبي يسيء إليّ؟ ما معنى هذا؟ إنني لا أفهم! ما رأيك يا ناتشا؟ ألست أحسن صنعاً إذا لحقت به فوراً؟ سأكون عندك غداً منذ الفجر.
ـ اذهب اذهب يا عزيزي. فكرة حسنة. اذهب إليه حتماً. وغداً تأتي متى استطعت. في هذه المرة لن تختفي خمسة أيام (قالت هذا بلهجة متخابثة، وهي تنظر إليه نظرة مداعبة).
كنا جميعاً في فرح عظيم كامل. وهتف أليوشا وهو يترك الغرفة:
ـ تعال معي يا فانيا.
ـ بل سيبقى هنا. ثمة أمور يجب أن نتحدث فيها يا فانيا. انتبه يا أليوشا، غداً منذ الفجر!
ـ هو كذلك، إلى اللقاء يا مافرا!
كانت مافرا مضطربة جداً. لقد أصغت وراء الباب إلى كل ما قاله الأمير، ولكنها لم تفهم كل شيء. كان بودها لو تنفذ إلى السر، ولو

تطرح بعض الأسئلة. على أنها في هذه اللحظة كان يبدو عليها الجد بل والخيلاء! كانت تشعر أن ثمة تغيراً كبيراً قد تم.

وبقينا وحدنا. وتناولت ناتاشا يدي، وظلت صامتةً بعض الوقت، كأنها تبحث عما تقوله..

وقالت أخيراً بصوت ضعيف:

ـ إنني تعبة. اسمع يا فانيا. ستذهب غداً إلى بيت أهلي، ما رأيك؟

ـ سأذهب حتماً.

ـ تحدث إلى أمي، ولكن لا تقل له هو شيئاً.

ـ تعلمين أنني لا أحدثه عنك أبداً.

ـ صحيح.. سيعلم بالأمر دون أن تحدثه به. ولكن لاحظ ما سيقوله، لاحظ كيف يستقبل النبأ. رباه! قل لي يا فانيا هل يُعقل ألاّ يلعنني بسبب هذا الزواج؟ لا، ليس يُعقل!

أجبت بسرعة:

ـ على الأمير أن يدبر الأمر كله. يجب أن يصالح أباك حتماً. ومتى تم هذا، تذللت العقبات كلها.

قالت بصوت متوسل:

ـ يا ليت هذا يتم!

ـ لا تقلقي يا ناتاشا، سيتم كل شيء على ما تحبين، لقد انفتح الطريق.

فنظرت إليّ نظرة طويلة ملحة.

ـ فانيا، ما رأيك في الأمير؟

ـ إذا كان صادقاً فيما قال، فهو في رأيي إنسان على جانب عظيم من النبل.

ـ هذا رأيي أيضاً.

قلت في نفسي: إذن فقد خامرها شيء من الريب. عجيب!

ـ كنت تتفرس فيه طوال الوقت.

ـ نعم، لاح لي غريباً بعض الشيء.

ـ وكذلك بدا لي أنا. إنه يتحدث على نحو.. إنني متعبة يا صديقي. اسمع يا فانيا: عُد أنت أيضاً إلى بيتك. وتعال إليّ غداً متى استطعت، بعد أن تذهب إليهم. اسمع أيضاً: ألم أسىء إليه حين قلت له إنني أود أن أحبه بأقصى سرعة ممكنة؟

ـ ليس في هذا الكلام ما يسيء!

ـ أليس فيه شيء من الحماقة؟ أليس يعني أنني لا أحبه بعد؟

ـ ليس على كلامك من مأخذ. كان حديثك ساذجاً عذباً. وكنت في تلك اللحظة في غاية الجمال!.. وإنه ليكون غبياً إذا لم يقدِّر كلامك حق قدره!

ـ كأنك مستاء منه يا فانيا؟ آه، ما أكثر شكوكي وغروري! لا تضحك: أنت تعلم أنني لا أخفي عنك شيئاً. آه يا فانيا، يا صديقي العزيز. إذا عدت شقية بائسة كما كنت، إذا عاد إليّ الشقاء والبؤس، فستكون حتماً هنا إلى جانبي، أعلم ذلك. وقد تكون الوحيد! كيف أرد لك هذا الجميل كله! لا تغضب مني يوماً يا فانيا!

حين عدت إلى بيتي، خلعت ثيابي فوراً، واضطجعت على سريري أنشد النوم. كانت الغرفة مظلمة رطبة كأنها كهف. وحاصرتني أفكار كثيرة، وإحساسات غريبة، وظللت مدة طويلة لا أستطيع النوم.

هناك رجل لا بد أنه كان يضحك منا ملء شدقيه في تلك اللحظة، وهو يرقد على سريره الوثير، هذا إذا رضي أن يتفضل بالضحك منا! فلعله يرى في ذلك شيئاً لا يليق بمقامه الرفيع.

الفصل الثالث

صباح الغداة، في نحو الساعة العاشرة، بينما كنت خارجاً من مسكني لأذهب مسرعاً إلى أسرة أخمنيف في فاسيلي أوستروف ثم إلى ناتاشا، اصطدمت عند عتبة الباب بزائرة الليلة البارحة، حفيدة سميث. كانت آتية إلى بيتي. وأذكر أنني سررت برؤيتها سروراً عظيماً، لا أدري لماذا! لم يتسع وقتي، أمس، للتفرس فيها، حتى إذا رأيتها اليوم في وضح النهار، زاد عجبي. من الصعب أن يلقى المرء مخلوقاً أعجب وأندر من هذه الطفلة، من حيث مظهرها على أقل تقدير. كانت تستطيع أن تستوقف انتباه أي إنسان في الشارع: قامة قصيرة، عينان سوداوان براقتان ليس فيهما شيء روسي، شعر ناعم مبعثر على الرأس خصلاً كثيفة، نظرة خرساء كأنها لغز. إن نظرتها هي التي تفجأ الانتباه خاصة: هي نظرة يلتمع فيها ذكاء حاد، ويشيع فيها الريب والتحدي في الوقت نفسه، أما ثوبها المهترئ فقد ظهر لي في وضح النار أسوأ مما ظهر البارحة. إنه أسمال خلقة بالية. ولاح لي أنها مصابة بمرض من الأمراض مزمن، بطيء، عنيد، يهدم الجسم شيئاً فشيئاً لا محالة. كان وجهها النحيل أصفر أسمر في آن واحد، تنظر إليه فتعرف أن صاحبه مريض. على أنها لم تكن دميمة، رغم جميع التشوه الذي حمله إليها المرض والبؤس: إن حاجبيها جميلان، مقوسان في كثير من الدقة والنعومة، وإن جبينها عريض وسيم، وإن شفتيها دقيقتان تلوح فيهما أمارات

الجرأة والكبرياء، ولكنهما شاحبتان لا تكاد ترى لهما لوناً.

هتفت أقول:

ـ ها. هذا أنت؟ كنت أعرف أنك ستأتين. ادخلي ادخلي.

اجتازت العتبة ببطء، وهي تلقي على ما حولها نظرة ارتياب، كما فعلت بالأمس. وأخذت تدقق في هذه الغرفة التي عاش فيها جدها، كأنها تحاول أن ترى ما أحدثه الساكن الجديد من تبديل فيها. قلت في نفسي: ما الحفيدة إلا جدها، أتراها مجنونة؟ وظلت صامتة وظللتُ أنتظر.

ودمدمت تقول أخيراً، وهي تغض طرفها:

ـ جئت آخذ الكتب.

ـ ها. نعم. كتبك. هذه هي. خذيها. لقد احتفظت لك بها خصيصاً.

فرمقتني بنظرة مستطلعة، وارتسم على شفتيها ما يشبه أن يكون ابتسامة؛ غير أن مشروع الابتسامة هذا ما لبث أن زال، وحل محله، فجأة، المعنى القديم القاسي الغريب.

ـ سألتني وهي تنظر إليّ من قمة الرأس إلى أخمص القدمين نظرة ساخرة:

ـ هل حدَّثك جدي عني؟

ـ لا.. لم يحدثني عنك، ولكنه..

فقاطعتني تسأل:

ـ فكيف عرفت إذن أنني سآتي؟

ـ لأنه لاح لي أن جدك كان لا يمكن أن يعيش وحده لا يأتي إليه أحد. لقد كان هرماً ضعيفاً، فلا بد أن أحداً كان يأتي إليه. خذي هذه كتبك. هل تدرسين فيها؟

ـ لا.

ـ فيم تفيدك إذن؟

ـ كان جدي يعطيني دروساً حين آتي إليه.

ـ ثم لم تأت بعدئذ.

ـ ثم لم آت، لأنني مرضت.

قالت ذلك كأنها تبرر انقطاعها عن المجيء.

ـ هل لك أسرة؟ أب، أم؟

ما إن ألقيت عليها هذا السؤال حتى قطّبت ما بين حاجبيها، ورشقتني بنظرة مذعورة؛ ثم خفضت عينيها، واستدارت من غير أن تنطق بكلمة، وخرجت من الغرفة ببطء، دون أن تتنازل فتجيبني، كما فعلت أمس تماماً. وتابعتها بعيني مشدوهاً، فإذا هي تتوقف عند عتبة الباب فجأة، وتلتفت نحوي التفاتاً خفيفاً، وتسألني بحركة تشبه حركتها أمس حين نظرت إلى الباب وهي خارجة لتسألني عن أخبار آزور:

ـ ممّ مات؟

فاقتربت منها، وأخذت أروي لها الحكاية بسرعة. فكانت تصغي إليَّ صامتة منتبهة، وقد خفضت رأسها وأدارت لي ظهرها. رويت لها أيضاً أن العجوز ذكر الشارع السادس وهو يموت. وأضفت أقول: «فافترضت أن شخصاً عزيزاً على العجوز يسكن في ذلك الشارع، ولهذا كنت أنتظر مجيء أحد يسأل عنه. لا شك أنه كان يحبك كثيراً، لذلك تحدث عنك في لحظاته الأخيرة». فدمدمت تقول في أسف:

ـ لا، لم يكن يحبني.

كانت متأثرة أشد التأثر. وقد انحنيت عليها، وأنا أتكلم، ونظرت

في وجهها، فلاحظت أنها تبذل جهوداً هائلة لخنق انفعالها أمامي، كبرياء، وأخذ لونها يزداد شحوباً شيئاً بعد شيء، ثم عضت شفتها السفلى عضاً قوياً. غير أن ضربات قلبها العجيبة هي التي لفتت انتباهي خاصة، لقد أخذت ضربات قلبها تشتد وتشتد، حتى أصبح من الممكن أن تُسمع على بُعد خطوتين أو ثلاث خطوات. وخُيِّل إليّ أنها ستنفجر باكية، كما فعلت بالأمس، ولكنها سيطرت على نفسها، وسألتني:

ـ أين مكان السياج؟

ـ أي سياج؟

ـ السياج الذي مات بالقرب منه.

ـ سأريك إياه.. حين نخرج. ولكن اسمعي.. ما اسمك؟

ـ ليس ضرورياً..

ـ أي شيء هو غير ضروري؟

ـ لا شيء. ليس لي اسم.

قالت ذلك فجأة، وتحركت تهمُّ أن تذهب، فأمسكت بها، وقلت:

ـ انظري أيتها البنية الغريبة! إني أريد لك الخير، وأنت تعرفين ذلك. لقد أشفقت عليك منذ رأيتك تبكين أمس في ركن من السلم. لا أستطيع أن أتصور ذلك.. ثم إن جدك قد مات بين يدي، ولا شك أنه كان يفكر فيك حين ذكر الشارع السادس، فكأنه إذن قد عهد بك إليّ. إنه يظهر لي في الحلم.. وقد احتفظت لك بكتبك، ولكنك متوحشة، كأنك تخافين مني. لا شك أنك فقيرة، وربما كنت يتيمة، تعيشين في كنف آخرين. أليس هذا صحيحاً؟

كنت أحاول أن أهدئ روعها في حرارة، ولا أدري أنا نفسي ما

الذي كان يجذبني إليها. كان يمازج عاطفتي شيء آخر غير الشفقة. أيرجع ذلك إلى هذا الجو العجيب الذي أحاط لقائي بها، أم إلى الأثر الذي أحدثه فيَّ سميث، أم إلى مزاجي الغريب الخاص؟ لا أدري. ولكنني كنت منجذباً إليها انجذاباً لا يقاوم. وبدا لي أن كلماتي قد أثّرت فيها. لقد نظرت إليَّ نظرة غريبة لم تكن قاسية هذه المرة، بل كانت لطيفة وطويلة، ثم ما لبثت أن خفضت عينيها مرة أخرى، كأنها لم تعزم أمرها. وفجأة دمدمت تقول بصوت منخفض:

- هيلين.

- اسمك هيلين؟

- نعم.

- قولي، هلاً أتيت إليَّ من حين إلى حين!

فدمدمت تقول، وكأنها مع نفسها في صراع:

- لا أستطيع.. لا أعرف.

وفي هذه اللحظة، سمعنا دقات ساعة. فانتفضت هيلين، وسألتني وهي تنظر إليّ في قلق أليم لا يوصف:

- كم الساعة الآن؟

- لعلها العاشرة والنصف.

فصرخت من الذعر تقول:

- يا إلهي!

وهرولت على الفور، ولكنني أمسكت بها مرة أخرى في غرفة المدخل، قائلاً:

- لن أتركك تذهبين هكذا؟ ما الذي يخيفك؟ هل تأخرت عن الوقت؟

- نعم نعم. لقد خرجت خلسةً. دعني.

ثم صرخت وهي تحاول الإفلات من بين يديَّ:

- ستضربني!

- اسمعي قليلاً، لا تهتاجي: أنت ذاهبة إلى فاسيلي أوستروف، وأنا أيضاً ذاهب إلى الشارع 13*؛ لقد تأخرت عن موعدي، وأنوي استئجار عربة، فهل تأتين معي: سأقودك إلى بيتك، فتصلين بسرعة.

فهتفت تقول وقد استبد بها ذعر هائل:

- مستحيل.. يجب أن لا تأتي إلى بيتي.

وتشوه وجهها تشوهاً من الذعر.. لمجرد أنها تصورت أن من الممكن أن أذهب إلى حيث تسكن.

- ولكنني قلت إنني ذاهب إلى الشارع 13 لقضاء عمل من الأعمال، ولست ذاهباً إلى بيتك. لن أتبعك، وستوصلنا العربة بسرعة. هيا!.

وهبطنا على عجل، واستوقفتُ أول عربة لقيتها. كان واضحاً أن هيلين مستعجلة جداً، ما دامت قد قبلت أن تركب العربة إلى جانبي. وأعجب شيء أنني لم أجسر على سؤالها عن شيء. حتى إذا سألتها: من الذي تخافه في بيتها، حرَّكت ذراعيها وهمّت أن تقفز من العربة. فقلت في نفسي: ما هذا السر؟

كانت جلستها في العربة قلقة جداً، فكانت كلما اهتزت العربة، تتمسك بسترتي بيدها اليسرى، الصغيرة الوسخة المتشققة. وكانت تقبض كتبها بيدها الأخرى. إن كل شيء يشير إلى أن هذه الكتب عزيزة عليها. وفيما هي تصلح ثوبها، انكشفت ساقها، فإذا أنا أرى، على دهشة، أن قدميها عاريتان في حذاء ممزق. ورغم أنني قررت أن لا أسألها عن شيء، لم أستطع في هذه المرة أن أمنع نفسي عن السؤال:

- ما هذا؟ أليس لك جوارب؟ كيف تستطيعين أن تخرجي عارية القدمين في هذه الرطوبة وهذا البرد؟

فأجابت بلهجة متقطعة:

- ليس لي جوارب.

- رباه ولكنك تسكنين عند أحد الناس مع ذلك، وكان ينبغي أن تطلبي جوارب، ما دمت قد احتجت إلى الخروج.

- يعجبني الأمر هكذا.

- ولكن هذا يؤذيك، ومن الممكن أن تموتي!

- سيان.

كان واضحاً أنها تكره الإجابة، وكانت أسئلتي تغيظها.

- انظري. هناك مات.

قلت لها وأنا أشير إلى البيت الذي مات العجوز بالقرب منه. فنظرت إلى المكان بانتباه، ثم تحولت إليّ فجأة بوجه متوسل تقول:

- أرجوك، لا تتبعني، سآتي إليك، سآتي، سآتي متى استطعت.

- حسناً. قلتُ إنني لن أذهب إلى بيتك. ولكن من الذي تخافينه؟ لا شك أنك تعانين من البؤس. إنه ليؤلمني أن أراك..

فقالت بنوع من الحنق:

- لا أخاف أحداً.

- ولكنك قلت منذ لحظة «إنها ستضربك»!

فأجابت وقد أخذت عيناها تلتمعان:

- فلتضربني!

ثم كررت بلهجة مُرّة، وهي ترفع شفتها العليا احتقاراً، وترتجف:

- فلتضربني!

ووصلنا أخيراً إلى فاسيلي أوستروف، فاستوقفت الحوذي عند

مدخل الشارع السادس، وقفزت من العربة وهي تلقي حولها نظرة قلقة. وكررت تقول وقد أخذ منها الخوف كل مأخذ، وجعلت تضرع إليَّ أن لا أتبعها:

- اذهب، سآتي إليك. اذهب حالاً.. بسرعة.. بسرعة.

وتابعت طريقي، ولكنني ما إن حاذيت رصيف النهر لحظة، حتى صرفت الحوذي، وعدت أدراجي إلى الشارع السادس مسرعاً، وانتقلت إلى الرصيف الثاني، فلمحتها. لم يكن وقتها قد اتسع لابتعادها كثيراً، رغم أنها كانت تسير بخطى سريعة جداً. وكانت تنظر حولها في كل لحظة، حتى لقد توقفت برهة، لتعرف أأنا أتبعها أم لا. ولكنني اختفيت بجانب أحد الأبواب فلم تلمحني؛ وظلت تسير، وظللت أتبعها، من الجهة الثانية دائماً.

كان حب الاستطلاع قد بلغ مني ذروته. لقد وعدتها أن لا أتبعها، ولكنني كنت أريد أن أعرف البيت الذي ستدخله، مهما يكلف الأمر. لقد استبدّ بي شعور ثقيل غريب يشبه الشعور الذي أحدثه فيّ جدها حين مات آزور في المقهى.

الفصل الرابع

مشينا طويلاً حتى بلغنا «الجادة الصغرى»*. كانت تسير سيراً أشبه بالركض. ودخلت أخيراً إحدى الدكاكين فوقفت أنتظرها. قلت لنفسي: إنها لا تسكن دكاناً على كل حال. وما هي إلا دقيقة حتى خرجت فعلاً، ولكنها لا تحمل كتبها الآن. وإنما تحمل إناء من آجر. وبعد أن اجتازت طريقاً قصيراً، دخلت باب بيت حقير المظهر، صغير، هرم، مبنى بآجر، ذي طابقين، مصبوغ بلون أصفر وسخ. وفي إحدى النوافذ الثلاث من الطابق الأدنى يرى المرء تابوتاً صغيراً أحمر، إشارةً إلى أن ههنا مصنع توابيت. كانت نوافذ الطابق الأعلى صغيرة جداً، مربعة تماماً؛ وزجاجها كاب أخضر متشقق يرى المرء من خلاله ستائر من نسيج قطني وردي اللون.

اجتزت الشارع، واقتربت من البيت، فقرأت على لوحة من الحديد موضوعة فوق الباب: منزل الست «بوبنوفا».

وما إن فرغت من قراءة هذا الاسم حتى سمعت، من صحن منزل السيدة بوبنوفا، صرخة حادة، تبعتها شتائم مقذعة. فألقيت من خلال فتحة الباب نظرة إلى الداخل، فرأيت امرأة سمينة واقفة على درج صغير خشبي، وقد وضعت على رأسها طاقية وعلى كتفيها شالاً، واصطبغ وجهها بلون أحمر منفِّر. كان واضحاً أنها سكرانة، رغم أن وقت الغداء ما يزال بعيداً. وكانت تصب على المسكينة هيلين سيلاً من الشتائم، وكانت هيلين واقفة أمامها كالمشدوهة، وقد أمسكت

آنيتها بيديها. وفي أسفل الدرج، وراء ظهر المرأة ذات الوجه القرمزي، وقفت امرأة شعثاء، اختلط في وجهها الأحمر بالأبيض، وقفت تنظر إلى المشهد. وبعد لحظة، فُتح باب السلم من الطابق الأعلى، وظهرت على الدرجات امرأة متوسطة العمر، فقيرة الملبس، حلوة المنظر، متواضعة الهيئة، لا شك أن أصوات الصراخ هي التي دفعتها إلى الخروج؛ ومن خلال الباب المفترح ظهرت رؤوس أناس آخرين من ساكني الطابق الأعلى: شيخ مترنح وفتاة صبية... وفي وسط الباحة وقف فلاح فارع القامة قوي البنية لا شك أنه البواب، قد حمل بيده مكنسة، وأخذ ينظر إلى المشهد كله في كسل.

ـ يا ملعونة، يا علقة، يا بقة..

كذلك كانت المرأة تعوي، وتصب على رأس هيلين كل ما تعرف من شتائم، دون نقاط أو فواصل، كأنها تحزّق. وتضيف قائلة:

ـ أهكذا تكافئينني على ما أحتمله من عناء، يا وسخة؟ أرسلها لتأتيني بقليل من الخيار، فتختفي! لقد حدثني قلبي بأنها ستهرب: مزقتها أمس شرّ تمزيق، وها هي ذي تهرب اليوم مرة أخرى! ولكن أين تذهبين يا فاجرة، أين تذهبين؟ إلى من تذهبين يا فاسقة، يا قملة، يا سم، إلى من تذهبين؟ قولي وإلا خنقتك!

ثم ارتمت على البنية وقد جنت من الحنق.. ولكنها، وقد رأت سكان الطابق الأعلى ينظرون إليها، توقفت فجأة، والتفتت إليهم، وأخذت تصرخ صراخاً أشد وهي تحرك ذراعيها، كأنما لتشهدهم على الجريمة النكراء التي ارتكبتها ضحيتها المسكينة:

– تعرفون أن أمها قد فطست، أيها الطيبون. وبقيت هي وحيدة لا تملك ما تسدّ به الرمق. قلت لنفسي: أتحمل عناء كفالة هذه

اليتيمة إكراماً للقديس نيقولا، وحضنتها في بيتي. وها قد مضى شهران وأنا أعيلها، شربَتْ دمي، أكلت لحمي. يا علقة، يا حية، يا جنية. إنها لا تقول شيئاً. لا تقول شيئاً، ضربتها أم لم أضربها.. كأن في فمها ماء. تُحطم قلبي ولا تقول شيئاً! ماذا تظنين نفسك يا حشرة، يا قردة! لولاي لمتِّ من الجوع في الأزقة.. يجب أن تبوسي قدمي يا مِلْصة! لولاي لكنت فطست من زمان.

فسألتها المرأة التي كانت تتجه إليها بالكلام، سألتها باحترام:

- ولكن لماذا تجهدين نفسك هكذا يا آنا تريفونوفنا؟ ماذا فعلت اليوم أيضاً حتى أزعجتك هذا الإزعاج كله؟

- ماذا فعلت؟ إنني لا أريد أن يخرج على إرادتي أحد. شعاري: لأن تعمل ما أريد ولو كان خطأ، خير من أن تعمل ما تريد ولو كان صواباً. هكذا أنا. ولكنها أوشكت أن تقتلني اليوم! أرسلتها لشراء قليل من الخيار، فلم تعد إلا بعد ثلاث ساعات! كان قلبي يحدثني بذلك حين أرسلتها. إلى أين ذهبت؟ أيَّ حُماة قد وجدت؟ ألم أغرقها بجميلي وإحساني؟ هل يجب أن أذكر أنني سددت عن أمها الحقيرة دَيْن أربعة عشر روبلاً من الفضة، وأنني أنفقت على دفنها، وأنني أتولى تربية شيطانتها! تعرفين أنت نفسك هذا، يا سيدتي! أليس من حقي أن أهزَّها قليلاً بعد هذا كله؟ كان يجب أن يكون في قلبها شيء من عاطفة، ولكنها بدلاً من ذلك تعاكسني! أردت سعادتها، أردت أن ترتدي أثواباً من الموسلين، واشتريت لها حذاء من السوق، وألبستها كما تلبس الأميرات، فهل تعرفون ماذا فعلت أيها السادة؟ مزقت ثوبها مزقاً، وأصبحت كما ترون. فعلت ذلك عامدة، لست أكذب، رأيتها بعيني. وقالت: «أريد ثوباً من كتان، لا أريد الموسيلين». وعندئذ خففت عن نفسي، فظللت أضربها وأدقها

دقاً حتى اضطررت إلى استدعاء الطبيب، ودفع مال له.. كان يجب أن أذبحك يا قملة، ولكني بدلاً من ذلك اكتفيت بحرمانك من الحليب أسبوعاً واحداً! ولكي أعاقبها، ألزمتها أيضاً بغسل الأرض؛ وصدقوني إنها تغسل، هذه الجيفة، إنها تغسل!.. تناكدني ثم تغسل! قلت لنفسي: إنها ستهرب! وما كدت أتصور هذا حتى اختفت فعلاً، في غمضة عين! لقد سمعتم بأنفسكم، أيها الناس الطيبون، كم ضربتها بالأمس. لقد تحطمت يداي من الضرب. لقد نزعتُ جواربها وحذاءها، ظناً مني أنها لن تخرج عارية القدمين، ومع ذلك خرجت! أين كنت؟ قولي! ذهبت لرؤية من يا زوّانة؟ لِمَنْ وشيت بي؟ قولي، قولي يا غجرية!

وارتمت، وهي في سورة الغضب هذه، على الطفلة المجنونة من الذعر، فحملتها من شعرها، ورمتها على الأرض. فأفلت الوعاء من يد هيلين وتحطم. وزاد هذا غضب الغولة السكرانة، فضربت ضحيتها على الوجه وعلى الرأس. ولكن هيلين ظلت صامتة في عناد، لم يفلت من فمها صوت ولا صرخة ولا آهة، رغم الضرب المبرح. فأسرعتُ إلى صحن الدار، وقد طار صوابي من الاستياء، وتقدمت من المرأة السكرانة، وأمسكت بذراعها، صائحاً:

- ماذا تفعلين؟ كيف تجرؤين أن تعاملي يتيمة فقيرة مثل هذه المعاملة؟

- نعم؟ ومن أنت؟ ماذا تصنع في بيتي؟

هكذا أخذت تعوي، وقد تركت هيلين ووضعت قبضتها على خصرها.

فصرختُ:

- أنت امرأة بلا شفقة. كيف تجرؤين أن تعذبي طفلة مسكينة هذا

التعذيب! ليست هي ابنتك: سمعتك تقولين إنك تبنيتها تبنياً، وإنها يتيمة فقيرة..

فأخذت تصرخ مهتاجة:

- يا يسوع المسيح! من أين جئت أيها الرجل؟ لعلك جئت معها! إذن فانتظر.. إنني ذاهبة فوراً إلى ضابط الشرطة.. إن آندره تيموفئتش نفسه يعدّني نبيلة من النبيلات! إذن فهي تذهب إليك! من أنت؟ وما مجيئك إلى هنا تزرع الاضطراب في بيوت الناس؟ النجدة.. النجدة!

وهجمت عليّ قابضة يديها. ولكن في تلك اللحظة دوّت على حين غرة صرخة حادة عجيبة. ونظرت، فإذا هيلين، التي كانت واقفة كأنها لا عاطفة لها، ترتمي فجأة على الأرض، صارخة تلك الصرخة المخيفة، غير العادية، وتضطرب في تشنجات رهيبة. وتجعّد وجهها. إنها نوبة صرعة. فأسرعت الفتاة الشعثاء والمرأة التي في الطابق الأدنى تنهضانها وتحملانها.

وصرخت المرأة المهتاجة تقول:

- ليتها تفطس، هذه الملعونة. هي النوبة الثالثة في هذا الشهر.. اخرج، اخرج أيها المفسد.

وهجمت نحوي.

قال لي البواب بصوت منخفض متثاقل، كأنما ليقوم بواجبه:

- اخرج. لا تتدخل في شؤون الآخرين. هيا اذهب.

ولم يكن بد من الخروج، فاجتزت الباب، وأنا مقتنع بأن تدخُّلي كان عقيماً كل العقم. ولكنني كنت أغلي من الاستياء. وظللت على الرصيف قريباً من الباب، أنظر من الفتحة. وما إن خرجت، حتى صعدت المرأة بسرعة إلى فوق، واختفى البواب هو الآخر بعد أن

قام بواجبه. وبعد لحظة، نزلت المرأة التي ساعدت في حمل هيلين، مسرعةً نحو مسكنها، فلما لمحتني توقفت ونظرت إليّ نظرة استطلاع. وقد سكّن وجهها الهادئ روعي، فعدت إلى فناء المنزل وتقدمت نحوها قائلاً:

- هل تسمحين لي أن أسألك من هي هذه البنية وما تصنع بها هذه المرأة الفظيعة؟ أرجوك أن لا تظني أنني أطرح عليك هذا السؤال من قبيل الفضول، فقد صادفت هذه الطفلة، وأنا بسبب بعض الظروف يعنيني أمرها كثيراً.

- إذا كان أمرها يعنيك، فالأفضل أن تأخذها إليك، أو أن تجد لها مكاناً، وإلا ضاعت هنا..

قالت ذلك كأنما على أسف، وهي تتحرك لتبتعد عني.

- ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله إذا لم تعطيني بعض المعلومات؟ إنني لا أعرف من الأمر شيئاً. لعل هذه المرأة هي مدام بوبنوفا نفسها، صاحبة البيت؟

- نعم هي هي.

- ولكن كيف وقعت هذه الطفلة بين يديها؟ هل ماتت أمها هنا؟

- على كل حال، هي هنا.. والمسألة لا تهمنا.

وأرادت مرة أخرى أن تذهب. فقلت:

- من فضلك: إن هذا الأمر يعنيني كثيراً، وربما استطعت أن أفعل شيئاً. من هي هذه الطفلة؟ ومن كانت أمها؟ هل تعلمين شيئاً عن هذا؟

- يظهر أنها أتت من بلد آخر.. يظهر أنها غريبة. وكانت تعيش تحت، وكانت مريضة جداً، وماتت مصدورة.

- كانت تسكن القبو؟ إذن لقد كانت فقيرة جداً.

- نعم، يا لها من بائسة! منظرها يمزق القلب ألماً. ومع أننا أناس فقراء، فقد أصبحت مدينة لنا بستة روبلات بعد الأشهر الخمسة التي قضتها هنا. ونحن دفناها، وزوجي هو الذي صنع التابوت.

- فلماذا تزعم بوبنوفا إذن أنها هي التي دفنتها؟

- غير صحيح!

- ماذا كان اسمها؟

- لا أستطيع أن أنطق به. إنه صعب. لا بد أنها كانت ألمانية.

- سميث؟

- لا. ليس هذا تماماً. وقد أخذت آنا تريفونوفنا البنت الصغيرة، لتربيها فيما تزعم، ولكن المسألة ليست نظيفة.

- لا شك أنها أخذتها لغاية في نفسها..

- إنها تقوم بأعمال فاسدة..

قالت ذلك في تردد كأنها لا تريد أن تتكلم. وأضافت تقول:

- على كل حال، هذا لا يعنينا نحن..

وعندئذ دوَّى وراءنا صوت رجل يقول:

- والأفضل أن تصوني لسانك.

إنه رجل متقدم في السن بعض الشيء، يرتدي ثوب المنزل وفوقه قفطان. كان ظاهراً عليه أنه من أصحاب الحِرَف! إنه زوج محدثتي. قال لي وهو ينظر إليّ شزراً.

- اسمع يا سيد، ليس لدينا ما نقوله لك، الأمر لا يعنينا.

والتفت إلى امرأته يقول:

- وأنت اذهبي.

ثم أضاف يقول لي:

- وداعاً أيها السيد. نحن صانعو توابيت. فإذا كنت في حاجة إلى شيء يمت إلى مهنتنا بصلة، فعلى الرحب والسعة.. أما فيما عدا ذلك فلا شأن لك معنا البتة.

وخرجتُ من هذا البيت المعقد المضطرب. لم يكن في وسعي أن أفعل شيئاً، ولكنني كنت أشعر أنه يشق عليَّ أن أترك كل شيء على هذه الحال. ولقد هزتني كلمات قالتها زوجة صانع التوابيت: إن في الأمر شيئاً قذراً: كنت أوجس ذلك. وفيما كنت سائراً، خافض الرأس، غارقاً في تأملاتي، إذا بصوت خشن يناديني باسم عائلتي فجأة. ونظرت، فإذا أمامي رجل سكران يترنح. إنه يرتدي ملابس نظيفة بعض النظافة، ولكنه ملفع بمعطف رديء، وعلى رأسه قبعة قذرة. إنني أعرف وجه هذا الرجل. ووقفت أتفرس فيه، فغمرني بعينه، وابتسم لي ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- ألم تعرفني؟

الفصل الخامس

ها هذا أنت يا ماسلوبويف! إنه اللقاء!..

بهذا صحت حين عرفت فيه فجأة رفيقاً من رفاق المدرسة الثانوية في بلدتي، فأجاب:

ـ نعم! هذه ست سنين أو سبع لم نلتق خلالها.. بل الأصح أننا التقينا، ولكن «معاليك» لم تتنازل فتمنَّ علينا بنظرة، ذلك أنك قائد من قادة الأدب.

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة. فقاطعته أقول:

ـ دعك من هذا الهراء! فالقادة، حتى قادة الأدب، لم يُخْلَقوا مثلي... واسمح لي أن أقول لك ثانياً إنني أتذكر أنني لقيتك في الشارع مرتين أو ثلاث مرات، ولكنك أنت الذي هربت مني، كان ذلك واضحاً كل الوضوح، وأنا امرؤ لا أقرب إنساناً حين أرى أنه يتحاشاني. هل تعلم ما الذي أعتقده الآن؟ أعتقد أنك ما كنت لتناديني لولا أنك سكران، أليس هذه صحيحاً؟ على كل حال، دعنا من هذا، وعم صباحاً! إنني سعيد جداً، سعيد جداً بلقائك.

ـ صحيح؟ ألست أسيء إلى سمعتك إذا سرت معك وأنا على ما ترى من مظهر.. غير لائق؟ ولكن دعنا من هذا، فليس له من قيمة. إنني ما زلت أتذكر الطفل الوديع الذي كنتَه، أيها الأخ فانيا. هل تذكر أنهم جلدوك يوماً بدلاً مني؟ إنك لم تقل شيئاً، ولا وشيت بي، وقد سخرت أنا منك طوال أسبوع كامل، من قبيل الاعتراف

بالجميل. ما أطهر نفسك! (وتعانقنا). انقضت سنون كثيرة، وأنا أضطرب وحدي، في الليل والنهار، والأيام تنقضي، ولكنني لا أنسى الماضي. لا أنسى. وأنت، وأنت؟

ـ وأنا أيضاً أضطرب وحدي..

ونظر إليَّ نظرة طويلة فيها رقة إنسان أضعفته الخمرة. لقد كان على كل حال فتى طيباً. وقال أخيراً بلهجة أسيانة:

ـ لا يا فانيا، أنت شيء آخر. لقد قرأت يا فانيا، لقد قرأت.. ولكن اسمع: قل لي بصراحة، أأنت مستعجل؟

ـ الصراحة أن هناك حادثاً هزّني قوياً. قل لي أين تسكن. هذا أفضل.

ـ سأقول لك. ولكن هذا ليس أفضل. هل تريد أن أقول لك ما هو الأفضل؟.

ـ ما هو؟

فأشار إلى لافتة محل يبعد عشر خطوات عن المكان الذي كنا فيه وقال:

ـ انظر. مقهى ومطعم. والحق أنه مطعم فحسب، ولكنه مكان لطيف. وأقول لك إنه مكان شريف. أما الفودكا فحدِّث عنها ولا حرج. لقد شربتها هناك كثيراً، فأنا أعرفها حق المعرفة. وفي هذا المحل لا يجرؤون على تقديم شيء رديء إليّ. إنهم يعرفون فيليب فيليبتش. إن اسمي فيليب فيليبتش. ماذا؟ لماذا تكشر؟ لا... دعني أتمّ كلامي. الساعة الآن الحادية عشرة والربع. ففي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين تماماً سأدعك تذهب. وإلى أن يحين ذلك الوقت سنثرثر قليلاً. هل تستكثر عشرين دقيقة على صديق قديم، هه؟

أوافق على عشرين دقيقة، أما أكثر من ذلك، فلا! لأن هناك أعمالا يجب أن أقوم بها، أقسم لك..

ـ إذا كنت توافق فأنا أوافق. ولكن لي كلمتين أقولهما قبل كل شيء: لا يبدو عليك أنك مرتاح، كأن أحداً قد أزعجك منذ لحظة، أهذا صحيح؟

ـ نعم صحيح.

ـ لقد حزرت. ذلك أنني أيها الأخ منصرف الآن إلى دراسة علم الفراسة.. هذا عمل كغيره من الأعمال! ولكن هيّا الآن. سنتحدث بعد قليل. في خلال عشرين دقيقة سأجهز قبل كل شيء على سماور شاي، ثم أبتلع قدحاً من شراب السندر، فقدحاً من شراب الهال، فقدحاً من شراب البرتقال، ثم أقداحاً من أشربة أخرى. إنني أشرب أيها الأخ. وليس لي من قيمة إلا في أيام الأعياد قبل الصلاة. أما أنت، فتستطيع أن لا تشرب إذا لم تشأ أن تشرب. ولكنني في حاجة إليك. وإذا شربت معي كان ذلك دليلاً على نبل نفسك. هيا. سنثرثر قليلاً، ثم يذهب كل منا إلى سبيله، خلال عشرة أعوام، أنا لا أستحقك أيها الأخ فانيا!

ـ هيا، كفى هرفاً، لنسرع الخطى، لا يتسع وقتي لأكثر من عشرين دقيقة، أدعك وشأنك.

وكان علينا، في المطعم، أن نصعد إلى الطابق الثاني، متسلقين سلماً خشبياً. وفجأة، اصطدمنا على السلم برجلين قد أخذ منهما السكر كل مأخذ. فلما رأيانا اصطفَّا مترنحين.

كان أحدهما فتى صغيراً لم تنبت لحيته بعد، ولم يكد ينبت شارباه. وكان منظره يعبِّر عن غباوة كبيرة. وكانت ملابسه أنيقة، ولكنها مضحكة قليلاً، فكأنه مرتدٍ ملابس شخص آخر، وكان يزيّن

أصابعه بخواتم جميلة، ويرصع ربطة عنقه بدبوس ثمين، وكانت تسريحة شعره غريبة ذات ذؤابة. وكان يبتسم ويضحك طوال الوقت. أما صاحبه فهو في نحو الخمسين من عمره: سمين بطين، ذو هندام مهمل، وكان هو الآخر يزيّن ربطة عنقه بدبوس كبير، وكان أصلع، وكان وجهه ضئيلاً خرعاً ثملاً، وكان يضع نظارتين على أنفه الذي يشبه شكله زراً. إن وجهه يعبِّر عن السوء والشهوانية. كأن عينيه الشريرتين الخبيثتين الريانتين الغارقتين في الشحم تنظران من خلال شق. كان واضحاً أنهما يعرفان كليهما ماسلوبويف، ولكن الرجل السمين كشَّر حين رآنا تكشيرة الاستياء، ولكن هذه التكشيرة ما لبثت أن اختفت. أما الصبي فقد انطلق وجهه بابتسامة متطفلة خاضعة، حتى أنه رفع قبعته. كان يضع على رأسه قبعة. ودمدم يقول، وهو ينظر إلى صاحبي نظرة تلطف:

- اغفر لي يا فيليب فيليبتش.

- أغفر لك ماذا؟.

فضرب الصبي عنقه بسبابته وقال:

- لا شيء. إن متروشكا هناك. هذا كلب. واضح ذلك.

- ما معنى هذا الكلام؟

- طبعاً. . وهذا صاحبنا (وأشار برأسه إلى رفيقه) قد رشّوا وجهه في الأسبوع الماضي بالقشدة. . بفضل متروشكا ذاك نفسه. .

وهنا دفعه صاحبه من ذراعه غاضباً.

- ينبغي أن تأتي معنا، يا فيليب فيليبتش، سنفرغ الآن زجاجة أو زجاجتين، هل يمكن أن تتفضل بالمجيء معنا؟

فأجابه، ماسلوبويف قائلاً:

- لا يا عزيزي، لا يتسع وقتي الآن، تنتظرني أعمال.

- هأ هأ، أنا أيضاً تنتظرني أعمال، وأنت..

ودفعه رفيقه مرة أخرى من كوعه.

كان ماسلوبويف يحاول أن لا ينظر إليهما. ولكننا ما أن دخلنا الحجرة الأولى التي تمتد على طولها منضدة مكتظة بأنواع من المقبّلات واللحوم الباردة وزجاجات الشراب المختلفة الألوان، حتى قادني بسرعة إلى ركن من أركانها وقال:

- أما الفتى فهو ابن سيزوبريوخوف*، تاجر الحبوب المعروف. لقد ورث عند موت أبيه نصف مليون، وهو الآن يتلف ما ورث. ذهب إلى باريز، وبدد كثيراً من المال، بل لعله أنفق كل ما يملك. ثم ورث مرة أخرى عمه، وعاد من باريز، وهو يصفي الآن ما بقي له. وربما أصبح شحاذاً بعد سنة واحدة. إنه أحمق كإوزة، يختلف إلى أرقى المطاعم، والحانات والملاهي، والممثلات. وقد تقدم بطلب للالتحاق بالفرسان الغجر. وأما الآخر، المسنّ، فهو أرشيبوف؛ إنه تاجر أو ناظر، أو شيء من ذلك، يُعنى بتجارة الخمور، هذا الحقير المحتال، وهو الآن رفيق سيزوبريوخوف لا يتركه لحظة. إنه يهوذا وفالستاف في آن واحد، وقد أفلس مرتين، وهو مخلوق شهواني إلى درجة مقززة.. وصاحب نزوات. إني أعرف له بهذا الصدد أمراً إجرامياً، ولكنه قد خرج منه. ويسعدني جداً، بمعنى من المعاني، أنني لقيته هنا. كنت أتوقع ذلك. طبيعي أن أرشيبوف يختلس مال سيزوبريوخوف، إنه يعرف كل أنواع الأمكنة، وهو لذلك شيء ثمين بالنسبة إلى صبية من هذا النوع. إنني أنقم عليه منذ مدة طويلة. هل ترى ذلك الرجل القوي الجالس عند النافذة، الذي يرتدي معطف فلاح، ويشبه رأسه رأس غجري؟ أن اسمه متروشكا، وهو يحنق عليه أيضاً. إنه من سماسرة الخيل،

ويعرف جميع فرسان المدينة. سأقول لك شيئاً: إنه محتال فظيع، حتى لقد يزيف ورقة نقدية على مرأى منك، ثم إذا بك تبدلها له رغم أنك رأيته يزيّفها بأم عينك. وهو يبدو بمعطفه المخملي من المتعصبين للسلافية. (وفي رأيي أن ذلك يليق به. ثم إنك لو ألبسته لباساً أنيقاً وذهبت به إلى النادي الإنكليزي، وقلت هنالك إنه أمير يحكم بارابانوف، لاستطاع أن يُخدع الناس من أمره طوال ساعتين، يلعب الوايست ويتحدث كما يتحدث الأمراء، دون أن يلاحظوا شيئاً البتة)*. سينتهي نهاية سيئة. المهم أن متروشكا هذا يحقد على الرجل السمين، لأنه الآن مفلس، وقد اختلس منه السمين صديقه سيزوبريوخوف قبل أن يتسع وقته لنفضه تماماً. وإذا كانا قد التقيا منذ لحظة في المطعم، فلا بد أن تكون قد وقعت مشكلة، بل إنني أعرف الموضوع، فمن متروشكا، لا من غيره، عرفت أن أرشيبوف وسيزوبريوخوف سيجيئان إلى هنا، وأنهما يهوّمان في هذه النواحي سعياً إلى أمر حقير. أريد أن أستفيد مما يضمره متروشكا من بُغض لآرشيبوف، وهناك ما يحملني على ذلك، ومن أجل هذا جئت إلى هنا، ولكنني لا أريد أن يفكر متروشكا في شيء. لا تنظر إليه. وحين سنخرج، سيأتي من تلقاء نفسه يذكر لي ما أنا في حاجة إلى معرفته.. والآن فلندخل هذه الغرفة يا فانيا..

ثم تابع يقول متجهاً بكلامه إلى الخادم:

- هيه! ستيفان، هل تعرف ماذا أريد؟

- نعم سيدي.

- وستأتينا به؟

- نعم سيدي.

- هكذا. اجلس يا فانيا. لماذا تنظر إليَّ هذه النظرة؟ أرى أنك

تنظر إليّ! هل يدهشك هذا؟ لا داعي للدهشة. كل شيء يمكن أن يقع للإنسان، حتى الأمور التي كان لا يتصورها في الحلم.. ولا سيما.. هل تذكر أيام كنا نقرأ معاً كورنيليوس نيبوس. اسمع يا فانيا، هناك شيء يجب أن تصدقه: مهما يكن ماسلوبويف قد ضل، فإن قلبه ما يزال كما كان، ولكن الظروف هي التي تغيرت. رغم أنني قد وسخت يدي، فإنني لست أسوأ من غيري. لقد أردت أن أصبح طبيباً، ثم حضرت شهادة تعليم الأدب الروسي، حتى لقد كتبت مقالة عن غوغول، ثم أردت أن أجعل نفسي باحثاً عن الذهب، وأوشكت أن أتزوج، ذلك لأن الرجل الذي يحب الحياة، يرغب في أن يأكل خبزاً أبيض، وقبلت، هي، رغم أن البيت كان خالياً مما يطعم هرة، وكنت على وشك أن أذهب إلى حفلة الزواج، وكنت أريد أن أستعير حذاء متيناً لأن حذائي كان قد تثقب منذ سنة ونصف سنة. ولكنني لم أتزوج. وتزوجت هي أستاذاً من الأساتذة. واكتفيت أنا بأن أعمل في أحد المكاتب. ثم كانت أغنية أخرى. وانقضت سنون. ورغم أنني لا أعمل الآن، فإنني أكسب مالاً كثيراً دون تعب. أتقاضى أجراً على التوسط للناس، وأدافع عن الحقيقة: أَسَدٌ أمام النِّعاج، ونعجة أمام الأسود. إن لي مبادئ. فأنا أعرف مثلاً أن العدد الكثير هو الذي يؤلف قوة كبيرة و.. أنصرف إلى أعمالي. وأنا أعمل خاصة في أمور شبة رسمية.. هل فهمت؟

- لستَ جاسوساً على كل حال؟

- لا، لست جاسوساً، ولكنني أقوم بأعمال بعضها رسمي، وبعضها شخصي. هل ترى يا فانيا؟ إنني أشرب. ولكنني لم أغرق عقلي أبداً في الخمرة، وأنا لذلك أعرف مستقبلي. لقد فات الأوان، ولكنني سأقول لك شيئاً: لو قد مات فيَّ الإنسان لما اعترضتك

اليوم. إن ما ذكرته منذ لحظة صحيح يا فانيا، لقد سبق أن رأيتك قبل اليوم، وأردت غير مرة أن أعترضك، ولكنني لم أجرؤ، وكنت أرجئ ذلك دائماً. إنني لا أستحقك. وقد أصبتَ حين قلت إنني لو لم أكن سكران، لما اعترضتك اليوم. على كل حال، هذا حديث مشوش مضطرب، ودعنا الآن من الكلام عني. ولنتحدث عنك. اسمع يا صديقي، لقد قرأت لك، قرأت كتابك الأول من بدايته إلى نهايته. وحين فرغت من قراءته أوشكت أن أصبح إنساناً سوياً! ولكنني فكرت، وآثرت أن أحتفظ بحياتي المضطربة، وهكذا.

ظل يحدثني مدة طويلة، فكلما ازداد سكره. ازدادت عاطفته، ففاضت عيناه بالدموع. لقد كان ماسلوبويف دائماً من خيرة الفتيان، إلا أنه كان يحب التفرد دائماً، وكان نموه فوق نمو من هم في سنه، وكان ذا مكر وكَيْد وخبث ومَيْل إلى المماحكة والمناقرة، وإن لم يكن خالياً من العاطفة. كان إنساناً ضائعاً. ثمة أناس كثيرون من هذا النوع بين الروس. وكثيراً ما يكونون موهوبين. إن كل شيء مضطرب في نفوسهم حتى لقد يخالفون ضميرهم واعين عامدين، لضعف في بعض الأمور، فلا يضيعون أنفسهم فحسب، بل يعرفون حق المعرفة أنهم يسعون إلى حتفهم بأرجلهم. ولقد كان ماسلوبويف، كغيره، يغرق نفسه في الخمرة.

وتابع يقول:

- كلمة أخيرة. لقد وصلتْ إليَّ في أول الأمر أصداء مجدك ثم قرأت بعد ذلك مقالات في نقدك (نعم.. لقد قرأت هذه المقالات، لعلك تعتقد أنني لا أقرأ)، وصادفتك بعد ذلك منتعلاً حذاء خلقاً، تمشي في الوحل بلا كاوتشوك، وعلى رأسك قبعة متجعدة.. ففكرت في هذا طويلاً. أنت تعمل الآن في الصحافة، أليس كذلك؟

- نعم.
- معنى هذا أنك أصبحت حصان عربة.
- شيئاً من ذلك.
- لذلك أيها الأخ قلت لك إن الإقبال على الشراب أفضل. فأنا مثلاً أسكر، وأتمدد على ديواني (عندي ديوان ممتاز ذو نوابض)، وأفكر، فأراني هوميروس أو دانتي أو فريدريك باربروس، ذلك لأن الإنسان يستطيع أن يتخيل ما يشاء. أما أنت فلا تستطيع أن تتخيل أنك دانتي أو فريدريك باربروس. أولاً لأنك ترغب في أن تكون أنت نفسك، وثانياً لأن كل رغبة ممنوعة عنك، مادمت حصان عربة. لي أنا الخيال، ولك أنت الواقع. اسمع، قل لي بصراحة، بلا لف ولا دوران، كما يقول أخ لأخيه (وإلا كنت تهينني مدة عشر سنين)، ألست في حاجة إلى مال؟ إن لدي مالاً. لا تكشّر. خذ هذا المال، فترتاح من الذين يستخدمونك، وتنزع اللجام عن عنقك، وتعيش هادئ البال سنة بكاملها، وتستطيع عندئذ أن تنصرف إلى فكرة عزيزة عليك، أن تنتج كتاباً كبيراً. ما رأيك؟
- اسمع يا ماسلوبويف! إنني أقدِّر هذا العرض الأخوي، ولكنني لا أستطيع أن أجيبك الآن بشيء، أما لماذا؟ فهذا أمر يطول شرحه. ذلك رهن بالظروف. ثم إنني أعدك بأن أقول لك كل شيء، أيها الأخ. أشكر لك ما عرضته عليَّ. وأنا أعدك بأن أزورك، بأن أزورك كثيراً. ولكن إليك الأمر الذي يهمني الآن: ما دمت صريحاً معي، فقد قررت أن أستشيرك، لاسيما وأنك أستاذ في هذا النوع من الأمور؟

وقصصت عليه حكاية سميث وحفيدته، من أولها إلى آخرها، مبتدئاً بالمقهى. ولفت نظري شيء عجيب: كان يخيل إليَّ، وأنا

أقص الحكاية، أنني أقرأ في عينيه أنه على علم بها، فسألته عن ذلك فأجاب:

- لا لست أعرفها. غير أنني سمعت قليلاً عن سميث، وعرفت أن شيخاً عجوزاً قد مات في ذلك المقهى. أما السيدة بونوفنا فإنني أعرف عنها بعض الأمور حقاً. كان لي معها شأن منذ شهرين. إنني أعرف من أين تؤكل الكتف، ومن هذه الناحية وحدها أشبه موليير. ورغم أني ابتززت منها مائة روبل، فقد آليت على نفسي ألاّ أكتفي في المرة القادمة بأقل من خمسمائة روبل. تلك امرأة فظيعة!.. إنها تقوم بتجارة حقيرة! وكان يهون الأمر، لو أنها لا تسرف في الانحطاط حقاً في بعض الأحيان. أرجو ألاّ تظن أنني دون كيشوت. واقع الأمر هو أنني أستطيع الانتفاع، وقد سرني جداً أنني لقيت سيزوبريوخوف منذ نصف ساعة. لا شك أنهم جاءوا به إلى هنا.. الرجل الضخم هو الذي جاء به.. ولما كنت أعرف ما هو العمل الذي يتعاطاه هذا الرجل، فقد استنتجت من ذلك أن... ولكنني سأقبض عليه!... لقد سرني أنك حدثتني عن تلك البنت الصغيرة، فقد اطلعت الآن على شيء جديد. اعلم يا عزيزي أنني أتولى تحقيق أنواع كثيرة من المهمات يعهد بها إليّ، وليتك ترى الناس الذين أتردد إليهم! لقد توليت أخيراً القيام بتحريات كلفني بها أمير من الأمراء، إنها قضية لا يُنتظر مثلها من مثله. أم هل تريد أن أروي لك قصة امرأة متزوجة؟ زرني في يوم من الأيام، فلدي من الأحاديث ما لا يصدقه عقلك!.

فقاطعته أقول، وقد أوجست الأمر:

- ما اسم ذلك الأمير؟

- مالك ولاسمه؟ اسمه فالكوفسكي، إذا كنت تصر على معرفة اسمه.

- بطرس فالكوفسكي.

- نعم.. هل تعرفه؟

- قليلاً.. وسأسألك عن أنباء هذا السيد غير مرة، لقد شاقني حديثك كثيراً.

قلت ذلك وأنا أنهض.

- اسمع أيها الصديق القديم! إنك تستطيع أن تسألني عن كل ما تريد، وأنا امرؤ يجيد رواية الحكايات، ولكنني لا أطلق للساني العنان، بل أظل في نطاق بعض الحدود، هل فهمت؟ وإلا فقدت ثقة الناس فيَّ، وفقدت شرفي، في الأعمال طبعاً، هكذا دواليك...

- إذن في الحدود التي يسمح لك بها الشرف...

وكنت مضطرباً، فلاحظ هو ذلك. قلت:

- ما قولك في القصة التي رويتها لك منذ لحظة؟ هل انتهيت فيها إلى رأي أم لا؟

- قصتك؟ انتظر لحظة. سأدفع الحساب.

- واقترب من البسطة فإذا هو يجد نفسه، فيما يشبه الصدفة، إلى جانب الفتى ذي المعطف الفلاحي، الذي أسماه في كثير من البساطة والألفة باسم متروشكا. وبدا لي أن ماسلوبويف يعرفه أكثر قليلاً مما زعم. كان واضحاً على الأقل أنهما لا يلتقيان لأول مرة. وكان منظر متروشكا منظراً فريداً بعض الشيء: فمعطفه الروسي وقميصه الحريري الأحمر والقسمات الحادة البارزة على انسجام، في وجهه الأسمر الفتي، ونظرته اللامعة الجريئة، كل ذلك يضفي عليه طابعاً يلفت النظر ولا يخلو من أن يكون جذاباً. وكانت تبدو الثقة الظاهرة في حركاته مصطنعة. ولكن كان واضحاً في الوقت نفسه أنه في تلك اللحظة يتجلد ويحبس ما في نفسه ويريد أن يظهر

بمظهر الشخص الهام الجاد ذي الأعمال الكثيرة.

- تعال إليّ يا فانيا في الساعة السابعة. فلربما كان هنالك ما أقوله لك. إنني حين أكون وحدي لا أملك عقلاً. وقد كان لي قبل ذلك عقل، أما الآن فما أنا إلا سكير. وقد انسحبت من الأعمال، ولكن بقيت لي علاقات. أستطيع أن ألتقط بعض المعلومات من هنا ومن هناك، أستطيع أن أتشمم الريح إلى جانب أناس مرهفين. تلك هي طريقتي في العمل. صحيح أنني في لحظاتي الضائعة، أعني حين لا أسرف في الشراب، أقوم أيضاً ببعض الأعمال، بعض التحريات... ولكن ماذا؟ يكفي هذا.. إليك عنواني: في شارع «الدكاكين الست». أيها الأخ، أخذت أنزعج الآن. يجب أن أفرغ في جوفي قدحاً آخر، ثم أعود إلى بيتي. عليَّ أن أنام قليلاً. ستأتي إليّ. وسأقدمك إلى ألكسندرا سيمينوفنا، وإذا اتسع الوقت، تحدثنا في الشعر.

- وستتحدث أيضاً في القضية الأخرى.

- ربما.

- إذن سأجيء حتماً...

الفصل السادس

كانت آنا أندريفنا تنتظرني منذ مدة طويلة. إن ما قلته لها أمس بصدد بطاقة ناتاشا قد أثار حب الاطلاع لديها إثارة قوية، وكان تنتظر أن أوافيها قبل ذلك كثيراً، في نحو الساعة العاشرة من الصباح. فلما وصلت إليها في الثانية بعد الظهر كان قلق الانتظار قد استنفد قوى العجوز المسكينة، وكانت، عدا ذلك، تريد، بفارغ صبر، أن تفضي إليّ بالآمال الجديدة التي أشرقت في نفسها منذ أمس، وأن تحدثني عن نيقولا سرجتش الذي كان، على أوجاعه واكتئاب مزاجه منه البارحة، رقيق العاطفة في معاملتها. فلما رأتني استقبلتني بوجه بارد مستاء، وما كادت شفتاها تتحركان بالتحية، ولم تظهر شيئاً من حب الاطلاع. كانت كأنها تقول لي: «لماذا جئت؟ إن وقتك ما يزال يتسع للتسكع هنا وهناك، يا عزيزي». كانت تحقد عليَّ لأنني تأخرت في المجيء. ولكني كنت مستعجلاً، فقصصت عليها مشهد الأمس كله بلا إبطاء. فلما علمت أن الأمير زار ناتاشا، وأنه قدم اقتراحه الرائع، تبدد استياؤها الظاهر بمثل لمح البصر. لا أستطيع أن أصف فرحها بكلام: لقد أصبحت كمن فقد صوابه، فإذا هي ترسم إشارة الصليب، ثم تبكي، ثم تسجد على الأرض أمام الأيقونة، ثم تقبّلني، ثم تهم أن تهرع إلى نيقولا سرجتش لتشركه في فرحها. قالت:

ـ أرجوك، يا صديقي. إن تلك الإذلالات وتلك الإهانات كلها

هي التي حطمت أعصابه، لكنه متى علم بأن كرامة ناتاشا ردت إليها كاملة، فسينسى كل شيء فوراً.

ولم أستطع أن أثنيها عن عزمها إلا في كثير من العناء. إن العجوز المسكينة ما تزال تجهل زوجها، رغم أنها عاشت معه خمسة وعشرين عاماً. وكانت تتحرق كذلك شوقاً إلى أن تمضي معه إلى ناتاشا فوراً. فاعترضت على ذلك بقولي إن نيقولا شرجتش لن يحبذ عملها هذا، حتى إنه من المحتمل أن نفسد الأمر كله. فعدلت عن فكرتها في كثير من العناء، ولكنها حبستني عندها نصف ساعة بلا جدوى، وهي لا تنفك تقول: «كيف أبقى الآن سجينة جدران أربعة، وأنا فيما أنا فيه من فرح؟» وأقنعتها أخيراً بأن تسمح لي بالانصراف، قائلاً لها إن ناتاشا تنتظرني بفارغ صبر. فرسمت العجوز عليَّ إشارة الصليب عدة مرات، وحمّلتني تحية خاصة لناتاشا، وأوشكت أن تبكي حين رفضت أن أعدها بالمجيء إليها في المساء رفضاً باتاً، إذا لم يقع لناتاشا أمر يستوجب المجيء. لم أرَ نيقولا سرجتش في هذه المرة: لقد أرق الليل كله، وأصيب بصداع شديد ورعشات متصلة، وهو الآن نائم في غرفته.

وقد انتظرتني ناتاشا، هي أيضاً، طوال النهار. فحين دخلت، كانت تذرع الغرفة جيئة ذهاباً على عادتها، وقد شبكت يديها، واستغرقت في التفكير، ما زلت إلى يومي هذا، حين استحضر ذكراها، لا أتصورها إلا وحيدة دائماً، في غرفة صغيرة بائسة، مطرقةً تفكر، مهجورةً، منتظرةً، مكتوفة اليدين، خافضة العينين، ذاهبة آيبة بلا هدف.

قالت لي وهي ما تزال تسير جيئة وذهاباً: لماذا تأخرت هذا التأخر كله؟

فقصصت عليها مغامراتي كلها في إيجاز، ولكنها كانت لا تكاد تصغي إلى حديثي. كان واضحاً أنها مشغولة البال. سألتها:

- هل من جديد؟

فأجابت بقولها:

- لا شيء.

ولكنني حزرت من هيئتها أن ثمة أمراً جديداً، وأنها انتظرتني لتقص عليَّ هذا الأمر، ولكنها، على عادتها، لن تقصه عليَّ فوراً، بل حين أهم أن أمضي. هكذا كانت تجري الأمور بيننا دائماً. فتوقعت ذلك وانتظرت.

بدأنا طبعاً بالحديث عما جرى أمس. ومما أدهشني خاصةً أننا اتفقنا كل الاتفاق في رأينا في الأمير.. كانت تكرهه صراحةً، أكثر مما كرهته بالأمس. وإنا لنستعرض جميع تفاصيل زيارته، إذا بناتاشا تقول لي فجأة:

- اسمع يا فانيا، هذه قاعدة عامة: إذا كرهتَ شخصاً في أول الأمر، فتلك إشارة تكاد تكون يقينية إلى أنك ستحبه بعد ذلك. هذا ما يقع لي أنا، على الأقل.

- إن شاء الله يا ناتاشا. وإليك رأيي القاطع بعد أن وزنت جميع الأمور حق وزنها: ربما كان الأمير يعبث، ولكنه يوافق حقاً على زواجكما موافقة جادة.

فتوقفت ناتاشا في وسط الغرفة، وألقت عليَّ نظرة قاسية. لقد تبدل تعبير وجهها كله، حتى لقد ارتعشت شفتاها قليلاً.. قالت:

- ولكن كيف يمكنه أن يحتال و... أن يكذب في ظرف كهذا؟

قالت ذلك بلهجة مترددة، تفيض كِبراً.

فأسرعت أؤيديها قائلاً:

- صحيح! صحيح!

- لا شك أنه لم يكذب. ويُخيَّل إليَّ أن هذا يجب ألاّ يخطر لنا ببال، ينبغي ألاً نرى في ذلك حيلة من الحيل! ثم ما عسى أن أكون في نظره حتى يضحك عليّ هكذا؟ ليس في إمكان رجل أن يرتكب وقاحة كهذه!

فقلت مؤيداً:

- طبعاً، طبعاً!

ولكنني قلت بيني وبين نفسي: «ومع ذلك لعلك لا تفكرين إلا في هذا، وأنت تذهبين وتجيئين في غرفتك، يا صغيرتي المسكينة، ولعلك تشكِّين في الأمر أكثر مما أشك فيه أنا».

قالت:

- آه، كم أود لو يعود بسرعة. كان يريد أن يقضي معي السهرة كلها. لا شك أن أعمالاً هامة تنتظره، ما دام قد ترك كل شيء ومضى. هل تعرف شيئاً عن ذلك يا فانيا؟ هل سمعت شيئاً عن ذلك؟

- لا والله. إنه يحاول الحصول على مال. وقد قيل لي إنه سيساهم في مشروع مالي، هنا ببطرسبرغ. نحن يا ناتاشا لا نفهم شيئاً في شؤون الأعمال.

- صحيح. لقد حدثني أليوشا عن رسالة تلقاها أمس.

- لا شك أنها تحمل إليه أخباراً. هل جاء أليوشا؟

- نعم.

- مبكراً؟

- في الظهر. أنت تعلم أنه ينام متأخراً. ولكنه لم يمكث إلا لحظة. لقد بعثت به إليَّ كاترين فيدوروفنا. كان يستحيل غير ذلك.

- ألم يكن ينوي هو أن يذهب إليها؟
- بلى، بلى.
وأرادت أن تضيف إلى قولها هذا شيئاً، ولكنها صمتت، فنظرتُ إليها وانتظرت. كان وجهها حزيناً جداً. وددت لو أطرح عليها بعض الأسئلة، ولكنها كانت في بعض اللحظات تكره الأسئلة.
قالت أخيراً، وهي تصعِّر شفتيها قليلاً، وكأنها تحاول ألاَّ تنظر إليَّ:
- عجيب أمره، هذا الفتى!
- ماذا؟ هل حدث شيء.
- لا. لا شيء.. هكذا. ثم إنه كان لطيفاً جداً، ولكن..
قلت:
- الآن انتهت كل أحزانه وكل همومه.
فألقت عليَّ ناتاشا نظرة ملحاحة متفحصة. لعلها أرادت أن تقول لي هي نفسها إن أليوشا لم يكن له هموم كبيرة في يوم من الأيام. ولكنها اعتقدت أنها تقرأ هذه الفكرة نفسها في عيني، وصمتت مغتاظة.
لكنها سرعان ما عادت لطيفة محببة. كانت في هذه المرة ناعمة كل النعومة. ومكثت عندها أكثر من ساعة. كانت قلقة. لقد أخافها الأمير. ولاحظت من بعض أسئلتها أنها تود كثيراً لو تعرف ما هو الأثر الذي تركته في نفسه أمس. هل أحسنت التصرف؟ ألم تبالغ في إظهار فرحها أمامه؟ ألم تظهر مسرفةً في سرعة التأذي، أو مسرفة في شدة الانقياد؟ ما عسى أن يكون رأيه فيها؟ أهو يهزأ بها؟ أهو يحتقرها؟ وحين راودتها هذه الفكرة التهب وجهها بحمرة شديدة. قلت لها:
- لماذا تصدِّعين رأسك بما عسى أن يفكر فيه هذا الرجل السيئ؟

هبيه يفكر في ذلك، فما قيمة هذا كله؟

فسألتني تقول:

- ولماذا تعده سيئاً؟

كانت ناتاشا متحدية، ولكن لها قلباً طيباً ونفساً مستقيمة. إن تحديها يتدفق من نبع رائق. إن في نفسها لكبرياء، كبرياء نبيلة. كانت لا تطيق أن يُعرَّض للسخرية أمام عينيها ما تعده فوق كل شيء. إذا احتقرها إنسان شرير، فلا شك أنها ترد الاحتقار باحتقار مثله، ولكنها مع ذلك تتألم في أعماق قلبها أشد الألم إذا سخر أحد بما تعده مقدساً، كائناً من كان الساخر. وليس يرجع ذلك إلى نقص في الصلابة، وإنما يرجع بعضه إلى جهلها بالبشر، وإلى قلة معاشرتها الناس، وإلى انزواء حياتها. لقد عاشت دائماً في زاويتها، لم تخرج منها قط. ثم إن لها تلك المَلَكَة التي تنعم بها النفوس السمحة الكريمة، والتي لعلها ورثتها عن أبيها: أعني الاندفاع في الثناء على شخص، والإصرار على تقديره فوق قدره، والمبالغة في تصوير محاسنه على تحيز. إنه ليشق على هؤلاء الناس أن يفقدوا بعد ذلك أوهامهم، يشق عليهم ذلك خاصة لشعورهم بأنهم هم أنفسهم مذنبون. لماذا تنتظر أن تُعطي أكثر مما يمكن أن تعطي؟ إن الخيبة تتربص بهؤلاء الناس من لحظة إلى لحظة. والأفضل أن يظلوا في زاويتهم هادئين، لا يخرجون منها. حتى لقد لاحظت أنهم يحبون زاويتهم حقاً، إلى أن يعتصموا بها اعتصاماً تاماً. ثم إن ناتاشا قد تحملت كثيراً من أنواع الشقاء، وكثيراً من الإساءات. إنها إنسان مريض. فيجب ألاّ تُتهم، هذا إذا كان في أقوالي شيء من الاتهام.

كنت مستعجلاً، فنهضت لأذهب، فشُدهت من ذلك، وكادت تنفجر باكية، رغم أنها لم تظهر نحوي شيئاً من العاطفة الرقيقة طوال

المدة التي قضيتها معها، حتى لقد كانت أشد برودة في معاملتي من عهدي بها. ولكنها عانقتني عندئذ في كثير من العاطفة، ونظرت في عينيّ مدة طويلة، ثم قالت:

اسمع، لقد كان أليوشا غريباً كل الغرابة اليوم، لقد أدهشني كثيراً. كان لبقاً جداً، وكانت تلوح عليه أمائر السعادة، ولكنه كان يتراقص كفراشة، ويختال ويمشي مرحاً، ولا يني ينظر إلى نفسه في المرآة.. كان يتحرج أي تحرج.. ثم إنه لم يمكث مدة طويلة. وتصور أنه أتاني بسكاكر.

سكاكر؟ هذا شيء لطيف جداً، بريء جداً. يا لها من فصول هذه التي تقومان بها كلاكما! إن كلاً منكما الآن يلاحظ صاحبه، ويتجسس عليه، ويحاول أن يقرأ في وجهه أفكاره المستترة (وأنتما لا تعرفان منها شيئاً). إن أليوشا لا يسرف في هذا على كل حال. إنه مرح، إنه تلميذ، كما كان في السابق، أما أنت، أنت!

أتذكر أن ناتاشا كانت كلما بدلت لهجتها واقتربت مني لتشكو إليّ أليوشا، أو لتطرح عليّ سؤالاً شائكاً، أو لتفضي إليّ بسر تحب أن أفهمه بنصف كلمة، كانت تنظر إليّ مبتسمة، كأنها تتوسل أن أتخذ القرار الذي يهدئ من روعها. ولكنني أتذكر أيضاً أنني كنت في تلك اللحظات أصطنع لهجة قاسية حاسمة، كأنني أقرع أحداً، وأنني كنت أفعل ذلك دون أية نية مبيتة، وأن ذلك كان ينجح دائماً. كانت قسوتي تأتي في محلها، فتؤثر تأثيراً أشد، لأن الإنسان يشعر في بعض الأحيان بحاجة إلى أن يوعَظ، ولقد كانت ناتاشا تشجعني على ذلك في بعض الأحيان على الأقل.

واستأنفت ناتاشا تقول وقد وضعت إحدى يديها على كتفي، وشدت بالأخرى على يدي، وهي تبحث عن عيني بنظرة متملقة:

- لا يا فانيا، اسمع، لقد بدا لي خفيفاً مسرفاً في الخفة. كان يصطنع هيئة زوج، هيئة رجل متزوج منذ عشر سنين، وما يزال لطيفاً مع زوجته. ألم يبكر في هذا؟.. كان يضحك، ويدور على رجل واحدة، كأن هذا كله لا يخصني أنا إلا قليلاً، وكان يتعجل الذهاب إلى كاترين فيدوروفنا. كنت أكلمه، فلا يصغي إليّ، أو يأخذ بالكلام.. آه من تلك العادة السئة المألوفة في المجتمع الراقي، التي حاولنا كلانا أن نخصله منها. الخلاصة، لقد كان.. قليل المبالاة. إذا صح التعبير. ولكن ماذا أقول! ها أنا ذا أندفع! آه ما أقسى مطالبنا جميعاً، يا فانيا.. إننا لَطُغاة ذوو نزوات! إنني أدرك ذلك الآن! إننا لا نغفر مجرد تغير يطرأ على الوجه.. ويعلم الله لماذا يكون الوجه قد تغير! كنت على حق حين لمتني منذ قليل! الذنب في ذلك كله ذنبي أنا. إننا نخلق لأنفسنا أحزاناً وأشجاناً، ونظل نشكو ونتوجع.. شكراً يا فانيا، لقد أحسنت إليّ حقاً. يا ليته يجيء اليوم! ولكن.. لعله استاء مما وقع!

- ماذا؟ هل تشاجرتما؟

قلت ذلك مشدوهاً.

- لا، أبداً، ولكني كنت حزينة قليلاً، وكان هو مرحاً، فإذا هو يسترسل في الوجوم على حين فجأة. وخُيِّل إليّ أنه ودّعني وداعاً جافاً. ولكنني سأرسل في طلبه.. تعال أنت أيضاً يا فانيا.

- سأجيء طبعاً، إلا أن يمنعي عن ذلك شيء.

- أي شيء؟

- لقد أقحمت نفسي في بعض الأمور! ولكنني آمل أن أستطيع المجيء.

الفصل السابع

وصلت إلى منزل ماسلوبويف في الساعة السابعة تماماً. إنه يقطن جناحاً من عمارة صغيرة في شارع «الدكاكاين الست». بيته ثلاث حجرات ليست على شيء من النظافة، ولكنها حسنة الأثاث، حتى أن المرء يلاحظ فيها بعض ثراء، ويلاحظ في الوقت نفسه إهمالاً شديداً. فتحت لي الباب فتاة جميلة جداً تناهز العشرين من عمرها، كانت ترتدي ثياباً بسطية ولكنها أنيقة، ونظيفة كل النظافة، وفي عينيها مرح.

حزرت على الفور أنها هي نفسها ألكسندرا سيمينوفنا، تلك التي أسمعني ماسلوبويف اسمها ودعاني إلى زيارته للتعرف بها. سألتني من أكون، فلما عرفت اسمي قالت إن ماسلوبويف كان ينتظرني، إلا أنه الآن نائم في غرفته. وقادتني إلى الغرفة. كان ماسلوبويف راقداً على أريكة جميلة وثيرة، ملتحفاً معطفه الوسخ، وتحت رأسه مخدة جلدية خلقة.

كان نائماً نوماً خفيفاً جداً، فما إن دخلنا الغرفة، حتى ناداني باسمي:

- هذا أنت! كنت أحلم الآن أنك وصلت وأنك توقظني. إذن لقد أزف الوقت. هيا بنا.

- إلى أين؟

- إلى تلك السيدة؟

- أي سيدة؟ لماذا؟

- السيدة بوبنوفا. . لكي. .

ثم تابع يقول وهو يلتفت نحو ألكسندرا سيمينوفنا، ويقبّل أطراف أصابعه على ذكر السيدة بوبنوفا:

- يا لها من أمرأة جميلة رائعة!

فقالت ألكسندرا سيمينوفنا، وهي تحسب أن من واجبها أن تغضب بعض الغضب:

- هو ذا يذهب. . وما أكثر ما سيتخيل أيضاً!

- أنتما لايعرف أحدكما الآخر؟ يا ألكساندرا سيمينوفنا، أقدم لك جنرالاً من جنرلات الأدب الذين لا يراهم المرء مجاناً إلا مرة واحدة في السنة، أما فيما عدا ذلك فلا بد له أن يدفع أجراً.

- أتظنني غبية إلى هذا الحد؟ لا تستمع إلى ما يقول، أرجوك. إنه يسخر مني دائماً. عن أي جنرالات يتحدث!

- قلت لك إنهم جنرالات من نوع خاص. أما أنت، يا صاحبة السعادة، فلا تظني أنك غبية. أنت أذكى كثيراً مما تظهرين أول وهلة.

- لا تصغ إلى ما يقول. إنه يخجلني دائماً أمام الناس المحترمين هذا الوقح، ليته على الأقل، يأخذني إلى المسرح من حين إلى حين!

- ألكسندار سيمينوفنا، أحبي ال. . هل نسيت ما الذي يجب أن تحبيه؟ هل نسيت الكلمة الصغيرة التي علمتك إياها؟

- طبعاً لم أنسها. . كلمة سخيفة.

- ما هي إذن؟

- أموت خجلاً إذا نطقت بها أمام ضيف. . فقد تعني شيئاً أفضَل أن يقطع لساني على أن أقولها.

ـ إذن لقد نسيتها!

- لا، لم أنسها: إنها كلمة صوامع! أحبي الصوامع.. ما أكثر ما يخترع من ألفاظ! لعلها لم توجد يوماً.. ولماذا يجب على المرء أن يحبها؟ إنه لا يقول إلا سخافات..

- ولا كذلك عند السيدة بوبنوفا..

- اذهب أنت وصاحبتك بوبنوفا!

قالت ألكسندرا سيمينوفنا ذلك، ثم خرجت راكضة، وقد استبد بها مزيد من الحنق:

- آن الأوان.. هيا بنا.. إلى اللقاء يا ألكسندرا سيمينوفنا.

وخرجنا.

- أولاً، يا فانيا، سنركب هذه العربة؛ وثانياً يجب أن أقول إنني بعد أن تركتك منذ قليل، عرفت أيضاً أمراً أو أمرين، ليسا من نوع الافتراضات بل هما من الوقائع الصحيحة. لقد بقيت في فاسيلي أوستروف ساعة أخرى. إن ذلك الرجل المنفوخ شخص حقير فظيع، يثير الاشمئزاز، صاحب نزوات دنيئة وميول منحطة. وبوبنوفا عُرفت منذ مدة طويلة بأعمال ومكائد من هذا النوع. وقد أوشكت، ذات يوم، أن يُقبض عليها في أمر فتاة تنتمي إلى أسرة ذات شأن. إن أثواب الموسلين التي ألبستها لليتيمة (كما وصفت لي ذلك منذ قليل) لم تطلعني على شيء جديد. سمعت شيئاً من هذا القبيل من قبل. ولقد حصلت منذ لحظة عل بعض المعلومات.. حصلت على هذه المعلومات مصادفة، والحق يقال، ولكنها تبدو لي صحيحة. ما عمر الصبية؟

- ثلاث عشرة سنة، فيما يبدو من وجهها.

- وأقل من ذلك فيما يبدو من جسمها؟ هذا ما يراه المرء فيها.

وتستطيع بوبنوفنا أن تزعم أن سنها إحدى عشرة سنة أو خمس عشر سنة، تبعاً للحاجات. والصبية بلا حام يحميها، بلا أسرة تعولها، فيمكن..

- أهذا ممكن؟

- ماذا تظن إذن؟ لعلك تحسب أن السيدة بوبنوفا قد حضنت الصبية شفقة عليها ورحمة بها؟ إذا كان المنفوخ قد سار إلى البيت، فمعنى ذلك أن القضية قد دُبِّرت. لقد رآها هذا الصباح. ووعد ذلك الجلف سيزوبريوخوف بامرأة متزوجة، هي امرأة موظف برتبة كولونيل أركان حرب. إن أبناء التجار الذين يلهون يهمهم هذا الأمر: إنهم يسألون دائماً عن الرتبة. كما في قواعد اللغة اللاتينية، هل تتذكر؟ الدلالة تغلب الإعراب. على كل حال، أظن أنني ما زلت سكران. تلك هي إذن بوبنوفا. إياك أن تحشر نفسك في مثل هذه الأمور.. إنها تريد أن تهزأ بالبوليس. ولكنها تخاف مني أنا، لأنها تعرف أن لي ذاكرة قوية... هل تفهمني؟

أثّر فيَّ هذا الكلام تأثيراً رهيباً، وأسلمتني هذه الأنباء لاضطراب شديد. وخشيت أن نصل متأخرين، فاستعجلت الحوذي. قال ماسلوبويف:

- لا تقلق: لقد اتخذنا إجراءاتنا. إن متروشكا هناك، سيدفع له سيزوبريوخوف من ماله، وسيدفع له المنفوخ، ذلك الحقير، من جسمه. لقد استقر رأينا على هذا منذ قليل. أما بوبنوفا فهي من شأني أنا.

وصلنا، ووقفنا عند المطعم. لكن الرجل الذي يطلق عليه اسم متروشكا لم يكن هنالك. وبعد أن أمرنا الحوذي بأن ينتظرنا عند الرصيف، مضينا إلى بيت بوبنوفا. كان متروشكا ينتظرنا عند الباب.

وكانت أنوار ساطعة تخرج من النوافذ، وكانت ضحكات سيزوبريوخوف المخمورة تُسمَع من خارج.

قال لنا متروشكا:

- إنهم جميعاً هنا منذ ربع ساعة. الآن اللحظة الفاصلة.

قلت:

- ولكن كيف ندخل؟

فأجاب ماسلوبويف:

- ندخل ضيوفاً مدعوّين. إنها تعرفني. وهي تعرف أيضاً متروشكا. صحيح أن كل شيء مغلق، ولكنه ليس مغلقاً دوننا نحن.

وطرق طرقاً خفيفاً فإذا الباب يُفتح حالاً. وتبادل البواب ومتروشكا نظرة خاطفة. ودخلنا بلا ضوضاء. لم يسمعنا أحد. وقادنا البواب إلى سلم صغير وطرق باباً، فنودي من الداخل، فأجاب بأنه وحده، ففُتح الباب، ودخلنا جميعاً، وغاب البواب.

كانت بوبنوفا تقف في حجرة المدخل الصغيرة، ثملة خليعة مكشوفة النحر، وفي يدها شمعة. فقالت:

- من هناك؟

فأجاب ماسلوبويف:

- من؟ كيف هذا؟ أتنكرين ضيوفك الأعزاء يا آنا تريفونوفنا؟ من عسى يكون هناك غيرنا؟.. فيلب فيليبتش.

- ها، فيليب فيليبتش! هذا أنتم أيها الضيوف الأعزاء.. ولكن كيف.. أنا.. لا شيء.. تعال من هنا، أرجوك.

- لقد اضطربت أشد الاضطراب، وطاش صوابها تماماً.

- من أين؟ هنا حاجز.. لا، سوف تستقبليننا استقبالاً أحسن من ذلك. سنشرب شامبانيا.. هل ثمة بنات جميلات؟

- فما سمعت هذا الكلام حتى استردت شجاعتها، وقالت:

- لضيوف أعزاء مثلكم أبحث عن بنات تحت الأرض، أجيء بهن من الصين.

- سؤال يا آنا تريفونوفنا، هل سيزوبريوخوف هنا؟

- نـ. . . عم.

- أريد أن أراه. كيف يجرؤ هذا الخبيث أن يلهو دون أن أكون معه؟

- لا شك أنه ما نسيك. لقد كان ينتظر شخصاً هو أنت حتماً!

ودفع ماسلوبويف الباب، فإذا نحن في حجرة صغيرة ذات نافذتين مزينتين بالغرانيون، وفيها كراسٍ مضفورة وبيانو رديء. . كل ما كان يجب. ولكن متروشكا كان قد اختفى قبل أن ندخل، أي أثناء التفاوض في حجرة المدخل. وعرفت بعد ذلك أنه لم يدخل، وإنما انتظر على الباب. كان عليه أن يفتح الباب لقادم. اتضح أن المرأة الشعثاء المخضبة التي نظرت في هذا الصباح من فوق كتف بوبنوفا هي إشبينة متروشكا.

كان سيزوبريوخوف جالساً على أريكة ضيقة من خشب الكابلي، أمام مائدة مستديرة مفروشة بغطاء. وكان على المائدة زجاجتان من الشمبانيا، وزجاجة من رديء الروم، وصحون فيها سكاكر وفطائر وثلاثة أنواع من الجوز. وكانت تجلس إلى المائدة أمام سيزوبريوخوف امرأة دميمة تثير الاشمئزاز، مجدورة الوجه، في نحو الأربعين من العمر، ترتدي ثوباً من التفتا الأسود، وتحمل في معصميها أساور من نحاس. إنها إمرأة الكولونيل أركان حرب، من قبيل التزوير طبعاً، وكان سيزوبريوخوف ثملاً، راضياً كل الرضى، ولم يكن رفيقه السمين هناك.

تبعّق ماسلوبويف يقول:

هكذا يتصرفون! ويدعونك أيضاً إلى دوسو!

فدمدم سيزوبريوخوف يقول وهو ينهض للقائنا دمثاً رقيق الحاشية:

- ما أسعدنا بك يا فيليب فيليبتش.

- أأنت تشرب؟

- نعم، معذرة.

- لا تعتذر. الأَوْلى أن تدعونا. فإنما جئنا لنلهو معك بعض الوقت. أنظر لقد جئت بضيف آخر: صديق.

وسمّاني ماسلوبويف.

- سعيد بمعرفتك.. ها!

- أهذه شمبانيا! إنها أشبه بحساء الكرنب الحامز!

- أنت تهيننا!

- لقد بلغت من الأمر أنك أصبحت لا تجرؤ على الظهور عند دوسو.. وتدعو الناس أيضاً!

قالت امرأة الكولونيل:

- لقد ذكر لي منذ لحظة أنه كان بباريز. لا شك أنه يمزح!

- فيدوسيا تيتشنا، لا تجرحينا بكلامك. لقد ذهبنا حقاً إلى باريز، قمنا برحلة إلى باريز.

- فلاح كهذا، يذهب إلى باريز.

- لقد ذهبنا إلى باريز. كما نملك الوسيلة لذلك. وتميزنا هنالك مع كارب فاسيليتش. هل تعرفين كارب فاسيلتش؟

- لماذا تريد أن أعرف صاحبك كارب فاسيلتش.

- هكذا.. إن لهذا علاقته بالسياسة. لقد ذهبنا معه إلى مدام جوبير. وكسرنا هنالك مرآة كبيرة.

- ماذا كسرتم؟

- مرآة كبيرة. كانت تغطي الحائط كله، وترتفع حتى السقف؛ كان كارب فاسيليتش قد بلغ من السكر أنه أخذ يتحدث إلى مدام جوبير بالروسية، وكان واقفاً على جانب المرآة، فاتكأ عليها، فصرخت مدام جوبير تقول له بلغتها: «إن ثمن المرآة سبعمائة فرنك.. وأنت توشك أن تكسرها» فأخذ يضحك، ونظر إليّ، وكنت جالساً أمامه على أريكة، وكان معي امرأة جميلة رائعة الجمال، لا امرأة سكيرة دميمة كهذه. وأخذ يصرخ: «ستيفان تيرنتش، هه.. ستيفان تيرنتش! آأنت مبسوط؟» فقلت: «نعم أنا مبسوط». فضرب المرآة بقبضتيه الكبيرتين... زن ن ن ن.. فلم يبق منها إلا حطام. فأخذت مدام جوبير تصرخ، وهجمت عليه، وأمسكت بخناقه: «أيها اللص ماذا دهاك، ما جئت تفعل هنا؟» (قالت ذلك بلغتهم أيضاً). فما كان منه إلا أن أجابها بقوله: «مدام جوبير خذي المال الذي تريدين، ودعيني أتصرف كما يشاء لي هواي»، ونقدها على الفور ستمائة وخمسين روبلاً، أي حصلنا على تخفيض مقداره خمسون فرنكاً.

في هذه اللحظة دوّى وراء عدة أبواب، في غرفة لا شك أن حجرتين أو ثلاث حجرات تفصلها عن غرفتنا، دوّى صوت حاد رهيب فما أن سمعته حتى ارتعشت ارتعاشاً قوياً، وصرخت أنا أيضاً. إنه صوت هيلين. وبعد هذه الصرخة الحزينة، سمعنا صرخات أخرى، وشتائم وجلبة، ثم سمعنا قرقعة صفعات واضحة ورنانة. لعله متروشكا يقتص من غريمه. وفتح الباب، فجأة، بقوة وعنف، وظهرت هيلين ممتقعة اللون، مضطربة العينين، مرتدية ثوباً من الموسلين أبيض متجعداً متمزقاً، منفوشة الشعر بعد تصفيف،

وأسرعت تدخل الغرفة. كنت جالساً أمام الباب فارتمت عليّ، وأحاطتني بذراعيها. فنهض جميع من بالغرفة واقفين وقد أحسوا بالخطر. وقد سمعنا مع دخول هيلين قرقعات وصرخات، وظهر في أثرها متروشكا عند الباب يشد عدوه السمين من شعره، ويظل يجره إلى أن وصل به العتبة، ثم رماه في الغرفة. قال متروشكا بلهجة يشيع فيها كثير من السرور والرضى:

- هذا هو، خذوه.

فقال لي ماسلوبويف، وهو يقترب مني بهدوء، ويربت على كتفي:

- اسمع، خذ العربة، وامضِ بالصغيرة، وعد إلى بيتك. لم يبق لك ما تعمله هنا. وسنصفي باقي الحساب غداً.

لم أنتظر أن يكرر كلامه مرة أخرى، فأمسكت بيد هيلين، وخرجت بها من هذه المغارة، ولم أعرف ما الذي وقع بعد ذلك. ولم يمنعنا أحد من الخروج، فلقد كانت صاحبة البيت مصعوقة من الخوف، وتمت الأمور كلها بسرعة كبيرة، فلم يبق مجال لأن يعترض سبيلنا معترض. وكان الحوذي ينتظرنا، فما مضت عشرون دقيقة حتى كنا في بيتي.

كانت هيلين أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، ففككت عرى ثوبها ورششتها بالماء، ومددتها على أريكتي. وانتابتها الحمى، وأخذت تهذي. ونظرت إلى وجهها الصغير الممتقع لونه، وإلى شفتيها الذاويتين، وإلى شعرها الأسود، وإلى زينتها كلها، إلى العقد الصغيرة من الشريط الوردي التي بقيت هنا وهناك على ثوبها، نظرت إلى كل ذلك ففهمت الحكاية الفظيعة كلها. مسكينة! وكانت حالتها تسوء شيئاً فشيئاً، فلم أتركها، وقررت أن لا أذهب إلى ناتاشا في

ذلك المساء. كانت هيلين ترفع هدبيها الطويلين المقوسين، من حين إلى حين، تحدق إليّ، كأنها تريد أن تعرف من أنا، ثم نامت في ساعة متأخرة من الليل، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. عفوت أنا قريباً منها على الأرض.

الفصل الثامن

نهضت من نومي في ساعة مبكرة من الصباح. وكنت أستيقظ كل نصف ساعة فأقترب من المريضة المسكينة، وأتفرس فيها. كانت محمومة، كانت تهذي قليلاً. ولكنها نامت عند الصبح نوماً عميقاً. قلت في نفسي: إن نومها هذا يبشّر بخير، ولكنني ما أن استيقظت حتى قررت أن أمضي باحثاً عن طبيب، بينما المسكينة ما تزال نائمة. كنت أعرف أحد الأطباء، وهو عجوز عازب، لكنه رجل شهم، يعيش في شارع فلاديمير، منذ زمان سحيق، مع خادم ألمانية. ذهبت إليه، فوعد أن يجيء في الساعة العاشرة، وكنت قد وصلت إليه في الثامنة. كانت بي رغبة جارفة في أن أصعد أثناء عودتي إلى بيت ماسلوبويف، ولكنني عدلت عن هذه الرغبة: فلا بد أن ماسلوبويف ما يزال نائماً بعد سهرة البارحة، كما أن هيلين يمكن أن تستيقظ أثناء ذلك، وقد تشعر بالخوف إذ تجد نفسها وحيدة في بيتي. وقد تنسى، وهي فيما هي فيه من مرض، متى نامت عندي وكيف؟

واستيقظت هيلين في اللحظة التي دخلت فيها إلى الغرفة، فاقتربت منها، وسألتها عن حالها بكثير من الرفق، فلم تجب، بل نظرت إليّ طويلاً، وهي تتفرس فيّ بعينيها السوداوين المعبّرتين. واعتقدت من نظرتها هذه أنها تفهم كل شيء، وأنها تملك وعيها كاملاً، وأنها إذا لم تجبني، فلأن هذه عادتها. إنها، أمس وأول

أمس، حين جاءت إليّ، لم تجب أيضاً بحرف واحد على بعض أسئلتي، وإنما رشقتني بنظرتها هذه الثابتة العنيدة التي تدل على الاضطراب والتساؤل والكبرياء في آن واحد، وقد رأيت الآن في نظرتها شيئاً من القسوة ونوعاً من سوء الظن. فوضعت يدي على جبينها لأرى أما تزال محمومة، ولكنها دفعت يدي عنها برفق، دون أن تقول كلمة واحدة، والتفتت نحو الحائط، فابتعدتُ حتى لا أزعجها.

كان عندي غلاية للشاي نحاسية، اتخذها سماور منذ مدة طويلة، وأغلي فيها الماء. وكان عندي حطب، فالبواب قد أتاني بحطب يكفي خمسة أيام أو ستة. فأشعلت المدفأة، وجئت بماء، ووضعت الغلاية على النار، ورتبت أدوات الشاي على المائدة. وكانت هيلين قد التفتت نحوي وأخذت تنظر إلى هذا كله متطلعة، فسألتها هل ترغب في شيء، فأشاحت عني مرة أخرى ولم تجب بكلمة.

قلت في نفسي: «ترى لماذا هي حانقة عليّ؟ يا لها من بنية غريبة الأطوار!».

وجاء طبيبي العجوز في الساعة العاشرة، كما وعد بذلك. ففحص المريضة بكل ما أوتي من دقة ألمانية، ثم طمأنني بقوله إنه ما من خطر يُخشى، رغم الحمى، وأضاف إلى ذلك أن البنت ربما كانت مصابة بمرض آخر مزمن، لعله خفقان في القلب، و«لكن هذه النقطة في حاجة إلى ملاحظات خاصة، ولا خطر الآن». وأمر لها بشراب وسفوف، من قبيل العادة لا الضرورة، ثم لم يلبث أن سألني من أين لي بهذه البنت، وأخذ في الوقت نفسه ينظر في بيتي دهشاً. لقد كان الطبيب العجوز يحب الثرثرة كل الحب.

وقد أدهشته هيلين: سحبت يدها من يده حين كان يجس نبضها،

ورفضت أن تريه لسانها، ولم تجب على أسئلته بكلمة واحدة، واكتفت بأن تتأمل، طوال الوقت، صليب القديس ستانسلاس الذي كان يتدلى من عنقه.

قال العجوز:

ـ لا بد أنها عانت صداعاً شديداً، ولكن انظر كيف تحدّق فيَّ، انظر كيف تحدق فيَّ!

ورأيت من غير المفيد أن أقص عليه شيئاً عن هيلين، وتملصت من الموضوع بقولي: هذه قصة طويلة.

قال وهو يخرج:

ـ استدعني إذا اقتضى الأمر، أما الآن فلا خطر.

وقررت أن أبقى النهار كله مع هيلين، وأن لا أدعها وحدها إلا في الضرورة القصوى، إلى أن تبلّ من مرضها. لكنني، وأنا أعرف أن ناتاشا وآنا أندريفنا يمكن أن تقلقا أشد القلق إذا انتظرتاني ولم أجئ إليهما، قررت أن أبلغ ناتاشا أنني لن أوافيها هذا اليوم. ولم يكن من الضروري أن أكتب إلى آنا أندريفنا، فقد طلبت إليَّ مرة ألاّ أبعث إليها برسائل أبداً، منذ كتبت إليها أنبئها بمرض ناتاشا. لقد قالت لي يومئذ: «إن العجوز سيزداد عناداً إذا رأى رسالة منك. سيحترق المسكين شوقاً إلى معرفة ما تتضمنه الرسالة، ولكنه لن يستطيع أن يسألني في ذلك، لن يجرؤ على هذا. وسيظل مضطرباً نهاره كله. أضف إلى ذلك يا عزيزي أنك بالرسالة لا تزيد على أن تثيرني. هل تكفيني عشرة أسطر؟ إنني أريد أن أطرح عليك أسئلة تتعلق بالتفاصيل فما أجدك أمامي!» لذلك لم أكتب إلا إلى ناتاشا، وأودعت الرسالة صندوق البريد في طريقي إلى الصيدلية.

نامت هيلين أثناء ذلك، وكانت في نومها تتأوّه تأوهاً رفيقاً،

وترتعش من حين إلى حين. لقد أصاب الطبيب في تقديره، فإنها تعاني آلاماً شديدة في الرأس. وكانت في بعض الأحيان تطلق صرخات صغيرة، وتستيقظ من نومها وتنظر إليَّ نظرة عداوة، كأن عنايتي بها تؤلمها كثيراً. وينبغي أن أعترف أن ذلك كان يحز في نفسي.

وصل ماسلوبويف في الساعة الحادية عشرة. كانت تبدو عليه أمارات الهم والذهول، ولقد دخل يقول إنه لن يمكث إلا دقيقة واحدة. كان يستعجل الخروج. قال وهو ينظر حوله:

ـ أيها الأخ، ما كنت أنتظر أن يكون منزلك واسع الثراء طبعاً. ولكنني ما كنت أتوقع أيضاً أن أراك تسكن في علبة. إن مسكنك هذا علبة وليس بيت. ولنسلم على كل حال بأن هذا الأمر ليس له من قيمة.. إن الشيء الخطير هو أن هذه المشاغل الكثيرة الإضافية تصرفك عن عملك. لقد فكرت في ذلك أمس، ونحن ذاهبان إلى بوبنوفا. ها أنت ذا ترى، أيها الأخ، أنني بطبيعتي وبوضعي الاجتماعي من أولئك الناس الذين لا يعملون شيئاً مفيداً، ولكنهم يعظون غيرهم. اسمع: ربما أتيت إليك غداً أو بعد غد. وعليك أنت، على كل حال، أن توافينني صباح يوم الأحد. وإلى أن يحين ذلك الوقت تكون قصة الصغيرة قد سُوِّيت تماماً، فيما أرجو، وسنتحدث يومئذ حديثاً جدياً، ذلك أن من الضروري أن نُعنى بأمرك عناية جدية. لا يستطيع امرؤ أن يعيش كما تعيش. لقد اكتفيت أمس بإشارات سقتها على سبيل التلميح، ولكنني سأناقشك بعد الآن مناقشة منطقية. قل لي أخيراً: هل تعتقد أن من العار عليك أن تقترض مني بعض المال إلى حين؟

فقلت أقاطعه:

ـ لا تشاجرني الآن، بل قل لي كيف انتهى الأمر أمس!

ـ على ما نحب، لقد بلغنا هدفنا، هل تفهمني؟ ولست أملك الآن برهة من الوقت، وإنما جئت إليك لحظة لأقول لك إن وقتي لا يتسع الآن للاهتمام بأمرك، ولأسألك أتريد أن تعهد بالصبية إلى أحد، أم تريد الاحتفاظ بها في بيتك. ذلك أن من الضروري أن نفكر في هذا الأمر، وأن نتخذ بصدده قراراً.

ـ لا أعرف ذلك بعد. والحق أنني كنت أنتظرك لأسألك رأيك. أي عذر يمكن أحتج به لأحتفظ بها في منزلي؟

ـ الأمر سهل. تستطيع أن تحتفظ بها، كخادمة مثلاً. .

ـ أخفض صوتك، أرجوك، فهي على مرضها تملك وعيها كاملاً، وقد لاحظت أنها ارتعشت حين رأتك. فهي تتذكر إذن ما وقع البارحة.

وهنا حدثته عن طبع هيلين، وذكرت له كل ما لاحظته فيها، فكان يهتم بكلامي. وأضفت إلى ذلك أنني قد أعهد بها إلى بيت أعرفه، وقلت له بضع كلمات عن صاحبيّ العجوزين، فما كان أشد دهشتي حين علمت أنه يعرف شيئاً من قصة ناتاشا، حتى إذا سألته: «ومن أين عرفت هذا؟» أجاب بقوله:

ـ عرضاً. . . عرفته منذ مدة طويلة بمناسبة عمل من الأعمال. لقد ذكرت لك أنني أعرف الأمير فالكوفسكي. إنها لفكرة حسنة أن ترسل الصبية إلى هذين العجوزين، وإلا فإن وجودها معك لا بد أن يزعجك. ثم هناك شيء آخر: لا بد للطفلة من أوراق. ولكن لا تحفل بهذا الأمر، فسأتولاه أنا. إلى اللقاء. تعال إليّ كثيراً. هل هي نائمة الآن؟

ـ أظن.

ولكن ما إن خرج حتى نادتني هيلين، وسألتني:

ـ من هذا؟

كان صوتها يرتعش، ولكنها لا تزال ترشقني بتلك النظرة العنيدة المتكبرة نفسها. لا أستطيع أن أستعمل ألفاظاً أخرى.

ذكرت لها اسم ماسلوبويف، وأضفت إلى ذلك أنني بفضله إنما استطعت أن أنتزعها من بوبنوفا، لأن بوبنوفا تخشى بأسه كثيراً. فاحمرّ خداها فجأة، ولا شك أن ذلك يرجع إلى أنها تذكرت الماضي. فسألتني هيلين وهي تنظر إليّ نظرة فاحصة:

ـ ولن تجيء بعد الآن أبداً إلى هنا؟

فأسرعت أطمئنها، فصمتت، وتناولت يدي بأصابعها المحترقة، ولكنها سرعان ما تركتها كأنها غيّرت رأيها. قلت في نفسي: يستحيل أن تشعر نحوي بمثل هذا النفور. ولكن هذه هي طريقتها في السلوك.. أو.. إن المسكينة قد عانت في حياتها ألوان الشقاء ما أفقدها ثقتها بأي إنسان.

وفي الموعد المعيّن ذهبت إلى الصيدلية لآتي بالدواء، ودخلت في الوقت نفسه إلى مطعم كنت في بعض الأحيان أتعشى فيه أحياناً دَيْناً. وكنت قد حملت معي من البيت إناء، فطلبت من المطعم شيئاً من مرق الدجاج لهلين. ولكنها رفضت أن تأكل شيئاً، وظل الحساء على المدفأة.

وبعد أن جرعتها دواءها، أخذت أعمل. كنت أظن أنها نائمة، ولكنني حين نظرت إليها فجأة رأيت أنها كانت قد أنهضت رأسها وراحت تتابع حركاتي بانتباه، فتظاهرت بأنني لم ألاحظها. وحين نامت آخر الأمر نوماً هادئاً، دون هذيان ودون تأوه، على دهشتي من ذلك، شعرت بارتباك كبير: إن ناتاشا التي تجهل سبب غيابي عنها،

يمكن أن تغضبت مني أشد الغضب لتخلُّفي عن المجيء إليها في هذا اليوم، بل سوف تشعر حتماً بطعنة تصيب كرامتها من إهمالي إياها في هذه اللحظة التي لعلها أحرج لحظة تحتاج فيها إليَّ. وقد تعرض لها هموم جديدة، وربما كانت تريد أن تعهد إليَّ بعمل من الأعمال، فإذا هي تتلفت حولها فلا تجدني، كأنني غبت عنها على عمد!

أما آنا أندريفنا فلم أكن أعرف أبداً كيف أعتذر لها في الغد. وفكرت في الأمر طويلاً، ثم قررت فجأة أن أركض إليهما كليهما، قائلاً في نفسي: قد لا أغيب أكثر من ساعتين، هيلين نائمة، ولن تشعر بخروجي. ونهضت فجأة، فدسست معطفي، وتناولت قبعتي، حتى إذا هممت بالخروج، سمعت صوتها يناديني على حين بغتة. استغربت ذلك: أكانت تتظاهر إذن بأنها نائمة؟

يجب أن أقول بهذه المناسبة إن ما كانت توجهه إليَّ من نداء في كثير من الأحيان، وما كانت تشعر به من حاجة إلى اطلاعي على حيرتها، كان يدل على أنها تريد أن تكلمني، رغم أن هيئتها تشير إلى غير ذلك، وكان هذا يسرني كثيراً.

سألتني وأنا أقترب منها:

ـ أين تريد أن تضعني؟

لقد كانت في أكثر الأحيان تطرح أسئلتها على حين غرة، بطريقة ليست في الحسبان، حتى أنني في هذه المرة لم أفهمها على الفور.

وأضافت تقول:

ـ قلت لصديقك منذ قليل إنك تريد ن تضعني في بيت من البيوت. لا أريد أن أذهب إلى أي مكان.

انحنيت عليها، فلاحظت أن حرارة محرقة قد عادت فانتابتها. فأخذت أطمئنها، ووعدتها بأنني لن أرسلها إلى أحد إذا كانت تريد

أن تبقى معي. قلت لها ذلك، وخلعت معطفي وقبعتي، لأنني لم أستطع أن أقرر تركها وهي في مثل هذه الحالة. فقالت وقد أدركت أنني أريد البقاء:

ـ بل اذهب. إنني أريد أن أنام، وسأنام فوراً.

فقلت متردداً:

ـ ولكنك لا تستطيعين أن تبقي وحدك! على أنني إنْ ذهبت فسأعود حتماً بعد ساعتين..

– إذن فاذهب. أئذا مرضت أنا سنة كاملة، بقيت أنت في البيت سنة كاملة لا تخرج.

وحاولت أن تبتسم، ورشقتني بنظرة غريبة، كأنها تكافح عاطفة طيبة تتكلم في قلبها. مسكينة هذه الطفلة! إن قلبها الرقيق الكريم يتكشف على حقيقته رغم ما تشعر به نحو الناس من كره، ورغم ما يبدو عليها من مظاهر القسوة.

أسرعت أولاً إلى آنا أندريفنا. كانت تنتظرني على أحر من الجمر، واستقبلتني باللوم والتقريع. كانت قلقة أشد القلق: لقد خرج نيقولا سرجتش بعد العشاء فوراً، ولا يعرف أحد إلى أين ذهب. أدركت أن العجوز لم تستطع أن تكتم الأمر، فقصّت عليه كل شيء، تلميحاً، على عادتها. بل إنها اعترفت لي بذلك تقريباً، فقلت إنها لم تتحمل ألاّ تشركه في فرحة كبيرة كهذه الفرحة، ولكن نيقولا سرجتش أصبح بعد سماع كلامها قاتماً كغيوم العواصف، على حد تعبيرها، ولم ينبس بحرف واحد («لم يفتح شفتيه ولا أجاب على أسئلتي»)، وخرج من البيت فجأة، بعد العشاء. كانت آنا أندريفنا تقص عليّ ذلك وهي ترتعش خوفاً، وتوسّلت إليّ أن أنتظر معها نيقولا سرجتش. فاعتذرت عن ذلك، وقلت لها، دون مراعاة،

إنني قد لا أجيء إليها في الغد أيضاً، وإنني ما جئت اليوم إلا لأبلغها ذلك. فكدنا نتشاجر، وانفجرت باكية، ووجّهت إليَّ لوماً حاداً مراً، فلما تجاوزت الباب للخروج ارتمت على عنقي، وشدتني إليها بذراعيها ورجتني ألاّ أغضب منها هي «اليتيمة» وألا يسوءني كلامها.

وذهبت إلى ناتاشا فوجدتها وحدها، على خلاف ما كنت أتوقع، والشيء الغريب أنني لم ألاحظ أنها سُرَّت بمقدمي كما سُرَّت به أمس، وكما تُسرّ به عامةً في سائر الأيام، حتى لكأن مجيئي أزعجها. وسألتها هل جاءها أليوشا اليوم، فأجابت بأنه جاء ولم يمكث إلا قليلاً، وأضافت إلى ذلك مترددة، إنه قد يمر بها في المساء.

ـ والبارحة؟

– لا. لم يجئ. منعته بعض الظروف من المجيء.

قالت ذلك بسرعة، ثم أضافت تسألني:

ـ وأنت يا فانيا كيف تجري شؤونك؟

لاحظت أنها تريد أن تقف حديثنا عند هذا الحد، وأن ننتقل إلى موضوع آخر، وأنعمت النظر فيها، فرأيت أنها في حالة من اليأس. وحين لاحظت أنني أتفرس فيها، رشقتني بنظرة سريعة مفاجئة أحسست كأنها جمرة تحرقني. قلت في نفسي: لا شك أن هناك شيئاً جديداً لا تريد أن تتحدث فيه.

وأجبتها على سؤالها، فقصصت عليها حكاية هيلين تفصيلاً، فاهتمت بالأمر اهتماماً شديداً، وأُخذت بالقصة أخذاً قوياً، وهتفت تقول:

ـ وكيف استطعت أن تتركها؟

فذكرت أنني لم أكن أنوي المجيء إليها، ولكنني خشيت أن تغضب مني، وقدّرت أنها قد تكون في حاجة إليّ.

فقالت كأنها تخاطب نفسها وهي تفكر:

- في حاجة إليك! حقاً يا فانيا، قد أكون في حاجة إليك، ولكن الأفضل أن نرجئ هذا الأمر إلى مرة أخرى. هل زرتهم؟

فقصصت عليها ما جرى. فقالت:

- نعم. لا أدري كيف يمكن أن يستقبل أبي هذه الأنباء.. ولكن على كل حال، ما قيمة هذا كله!..

- كيف تقولين ما قيمة هذا كله؟ كيف تستخفّين هذا الاستخفاف بتبدل كبير كهذا التبدل!

- نعم.. ولكن أين ذهب هذه المرة؟ لقد ظننت في المرة الماضية أنه جاء إليّ. اسمع يا فانيا، تعال إليّ غداً، إن استطعت. قد تكون هنالك أمور يجب أن أفضي بها إليك. ولكن يسوءني أن أقلق راحتك. والآن ينبغي لك أن تعود إلى مريضتك. لقد تركتها منذ ساعتين.

- طيب. إلى اللقاء يا ناتاشا. كيف كان سلوك أليوشا معك اليوم؟

- أليوشا.. لا جديد.. إني لأستغرب سؤالك.

- إلى اللقاء.

- وداعاً.

قالت ذلك ومدّت إليّ يدها في إهمال، وأدارت وجهها بعد نظرة الوداع فتركتها دهشاً بعض الدهشة. ولكنني قلت في نفسي: لا بد أن هناك أمراً آخر تفكر فيه. إن المسألة خطيرة. وستقص عليّ غداً كل شيء من تلقاء نفسها.

وعدت إلى بيتي حزيناً، فما كان أشد تأثري حين اجتزت العتبة فرأيت هيلين جالسة على الأريكة، وقد انحنت برأسها على صدرها، كأنها في حلم عميق. لم تنظر إليّ، حتى لكأنها غائبة عن وعيها. فاقتربت منها، فسمعتها تدمدم بكلام. قلت في نفسي: أهي تهذي؟ وسألتها وأنا أجلس إلى جانبها وأطوّق جسمها بذراعي:

- هيلين، صغيرتي، ما بكِ يا هيلين؟

- أريد أن أذهب، أفضّل أن أذهب إليها.

قالت ذلك دون أن ترفع رأسها.

فسألتها دهشاً:

- أين؟ إلى من؟

- إليها، إلى بوبنوفا. تقول إنني مدينة لها بمال كثير، تقول إنها تولت الإنفاق على دفن أمي.. وأنا لا أريد أن تهين أمي.. سأعمل عندها سداداً لدين أمي. وبعدئذ أتركها. أما الآن فأريد أن أعود إليها.

- هدئي نفسك يا هيلين. لا تستطيعي أن تذهبي إليها. ستعذبك، ستضيعك.

فقالت هيلين في حرارة:

- فلتضيعني، فلتعذبني. لست أول بنت تتعذب. هناك بنات أخريات، بنات أفضل مني، يتعذبن أيضاً. قالت لي ذلك شحاذة في الشارع. أنا فقيرة، أريد أن أكون فقيرة. سأظل فقيرة طوال حياتي. هذا ما أمرتني به أمي وهي تموت. سأعمل. لا أريد أن أرتدي هذا الثوب.

- غداً أشتري لك ثوبا آخر. وسأتيك بكتب. ستعيشين معي. لن أضعك عند أحد، إذا كنت لا تريدين ذلك. هدئي نفسك.

- سأشتغل عاملة.

- طيب. طيب. هدئي نفسك الآن. تمددي. نامي.

ولكن الطفلة المسكينة أخذت تبكي، وشيئاً فشيئاً صارت دموعها إلى نحيب. واحترت ماذا أفعل. وجئت بماء فبللت به صدغيها وجبينها. تهالكت أخيراً على الأريكة، خائرة القوى، وعاودتها رعشات الحمّى، فغطيتها بما وجدته أمامي، ونامت، لكن نومها كان مضطرباً مرتعشاً، فكانت تستيقظ في كل لحظة. وكنت أنا أشعر بتعب شديد، رغم أنني لم أمش في ذلك اليوم كثيراً، وقررت أن أسرع إلى النوم. كانت تدوي في رأسي أفكار قلقة أليمة. كنت أحس أن هذه البنية ستسبب لي متاعب كثيرة. ولكن ناتاشا هي التي كان يقلقني أمرها خاصة. إني لأدرك اليوم أنني قلما عانيت حالة نفسية مظلمة كتلك التي عانيتها قبل أن أنام في تلك الليلة الشقية.

الفصل التاسع

استيقظتُ من نومي متأخراً، في نحو العاشرة من الضحى، فوجدتني مريضاً. كان بي دوار وصداع. ونظرت إلى سرير هيلين فوجدته خالياً. وفي الوقت نفسه سمعت من الغرفة اليمنى صوتاً كأنه صوت تنظيف البلاط، فخرجت، فإذا هيلين تكنس الأرض، وقد رفعت بإحدى يديها ثوبها الأنيق الذي لم تخلعه منذ الليلة البارحة، ووجدت الحطب مكدساً في أحد أركان الغرفة، ورأيت المائدة منظفة، والغلاية ممسوحة. كانت هيلين تقوم إذن بأعمال المنزل.

هتفت بها قائلاً:

ـ اسمعي يا هيلين، من قال لك أن تكنسي الأرض؟ لا أريد منك هذا. أنت مريضة. هل جئت إليّ خادمة!

فأجابت بقولها، وهي تنهض وتنظر إليّ:

ـ من يكنس إذن؟ لست الآن مريضة.

ـ ولكنني ما أخذتك لتعملي. لكأنك تخافين أن ألومك، كما لامتك بوبنوفا، على أنك تعيشين في بيتي عالةً عليّ؟

قلت لها ذلك ثم أضفت وأنا أنظر إليها دهشاً:

ـ ومن أين أتيت بهذه المكنسة النظيفة؟ لم يكن عندي مكنسة!

ـ هي لي.. أنا أتيت بها إلى هنا. كنت أكنس الأرض لجدي. وقد بقيت المكنسة منذ ذلك الوقت هناك تحت المدفأة.

وعدت إلى غرفتي مطرقاً أفكر: بدا لي، وقد أكون على خطأ، أن ضيافتي لها كانت تثقل عليها، وأنها تريد أن تبرهن لي، بكل الوسائل، على أنها لا تقيم عندي مجاناً. قلت لنفسي: إذا صح هذا فما أغرب هذا الطبع في شدة تأذيه! وما انقضى على ذلك دقيقتان أو ثلاث دقائق حتى دخلت الغرفة، وجلست صامتة في المكان الذي جلستْ فيه بالأمس، على الأريكة، تنظر إليَّ نظرة فاحصة. كنت أثناء ذلك قد سخنت الماء، وأضفت إليه الشاي، فصببت قدحاً، ومددته إليها مع قطعة من الخبز الأبيض، فتناولت الشاي والخبز صامتة دون أن تحتج. لقد انقضى يوم كامل لم تأكل خلاله شيئاً البتة.

قلت لها وقد لاحظت أخدوداً أسود في أسفل تنورتها:

ـ وسخت ثوبك الجميل.

فبحثت عن الموضع الموسخ، ثم إذا بها، فجأة، على دهشة مني، تضع قدحها جانباً، وتمسك بكلتا يديها حافة تنورة الموسلين الجميلة، في بطء وهدوء، وتشقها بحركة واحدة من أسفلها إلى أعلاها. ثم ترفع إليّ، دون أن تقول كلمة واحدة، نظرتها العنيدة اللامعة. إنها ممتقعة اللون.

هتفت مقتنعاً بأنني أمام مجنونة:

ـ ما تصنعين يا هيلين؟

فقالت وهي تكاد تختنق من شدة الانفعال:

ـ هذا ثوب حقير. لماذا قلت إنه ثوب جميل؟

وصرخت تقول فجأة وهي تنهض:

ـ لا أحب أن أرتديه. أريد أن أمزقه. أنا لم أطلب إليها أن تجمّلني بهذا الثوب. لقد ألبستنيه عنوة. مزّقت قبله ثوباً آخر،

وسأمزق هذا أيضاً، سأمزقه، سأمزقه!..

وانقضّت على الثوب الشقي في حنق ما بعده حنق، فما هي إلا طرفة عين حتى كان الثوب ممزقاً. فلما فرغت من ذلك، كانت قد بلغت من شدة الشحوب أنها لا تكاد تستطيع أن تستوي على قدميها. وتأملت هذه الضراوة كلها مشدوهاً. أما هي فكانت تنظر إليَّ نظرة الاستفزاز كأنني أنا أيضاً مذنب في حقها. ولكنني كنت أعرف في هذه المرة ما الذي بقي أن أفعله.

قررت دون إبطاء، أن أشتري لها ثوباً جديداً في هذا الصباح نفسه. إن على المرء أن يعامل هذا المخلوق المتوحش النزق برفق. لكأنها لم تلق في حياتها أناساً ذوي شهامة. إذا كانت قد مزقت ثوبها الأول إرباً رغم العقوبة القاسية، فلا شك أنها تنظر في كثير من الحنق إلى هذا الثوب الثاني الذي يذكرها بلحظة قريبة العهد فظيعة!

كان في وسع المرء أن يجد لدى بائع الرثاث ثوباً بسيطاً جميلاً، بسعر زهيد. وإنما المصيبة أني كنت في تلك اللحظة لا أكاد أملك شروى نقير. ولكنني كنت قد قررت في الليلة البارحة، قبل أن أنام، أن أمضي اليوم إلى مكان آمل أن أحصل منه على مال، فعزمت أن أتجه الآن إلى ذلك المكان، فتناولت قبعتي، وكانت هيلين تلاحظني في كثير من الانتباه، كأنها تنتظر شيئاً، فلما أخذت المفتاح لأغلق باب المنزل ورائي، كما فعلت أمس وأول أمس، سألتني:

- هل تحبسني أيضاً؟

فقلت لها وأنا أعود إليها:

ـ لا تغضبي يا بنيتي. فإنما أغلق الباب خشية أن يدخل عليك أحد. وأنت الآن مريضة، فقد تخافين. ولا يدري إلا الله من عسى يجيء... قد ترتئي بوبنوفا أن...

قلت لها ذلك عامداً، وإنما كنت أحبسها لأنني أشك فيها، ولأنني أقدّر أن فكرة الهروب قد تراودها على حين غرة. فقررت أن أحتاط. لزمت هيلين الصمت. وحبستها هذه المرة أيضاً.

كنت أعرف ناشراً شرع منذ أكثر من سنتين في نشر مؤلَّف يضم عدداً كبيراً من المجلدات، وقد سبق أن وجدت لديه عملاً مرات كثيرة، وذلك حين أكون في حاجة إلى كسب سريع، وكان دقيقاً في معاملته لا يتأخر عن الدفع، فذهبت إليه، فأسلفني خمسة وعشرين روبلاً عن مقال وعدته بتقديمه في بحر الأسبوع. وكنت آمل أن أختلس بعض الوقت لروايتي. ذلك ما كنت أفعله كثيراً حين تلح عليّ الحاجة.

فما أن حصلت عل المال حتى ذهبت إلى سوق الرثاث، فوجدت هنالك بائعة عجوزاً أعرفها، تبيع جميع أنواع الثياب والأثاث، فوصفت لها قامة هيلين، فما هي إلا لحظة حتى أخرجت لي ثوباً هندياً صغيراً ذا ألوان زاهرة، متيناً، لم يُغسل إلا مرة واحدة، زهيد الثمن. فاشتريته واشتريت منديلاً للعنق أيضاً. وقد تذكرت وأنا أدفع الثمن أن هيلين في حاجة إلى فروة أو معطف أو ما يشبه ذلك، فالجو بارد وليس لها ما يقيها البرد. ولكنني أرجأت شراء مثل هذا إلى مرة أخرى، فإن هيلين سريعة التأذي شديدة الكبرياء. وليس يعلم إلا الله كيف تستقبل هذا الثوب، رغم أنني تعمدت أن يكون بسيطاً غاية البساطة محتشماً كل الاحتشام فهو ثوب عادي من أكثر الأثواب شيوعاً، واشتريت لها عدا ذلك زوجين من جوارب القطن وزوجين آخرين من جوارب الصوف، وقلت إنني أستطيع أن أقدمها لها متذرعاً بأنها مريضة وبأن جو الغرفة بارد شديد البرودة. وكانت في حاجة أيضاً إلى ملابس داخلية. ولكنني أرجأت شراء ذلك إلى

وقت يزداد فيه تعارفنا. واشتريت في مقابل هذا أغطية قديمة للسرير، وهي أشياء لا بد منها، وقد تُسرُّ هيلين كثيراً.

وعدت إلى البيت حاملاً أشيائي، في الساعة الواحدة بعد الظهر. وكان قفل البيت ينفتح بلا جلبة، فلم تشعر هيلين بدخولي فوراً. فرأيتها واقفة على مقربة من منضدتي تقلب كتبي وأوراقي. فلما سمعتني أسرعت فطوت الكتاب الذي كانت تقرؤه، وابتعدت عن المنضدة وقد احمرّ وجهها، فألقيت نظرة سريعة على الكتاب. إنه إحدى النسخ الخاصة من روايتي الأولى، عليها اسمي بخط عريض تحت عنوان الكتاب.

قالت لي هيلين بلهجة متأكدة:

- طرق أحدهم أثناء غيابك، وسألني لماذا أقفلت عليّ الباب.

- لعله الطبيب. ألم يكلمك يا هيلين؟

- لا.

- لم أجب، بل فضضت الرزمة، وسللت منها الثوب الذي اشتريته، فقلت لها وأنا أقترب منها:

- اسمعي يا صغيرتي هيلين. لا يمكن أن تستمري على ارتداء أسمال ممزقة، لذلك اشتريت لك ثوباً مما يُلبس كل يوم، ثوباً زهيد الثمن، فلا تقلقي. إنه لا يكلفني إلا روبلاً واحداً وعشرين كوبكاً. إلبسيه، أرجوك.

ووضعت الثوب إلى جانبها. فاحمرّ وجهها احمراراً شديداً، وجعلت تحدق فيَّ تحديقاً قوياً.

كانت في دهشة كبيرة، وبدا لي في الوقت نفسه أنها خجلى. إلا أن شيئاً رقيقاً ناعماً قد أشرق في نظرتها. فلما رأيت أنها صامتة لا تجيب، عدت إلى قرب المائدة. كان واضحاً أن عملي قد فجأها.

ولكنها جهدت أن تسيطر على نفسها، وخفضت عينيها.

كان بي دوار وصداع ما ينفكان في ازدياد، فالهواء الطلق لم يخفف منهما شيئاً. وكان عليّ رغم ذلك أن أذهب إلى ناتاشا. فإن قلقي عليها لم يقلّ عن البارحة بل ازداد. وأحسست فجأة أن هيلين تناديني، فالتفت نحوها، فقالت لي وهي تنظر إلى جانب، وتلفف طرف الأريكة كأنها مستغرقة في هذا العمل:

- إذا ذهبت فلا تغلق عليَّ الباب. لن أهرب.

- طيب يا هيلين. أنا أقبل. لكن ما عساك فاعلة إذا جاء أحد؟ لا يعلم إلا الله ما قد يقع!

- إذن فأترك لي المفتاح أغلق الباب من الدخل، فإذا طرق طارق قلت له إنك لست في البيت.

قالت ذلك ورشقتني بنظرة متخابثة كأنها لتقول: «هذا ما يُفعل، ببساطة!». ثم سألتني فجأة قبل أن أستطيع إجابتها:

- من يغسل لك ملابسك؟

- امرأة هنا في البيت.

- أنا أعرف أن أغسل. وأين أكلت أمس؟

- في المطعم.

- أنا أعرف أيضاً أن أطبخ. سأهيئ لك طعامك.

- ماذا تعرفين إعداده من طعام؟ ما أظنك جادة فيما تقولين.

فسكتت وغضت طرفها. كان واضحاً أن ملاحظتي قد آذتها.

وانقضى على ذلك عشرة دقائق في أقل تقدير، لم ينبس أحد منا خلالها بكلمة. وفجأة، قالت دون أن ترفع رأسها:

- أستطيع أن أهيئ لك حساء.

فسألتها دهشاً:

- حساء؟ أي حساء؟

- أعرف كيف تهيأ الحساء. كنت أصنع منها لأمي حين كانت مريضة. وكنت أذهب إلى السوق أيضاً.

فقلت لها وأنا أقترب منها وأجلس إلى جانبها على الأريكة:

- اسمعي يا هيلين. ما هذه الكبرياء! إنني أعمل ما يمليه عليَّ قلبي. فأنت ابنة وحيدة، ليس لك أهل، أنت صبية شقية، وأنا أريد أن أساعدك، وستساعدينني أنت أيضاً حين أحتاج إلى ذلك. ولكنك لا تريدين أن تفكري في الأمر على هذا النحو، فيعز عليك أن تقبلي مني أية هدية، وتريدين أن تردي إليَّ الجميل فوراً، تريدين أن تدفعي ثمن معونتي عملاً تقومين به، كأنك تحسبين أنني بوبنوفا، وكأنني لمتك على شيء.. عيب يا هيلين أن تفكري هذا التفكير.

فلم تجب هيلين، وكانت شفتاها ترتعشان. كان يبدو أنها تريد أن تقول شيئاً، ولكنها حبست لسانها وصمتت. ونهضتُ لأذهب إلى ناتاشا. وتركت لها المفتاح هذه المرة، ورجوتها أن ترد على من قد يطرق الباب، وأن تسأله عن اسمه. كنت على يقين من أن أمراً خطيراً قد حصل لناتاشا، وأنها تخفي عني هذا الأمر، كما اتفق أن فعلت ذلك غير مرة. وقد قررتُ على كل حال أن لا أدخل عليها إلا دقيقة واحدة حتى لا أزعجها بزيارة في غير أوانها.

وهذا ما تم. فاستقبلتني ناتاشا بنظرة قاسية ساخطة. وكان ينبغي أن أرحل فوراً، لكن ساقيَّ ضعفتا عن ذلك. بدأت قائلاً:

- إنما جئت إليك لحظة يا ناتاشا، أريد أن أسألك النصح: ما عساي فاعلاً بهذه البنية؟

وقصصت عليها كل ما يتصل بهيلين قصاً سريعاً. فأصغت إلى كلامي حتى النهاية دون أن تقول شيئاً، فلما انتهيتُ قالت:

- لا أدري بم أنصحك. إن كل شيء يدل على أن هذه الصبية مخلوقة غريبة. لعلها تحملت كثيراً من الأذى، فأصبحت شديدة الوجل. دعها تسترد عافيتها. هل تنوي أن ترسلها إلى بيتنا؟

- تقول إنها لا تريد أن تترك منزلي. ثم إنني لا أعرف كيف يمكن أن يستقبلوها هناك. لذلك تريني حائراً لا أدري ماذا أفعل.

قلت هذا ثم سألتها خجلاً:

- ولكن أنت، أنت كيف حالك؟ كان يبدو عليك الألم بالأمس!

فأجابت ذاهلةً:

- نعم، وإلى اليوم ما يزال بي صداع. هل رأيت أحداً من أهلي.

- لا. ولكني سأذهب إليهم غداً.. وغداً هو يوم السبت..

- يعني؟

- الأمير سيأتي مساء غد..

- ما نسيت ذلك.

- صحيح، ولكني قلت هذا هكذا.

وتوقفت أمامي تماماً، وحدّقت فيَّ طويلاً. كان يلوح في عينيها تصميم عنيد. كان هناك ما يحرقها حرقاً.

- سأقول له شيئاً يا فانيا: أرجوك أن تدعني، فإنك تزعجني كثيراً.

نهضتُ من مكاني، ونظرت إليها بدهشة يعجز اللسان عن وصفها. ثم صرخت مذعوراً:

- ناتاشا، ما بك يا عزيزتي. ما الذي حدث؟

- لم يحدث شيء، ستعرف غداً كل شيء، كل شيء. أما الآن فأريد أن أكون وحدي. اسمع يا فانيا. اذهب حالاً. يؤلمني رؤيتك الآن، تؤلمني جداً!

- ولكن قولي لي، على الأقل..

- غداً تعرف كل شيء. أوه! لماذا لا تذهب؟

وخرجت. كنت مصعوقاً حتى لكأنني فقدت الوعي. ووثبت عليّ مافرا عند المدخل، تسألني:

- أهي غاضبة؟ إنني لا أجرؤ على الاقتراب منها.

- ماذا بها؟

- الذي بها أن صاحبنا لم يأتِ منذ يومين.

فسألتها دهشاً:

- كيف؟ لقد ذكرت أنه جاء إليها أمس صباحاً وأنه ينوي أن يعود في المساء.

- غير صحيح. لم يأتِ صباح أمس.

- إنه غاب منذ أول أمس. هل قالت لك أنه جاء صباح أمس!

- نعم.

- معنى ذلك أن الأمر يقلقها، ما دامت ترفض حتى أن تعترف لك بأنه لم يجئ. يا له من رجل ذي مروءة حقاً!

هتفت أقول:

- ولكن ما معنى هذا؟

فأجابت مافرا وهي تباعد ذراعيها:

- معناه أنني لا أعرف ماذا أصنع بها. لقد أمرتني أمس أن أذهب إليه، ثم استوقفتني، ثم أمرتني، ثم استوقفتني. وها هي ذي اليوم تأبى حتى أن تكلمني. ينبغي لك أن تمضي إليه. أما أنا فلا أجرؤ أن أدعها وحدها.

فأسرعت أهبط السلم. وصرخت مافرا سائلة:

- هل تأتي في هذا المساء؟

فأجبتها دون أن أتوقف:

- سنعرف ذلك هناك. وقد آتي لأسألك عما تم في الأمر، إذا بقيت على قيد الحياة.

أحسست أن طعنة قد نفذت في قلبي حقاً.

الفصل العاشر

ذهبت رأساً إلى أليوشا، وكان يسكن عند أبيه، في مورسكايا الصغيرة. كان للأب شقة كبيرة، رغم أنه يعيش وحده، وكان أليوشا يحتل في هذه الشقة حجرتين كبيرتين جميلتين. لم يسبق لي أن ذهبت إليه إلا مرة واحدة، فيما أظن، قبل ذلك اليوم. أما هو فكان يأتي إليّ من حين إلى حين، وكان يكثر من زيارتي، في أول الأمر خاصة، أي في الأوقات الأولى من صلته بناتاشا.

لم أجد أليوشا في البيت، فمضيت إلى غرفته رأساً، وكتبت له هذه الكلمة:

«يظهر يا أليوشا أنك قد فقدت صوابك. في مساء يوم الثلاثاء حين تقدم أبوك نفسه إلى ناتاشا يسألها أن تشرّفك بقبولك زوجاً لها، كنت أنت سعيداً جداً بهذا الطلب؛ لقد شهدت ذلك بنفسي، فلا بد أن تعترف إذن بأن سلوكك الآن غريب بعض الغرابة. هل تدرك ما تصنعه بناتاشا؟ مهما يكن من أمر، فإن كلمتي هذه ستذكرك بأن تصرفك مع زوجتك المقبلة تصرف شائن لا يليق بك، تصرف طائش إلى أبعد حدود الطيش. أنا أعلم أن ليس لي عليك حق النصح، ولكن هذا لا يهمني البتة».

«حاشية: إنها لا تعرف شيئاً عن هذه الرسالة، بل إنها لم تحدثني عنك بكلمة واحدة».

وغلّفت الرسالة وتركتها على المنضدة. وحين سألت الخادم عن

أليوشا أجابني بأن ألكسي بتروفتش لا يكاد يجيء إلى البيت، وأنه لن يعود إلا في نحو الصباح.

وقفلت راجعاً إلى بيتي أجرُّ قدمي جراً من شدة الإعياء. كان رأسي يدور، وكانت ساقاي تصطكان. فلما وصلت، وجدت الباب مفتوحاً، ووجدت نيقولا سرجتش في انتظاري. كان جالساً على مقربة من المنضدة، ينظر إلى هيلين دهشاً دون أن ينبس بكلمة واحدة، وكانت تنظر إليه هي أيضاً بدهشة لا تقل عن دهشته، صامتةً مصرة على الصمت، فقلت في نفسي: «لا بد أنها تبدو له غريبة شاذة».

قال حين رآني:

ـ أنا هنا منذ ساعة.

ثم أضاف يقول، وهو يلف الغرفة بنظرة سريعة، ويغمز بعينه غمزة خفيفة لا تدرك، متجهاً نحو هيلين:

- وأعترف أنني لم أكن أتوقع أن أجدك هكذا..

كانت عيناه تعبّران عن الدهشة، ولكنني حين أنعمت النظر فيه لاحظت أنه حزين قلق. لقد كان وجهه أشد شحوباً مما عهدته فيه من شحوب.

واستأنف يقول بلهجة ممزقة:

- اجلس، اجلس. لقد أسرعت إليك، لأن ثمة أمراً خطيراً يجب أن أبوح به لك. ولكن ما بك؟ ليس وجهك وجه إنسان..

- صحتي سيئة. رأسي يدور منذ الصباح.

- يجب أن تحترس. يجب أن لا تهمل هذا الأمر. لعل برداً أصابك؟

- لا.. هي نوبة عصبية. يقع لي ذلك من حين إلى حين. وأنت كيف حالك؟

- بخير. حالة قلق. هذا كل ما في الأمر. لقد وقع شيء، اجلس.

فقربت كرسياً وجلست إلى المنضدة أمامه. فمال العجوز نحوي، وأخذ يقول بصوت خفيض:

- انتبه، لا تنظر إليها، ولنتظاهر بأننا نتحدث في أمر آخر. من هذه الصبية؟

- سأبسط لك أمرها فيما بعد يا نيقولا سرجتش. إنها بنية فقيرة، يتيمة الأبوين. هي حفيدة سميث الذي كان يسكن هنا، ومات في المقهى.

- ها.. كان له إذن حفيدة! يا لها من فتاة غريبة. إنها تنظر نظرة عجيبة! أصارحك بأنك لو تأخرت خمس دقائق أخرى لما بقيت. لم تسمح لي بالدخول إلا في كثير من العناء، ثم لم تفتح فاها أبداً. إنها خائفة. لكأنها ليست بإنسان.. وما الذي جاء بها إليك؟ ها.. نعم.. فهمت، لا شك أنها جاءت لترى جدها جاهلة أنه مات.

- نعم. لقد كانت شقية جداً. وقد تحدث عنها العجوز وهو يحتضر.

- هم.. ما أشبه الحفيدة بالجد. ستحدثني عن هذا كله فيما بعد، ولعلنا نستطيع أن نساعدها إذا كانت شقية ذلك الشقاء كله.. والآن ألاً يمكننا أن نطلب إليها الانصراف؟ إنني أريد أن أكلمك في أمر هام.

- ولكنها لا تستطيع أن تذهب إلى أي مكان. إنها تسكن هنا.

وشرحت للعجوز ما استطعت أن أشرحه بكلمتين، وأضفت إلى ذلك أننا نستطيع أن نتحدث أمامها، لأنها طفلة.

- نعم، طبعاً، طفلة. ولكنني لم أفهم إلى الآن يا عزيزي. هي تسكن معك؟ يا إلهي، يا رب!..

ونظر إليها العجوز مرة أخرى دهشاً.

لقد أحست هيلين أن الحديث يدور عليها، فظلت جالسةً لا تنطق بكلمة، وقد خفضت رأسها وراحت تنسّل حاشية الأريكة. كانت قد ارتدت ثوبها الجديد الذي ناسبها كثيراً، وعنيت بتصفيف شعرها بعض العناية، ولعلها فعلت هذا احتفالاً بثوبها الجديد، وتكريماً له. فلولا ما في نظرتها من غرابة وحشية لكانت على الجملة فتاة حلوة.

واستأنف العجوز يقول:

- سأوجز الأمر يا عزيزي، وسأحاول الدقة والوضوح. إليك المسألة: إنها قصة طويلة، وقضية خطيرة..

كان العجوز غاضاً طرفه، وكان يرين على وجهه الجد والقلق؛ ورغم استعجاله، ورغم « إيجازه» و «دقته»، و «وضوحه»، كان لا يعرف من أين يبدأ. قلت لنفسي: «ما عساي سامعاً الليلة؟..».

- انظر يا فانيا، لقد جئت أطلب إليك أمراً خطيراً. ولكن قبل ذلك.. أظن أن عليّ أن أشرح لك بعض الملابسات.. الدقيقة جداً.

ثم سعل وألقى عليّ نظرة مختلسة، ثم احمرَّ وجهه، ثم غضب من نفسه وحنق على ما يعوزه من حضور البديهة.

- ولكن ماذا أشرح لك! ستفهم الأمر من تلقاء نفسك. المسألة كلها هي أنني سأطلب الأمير للمبارزة، وأريد منك أن تهيئ الأمر وأن تكون شاهدي.

فما سمعت هذا الكلام حتى انقلبت على ظهر الكرسي، ونظرت إليه وقد أخذ مني الانشداه كل مأخذ.

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟ أنا لست مجنوناً.

- ولكن اسمح لي يا نيقولا سرجتش. بأية حجة تطلبه للمبارزة؟ ولأي غرض؟ ثم هل يمكن..

فصرخ العجوز يقول:

- أي حجة؟ أي غرض؟ شيء عظيم!...

- نعم، نعم، أنا أعرف ما ستقول، ولكن فيم يفيدنا هذا الانفجار؟ ما الذي نخرج به من هذه المبارزة؟ أنا لا أفهم، أعترف لك بذلك.

- لقد قدّرت أنك لن تفهم. اسمع. إن قضيتنا قد انتهت (أي أنها ستنتهي في غضون أيام قليلة، فلم يبق إلا الإجراءات الشكلية)، ولقد خسرت القضية.. يجب أن أدفع عشرة آلاف روبل. هذا ما قررته المحكمة. وأخمنيفكا هي الضمان. ومعنى ذلك أن هذا الجرو واثق من أنه سيقبض المبلغ. وأنا إذ أتنازل له عن أخمنيفكا، أسدد دَيْني وأصبح غريباً عنه، فأستطيع أن أرفع الآن رأسي، وأن أقول له: «أيها الأمير المحترم، لقد ظللت تهينني سنتين كاملتين، لوّثت اسمي، ولطّخت شرف أسرتي، وكان لا بد من احتمال ذلك كله! كنت لا أستطيع أن أدعوك إلى النزال. لأنني لو فعلت لأجبتني بقولك دون أن تنزعج: «يا لك من رجل محتال، تريد أن تقتلني حتى تتخلص من دفع المال الذي سيُحكم به عليك، آجلاً أو عاجلاً. لا، لا. فلننظر أولاً ما ستؤول إليه القضية، ثم تدعوني إلى المبارزة»؛ أما الآن، أيها الأمير النبيل، فقد فصلت المحكمة في القضية، وربحتَ أنت الدعوى، ولم يبق ثمة ما يحول دون نزالنا، فهيّا إلحق بي إلى السهل».

هذه هي المسألة. أليس من حقي في رأيك أن أثأر لنفسي من كل شيء، من كل شيء؟

كانت عيناه تلتمعان، ونظرت إليه طويلاً في صمت. تمنيت أن أصل إلى أخفى ما في ضميره، وقررت أخيراً أن أنطق بالكلمة

الأساسية التي ما كان لنا أن نتفاهم بدونها، فقلت له:
- اسمع يا نيقولا سرجتش، هل تستطيع أن تصدُقني كل الصدق؟
- فأجاب جازماً:
- نعم.
- قل لي صراحةً: هل عاطفة الثأر هي التي تحدوك وحدها إلى طلب المبارزة، أم أن لك أهدافاً أخرى؟
- اسمع يا فانيا، أنت تعلم أن هناك أموراً لا أسمح لأحد بأن يمسّها في الحديث. ولكنني سأشذّ هذه المرة عن القاعدة، لأنك بما لك من بصيرة نافذة قد أدركت فوراً أن من المستحيل تحاشي هذا الموضوع. نعم، لي هدف آخر، هو أن أنقذ ابنتي التي تسير إلى الضياع، وأن أحوّلها عن هذا الطريق المشؤوم الذي ألقتها إليه الأحداث الأخيرة.
- ولكن كيف تنقذها هذه المبارزة؟ ذلك هو السؤال.
- بإفساد ما يدبر هنالك. اسمع. لا تظنن أن العاطفة الأبوية أو ضروباً من هذا الضعف هي التي تتحدث فيّ الآن. هذه كلها حماقات! أنا لا أُظهِر أحداً على قرارة قلبي. وأنت نفسك لا تعرف هذا. إن ابنتي قد هجرتني، وتركت بيتي إلى عشيقها، فانتزعتها من قلبي إلى الأبد، في ذلك المساء، هل تتذكر؟ وإذا كنت قد رأيتني أجهش في البكاء منكباً على صورتها، فليس معنى ذلك أنني أريد أن أغفر لها. حتى في تلك اللحظة، لم أكن أعفو عنها. وإنما كنت أبكي سعادتي الذاهبة، وغرور أحلامي، لم أكن أبكيها هي، كما هي الآن. وكثيراً ما أبكي في هذه الأيام. لست أستحي من الاعتراف بأنني أحببت ابنتي أكثر من أي شيء في هذا العالم. وقد تقول لي: إذا كان الأمر كذلك، إذا كان لا يعنيك مصير هذه الفتاة التي

أصبحت لا تعدّها ابنتك، فلماذا تحسر نفسك فيما يدبر هنالك.
وجوابي أن ذلك يرجع أولاً إلى أنني لا أحب أن يغلبني هذا الرجل الحقير المحتال، ويرجع ثانياً إلى عاطفة إنسانية عادية. فالبنت لا أعدها ابنتي، ولكن ذلك لا ينفي أنها فتاة مخدوعة، ضعيفة، عزلاء، فتاة ما زالوا يغررون بها، ويمعنون في التغرير بها، إلى أن يضيعوها تماماً. وأنا لا أستطيع أن أتدخل في هذا الأمر تدخلاً مباشراً، ولكنني أستطيع أن أتدخل فيه تدخلاً غير مباشر، وذلك بأن أطلب الأمير إلى النزال. فإذا قتلني، أو سفح دمي، فلن تسير على جثتي وتتزوج ابن قاتل أبيها، كابنة ذلك القيصر (تتذكر ذلك الكتاب الذي كان عندنا، والذي تعلمت فيه القراءة) التي سارت بعربتها على جثة أبيها؛ وإذا قتلته فإن أميرنا نفسه سيعدل عن هذا الزواج. وزبدة الأمر أنني لا أريد أن يتم هذا الزواج، وسأبذل كل ما أستطيع بذله من جهود لأحول دونه. هل تفهمني الآن؟

- لا، لا أفهمك. إذا كنت تريد سعادة ناتاشا فكيف تقرر أن تحول دون هذا الزواج، وهو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرد إليها اعتبارها؟ إن أمامها حياة طويلة، وهي في حاجة إلى سمعتها بين الناس.

- رأي الناس! هذا ما ينبغي أن تفكر فيه!!.. يجب أن تشعر أن أكبر فضيحة تصيبها هي هذا الزواج، هي هذا الارتباط بأناس أدنياء أراذل. إن أنبل جواب ترد به على الناس هي أن تحافظ على كبريائها النبيلة. وقد أقبل يومئذ أن أمدّ إليها يدي، وسنرى من يجرؤ حينذاك على أن يلوِّث شرفي.

أدهشتني هذه المثالية اليائسة. ولكنني أدركت أن الرجل قد خرج عن طوره، وأن اندفاعة الغضب هي التي تملي عليه هذا الكلام. فقلت له:

- هذا إفراط في المثالية، وإفراط في القسوة. إنك تطلب منها قوة لعلك لم تهيئها لها حين وهبت لها الحياة. هل تظن أنها تقبل هذا الزواج لأنها تريد أن تصبح أميرة؟ إنها تحب، وأنت تعلم ذلك: إنه الهوى، إنه القدر. ثم إنك تريد منها أن تحتقر رأي الناس، مع أنك أول من يخضع له. لقد أهانك الأمير، واتهمك على رؤوس الأشهاد بأنك تريد بالحيلة ولأسباب دنيئة أن ترتبط بأسرته، وها أنت ذا ترى الآن أنها إذا رفضت الزواج من تلقاء نفسها بعد أن تقدموا بطلب يدها، كانت تنفي التهمة القديمة نفياً واضحاً كاملاً. هذا ما تحصل أنت عليه: تخضع لرأي الأمير، وتتأدى به إلى الاعتراف بخطئه. إنك تحترق رغبة في الهزء به، والانتقام منه، ومن أجل ذلك تضحي بسعادة ابنتك. أليس هذا من الأنانية؟

كان العجوز جالساً، قاتم الوجه، مقطب الحاجبين، وظل مدة طويلة لا يجيب. وقال أخيراً، والدمع يلتمع في عينيه:

- أنت تظلمني يا فانيا، أقسم أنك لتظلمني. ولكن دعنا من هذا.

قال ذلك ونهض واقفاً وتناول قبعته، وأردف يقول:

- لا أستطيع أن أقلب قلبي أمامك. حسبي أن أقول لك ما يلي: لقد تحدثتَ منذ لحظة عن سعادة ابنتي. فاعلم إذن أنني لا أؤمن بأن ابنتي سعيدة، بل إنها لن تكون سعيدة أبداً، حتى ولو لم أتدخل.

فهتفت أقول دهشاً:

- كيف؟ لماذا تظن هذا؟ هل تعرف شيئاً ما؟

- لا، لا أعرف شيئاً خاصاً. ولكن ذلك الثعلب الخبيث لا يمكن أن يُقدِم على هذا الأمر. ذلك كله مكر. إنه فخ. أنا مقتنع بذلك، وسأذكرك بهذا الكلام، وسترى صدق ما أقول. ثم إن هذا الحقير إذا

ارتضى لابنه حقاً أن يتزوجها، فإنما يكون ذلك على أساس خطة يبيتها وحساب يخفيه، فما يعرفه أحد، فيكون هذا الزواج حلقة من حلقات الخطة، ورقماً من أرقام الحساب، وهما خطة وحساب أجهلهما أنا كل الجهل. فاسأل نفسك واحتكم إلى قلبك: هل يمكن أن تكون ابنتي سعيدة بمثل هذا الزواج؟ ستكون حياتها مع هذا الصبي الذي لا نعرف منذ الآن قيمة ما يشعر به من حب، سلسلة من المتاعب والمذلة. لسوف يحتقرها متى تزوجها، لسوف يصب عليها ألوان الأذى والهوان. ولسوف يشتد حبها له وتعلقها به كلما ازدادت عاطفته فتوراً، وعندئذ تأتي الغيرة ويأتي العذاب والجحيم، ثم تأتي القطيعة، وربما الجريمة. . لا، لا يا فانيا، إذا كان هذا ما تهيئه وتدفع إليه وتشجع عليه، فإن الله سيسألك عما جَنَتْ يداك، وستندم بعد فوات الأوان! وداعاً.

فأمسكت به، ومنعته من الخروج:

- اسمع يا نيقولا سرجتش. يجب أن ننتظر. وثق أنني لا أتابع هذه القضية وحدي. وقد تنحل من تلقاء ذاتها على خير وجه، دون عنف ولا تصنُّع، كهذا النزال الذي تحدثت عنه. دع الوقت يحل الأمر كما لا يحله أي إنسان. واسمح لي بعد ذلك أن أقول لك إن ما تفكر فيه لا يمكن تحقيقه. هل تظن أن الأمير يقبل منازلتك؟

- ولِمَ لا؟ ماذا دهاك؟ هل فقدت صوابك؟

- أؤكد لك أنه لن يقبل. وثق أنه سيجد المهرب السليم، وأنه سيدبر الأمر كله برصانة واستعلاء، وأنه سيجعلك عندئذ موضع الهزء والسخر. .

- أرجوك يا عزيزي أرجوك. إن هذا الكلام ليقطع الأيدي والأرجل. ولكن كيف يمكن أن لا يقبل النزال. لا، لا يا فانيا،

أنت شاعر، هذا كل ما في الأمر، أنت شاعر حقاً. إذن ففي رأيك أنه سيجد في منازلتي غضاضة؟ ولكنني كفء له. إنني عجوز. إنني أب أُهين. وأنت كاتب روسي، أي شخصية محترمة، ويمكن أن تكون شاهدي. . و. . و. . لست أفهم. . ماذا يجب أكثر من هذا. .

- سترى. سيعرض من الحجج ما يجعلك أسرع منه إلى رفض النزال.

- هم. . طيب يا عزيزي. ليكن الأمر كما تشاء. سأنتظر، ولكن إلى حين، طبعاً. لننظر ما يفعل الوقت. ولكن اسمع يا صديقي، عدني وعد الحر أنك لن تذكر شيئاً عما جرى بيننا من حديث اليوم، لا هناك، ولا لآنا أندريفنا.

- لك ما تريد.

- ثم يا فانيا، أرجوك أن لا تحدثني في هذا الأمر بعد الآن.

- أعدك بذلك.

- وثمة رجاء أخير: أنا أعرف يا صديقي أن مجيئك إلينا يضايقك، ولكنني أرجوك مع ذلك أن تكثر زياراتك إذا استطعت. إن المسكينة آنا أندريفنا تحبك كثيراً وتضيق أشد الضيق حين لا تأتي إليها. . هل تفهمني يا فانيا؟

قال ذلك وشدّ على يدي شداً قوياً، فوعدته مخلصاً وعدي.

- والآن، يا فانيا، لي سؤال أخير. هل معك مال؟

- مال؟

كررت هذه الكلمة دهشاً. فاحمر وجه العجوز وغض طرفه، وقال:

- نعم. . لقد رأيت بيتك، ورأيت ظروف معيشتك، فقدّرت أن نفقاتك كثيرة. (وخاصة الآن) فخذ هذه المائة والخمسين روبلاً يا صديقي، عسى أن تحتاج إليها.

- تعطيني مائة وخمسين روبلاً، عسى أن أحتاج إليها. . بعد أن خسرت أنت قضيتك؟

- فانيا، يُخيَّل إليّ أنك لا تفهمني أبداً! قد تحتاج إلى نفقات ليست في الحسبان، خذ هذا المبلغ. المال في بعض الأحوال يتيح للإنسان أن ينعم باستقلال شخصيته وحرية رأيه. قد لا تكون الآن في حاجة إلى هذا المال. ولكن ألاَّ ينبغي للمرء أن يفكر في المستقبل؟ على كل حال، سأترك لك هذا المبلغ، وهو كل ما استطعت أن أجمعه، فإذا لم تنفقه رددته إليّ. والآن، وداعاً يا فانيا. ولكن ما بك يا فانيا؟ ماهذا الشحوب الشديد؟ لا شك أنك مريض. . .

لم أجب على كلامه، وأخذت المبلغ. لقد أعطاني هذا المال لسبب واضح كل الوضوح.

وأجبته قائلاً:

- إنني لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي.

- لا تهمل نفسك يا فانيا، لا تهمل نفسك. إياك أن تخرج اليوم من البيت. سأقول لآنا أندريفنا إنك مريض. ألاَّ يجب استدعاء طبيب؟ سآتي إليك غداً، سأحاول ذلك، فإن حملتني ساقاي جئت. ويحسن بك الآن أن تنام. إلى اللقاء. إلى اللقاء أيتها الصغيرة. انظر كيف تشيح بوجهها عني. اسمع، يا صديقي، هذه أيضاً خمسة روبلات للصغيرة. لا تقل لها إنها مني. ولكن أنفقها عليها وحدها، اشتر لها حذاء وملابس داخلية. . لا شك أن أشياء كثيرة تعوزها. وداعاً يا صديقي.

شيّعته حتى باب العمارة. وكان لا بد أن أرسل البواب في شراء شيء من الطعام، فهيلين لم تتناول عشاءها.

الفصل الحادي عشر

ما إن عدت إلى منزلي حتى أصابني دوار فوقعت في وسط الغرفة. لا أتذكر الآن إلا صرخة هيلين، وأنها ضربت كفاً بكف، وهرعت إليَّ لتمسك بي. كانت هذه هي اللحظة الأخيرة التي بقيت في ذاكرتي.

فلما صحوت من غيبوبتي، وجدتني راقداً على السرير. وقد رَوَت لي هيلين فيما بعد أنها نقلتني إلى الأريكة بمساعدة البواب الذي جاء يحمل إلينا الطعام في تلك اللحظة. وقد استيقظت عدة مرات، فكنت في كل مرة أنظر إلى وجه هيلين الصغير مائلاً إليَّ، وقد فاض بمعاني القلق والرحمة. ولكنني أتذكر هذا كله كأنه تم في حلم، كأنه ملفع بالضباب؛ وكان طيف البنية الصغيرة يتراءى لي أثناء غفوتي لطيفاً رشيقاً، كأنني في رؤيا، أو كأنني أنظر في لوحة. وكانت تجيئني بجرعة ماء، وتنهضني، أو تظل جالسة قربي، حزينة، خائفة، تلاعب شعري. وأتذكر أنها لامست خدي مرة بقبلة. وفي مرة ثانية، استيقظت فجأة أثناء الليل، فرأيت في ضوء شمعة ذابلة على منضدة صغيرة بجانب السرير، رأيت هيلين قد وضعت رأسها على مخدتي واستغرقت في نوم خائف وجل وقد انفرجت شفتاها الشاحبتان، واستراحت يدها على خدها الفاتر. فلما استيقظت بعد ذلك تماماً، كان الصباح قد طلع، وكانت الشمعة قد انطفأت، وكانت أشعة الفجر تتراقص عل الجدار ساطعة بلون الأرجوان.

كانت هيلين قاعدة على كرسي أمام المنضدة، وكان رأسها المتعب مستنداً إلى ذراعها اليسرى الممتدة على المنضدة، وهي تغط في نوم عميق. أذكر أنني تأملت وجهها، فرأيت فيه الطفولة وقد رانت عليها حتى في النوم معاني الحزن الذي يعانيه الكبار، ورأيت جمالاً غريباً مريضاً. كان هذا الوجه ذو الأهداب الطويلة المعقوفة، والخدين الخاسفين، محفوفاً بشعر أسود كخشب الابنوس، غزير معقود على إهمال، متهدل من جانب. وكانت يدها الأخرى تستريح على مخدتي. فقبّلت اليد الصغيرة النحيلة في رفق، فلم تستيقظ الطفلة المسكينة، ولكن بسمة لطيفة طافت على شفتيها الشاحبتين. فتأملتها لحظة طويلة، ثم نمت نوماً هادئاً مريحاً. وظللت نائماً، في هذه المرة، حتى الظهيرة. فلما استيقظت كنت أحس كأنني أبللت من مرضي فلم يبق منه إلا شيء من الوهن وشيء من الثقل في اليدين والذراعين. كنت أصاب قبل ذلك بنوبات عصبية قصيرة، فأنا أعرف هذه النوبات حق المعرفة. وكان المرض لا يدوم في العادة أكثر من يوم، ولكن هذا لا ينفي أنه قاس عنيف.

كان النهار قد انتصف أو كاد. وأول شيء وقع عليه بصري هو الأغطية التي اشتريتها أمس، وقد شدّتها هيلين على حبل في ركن، فهيأت لنفسها في الغرفة زاوية خاصة بها. ورأيت هيلين جالسة أمام المدفأة تُعدُّ الشاي، فلما لاحظت أنني استيقظت أشرق وجهها وأقبلت عليَّ بابتسامة فرحة فوراً.

قلت لها وأنا أمسك بيدها:

- يا صديقتي الصغيرة، لقد سهرت عليَّ الليل كله. ما كنت أعرف أنك نبيلة كل هذا النبل.

فقالت وهي تنظر إليَّ وتبتسم لي ابتسامة لطيفة متحابثة خجلى،

ويحمرّ وجهها وهي تنطق بكلماتها:

- وكيف تعرف أنني سهرت عليك؟ ما يدريك لم أنم طوال الوقت!

- لقد استيقظت فرأيت كل شيء. إنك لم تنامي إلا في مطلع الصبح.

فقاطعتي، كأن مواصلة هذا الحديث تزعجها، كما يقع ذلك لجميع الذين يتصفون بالحياء ويتميزون بالشرف والاستقامة حيث يوجه إليهم الثناء، قاطعتني بقولها:

ـ هل تريد قليلاً من الشاي؟

ـ نعم. ولكن هل تعشيت أمس؟

لم أتعش، ولكنني تناولت شيئاً من الطعام في الليل. لقد جاءني البواب بما كنت في حاجة إليه. ولكن عليك أن لا تتكلم الآن، وأن تظل راقداً بهدوء.

قالت ذلك ثم أضافت وهي تحمل إليَّ الشاي وتجلس على سريري:

- إنك لم تُشفَ بعد تماماً.

- نعم، سأظل راقداً حتى المساء. ولكن لا بد لي من الخروج بعد ذلك. حقاً لا بد لي من الخروج يا هيلين.

- هل هذا شيء لا بد منه حقاً؟ إلى من تذهب؟ إلى زائر الأمس، أليس كذلك؟

- لا.

- من حُسن الحظ. إنه هو الذي أثارك. إذن ستذهب إلى ابنته؟.

- كيف عرفت أن له ابنة؟

- سمعت كل شيء.

قالت ذلك وغضت طرفها، ثم عادت إلى وجهها مسحة الألم، وقطبت ما بين حاجبيها، وأردفت تقول:

- هذا رجل شرير.

- أنت لا تعرفينه. بالعكس، إنه شهم جداً.

- لا، لا، إنه شرير، لقد سمعت كلامه.

قالت ذلك في حرارة.

- ماذا سمعت؟

- إنه لا يريد أن يغفر لابنته..

- ولكنه يحبها. لقد أساءت إليه، وهو يعاني كثيراً من العذاب بسببها.

- ولماذا لا يصفح عنها؟ في رأيي أن على ابنته الآن أن لا تعود إليه، حتى ولو غفر لها.

- كيف؟ لماذا؟

- لأنه لا يستحق أن تحبه ابنته، فلتهجره إلى الأبد، ولتطلب الصدقات من الناس، حتى يراها تتسول وتتعذب.

قالت ذلك بحرارة، وقد التمعت عيناها، واحمر خداها. فقلت في نفسي: لا بد أن هنالك سبباً يدفعها إلى هذا الرأي دفعاً.

وأردفت بعد فترة من صمت تسألني:

- أفي بيت هذا الرجل كنت تريد أن تضعني؟

- نعم، يا هيلين.

- أفضّل أن أعمل خادمة.

- ما هذا الكلام ياصغيرتي هيلين؟ ما هذه الحماقة؟ عند من تريدين أن تعملي خادمة؟

- عند أول فلاح ألقاه.

قالت ذلك، وقد نفد صبرها، وظلت خافضة عينيها. كان واضحاً أنها حانقة.

فقلت وأنا أضحك ضحكة صغيرة:

- ولكن الفلاح لا يستفيد من خادمة مثلك.

- إذن أعمل عند سادة من علية القوم!

- أيمكن لفتاة لها ما لك من طبع أن تقيم مع سادة من علية القوم؟

- نعم.

كان غضبها يشتد، وكانت أجوبتها تزداد عنفاً.

- ولكنك لن تحتملي ذلك.

- بل أحتمله. سيؤنبونني، فأصمت، وسيضربونني، فأظل صامتة، ومهما يضربوني، فلن أبكي. وسيزداد غضبهم حين لا أبكي.

- ماذا دهاك يا هيلين؟ إنك حادة شديدة الحدة، متكبرة شديدة الكبرياء! لا شك أن ذلك يرجع إلى أنك شقيت كثيراً..

ونهضتُ واقتربت من المنضدة الكبيرة، وظلت هيلين جالسة على الأريكة، مطرقة إلى الأرض، تشدشد الحاشية بأصابعها.

تساءلت بيني وبين نفسي: ترى هل أغضبتها كلماتي؟

وفتحت الكتب التي أخذتها أمس لكتابة المقال، فتحتها على غير شعور، فإذا أنا أستغرق في القراءةِ شيئاً فشيئاً. إن هذا الأمر لَيَنفق لي كثيراً: أفتح كتاباً من الكتب وفي نيتي أن أراجع فيه شيئاً من الأشياء خلال دقيقة واحدة، فإذا أنا أسترسل ناسياً كل شيء.

سألتني هيلين بابتسامة خجلى وهي تقترب من المنضدة:

- ماذا تكتب؟

- أشياء كثيرة يا صغيرتي. إنني أتقاضى على الكتابة أجراً.
- هل تكتب عرائض؟
- لا، لا أكتب عرائض.

وشرحت لها، ما استطعت الشرح، أنني أكتب قصصاً مختلفة عن أناس مختلفين، وأنني أخرج من ذلك بكتب تسمى أقاصيص أو روايات. فأصغت إلى كلامي بكثير من الاهتمام.

- وهل تقول الحقيقة دائما؟
- لا بل أخترع.
- لماذا تكتب أكاذيب.
- خذي هذا الكتاب الذي سبق أن رأيته مرة فاقرئيه، وستفهمين. هل تحسنين القراءة؟
- نعم.
- إذن ستفهمين... هذا الكتاب أنا كتبته.
- أنت؟ إذن سأقرؤه..

لقد كانت في حاجة شديدة إلى أن تقول لي شيئاً ما، ولكن ذلك كان يزعجها إزعاجاً واضحاً، فكانت مضطربة شديدة الاضطراب. كان ثمة شيء يختفي تحت أسئلتها. وسألتني أخيراً:

- هل الأجر الذي يدفع لك أجر كبير؟
- يتوقف ذلك على جودة ما أكتب. فإن جاء ما أكتبه جيداً نلت عليه أجراً كبيراً، وإلا لم أنل شيئاً. إن هذا العمل صعب جداً يا هيلين.
- لست إذن غنياً؟
- لا.
- إذن سأعمل وأساعدك...

قالت ذلك ورشقتني بنظرة سريعة، واحمرت احمراراً شديداً، ثم خفضت عينيها. وما هي إلا لحظة حتى اقتربت مني خطوتين. وأحاطتني بذراعيها فجأة، وشدت وجهها إلى صدري شداً عنيفاً. نظرتُ إليها مشدوهاً. فقالت:

- أنا أحبك... لست متكبرة. قلت لي أمس أنني متكبرة... لا، لا، هذا غير صحيح، أنا أحبك. لم يحببني أحد غيرك.

ولكن الدموع كانت قد خنقت صوتها، فما هي إلا دقيقة، حتى انفجرت في بكاء عنيف، كما وقع لها أمس أثناء تلك النوبة الشديدة. ثم ركعت على ركبتيها، وأخذت تقبِّل يديَّ، وتقبِّل قدميَّ... وهي تسألني:

- هل تحبني؟ هل تحبني؟ أنت الإنسان الوحيد الذي أحبني.. الوحيد..

كانت تشد ركبتي بذراعيها في تشنج. إن عواطفها التي حبستها مدة طويلة تنفجر الآن انفجاراً عنيفاً لا سبيل إلى كبحه، وفهمتُ عندئذ ذلك العناد الكبير في قلبها الذي ظل مغلقاً من الخجل إلى الآن، والذي كانت صلابته في الانغلاق على قدر قوة حاجته إلى الانفتاح، وإلى التعبير عما فيه من عواطف، إلى أن وقع الانفجار الذي لا بد منه حين يستسلم المرء لهذه الحاجة إلى الحب، والامتنان، والملاطفة، والدموع.. استسلاماً ينسى معه نفسه...

وظلت تبكي إلى أن انتهت إلى نوبة هيسترية. ولم أستطع أن أتحلل من ذراعيها اللتين تحيطان بي إلا في كثير من العناء فأنهضتها وحملتها إلى الأريكة. وظلت تبكي مدة طويلة، وقد دفنت رأسها بين الوسائد، كأنها تستحي أن أراها على هذه الحال، ولكنها كانت تشد يدي بيدها شداً قوياً، وتحتفظ بها فوق على صدرها.

وهدأت شيئاً فشيئاً، ولكنها لم ترفع رأسها. واختلست النظر إليَّ مرة أو مرتين، فكان في نظرتها كثير من الرقة، وكان فيها عاطفة وجلة تخفيها من جديد. وأخيراً احمر وجهها وابتسمت. قلت:

- هل تحسنت حالتك، يا صغيرتي الحساسة، يا ابنتي المريضة، يا هيلين؟

فدمدمت تقول وهي تشيح بوجهها عني مرة أخرى:

- يجب أن لا تخاطبني بهذا الاسم؟

- بأي أسم أخاطبك إذن؟

- باسم نللي.

- نللي؟ لماذا نللي بالذات؟ لا مانع عندي من ذلك، فالاسم جميل جداً، وسأناديك به، إن شئت.

- بهذا الاسم كانت تناديني أمي.. ولم يناديني به أحد غيرها أبداً.. كنت لا أريد أن يخاطبني أحد غيرها بهذا الاسم. أما أنت فأريد أن تسميني به.. سأحبك دائماً، دائماً.

قلت في نفسي «يا له من قلب متكبر محب! لكم احتجت إلى وقت حتى اكتسبت حبك... يا نللي».

ولكنني أعرف الآن أنها قد محضتني حبها إلى الأبد.

قلت لها حين هدأت:

- اسمعي يا نللي. لقد قلت منذ برهة أن أمك وحدها كانت تحبك، وأن أحداً غيرها لم يحبك. فهل كان جدك لا يحبك؟

- نعم.

- ولكنك بكيت هنا في السلم حين أبلغتك نبأ موته، هل تتذكرين؟

وظلت واجمة تحلم خلال دقيقة من الزمن.

- لا، لم يكن يحبني.. كان رجلاً شريراً.

قالت ذلك وارتسمت على قسماتها عاطفة أليمة.

- ولكن ما ينبغي أن يُطلب منه ذلك. لقد كان كمن عاد إلى الطفولة. ومات كما يموت مجنون. لقد رويت لك كيف مات؟

- نعم، ولكنه لم يبدأ بنسيان نفسه تماماً إلا في الشهر الأخير، فكان يظل جالساً هنا النهار كله، فإذا لم آتِ إليه ظل كذلك يومين أو ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب. أما قبل ذلك فكانت حالته أحسن كثيراً.

- قبل ذلك؟ كيف؟

- قبل أن تموت أمي.

- إذن كنت أنت تحملين إليه طعامه يا نللي.

- نعم.

- ومن أين كنت تأتينه بالطعام؟ من بيت بوبنوفا؟

- لا، لم أكن آخذ من بوبنوفا شيئاً.

قالت ذلك بلهجة جازمة، ولكن بصوت مرتعش.

- من أين كنت تأتينه إذن بالطعام؟ إنك لا تملكين شيئاً.

فصمتت نللي، وشحب وجهها شحوباً رهيباً، ثم ألقت عليَّ نظرة طويلة.

- كنت أتسول في الشارع، حتى إذا جمعت خمسة كوبيكات، اشتريت له بها خبزاً وشيئاً من نشوق التبغ..

- وكان يقبل ذلك يا نللي؟ يا نللي!..

- في أول الأمر لم أكن أقول له. فلما علم بذلك، أرسلني أتسول من تلقاء نفسه، فكنت أقف على الجسر أطلب الصدقة من المارة، وكان هو يقف إلى جانبي ينتظر، فإذا رأى أنهم أعطوني

شيئاً، هجم عليَّ وأخذه مني، كأنه يظن أنني سأحتفظ به لنفسي، وكأنه يجهل أنني له أتسول.

قالت ذلك وارتسمت على شفتيها ابتسامة مُرّة ساخرة. ثم أردفت تقول:

- كل ذلك كان بعد موت أمي. وكان جدي أيامئذ كالمجنون.

- إذن كان يحب أمك كثيراً، فلماذا كان لا يعيش معها؟

- لا، لم يكن يحبها.. لقد كان شريراً، وكان لا يريد أن يغفر لها.. مثل ذلك العجوز الذي جاءك أمس..

قالت ذلك في رفق، بصوت يشبه أن يكون همساً، وكان لونها يزداد شحوباً.

ارتعشت. إن عقدة رواية برمتها قد التمعت في خيالي: المرأة المسكينة تحتضر في قبو عند صانع توابيت، ابنتها اليتيمة تزور جدّها الذي غضب على أمها، العجوز الغريب يفقد عقله ويموت في مقهى بعد موت كلبه!

وقالت نللي فجأة، وهي تبتسم لذكرى من الذكريات:

- كان آزور في أول الأمر لأمي. كان جدي يحب أمي كثيراً في الماضي، فلما تركته بقي آزور عنده. لذلك كان يحب آزور حباً شديداً.

ثم أضافت بصوت قاس، وقد اختفت الابتسامة من وجهها:

- إنه لم يغفر لأمي، ولكن حين مات آزور، مات هو أيضاً.

وسألتها بعد لحظة من صمت:

- فمن كان جدك هذا، يا نللي؟

- أعرف أنه كان رجلاً غنياً، يملك مصنعاً، فهذا ما قالته لي أمي. كانت أمي في أول الأمر تعدني طفلة صغيرة، فما تفاتحني في

شيء البتة. . كانت تقبّلني وتقول لي: «ستعرفين كل شيء، يا طفلتي المسكينة، يا طفلتي الشقية! كانت تناديني دائماً بالطفلة البائسة الشقية. وفي الليل، حين كانت تظن أنني نمت، (وما كنت أنام بل أتظاهر بالنوم) كانت تبكي، وتقبّلني، قائلة: «أيتها الطفلة البائسة، أيتها الطفلة الشقية!».

- مم ماتت أمك؟

- من السل، منذ ستة أسابيع.

- هل تتذكرين الأيام التي كان جدك فيها غنياً؟

- لم أكن ولدت في ذلك الحين. لقد تركت أمي جدي قبل أن أولد أنا.

- مع من ذهبت أمك؟

- لا أعرف، لقد ذهبت إلى بلاد أجنبية وهناك وُلدت أنا.

قالت ذلك بصوت منخفض، وكأنها تحلم.

- ذهبت إلى بلاد أجنبية؟ إلى أين؟

- إلى سويسرا. لقد طفت كثيراً من البلاد، وذهبت أيضاً إلى إيطاليا وباريز.

- هل تتذكرين هذا كله يا نللي؟

قلت ذلك دهشاً، فأجابت بقولها:

- أتذكر أشياء كثيرة.

- وكيف تجيدين الروسية هذه الإجادة؟

- علمتني أمي اللغة الروسية هناك. كانت أمي روسية، وكانت أمها روسية، أما جدي فكان إنجليزياً، ولكنه أشبه بروسي. فلما عدنا إلى هنا، وأنا وأمي، منذ سنة ونصف سنة، أتقنت الكلام بالروسية. وكانت أمي في ذلك الوقت قد أصيبت بالمرض منذ مدة.

وأصابنا الفقر، وألحَّ علينا، فكان يزداد يوماً بعد يوم. وكانت أمي لا تني تبكي ليل نهار. ظلت في أول الأمر مدة طويلة تبحث عن جدي هنا ببطرسبرغ، وكانت تقول دائماً إنها أساءت إليه، وكانت تبكي.. ما أكثر ما كانت تبكي؟ فلما علمت أن جدي أصبح فقيراً، اشتد بكاؤها، وكانت تكتب إليه في كثير من الأحيان، ولكنه كان لا يرد على رسائلها أبداً.

لماذا رجعت أمك إلى هنا؟ هل كانت رغبتها في البحث عن أبيها هي الدافع الوحيد الذي حملها على العودة؟

ـ لا أدري. كنا هناك على أحسن حال.

قالت ذلك وأخذت عيناها تلتمعان. وأردفت تقول:

- كانت أمي تعيش وحدها معي. وكان لها صديق طيب مثلك، تعرفه من هنا. ولكنه مات. ومن أجل هذا عادت..

- إذن لقد سافرت أمك معه حين تركت جدك.

- بل سافرت مع شخص آخر، ولكن هذا الشخص الآخر قد هجرها...

- من هو ذلك الشخص يا نللي؟

نظرت إليَّ نللي، ولم تجب بشيء. كان واضحاً أنها تعرف الرجل الذي سافرت معه أمها، والذي لعله أبوها. ولكن كان يشق عليها أن تذكر اسمه، ولو لي أنا.

لم أشأ أن أرهقها بأسئلتي. لقد كان طبعها طبعاً غريباً، كان طبعاً عصبياً حاداً، ولكنه يلجم اندفاعاته، وكان طبعاً محبباً إلى القلب، ولكنه مغلق على كبرياء لا تلين. فرغم أنها أحبتني حباً يخرج من أعماق القلب، حباً مضيئاً صافياً لا يضارعه في ضيائه وفي صفائه حب، حباً يكاد يعدل حبها لأمها التي كانت لا تستطيع أن تتحدث

عنها دون أن يحز في نفسها الألم، رغم ذلك ظلت طوال المدة التي ارتبطت خلالها بها، لا تفضي إليَّ بذات نفسها إلا قليلاً، ولا تشعر بالحاجة إلى أن تحدثني عن ماضيها إلا نادراً، فيما عدا ذلك اليوم، حتى لقد كانت تخفي عني ذلك الماضي بنوع من القسوة. إلا أنها، في ذلك اليوم، قد أطلعتني، في ساعات، من خلال الالام والنحيب، على كل ما كان من ذكرياتها يقض مضجعها ويعذبها أكثر من غيره، ولن أنسى قصتها ما حييت. ولكن الأمر الأساسي من هذه القصة سيجيء حينه فيما بعد.

إنها قصة رهيبة: قصة امرأة هجرها صاحبها وما يزال يعيش على أنقاض سعادتها، قصة امرأة مريضة هدها الألم، وانصرف عنها جميع الناس، وأنكرها الإنسان الذي كانت تعقد عليه آخر رجاء، أبوها الذي أساءت إليه في الماضي، وفقد عقله هو الآخر تحت وطأة أنواع العذاب والذل التي لا يمكن أن يحتملها بشر؛ قصة امرأة استبدَّ بها اليأس، فأخذت تطوف في شوارع بطرسبرغ، الباردة القذرة، تطلب الصدقات من الناس، مع ابنتها التي ترى أنها ما تزال طفلة صغيرة؛ قصة امرأة فنيت بعد ذلك خلال شهور في قبو رطب، ورفض أبوها أن يمنَّ عليها بغفرانه إلى آخر لحظة من حياتها؛ حتى إذا ثاب إليه صوابه، فهرع إليها ليغفر لها، لم يجد في مكان ابنته التي أحبها أكثر مما أحب أي شيء في حياته، إلا جثة باردة. إنها قصة غريبة، قصة علاقات عجيبة لا يكاد يفهمها المرء، بين رجل عجوز ارتد إلى الطفولة وبين حفيدة له كانت تفهمه، على صغر سنها، وكان لها من نفاذ الفكر ما لا يصل إليه كثير من الناس خلال حياتهم الهادئة الرخية. إنها قصة مظلمة، قصة من تلك القصص السوداء الأليمة التي كثيراً ما تجرى دون أن يلمحها أحد، كأنها

أسرار خفية، تحت سماء بطرسبرغ الثقيلة، في الزوايا المظلمة المستترة من المدينة الكبيرة وسط اصطخاب الحياة، والأنانية الضارية، والمصالح المتصارعة، والفجور الكالح، والجرائم الخبيئة، في كل هذا الجحيم من الحياة المجنونة الشاذة..

ولكن هذه القصة سيأتي حينها فيما بعد...

الجُزءُ الثّالِث

الفصل الأول

جاء الغسق وتلاه المساء منذ زمن، ولم أتذكر الحاضر إلا حين صحوت من هذا الحلم الثقيل القاتم. قلت لنللي:

ـ نللي، أنت الآن مريضة مهدودة القوى، ومع ذلك لا بد لي من أن أتركك وحيدة، مضطربة، دامعة. عفوك يا بنيتي، واعلمي أن هناك إنساناً آخر نحبه، أبوا أن يغفروا له، فهو شقيّ مُهان مهجور. إنها تنتظرني. وقد بلغت من الاضطراب بعد القصة التي رويتها لي أنني لا أحتمل أن لا أذهب إليها لأراها، فوراً، في هذه اللحظة نفسها...

لا أدري هل فهمت نللي ما قلته لها. لقد كنت مضطرباً أشد الاضطراب، بسبب القصة التي روتها لي، وبسبب النوبة التي أصابتني. ولكنني هرعت إلى ناتاشا، فوصلت إليها متأخراً، في نحو الساعة التاسعة.

وفي الشارع، بالقرب من باب العمارة التي تسكن فيها ناتاشا، لمحت عربة خيّل إليّ أنها عربة الأمير. فما أن صعدت الدرجات الأولى من السلّم حتى سمعت وقع خطوات فوقي، هي خطوات رجل يصعد السلم تلمّساً، في حذر، لأنه لم يألف هذا المكان. فتخيّلت أن هذا الرجل لا بد أن يكون هو الأمير، ولكنني ما لبثت أن اعتقدت أنني على خطأ، فإن هذا الرجل المجهول كان، وهو يتسلق السلم، يهمهم متذمراً ويسب ويلعن في إقذاع ما ينفك يشتد

كلما صعد درجة أخرى. صحيح أن السلم كان ضيقاً قذراً وعراً، ولم يُضأ بنور يوماً. ولكنني لم أستطع أبداً أن أتصور هذه الشتائم صادرة عن الأمير. كان الرجل يجدّف بكلام بذيء ككلام حوذي. وكان في الدور الثالث شيء من النور، هو نور مصباح يضيء أمام باب ناتاشا. وأمام باب ناتاشا إنما أدركت الرجل المجهول، فما أشد ما شُدهت حين رأيت أنه الأمير عينه؟ كان واضحاً أنه قد ساءه كثيراً أن يلقاني هذا اللقاء الذي لم يكن في الحسبان. إنه لم يعرفني في اللحظة الأولى، ولكن وجهه ما لبث أن تبدّل فجأة، فإذا نظرته التي كانت تفيض بالكره والخبث، تصبح نظرة محببة مرحة، دفعة واحدة، وإذا هو يمد إليَّ يده في كثير من الفرح.

ـ ها. . . هذا أنت! لقد كدت أركع على ركبتيّ، وأبتهل إلى الله أن ينقذني. هل سمعتني أسبّ وألعن؟

قال ذلك وانفجر ضاحكاً في دماثة ورقة. ولكن وجهه ما لبث أن اكتسى طابع الجد والغضب، وقال وهو يهز رأسه:

ـ كيف يجيز أليوشا لنفسه أن يُسكن ناتاليا نيقولايفنا في بيت كهذا البيت؟ إن الأمور الصغيرة هي التي تميز المرء، كما يقول المثل. إنني أخشى عليه. إنه طيب كريم القلب. ولكن أنظر: إنه يحب حباً جامحاً، ثم يُسكن تلك التي يحبها في كوخ كهذا الكوخ. بل لقد بلغني أنهما في بعض الأحيان يعوزهما الخبز (قال ذلك بصوت هامس، وهو يتلمس الباب بحثاً عن الجرس). إن رأسي ليدور حين أفكر في مستقبله، وخاصةً في مسقبل آنا نيقولايفنا حين تصبح زوجة. .

أخطأ الأمير في اسم ناتاشا دون أن يفطن إلى ذلك، وكان لا يزال يتلمس الباب باحثاً عن الجرس معكّر المزاج. ولكن لم يكن ثمة

جرس. فحركت قبضة الباب، ففتحت لنا مافرا فوراً، واستقبلتنا وقد لاح عليها الانشغال. ورأيت من خلال باب المطبخ الذي يفصله عن المدخل الضيق حاجز من خشب، رأيت أن ثمة إعداداً وتحضيراً، فكل شيء قد نُظِّف ومُسح أكثر مما ينظف ويمسح عادةً، والمدفأة مشتعلة، وعلى المائدة أطباق جديدة. كان واضحاً أنهم في انتظارنا. وأسرعت مافرا فخلعت معطفينا. سألتُ مافرا:

ـ هل أليوشا هنا؟

فأجابتني مدمدمة، وقد بدا على وجهها معنى غريب:

ـ لم يجئ بعد.

ودخلنا على ناتاشا، فلم نر في غرفتها استعدادات خاصة، بل كان كل شيء هناك على عهدي به. ثم إن غرفتها نظيفة دائمة أنيقة دائماً، فما تحتاج إلى مزيد من ترتيب. وفوجئت بما يلوح على ناتاشا من هزال هو هزال المرض، ومن شحوب في وجهها شديد، رغم أن الحمرة كانت تصعد في بعض اللحظات إلى خديها الذاويين. كانت عيناها محمومتين. ومدت يدها بسرعة إلى الأمير، دون أن تنبس بكلمة. كان واضحاً أنها مضطربة شاردة اللب. حتى إنها لم تلقِ عليَّ نظرة. فظللت واقفاً، وانتظرت في صمت. قال الأمير بلهجة فرحة تشيع فيها روح الصداقة:

ـ ها أناذا أخيراً. إنني لم أعد إلا منذ ساعات. وما غبتِ عن بالي لحظة خلال هذا الوقت كله.

قال ذلك وقبّل يدها في رقة ولطف، وأردف:

ـ ما أكثر ما فكرت فيك، ثم أعدت التفكير.. في ذهني أمور كثيرة يجب أن أقولها لك.. ولكننا سنتحدث على مهل. وقبل كل شيء، أين ذلك الطائش الذي لم يصل بعد، فيما أرى؟

فقاطعته ناتاشا قائلة، وهي تحمر وتضطرب:

ـ هل تسمح أيها الأمير. . يجب أن أقول كلمتين لإيفان بتروفتش. . . تعال يافانيا. . .

وأمسكت بيدي، وقادتني إلى ما وراء الحاجز، فقالت لي هامسة، بعد أن جرتني إلى أبعد ركن مظلم:

ـ فانيا، هل غفرت لي؟

ـ هلاً سكتِّ، يا ناتاشا؟ ماذا دهاك؟

ـ لا، لا، يا فانيا، لقد غفرت لي قبل الآن الكثير من الأمور، وأن للصبر حدوداً. أعرف أنك ستظل تحبني، ولكن ستعدُّني عاقة، فلقد كنت أمس، وأول أمس، قاسية أنانية عاقة. .

وتفجرت دموعها فجأة، وأسندت رأسها إلى كتفي، فأسرعت أقول لها:

ـ كفى يا ناتاشا. لقد كنت مريضاً جداً طوال الليل، وما زلت إلى الآن مهدود القوى لا أكاد أستطيع الوقوف على قدميّ. لذلك لم آتِ إليك لا أمس مساء ولا اليوم، فلا تظني أنني تخلفت عن المجيء غضباً! هل تحسبين، يا صديقتي، أنني أجهل ما تعانينه في هذه الأيام؟

فقالت وهي تبتسم من خلال الدموع، وتشد يدي شداً موجعاً:

ـ طيب، طيب، إذن فقد غفرت لي، هذا يكفيني الآن، وما عداه يجيء حينه. ثمة أشياء كثيرة يجب أن أفضي بها إليك، يا فانيا. أما الآن فلنعد إليه. .

ـ هلمي يا ناتاشا، فلقد تركناه فجأة في غير رفق. .

فدمدمت تقول بسرعة:

ـ سوف ترى ما سيحدث. إنني أعرف الآن كل شيء، لقد

أدركت كل شيء. إن الذنب كله ذنبه هو. ستقرر هذه السهرة كثيراً من الأمور. هيا بنا.

لم أفهم معنى ما قالته ناتاشا، ولكن المجال لا يتسع لطرح الأسئلة. وتقدمت ناتاشا نحو الأمير ثابتة الخطى رصينة الوجه، وكان ما يزال واقفاً، ممسكاً قبعته بيده، فاعتذرت له اعتذاراً مرحاً، وتناولت منه قبعته، وقدمت له بنفسها كرسياً، وجلسنا نحن الثلاثة حول المائدة الصغيرة.

قال الأمير:

ـ بدأت بالكلام عن ابني الطائش. . إنني لم أره إلا دقيقة واحدة، حتى لقد كان لقاؤنا في الشارع، وهو في طريقه إلى الكونتيسة زينائيد فيدوروفنا. كان يستعجل الخطى، وتصوري أنه أبى أن يركب معي، رغم أنني لم أره منذ أربعة أيام. . والذنب ذنبي في أنه ليس الآن بيننا، وفي أننا وصلنا قبله. ذلك أنني انتهزت الفرصة فحملته رسالة إلى الأميرة، لأنني لا أستطيع أن أذهب إليها اليوم بنفسي. ولكنه سيصل بعد لحظة. . .

فسألته ناتاشا، وهي تنظر إليه نظرة ساذجة:

ـ لا شك أنه وعدك بالمجيء هذا المساء؟

فهتف الأمير، وهو يتفرس فيها دهشاً:

ـ كيف تسألين هذا السؤال؟ هل يمكن أن لا يأتي؟ على أنني أفهم الأمر: فأنت غاضبة منه حانقة عليه. لا شك أن وصوله آخر الواصلين شيء معيب. ولكنني أكرر ما قلته منذ لحظة، وهو أن الذنب في ذلك ذنبي. فلا تلوميه. صحيح أنه ضعيف، طائش؛ لست أدافع عنه، إلا أن ثمة ظروفاً خاصة توجب أن لا يهمل في هذه اللحظة منزل الكونتيسة ولا منازل بعض الأصدقاء الآخرين، وتحتم عليه أن يزورها وأن يكثر من زيارتها.

وأغلب الظن أنه أصبح لا يخرج من عندك في هذه الأيام، حتى نسي كل شيء في العالم، فلا تؤاخذيني إذا أنا سلبتك إياه من حين إلى حين، بضع ساعات في أكثر تقدير، ليقضي لي بعض أعمالي. أعتقد أنه لم يذهب إلى الأميرة آ. . منذ ذلك المساء، ويؤسفني أنني لم أسأله عن هذا الأمر حين لقيته منذ قليل.

ألقيت نظرة على ناتاشا، فرأيتها تصغي إلى كلام الأمير، وقد علت شفتيها ابتسامة خفية تشبه أن تكون ابتسامة السخر. ولكن الأمير كان يسوق كلامه صريحاً لا كلفة فيه، حتى ليستحيل على المرء أن يشك في صدق ما يقول.

سألته ناتاشا بصوت ناعم وهادىء كأنها تتحدث عن أمر عادي:

ـ هل تجهلُ حقاً أنه لم يزرني مرة واحدة خلال هذه الأيام كلها؟

ـ ماذا؟ لم يزرك مرة واحدة؟ ماذا تقولين؟

قال الأمير ذلك، وقد بدت عليه أشد آيات الدهشة.

ـ لقد جئتَ إليّ يوم الثلاثاء، في ساعة متأخرة من السهرة. وفي الصباح أتاني فمكث نصف ساعة، ثم لم أره بعد ذلك أبداً.

ـ هذا كلام لا يكاد يصدق!

قال ذلك وقد ازدادت دهشته شدة، ثم أردف:

ـ كنت أظن أنه لا يتركك أبداً. عفوك ومغفرتك. إن هذا لأمر عجيب، لا يصدقه العقل!

ـ هو مع ذلك صحيح. . شيء مؤسف. . . كنت أنتظر مجيئك حتى أعرف منك أين هو!

ـ آه، يا رب!. ولكنه سيصل بعد لحظة. . . أن ما ذكرته لي الآن قد صفعني صفعة أليمة. . . أعترف لك أنني كنت أتوقع منه كل شيء إلا هذا!

ـ هل أدهشك كلامي كل هذه الدهشة؟ كنت أظن أنه لن يفاجئك بل كنت أظن أنك تعرف أن الأمور ستجري هذا المجرى.

ـ أعرف؟ أؤكد لك يا ناتاليا نيقولايفنا أنني لم أره إلا لحظة واحدة هذا اليوم، وأنني لم أسأل عنه أحداً. وإني لأستغرب كيف يبدو عليك أنك تشكين في صدق ما أقول.

قال ذلك وهو يلفنا كلينا بنظره.

قالت ناتاشا:

ـ معاذ الله! إنني مقتنعة كل الاقتناع بأنك تقول الحقيقة.

قالت ذلك وانفجرت ضاحكة أمام أنفه، فقطب ما بين حاجبيه تقطيباً خفيفاً. ثم قال مرتبكاً:

ـ اشرحي ما في نفسك.

ـ ليس هناك ما أشرحه. إنني أتكلم وكفى. وأنت تعرف أنه طائش نساء. والآن وقد ملك حريته كاملة، أرخى لنفسه العنان.

ـ كيف يرخي لنفسه العنان! لا شك أن وراء هذا الأمر ما وراءه، وسأجبره على أن يعلل سلوكه، متى جاء بعد قليل. والشيء الذي يدهشني إلى أبعد حدود الدهشة أنك تكادين تحمّلينني تبعة هذا السلوك، مع أنني كنت غائباً. ثم إنني أرى يا ناتاليا نيقولايفنا أنك حانقة عليه جداً، وهذا أمر أفهمه، فإن لك أن تحنقي عليه، و. . طبعاً. . أنا المذنب الأول لأنني وصلت قبله، أليس كذلك؟

قال الأمير عبارته الأخيرة، وهو يلتفت إليَّ ويبتسم ابتسامة تثير الحنق فاحمرت ناتاشا احمراراً شديداً. وأردف الأمير يقول في وقار:

ـ اسمحي لي يا ناتاليا نيقولايفنا. . . أنا أسلم بأنني أذنبت، ولكن ذنبي الوحيد هو أنني سافرت بعد أن تعارفنا بيوم واحد، فإذا أنت، لما يتصف به طبعك من شك ألاحظه، تغيرين رأيك فيَّ، خاصةً وأن

الظروف ساعدت على ذلك. فلولا أنني سافرت لاستطعت أن تعرفيني معرفة أكمل، ولولا أن أليوشا أفلت من رقابتي أثناء غيابي لما فعل ما فعل. ستسمعين بأذنيك ما سأقوله له.

ـ أي أنك ستعمل ما يجب عمله من أجل أن يشعر بأنني ثقيلة عليه. من المستحيل، وأنت تملك ما تملك من ذكاء، أن تفكر حقاً في مساعدتي بهذه الطريقة.

ـ هل تعنين أنني أريد أن أشعره بأنك عبء عليه؟ إنك لتهينينني يا ناتاشا نيقولايفنا.

ـ إنني أحاول أن أتحاشى التلميح، كائناً من كان محدثي، وأؤثر عليه التصريح، وستقتنع من تلقاء نفسك بذلك، ربما هذا اليوم. لا أريد أن أهينك، وما من سبب يدعوني إلى أن أرغب في ذلك. ثم إنك تشعر من كلامي بإهانة، مهما يكن هذا الكلام. أنا مقتنعة بذلك كل الاقتناع، لأنني أفهم علاقاتنا المتبادلة كل الفهم: إنك لا تستطيع أن تحمل كلامي على محمل الجد، أليس كذلك؟ ولكن إذا كنت قد آذيتك حقاً، فأنا على أتم الاستعداد للاعتذار إليك، حتى أقوم نحوك بكل واجبات.. الضيافة.

لم أر ناتاشا في حياتي كلها تبلغ هذا المبلغ من الغضب، رغم لهجتها اللينة التي تشبه أن تكون لهجة المزاح، ورغم الابتسامة التي كانت ترتسم على شفتيها. عندئذٍ تصورت الآلام التي تجمعت في قلبها خلال هذه الأيام الثلاثة. وأخافتني تلك الكلمات الأحجيات التي قالتها لي منذ لحظة، وهي أنها عرفت كل شيء وأدركت كل شيء. كانت هذه الكلمات إذن تتناول الأمير. لقد غيرت رأيها فيه، وأصبحت تعُدّه عدوها. هذا واضح. أنها تعزو إلى تأثير الأمير في ابنه كل ضروب الإخفاق التي عانتها مع أليوشا، ولعلها تعرف أموراً

تحملها على ذلك. وخشيت أن يقوم بينهما شجار على حين فجأة.

إن لهجة السخرية التي تلتزمها في حديثها واضحة لا تخفى. وكلامها الأخير عن أن الأمير لا يمكن أن ينظر إلى علاقاتهما نظرة الجد، وجملتها عن الاعتذار إليه بحكم واجبات الضيافة، والوعد الذي قطعته على نفسها في صورة وعيد، بأنها ستبرهن له في هذه الليلة نفسها على أنها تتحدث بلا مواربة.. كل هذا كان قارصاً، صريحاً، لا يمكن إلا أن يفهمه الأمير، وقد تغير وجه الأمير، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على نفسه، فسرعان ما تظاهر بأنه لم يلاحظ هذه الكلمات الأخيرة، وبأنه لم يفهم معناها، وتخلص من الموقف بمزاح، فقال وهو يضحك:

ـ معاذ الله أن أسألك الاعتذار! إنني أقلُّ الناس رغبة في أن يُعتذر إليَّ، وليس من مبادئي أن أطلب الاعتذار من امرأة. وقد نبهتك إلى طبعي منذ لقائنا الأول، لذلك أظن أنك لن تغضبي إذاً أنا أبديت هذه الملاحظة، خاصةً وأنها تتصل بجميع النساء. ولعلك ستسلم لي بصدق هذه الملاحظة (قال ذلك متجهاً إليَّ): لقد لاحظت في طبع النساء صفة عامة تميزهن، هي أن المرأة حين تخطىء، تؤثر أن تمحو خطأها بالمداراة والتدليل فيما بعد، على أن تعترف حالاً وأن تعتذر عنه، رغم أنها تكون مقتنعة كل الاقتناع بأنها أخطأت. لذلك، إذا سلمنا بأنك أهنتني الآن، فأنا أرفض أن تعتذري إليَّ، وأؤثر أن أنتفع بهذا فيما بعد، حين تدركين خطأك من تلقاء نفسك، فتحاولين أن تزيلي هذا الخطأ وأن تكفّري عنه.. بالمداراة والتدليل. ثم إنك من نبل النفس وطهارة القلب ونضارة الروح وانطلاق السجية بحيث إن الدقيقة التي ستندمين فيها على خطئك ستكون رائعة حقاً... فلا حاجة إلى الاعتذار الآن، بل قولي لي: كيف أستطيع أن أبرهن لك

اليوم على أنني أصدق كثيراً مما تظنين، وعلى أنني أصرَحُ في أعمالي مما يتبادر إلى ذهنك.

احمرّت ناتاشا. وبدا لي أن في جواب الأمير شيئاً من الاستخفاف، نوعاً من الدعابة الوقحة. سألته ناتاشا وهي تنظر إليه نظرة تحدٍّ:

ـ أتريد أن تبرهن لي الليلة على أنك مستقيم صادق؟

ـ نعم.

ـ إذن عدني بتحقيق ما سأطلبه منك.

ـ أعدك بذلك.

ـ لا تُقلق أليوشا، لا اليوم ولا غداً، لا بكلمة عني ولا بإشارة إليّ. لا تظهر له شيئاً من اللوم على أنه نسيني. أريد أن أستقبله استقبالاً لا يُشعره بأن شيئاً قد وقع بيننا، حتى لا يلاحظ شيئاً. إنني في حاجة إلى هذا. هل تعدني؟

ـ بكل سرور. واسمحي لي أن أضيف إلى ذلك اعترافي الصادق بأنني لم ألق، إلا نادراً، آراء عاقلة واضحة في شؤون من هذا النوع، كآرائك. هذا أليوشا قد وصل، يُخيَّل إليّ.

وسمعنا، حقاً، أصواتاً في حجرة المدخل. فارتعشت ناتاشا، وبدا كأنها تتهيأ لأمر من الأمور، كان الأمير يظهر بمظهر الجد، وينتظر ما سيقع: كانت عيناه لا تفارقان ناتاشا. وفُتح الباب، ودخل أليوشا كهبوب ريح.

الفصل الثاني

دخل أليوشا مشرق الوجه، مرحاً فرحاً. كان واضحاً أنه رائق المزاج، وأنه قضى هذه الأيام الأربعة في متعة جميلة. وكان كمن كتب على وجهه أن ثمة نبأ يريد أن يطلعنا عليه.

صرخ بصوت قوي:

ـ هأنذا وصلت، أنا الذي كان ينبغي أكون أوّل الواصلين. ولكنكم ستعرفون كل شيء، كل شيء. لم يتسع الوقت منذ لحظة، يا أبي، لأن نتبادل كلمتين، وكان هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك (قال ذلك ثم قاطع نفسه متجهاً إليّ): هو الذي يسمح لي في لحظاته الرائعة بأن أخاطبه بصيغة المفرد. وأؤكد لك أنه في لحظات أخرى يمنعني من ذلك، وهذه خطته: يأخذ يخاطبني بصيغة الجمع. ولكنني أريد بعد اليوم ألاّ يكون ثمة إلا لحظات رائعة، وسأعمل ما يجب عمله لأوفر له ذلك. لقد تبدلت كثيراً خلال هذه الأيام الأربعة، تبدلت تبدلاً تاماً، وسأقص عليكم كل شيء. ها هي ذي من جديد! ناتاشا! ثروتي! سلاماً يا ملاكي!

قال ذلك وهو يجلس إلى جانبها، وتابع كلامه يقول:

ـ لشد ما اشتقت إليك خلال هذه الأيام! ولكن ما حيلتي! لم أستطع، لم أستطع أن أفعل خيراً مما فعلت. عزيزتي ناتاشا، كأنك قد نحلت، فأنتِ شاحبةٌ ممتقعة اللون..

وأخذ، وهو في غمرة الحماسة، يغرق يديها بالقبلات، ويلتهمها

بنظراته التهاماً، كأنه لا يشبع من النظر إليها. وألقيت نظرة على ناتاشا، فأدركت من وجهها أننا نفكر تفكيراً واحداً، هو أنه بريء كل البراءة. أي ذنب يمكن أن يقترفه هذا البريء، ومتى يمكن أن يقترف ذنباً! ونظرت مرة أخرى إلى ناتاشا، فرأيت حمرة قانية تزدحم في خديها الشاحبين، كأن كل الدم الذي تجمع في قلبها صعد دفعة واحدة إلى رأسها. وأخذت عيناها تلتمعان، ورأيتها تنظر إلى الأمير في كبرياء. سألت أليوشا بصوت حبيس متقطع:

ـ فأين.. كنت.. إذن.. خلال هذه الأيام؟

كان تنفسها بطيئاً متقطعاً. لشد ما تحبه! يا رب!

ـ قد يُخيّل إلى المرء أنني أذنبت، ولكن هذا ظاهر الأمر لا باطنه. صحيح أنني مذنب، أعرف ذلك، لقد قالت لي كاتيا أمس واليوم: إن المرأة لا يمكن أن تغتفر مثل هذا الإهمال (إنها تعرف كل ما حدث هنا يوم الثلاثاء، قصصته عليها غداة ذلك اليوم). لقد تحدثت معها، وذكرت لها أن هذه المرأة اسمها ناتاشا، وأن ليس في العالم كله إلا امرأة واحدة تشبهها هي: كاتيا. لقد وصلت إلى هنا وأنا أعرف أنني غير منهزم في المشاجرة. هل يمكن لملاك مثلك ألاَّ يعفو ويصفح؟ «إذا لم يجئ فلا بد أن شيئاً من الأشياء قد حال دون مجيئه، وليس معنى غيابه أنه أصبح لا يحبني» هذا ما لا بد أن تقوله ناتاشا لنفسها. وكيف يمكن أن أنسى حبك؟ هل هذا ممكن؟ لقد كان قلبي يحترق شوقاً إليك. ولكنني مع ذلك مذنب! وحين تطلعين على كل شيء، ستكونين أول من يبرئني ويغفر لي. سأقص عليكم كل شيء، حالاً. إنني في حاجة إلى أن أفضي بما في قلبي إليكم جميعاً. ولهذا جئت. لقد أردت اليوم (حين أتيح لي نصف دقيقة من حرية) أن أطير إليك، لأقبّلك، ولكنني لم أستطع: فقد بعثت إليّ

كاتيا ترجوني أن أذهب إليها لأمر هام. كان ذلك قبل أن أراك يا أبي. وحين رأيتك كنت ذاهباً إليها بدعوة ثانية. هناك سُعاة يحملون الرسائل بيننا طوال اليوم. إيفان بتروفتش، لم أقرأ كلمتك إلا أمس مساء، وأنت على حق تماماً، ولكن ما حيلتي؟ كان هنالك استحالة مادية! لذلك قلت: غداً مساء، أبرىء نفسي أمامهم جميعاً. ذلك أنه كان يستحيل ألاّ أجيء إليك هذا المساء يا ناتاشا.

ـ أية كلمة عنيت؟

ـ لقد جاء إليّ، فلم يجدني طبعاً، فترك لي رسالة يقرِّعني فيها تقريعاً شديداً على أنني لا آتي إليك. وهو على حق تماماً. كان ذلك أمس.

فنظرت إليّ ناتاشا. وقال الأمير:

ـ ولكن إذاً اتسع وقتك للبقاء من الصباح إلى المساء عند كاترين فيدوروفنا..

فقاطعه أليوشا يقول:

ـ أعرف ما ستقوله: «إذا استطعت أن تذهب إلى كاتيا، فقد كان أَوْلى بك أن تجيء إلى هنا». إنني أوافق كل الموافقة على ما تقول، بل أضيف إليه أن مجيئي إلى هنا أَولى كثيراً، كثيراً جداً. ولكن، أولاً، في الحياة أحداث لا يتوقعها المرء، أحداث غريبة تشوش الأمور، وتقلب كل شيء رأساً على عقب. وقد طرأت عليّ أحداث من هذا النوع. وأقول لكم: إنني تغيرت كل التغيير خلال هذه الأيام التي انقضت، تغيرت حتى الأظافر: ذلك أن أحداثاً خطيرةً قد وقعت.

فهتفت ناتاشا وهي تبتسم لحماسة أليوشا قائلة:

ـ فما الذي وقع إذن؟ لا تشوِّقنا كثيراً، أرجوك!

الحق أن أليوشا كان يثير الضحك: كان يسرع في كلامه، كانت الكلمات تنطلق من فمه سريعة، متعجلة، بلا ترتيب، كأنها صراخ لا معنى له. كان يحترق شوقاً إلى الكلام، إلى أن يقول شيئاً ما. وكان، وهو يتحدث، يمسك بيد ناتاشا، ويرفعها إلى شفتيه في كل لحظة، كأنه لا يتعب من تقبيلها. واستأنف أليوشا يقول:

ـ إليكم ما حدث. آه يا أصدقائي! يا لروعة ما رأيت وما عملت ومن لقيت من ناس!.. أولاً يا ناتاشا، يجب أن أقول: إنها الكمال نفسه. كنت حتى ذلك الحين لا أعرفها، لا أعرفها أبداً. في يوم الثلاثاء، حين حدثتك عنها، كان في حديثي كثير من الحماسة، كما تتذكرين، ومع ذلك كنت يومئذ لا أكاد أعرفها. لقد اختبأت عني حتى هذه الأيام الأخيرة. أما الآن فنحن متعارفان أتم التعارف، حتى إننا نتخاطب بصيغة المفرد. ولكن يجب أن أبدأ من البداية: ليتك سمعت ما قالته عنك، حين حكيت لها، يوم الأربعاء، ما جرى بيننا!.. وبالمناسبة، إنني أتذكر الآن كيف كنت غبياً أحمق حين وصلت إليك في صباح يوم الأربعاء! لقد استقبلتني أنت في كثير من الحرارة باعتبار الوضع الجديد الذي صرنا إليه.. أردت أن تتحدثي معي عن هذه الأمور كلها.. وحزنت، ولكنك ظللت تمازحينني.. أما أنا فقد مثّلت دور الرجل الرصين! ما كان أشد غباوتي، ما كان أشد غباوتي! أقسم لك أنني أردت أن أصطنع دور الرجل الذي سيتزوج عما قريب، دور الجد والرزانة. وأمام من أصْطَنع هذا الدور؟ أمامك أنت! آه.. لا بد أنك سخرت مني كثيراً، وإني لأستحق ذلك.

كان الأمير ملتزماً الصمت، وكان ينظر إلى أليوشا، ويبتسم ابتسامة الظفر والسُّخرية.. كأنما يسره أن يظهر ابنه بمظهر فتى

سخيف طائش يبعث على الهزء والضحك. لقد راقبته طوال ذلك المساء، وأنعمت النظر إليه، فاقتنعت بأنه لا يحب ابنه، رغم ما يدعيه من أنه يحبه حباً حاراً عنيفاً.

وتابع أليوشا كلامه يقول:

ـ حين تركتك، ذهبت إلى كاتيا، ذكرت منذ هنيهة أننا في ذلك الصباح إنما عرف كل منا صاحبه معرفة تامة، وقد حددت ذلك على نحو غريب.. لا أتذكر الآن كيف حدث.. ولكن ما هي إلا بضع كلمات حارة، وما هو إلا التعبير الصادق عن بعض الآراء وبعض العواطف، فإذا نحن نتّحد إلى الأبد. يجب أنت تعرفيها يا ناتاشا، يجب أن تعرفيها. ما أكثر ما تحدثتْ عنك، ما أكثر ما شرحت وضعك: لقد أفهمتني أي كنز أنت لي! وشيئاً فشيئاً أوضحت لي جميع أفكارها، على طريقتها في فهم الحياة. إن نفسها تفيض جداً وحماسة! حدثتني عن واجبنا، عن رسالتنا، عما يجب أن نقدمه للإنسانية من خدمات. وما هي إلا خمس ساعات أو ست ساعات من الحديث، إذا نحن نجد أنفسنا على اتفاق تام في جميع الآراء، فتعاهدنا على أن نظل صديقين إلى الأبد وأن نتعاون في عمل واحد طوال الحياة.

فسأله الأمير دهشاً:

ـ وما هو هذا العمل؟

ـ لقد تغيرت كثيراً، يا أبتاه، ولا بد أن يدهشك مني كل شيء بعد الآن، بل إنني لأتنبأ باعتراضاتك.

قال أليوشا ذلك بلهجة رصينة، ثم أردف:

ـ إنكم جميعاً أناس عمليون، لكم قواعدكم الصارمة، القاسية، المجربة، وتنظرون نظرة الشك والعداوة والسخرية إلى ما هو فتيّ جديد.

ولكنني لست الآن ذلك الشباب الذي كنت تعرفه منذ بضعة أيام. أنا الآن شخص آخر. أنا الآن أنظر إلى جميع الأشياء وإلى جميع الناس في هذا العالم نظرة جريئة. إذا عرفتُ أن قناعتي صادقة، تابعتها إلى آخر نتائجها؛ وإذا لم أضلَّ أثناء الطريق كنت رجلاً شريفاً.. ولكن حسبي كلاماً عن نفسي.. لك أن تقول ما تشاء بعد ذلك، غير أنني واثق من نفسي.

قال الأمير بلهجة ساخرة:

ـ عظيم، عظيم!

كانت ناتاشا تنظر إلينا قلقة، كانت خائفة على أليوشا، كانت تعرف أنه كثيراً ما يسترسل في الحديث استرسالاً يعود عليه بالضرر. كانت تخشى أن يظهر أمامنا، وخاصةً أمام أبيه، بمظهر شخص مضحك يثير الاستهزاء به. فقالت:

ـ ماذا تقول يا أليوشا؟ هذه فلسفة! هل أدخلوك تحت لواء عقيدة جديدة؟ الأَوْلى بك الآن أن تروي لنا ما حدث لك.

فهتف أليوشا قائلاً:

ـ هذا ما أفعله! اسمعي يا ناتاشا. إن لكاتيا قريبين هما ليون وبوريس، أحدهما طالب، والثاني شاب فحسب، وكاتيا على صلة بهما، وهما شابان من طراز فذ! إنهما لا يكادان يذهبان إلى الكونتيسة، وذلك عن عقيدة ومبدأ. وحين تحدثنا أنا وكاتيا عن رسالة الإنسان وعن واجباته، عن هذه الأمور كلها، كلمتني عنهما، وحملتني رسالة إليهما، فمضيت فوراً إلى لقائهما، فإذا نحن نتفاهم تفاهماً كاملاً منذ ذلك المساء نفسه، كان هناك اثنا عشر شخصاً من أنواع شتى: طلاب، ضباط، فنانون، وكان هناك كاتب أيضاً. وهم يعرفونكَ، جميعاً، يا إيفان بتروفتش، أعني أنهم قرأوا كتبك، وهم

ينتظرون منك أشياء كثيرة في المستقبل. قالوا لي ذلك هم أنفسهم. وذكرت لهم أنني أعرفك، ووعدتهم بأن أقدمك إليهم، ليتم التعارف بينك وبينهم. وقد استقبلوني جميعاً كما يستقبلون أخاً، استقبلوني بكثير من الحرارة. ذكرت لهم أنني على وشك الزواج، فعاملوني كما يُعامَل رجل متزوج. إنهم يسكنون في الدور الخامس، تحت السقف ويعقدون اجتماعات كثيرة، ويؤثرون أن يعقدوا هذه الاجتماعات يوم الأربعاء في منزل ليون وبوريس. إنهم شباب يفيضون نضارة، ويحبون الإنسانية حباً حاراً، وقد دار حديثنا حول الحاضر، والمستقبل، والعلوم، والأدب، وكان حديثاً جميلاً يمتاز بكثير من الصراحة، والبساطة. وهناك أيضاً طالب من طلاب المدارس الثانوية يشترك في الاجتماعات. ما أعمق هذه الصلة التي تجمعهم! ما أنبل قلوبهم! لم أر في حياتي أناساً كهؤلاء! من هم أولئك الذين كنت أتردد إليهم حتى الآن؟ ماذا رأيت؟ ما هو الغذاء الذي اغتذيت به؟ أنت وحدك يا ناتاشا كنت تديرين معي أحاديث من هذا النوع. آه يا ناتاشا! يجب حتماً أن تري هؤلاء الشباب. إن كاتيا تعرفهم، وهم يتحدثون عنها باحترام يكاد يبلغ حد التقديس، وقد قالت كاتيا لقريبيها ليون وبوريس إنها حين ستملك حق التصرف في ثروتها ستبادر فوراً إلى وقف مليونٍ منها على المصلحة العامة.

فسأله الأمير قائلاً:

ـ لا شك أن ليون وبوريس، وجماعتهما كلها، هم الذين سيتصرفون في هذا المليون.

ـ لا، لا، عيب، يا أبت، عيب أن نقول هذا الكلام. إنني أدرك ما تفكر فيه. لقد تحدثنا فعلاً في أمر هذا المليون، وتناقشنا طويلاً في وجوه إنفاقه. وقررنا أخيراً أن ننفقه قبل كل شيء على التعليم. .

قال الأمير، كمن يتحدث وحيداً وهو ما يزال يبتسم ابتسامته الساخرة:

ـ صحيح، صحيح. لم أكن أعرف كاترين فيدوروفنا إلى الآن. كنت أتوقع منها أشياء كثيرة، أما هذا..

فقاطعه أليوشا قائلاً:

ـ ما الذي يبدو لك غريباً كل هذه الغرابة؟ أأنها تبتعد قليلاً عن مبادئك؟ إن أحداً لم يضحِّ حتى الآن بمليون، وأنها تفعل ذلك؟ هذا ما يدهشك، أليس كذلك؟ أنها لا تحب أن تعيش على حساب الآخرين؟ أليست المعيشة من هذه الملايين معيشة على حساب الآخرين؟ لقد عرفت الآن هذه الحقيقة. إنها تريد أن تنفع وطنها وأن تنفع الناس وأن تعطي قرشها للمصلحة العامة. لقد حدثونا عن عطاء القرش في دفاتر الخط، فهل إذا كان القرش مليوناً انقلب العطاء شراً؟ وعلى أي أساس تستند تلك الحجة التي كنت أعتقد بها اعتقاداً جازماً؟ لماذا تنظر إليّ هكذا يا أبي فكأن أمامك مهرّجاً أو إنساناً أبله؟ ولماذا لا أكون أبلهاً؟ ليتك يا ناتاشا سمعت كاتيا تقول في هذا الموضوع: «ليس الذكاء هو الشيء الهام بل ما يوجه الذكاء، أي الطبع، القلب، النبل، التقدم». على أن ما هو أروع من كل ذلك ما عبَّر عنه بزميجين. إنه صديق ليون وبوريس، ولا أكتمكم أنه دماغ جبار، أنه عبقري من العباقرة. لقد قال: «يكفي أن يشعر الأبله أنه أبله حتى لا يكون أبله» ما أصدق هذا الكلام! إنه في كل لحظة يقول عبارات من هذا النوع. إنه يبذر الحقائق بذراً.

فقال الأمير:

ـ عبقري حقاً.

ـ أنت ما تزال تسخر. الحق أنني لم أسمعك يوماً تقول كلاماً

كهذا الكلام، لا أنت ولا أي شخص من بيئتنا. أنتم في مجتمعكم تفعلون عكس ذلك، تخفون دائماً كل شيء وتبخسون دائماً كل شيء، وتريدون أن يتطور كل شيء اتفاقاً وعرضاً. كأن ذلك ليس أقرب إلى الاستحالة ألف مرة مما نقوله نحن ونفكر فيه! ثم تنعتوننا بأننا خياليون! ليتك سمعت ما قالوه لي بالأمس.

قالت ناتاشا:

ـ ولكن ماذا تقولون وفيم تفكرون؟ حدثنا عن هذا أليوشا. فإنني لم أفهم منك تماماً بعد.

ـ نحن نتكلم، عامة، عن كل ما يقود إلى التقدم ويؤدي إلى المحبة. نتناقش في هذا كله بصدد بعض مشكلات الساعة. نتحدث عن الدعاية، عن الإصلاحات، عن حب الإنسانية، عن الرجال العاملين في عصرنا هذا، نحللهم ونقرأ ما يكتبونه ولكننا قد تعاهدنا، خاصة، على أن يصدق بعضنا بعضاً، وعلى أن نتصارح في كل ما يتصل بنا، دون تردد أو وجل. فالصدق والصراحة هما ما يمكن أن يوصلنا إلى هدفنا. ويحرص بزميجين على هذا حرصاً خاصاً. وقد تحدثت إلى كاتيا عنه، فرأيت أنها تضمر له مودة كبيرة. لذلك تعاهدنا جميعاً، بإشراف بزميجين، على أن نعمل باستقامة وشرف طوال حياتنا كلها، وعلى ألاّ يصرفنا عن هدفنا شيء مهما يقل عنا الناس، ومهما يروا فينا من رأي، وعلى ألاّ نستحي مما نطمح إلى تحقيقه، ومما يتأجج في قلوبنا من حماسة ومما قد نقع فيه من أخطاء، وإنما نتابع طريقنا قُدُماً. إذا أردت أن تُحترم، فاحترم نفسك أولاً، هذا هو الشيء الأساسي. إنك لا تستطيع أن تحمل الناس على احترامك إلا إذا احترمت نفسك. ذلك ما قاله بزميجين. وكاتيا توافقه على هذا الرأي كل الموافقة. وعلى كل حال، فقد رسخت

عقيدتنا الآن، وقد عزمنا على أن يُغنى كل منا بتثقيف نفسه، وعلى أن ينتفع كل منا بثقافة الآخر.

صرخ الأمير في قلق:

ـ ما هذا الهذر السخيف! ومن هو بزميجين هذا؟ لا، لا، يستحيل أن ندع الأمور تجري على هذا النحو..

فأجاب أليوشا:

ـ أي أمور يستحيل أن تدعوها تجري على هذا النحو؟ اسمع يا أبي، هل تعرف لماذا تحدثت عن هذا كله أمامك؟ لأنني أريد وآمل أن أدخلك أنت أيضاً في حلقتنا. لقد تعهدت لهم بك. أتضحك؟ لا بأس. كنت أقدِّر أنك ستضحك! ولكن استمع إليَّ حتى النهاية. أنت رجل طيب القلب نبيل النفس: وستفهم! أنك لا تعرف هؤلاء الناس، لم ترهم يوماً، ولا سمعت حديثهم. لنسلم بأنك سمعت عن هذا كله، وأنك درست هذا كله. ذلك أنك على جانب عظيم من الثقافة، ولكنك لم ترهم هم أنفسهم، لم تجتمع بهم. فكيف تستطيع أن ترى فيهم رأياً عادلاً؟ أنت تتخيل تخيلاً أنك تعرفهم. ولكن لا؛ تعال إليهم، واسمع كلامهم، وأنا كفيل بأنك عندئذٍ، ستنضم إلينا، ستكون واحداً منا! وسأستعمل، خاصةً، جميع الوسائل لأنتزعك من ذلك المجتمع الذي تحرص عليه كل الحرص، وترتبط به كل الارتباط، ولأحررك من اعتقاداتك.

أصغى الأمير إلى هذا الكلام الأخير حتى النهاية، دون أن ينبس بحرف. وكانت تعلو شفتيه ابتسامة مسمومة. كان الشر يُقرأ في وجهه، وكانت ناتاشا تنظر إليه باشمئزاز لا تحاول أن تخفيه، وكان ينظر هو إليها، ولكنه يتظاهر بأنه لا يلمح هذا الاشمئزاز. حتى إذا أنهى أليوشا كلامه، انفجر الأمير ضاحكاً يقهقه، بل انقلب إلى وراء

وأسند ظهره إلى ظهر المقعد، كأنه أصبح من فرط الضحك لا يقوى على الجلوس. ولكن كان واضحاً أنه يُكره نفسه على الضحك إكراهاً، وكان جلياً أنه لا يضحك إلا ليهين ابنه وليذله. وقد جرح أليوشا من ذلك حقاً، فكان وجهه يعبِّر عن حزن شديد، ولكنه لم يفعل شيئاً، بل انتظر أباه إلى أن انتهى من قهقهته، فاستأنف عندئذٍ يقول في شجن:

ـ لماذا تسخر مني يا أبتِ! لقد جئت إليك صريحاً، لا ألفّ ولا أدور. فإذا كنت ترى أن كلامي سخيف، فبرهن لي على ذلك، بدلاً من أن تضحك مني. ومم أنت تسخر؟ مما أراه الآن شيئاً نبيلاً مقدساً؟ قد أكون على ضلال، قد يكون كل ما قلته خطأ، قد أكون غبياً كما وصفتني بذلك غيرَ مرة، ولكنني إن ضللت سواء السبيل، فإنما أَضِلّ عن صدق وإخلاص. إنني ما فقدت نبلي، وإنني أتحمس لأفكار سامية. فإذا كانت هذه الأفكار خاطئة، فالأساس الذي تقوم عليه أساس مقدس. قلت لك: إنك لم تُسمعني في يوم من الأيام كلاماً يوجهني ويقودني، لا أنت ولا ذووك. فأبطل حججي إذا شئت وائتني بخير منها أتبعك، ولكن لا تسخر مني، لأن هذا يؤلمني أشد الإيلام.

قال أليوشا ذلك بكثير من النبل والكرامة والوقار. وكان ناتاشا تنظر إليه نظرة حب، وكان الأمير يصغي إلى ابنه دهشاً، ثم لم يلبث أن غير لهجته، فقال:

ـ لم أشأ يا صديقي أن أجرحك، وإنما أنا أشفق عليك. إنك على أبواب خطوة خطيرة في حياة الإنسان، فما ينبغي أن تظل طفلاً طائشاً. هذا ما فكرت فيه. ولئن ضحكت فقد ضحكت على غير إرادة مني، ولم يكن في نيتي أن أهينك أبداً.

فأجاب أليوشا بلهجة مرة:

ـ فلماذا تصورت أنا ذلك إذن؟ لماذا أشعر منذ مدة طويلة بأنك تراقبني كمن يراقب عدواً، وتسخر مني، ولا تنظر إليَّ نظرة أب إلى ابنه؟ لماذا أتخيل أنني لو كنت في مكانك لما ضحكت من ابني هذا الضحك المهين؟ اسمع يا أبي: يجب أن نتصارح حالاً، مرةً واحدة، حتى لا يبقى هنالك شيء من سوء التفاهم و... سأقول الحقيقة كلها: حين دخلت عليكم لاحظت أن ثمة غمغمة هنا أيضاً. لم أكن أتوقع أن أجدكم على هذه الحال معاً. فإذا صدق ظني، ألاً يكون من الخير أن يعبِّر كل منا عن عواطفه؟ ما أكثر الشرور التي يمكن أن نتفاداها بالصراحة!

قال الأمير:

ـ تكلم يا أليوشا، تكلم. إن ما تقترحه علينا يتصف بكثير من الحكمة والذكاء.

ثم التفت إلى ناتاشا وتابع يقول:

ـ ربما كان ينبغي لنا أن نبدأ من هنا.

قال أليوشا:

ـ فلا تلمني إذن إذا كنت صريحاً كل الصراحة. أنت ترغب في هذه الصراحة وأنت تحضني عليها. اسمع. لقد وافقت على زواجي بناتاشا، لقد منحتنا هذه السعادة، ولا شك أنك قسوت على نفسك من أجل ذلك. كنت شهماً، وقد قدَّرنا لك جميعاً هذا العمل النبيل. ولكن لماذا تحاول إذن أن تشعرني في كل لحظة بأنني ما زلت طفلاً سخيفاً مضحكاً، وبأنني لا أقدر أن أكون زوجاً؟ لماذا تحاول ذلك وتشعر منه بنوع من الفرح؟ لماذا تريد أن تجعلني أضحوكة وأن تذلني وأن تبهدلني حتى في نظر ناتاشا؟ إنك تحس بكثير من السرور

حين تظهرني بمظهر الإنسان السخيف المضحك. لاحظت ذلك قبل اليوم. لكأنك تحاول أن تبرهن لنا على أن زواجنا خطأ ومستحيل، وعلى أن أحدنا لا يناسب الآخر. لكأنك، حقاً، لا تؤمن بما تهيئنا له. لكأنك تعد الأمر كله مهزلة، تمثيلية مضحكة، مسرحية مسلّية.. لا أستنتج ذلك من الكلام الذي قلته الآن فحسب، ففي يوم الثلاثاء، حين عدت معك، سمعت منك تعابير خاصة، فاجأتني وجرحتني. وفي يوم الأربعاء، حين سافرت، أشرت أيضاً إلى وضعنا الراهن وإلى ناتاشا بكلام لا أقول إنه يشتمل على إهانة، بل أقول إنني كنت أنتظر أن أسمع منك غيره.. كان كلامك خفيفاً مسرفاً في الخفة، كان لا يحتوي على شيء من العاطفة، ولا يعبِّر عن شيء من الاحترام. يصعب عليَّ أن أشرح لك ذلك، ولكن اللهجة كانت واضحة: إن المرء يحس هذه الأمور بقلبه. قل لي: إنني على خطأ، طمئني، و.. طمئنها هي أيضاً، لأنك جرحتها. لقد أدركت ذلك منذ دخلت عليكم..

كان أليوشا يتحدث بحرارة وحزم، وكانت ناتاشا تصغي إلى كلامه في إجلال. كانت منفعلة أشد الانفعال، وكان وجهها يحترق احتراقاً، ودمدمت بينها وبين نفسها مرتين أو ثلاث مرات أثناء حديث أليوشا قائلة: «نعم، نعم صحيح». وكان الأمير مضطرباً فأجاب:

ـ يا صديقي، لا أستطيع طبعاً أن أتذكر كل ما قلته لك. ولكن من الغريب أن تحمل كلامي على هذا المعنى. إنني مستعد لأن أفعل كل ما في وسعي لتصحيح الخطأ. لئن ضحكت منذ لحظة، لقد كان سبب هذا الضحك واضحاً. إنما أردت بهذا الضحك أن أخفي ما في قلبي من مرارة. أصبحت أشعر الآن، حين أتخيل أنك على وشك الزواج، أن هذا الزواج مستحيل، سخيف، بل أحمق، اغفر

لي هذا الكلام. لقد لمتني على ضحكي، فاعلم إذن أن هذا كله كان بسببك، وإني لأعترف بأنني مسؤول أيضاً، فلعلني لم أحسن مراقبتك في الآونة الأخيرة. إنني لم أدرك ما أنت قادر عليه إلا في هذا المساء. إنني لأرتعش الآن خوفاً حين أفكر في مستقبلك مع ناتاليا نيقولايفنا. لقد تعجلت. إني أدرك في هذه اللحظة أنكما لا يناسب أحدكما الآخر. إن الحب ينقضي، ويبقى الاختلاف. لست أتحدث عن مصيرك أنت، ولكني أسألك أن تتصور (إذا كانت نواياك شريفة) أنك لا تضيِّع نفسك فحسب، بل تضيِّع معك ناتاليا نيقولايفنا، ولا يكون يومئذٍ سبيل إلى إصلاح ما فسد. لقد تحدثت إلينا الآن، خلال ساعة برمتها، عن حب الإنسانية، ونبل العقائد، وعن أولئك الناس الرائعين الذي انعقدت بينك وبينهم أسباب التعارف. فاسأل إيفان بتروفتش عما قلته له منذ قليل، حين بلغنا الدور الرابع، على هذا السلم القذر، فتوقفنا عند الباب نحمد الله على أننا لم تُدق أعناقنا ولا انقطعت أرجلنا. هل تعرف ما الذي خطر ببالي عندئذٍ على غير إرادة مني؟ لقد تساءلت دهشاً: كيف تُطيق أنت الذي تحب ناتاليا نيقولايفنا كل هذا الحب، أن تسكنها في بيت كهذا البيت؟ كيف لم تشعر، ما دمت لا تملك الوسائل اللازمة للقيام بواجباتك، بأنك لا تستحق أن تتزوج، وبأنك لا تستحق أن تتحمل أي تبعة؟ الحب يا بني لا يكفي: يجب أن تبرهن على الحب بأعمال. وحين تقول لها بينك وبين نفسك: «عيشي معي، ولو كان عليك أن تتعذبي» لا يكون إنسانياً، ولا تكون على شيء من النبل. لست أفهم كيف تتحدث عن حب البشر، وكيف تتحمس لقضايا إنسانية، ثم تقترف جرائم في حق الحب! لا تقاطعيني، يا ناتاليا نيقولايفنا، دعيني أكمل كلامي. إن هذا الأمر ليؤلمني كثيراً، ويجب أن أفرغ كل ما في صدري. قلت لنا يا

أليوشا أنك في هذه الأيام الأخيرة قد أدركت كل ما هو نبيل وجميل وشريف، وأنت تنعى على بيئتنا أنها لا تعرف مثل هذه الحماسة، ولا تعرف إلا صقيع العقل البارد. فانظر قليلاً: كيف تحب ما هو عظيم وجميل، ثم تهمل، خلال أربعة أيام، بعد الذي جرى هنا يوم الثلاثاء، تلك التي ينبغي أن تكون أعزَّ عليك من كل شيء في هذا العالم؟ لقد اعترفت أنت نفسك بأنك تشاجرت مع كاترين فيدروفنا حين ذكرت لها أن ناتاليا نيقولايفنا تحبك كل هذا الحب، وأنها كريمة كل هذا الكرم، وأنها ستغفر لك خطأك. ولكن بأي حق تعتمد على عفوها وتتخذه موضوع رهان؟ هل فكرت مرة واحدة في أنواع العذاب، وألوان المرارة، وضروب الشك التي عرضت لها ناتاليا نيقولايفنا في هذه الأيام الأخيرة؟ هل ظننت أن من حقك أن تهمل أول واجب من واجباتك، لأنك تحمست لأفكار جديدة؟ عفوك يا ناتاليا نيقولايفنا، لقد أخلفت وعدي، ولكن هذا الأمر أخطر شأناً عندي من الوعد، ولا شك أنك تفهمين ذلك. هل تعرف يا أليوشا أنني وجدت ناتاليا نيقولايفنا فريسةً لألوان من العذاب، ففهمت كيف أنك أحلت هذه الأيام الأربعة التي يجب أن تكون من أسعد أيام حياتها، إلى جحيم لا يُطاق. هذا أنت: أعمال من هذا النوع من جهة، ومن جهة أخرى كلام، فكلام، فكلام. ألست على حق؟ وتجرؤ بعد ذلك على اتهامي، وأنت أنت المذنب.

وتوقف الأمير عن الكلام. لقد استرسل في فصاحته وبلاغته، ولم يستطع أن يخفي عنا انتصاره. وحين سمع أليوشا أباه يتحدث عن الآلام التي عانتها ناتاشا ألقى عليها نظرة تفيض بالحزن الموجع، ولكن ناتاشا نصرته على أبيه قائلة:

ـ لا تحزن يا أليوشا. ذنب غيرك أكبر. اجلس واستمع إلى ما

سأقوله لأبيك. لقد آن الأوان.

فقال الأمير:

ـ قولي ما تريدين يا ناتاليا نيقولايفنا.. قولي ما تريدين حالاً، أرجوك، ها قد مضت ساعتان وأنت تتحدثين بألغاز. إن هذا لا يُحتمل. وأعترف لك بأنني لم أكن أتوقع أن أُسْتَقْبل هذا الاستقبال.

ـ ربما. وذلك لأنك تظن أن سحر كلامك يمكن أن يخفي عنا حقيقة نياتك. ماذا يجب أن أقول؟ أنك تعرف كل شيء، وتفهم كل شيء.. وأن أليوشا على حق. وأن أعزّ رغبة في نفسك هي أن تفصل أحدنا عن الآخر. كنت تعرف ما سوف يحدث هنا بعد سهرة يوم الثلاثاء، كنت تعرف ذلك حق المعرفة، لقد حسبت كل شيء على أصابعك إن صح التعبير. سبق إن قلت لك: إنك لا تنظر نظرة الجد، لا إليّ ولا إلى طلب الزواج الذي دبرته في ليل. أنت تتسلى، أنت تعبث بنا، ولك هدف لا يعرفه أحد غيرك. لا أشك أبداً في أنك تلعب. ولقد كان أليوشا على حق حين أخذ عليك أنك تعتبر الأمر كله مسرحية هزلية. وكان ينبغي إذن أن تُسَرَّ لسلوك أليوشا لا أن تلومه وتقرعه، فإنه، دون أن يدري، لم يزد على أن نفّذ مشيئتك، ربما مع زيادة قليلة.

صُعقت من الدهشة. كنت أتوقع كارثة في ذلك المساء. ولكن هذه الصراحة القاسية التي عمدت إليها ناتاشا، وهذا الازدراء الذي خاطبت به الأمير دون أن تحاول اخفاءه، كل ذلك قد شدهني إلى أبعد الحدود. قلت في نفسي: لا بد أنها تعلم إذن شيئاً من الأشياء، حتى قررت القطيعة بلا إبطاء. بل لعلها كانت تنتظر الأمير بصبر فارغ، كي تقول كل شيء دفعة واحدة أمام وجهه.. وامتقع لون الأمير قليلاً. وكان وجه أليوشا يعبّر عن ذعر ساذج وعذاب قلق.

هتف الأمير قائلاً:

ـ راجعي ما قلته، وزِني كلامك قليلاً.. أنا لا أفهم..

فقالت ناتاشا:

ـ ها.. أنت لا تريد أن تفهم بكلمتين. حتى هو، فَهِمَك مثلما فهمتُك، مع أننا لم نتفق على شيء، ولا رأى أحدنا الآخر. هو نفسه أدرك أنك تلعب لعبة دنيئة مهينة، مع أنه يحبك ويؤمن بك إيمانه بالله. لم تر أن من المفيد أن تكون حذراً، فمكرت بنا. قدّرت أنه لن يدرك ألاعيبك. ولكن له قلباً مرهفاً رقيقاً يتأثر ويفهم، فانطبعت كلماتك، انطبعت لهجتك، على قلبه، على حد تعبيره..

فعاد الأمير يقول، وهو يلتفت إليّ مشدوهاً، كأنما ليستشهدني:

ـ لا أفهم، لا أفهم شيئاً البتّة.

كان الأمير حانقاً أشدَّ الخنق، وتابع كلامهُ متجهاً إلى ناتاشا:

ـ أنت سيئة الظن قلقة. كل ما في الأمر أنك تغارين من كاترين فيدوروفنا. وإنك قادرة على أن تتهمي الدنيا بأسرها، وأن تتهميني في طليعة من تتهمين.. فاسمحي لي أن أقول: إن موقفك هذا يحملني على أن أرى في طبعك رأياً غريباً. إنني لم أتعود على فصول من هذا النوع. وما كان لي أن أبقى هنا دقيقة واحدة، لولا أن مصلحة ابني تقضي بذلك. وهأنا ذا أنتظر، فهل لك أن تتفضلي بشرح ما تريدين قوله؟

ـ أتصر إذن على ألاّ تفهم بكلمتين، رغم أنك تعرف الأمر كله معرفة تامة. أتصر على أن أخاطبك دون لف أو دوران؟

ـ لا أريد غير هذا.

ـ حسناً. اسمع إذن. سأقول لك كل شيء.

هتفت ناتاشا بذلك، وقد اشتعلت عيناها غيظاً.

الفصل الثالث

نهضت ناتاشا، وأخذت تتكلم واقفة، دون أن تلاحظ ذلك من شدة اضطرابها. وكان الأمير يصغي، وقد نهض هو أيضاً. وانقلب المشهد خطيراً مسرفاً في الخطورة.

بدأت ناتاشا بقولها:

ـ هل تتذكر ما قلته يوم الثلاثاء؟ لقد قلتَ: «إنك تريد مالاً، وطرقاً ممهدة، وشأناً نابهاً في المجتمع». هل تتذكر؟

ـ نعم.

ـ حسناً. إنك من أجل الحصول على هذا المال، ومن أجل الظفر بهذه الأنواع من النجاح التي كانت تتسلل من بين يديك، إنما جئت إلى هنا يوم الثلاثاء، ولفقت تلك الخطبة، معتمداً على أن هذا اللعب سيساعدك على تدارك ما كان يفوتك.

فصرخت قائلاً:

ـ ناتاشا، ما هذا الذي تقولين؟

فكرر الأمير يقول كمن جرحت كرامته:

ـ لعب؟ حساب؟

وكان أليوشا، وقد هدَّه الحزن، ينظر ولا يكاد يفهم. وتابعت ناتاشا كلامها تقول، وقد بلغت غاية الغضب:

ـ نعم، نعم، لا تقاطعني، لقد حلفت لأقولنَّ كل شيء. تتذكر أن أليوشا كان قد خرج على طاعتك، وأصبح لا ينقاد لك، فقد

جهدت خلال ستة أشهر أن تفصله عني، فلم تظفر بذلك. وفجأة لاحظت أن الزمن يسبقك، فإن تركت الفرصة تفلت ضيَّعت الخطيبة والمال، وخاصةً المال، ثلاثة ملايين. فلم يبق أمامك إلا وسيلة واحدة هي أن يحب أليوشا الفتاة التي تريد أن تخطبها له. لقد قدَّرت أنه سيهجرني إذا هو أحبها.

فصرخ أليوشا حزيناً يقول:

ـ ناتاشا، ناتاشا، ما هذا الذي تقولين؟

وتابعت ناتاشا كلامها دون أن تعبأ بصرخة أليوشا:

ـ هذا ما فعلته، ولكن القصة القديمة تكررت. وكان يمكن أن يتم كل شيء لولا أنني أفسدت عليك خطتك مرة أخرى! كان هناك أمر واحد يمكن أن يبعث فيك الأمل: لعلك كنت قد لاحظت، بما لك من خبرة وتجربة، أنه كان يبدو على أليوشا في بعض الأحيان أنه سئم علاقته القديمة. لا شك أنك رأيت أنه أخذ يهملني قليلاً، وأنه أخذ يضجر مني، وصار يتغيب عني في بعض الأحيان خمسة أيام متتالية. فأملت أن يسأمني تماماً وأن يهجرني، ولكن سلوكه يوم الثلاثاء الماضي عاد فقلب مشاريعك رأساً على عقب.. فتساءلت: ما عساك تفعل؟

فهتف الأمير قائلاً:

ـ أرجوك، هذه الواقعة، بالعكس.

فقاطعته ناتاشا بحزم تقول:

ـ تساءلت في ذلك المساء ما عساك تفعل، وقررت أن توافق على زواجنا لا موافقة صادقة، بل هكذا.. بالكلام، لتهدِّئه. قلت في نفسك: إنني أستطيع أن أؤخر موعد الزواج ما شئت التأخير، وفي أثناء ذلك يكون قد نشأ حب جديد. لقد لاحظت أنت نشوء

ذلك الحب، وعليه بنيت خطتك.

قال الأمير بصوت منخفض، كأنما يخاطب نفسه:

ـ كلام روايات، كلام روايات. هذا ما تفعله العزلة والأحلام وقراءة الروايات!

وعادت ناتاشا تقول، دون أن تسمع كلام الأمير ودون أن تنتبه إليه:

ـ نعم، بنيت خطتك كلها على هذا الحب الجديد.

لقد استبدّت بناتاشا حماسة محمومة، وكانت تزداد اندفاعاً شيئاً بعد شيء، وتابعت كلامها تقول:

ـ وكان حظ هذا الحب من النماء حظاً كبيراً. كان قد نشأ في قلب أليوشا من قبل أن يكتشف جميع ما تتصف به تلك الفتاة من مزايا وحسنات، وفي اللحظة التي صرح لها، ذلك المساء، بأنه لا يستطيع أن يحبها، لأن الواجب وحباً آخر يحولان بينه وبين ذلك، أظهرت له من النبل ومن العطف عليه وعلى غريمتها ومن سمو النفس ما جعله رغم اعترافه قبل ذلك بجمالها، يحس أنه لم يدرك قبل الآن أنها جميلة كل هذا الجمال، حتى إذا جاء إليَّ لم يتحدث إلا عنها، فلقد أثرت فيه تأثيراً قوياً حتى ملكت عليه عقله. وشعر، منذ ذلك، بحاجة قاهرة إلى رؤية تلك الإنسانة الرائعة، من قبيل الاعتراف بالجميل في أقل تقدير. ولماذا لا يذهب إليها؟ إن الأخرى، أعني الأولى، لا تتألم، فقد تقرر مصيرها، وسيهب لها حياته كلها، وهو لا يقضي هنا إلا دقيقة واحدة، ولسوف تكون ناتاشا تلك عاقة كثيراً إذا هي غارت من هذه الدقيقة! وبدون أن يشعر، يُنتزع من ناتاشا هذه، لا دقيقةً واحدة، بل يوماً ثانياً، فيوماً ثالثاً، وأثناء ذلك تبدو له الفتاة في ضوء جديد لا عهد له من قبل،

فهي نبيلة القلب، شديدة الحماسة، وهي في الوقت نفسه ساذجة كأنها طفلة، وهي في هذا تشبهه كثيراً، فيتواعدان على أن يظلا صديقين مدى الحياة، وعلى أن يكونا أخاً وأختاً لا يترك أحدهما الآخر، وبعد خمس أو ست ساعات من الحديث تتفتح نفسه لمشاعر جديدة يستسلم لها قلبه كله، وتقترب اللحظة الحاسمة. هذا ما فكرتَ فيه: سوف يقارن عندئذٍ بين حبه القديم من جهة وبين حبه الجديد وإحساساته الجديدة من جهة أخرى. أما في الجهة الأولى فكل شيء معروف، معتاد، جاد: مطالب وغيرة ومشاجرات ودموع، وهنالك لا يمازحونه ولا يلاعبونه كما يُمازَح ويلاعَبُ ندٌّ من الانداء، بل طفل من الأطفال.. هنالك، خاصة، كل شيء قديم العهد..

وخنقتها الدموع وسورة اليأس، ولكنها سيطرت على نفسها وتابعت تقول:

ـ وبعد ذلك؟ بعد ذلك يُترك الأمر للزمن: إن الزواج بناتاشا لا يحدد فوراً، ويأتي الزمن فيبدل كل شيء. وتستطيع أيضاً أن تؤثر بكلماتك وإرشاداتك وبراهينك وبلاغتك.. تستطيع أن تقدح في ناتاشا المزعجة وأن تذمها. تستطيع أن تصورها في صورة قبيحة.. ولا يدري أحد ما يكون بعد ذلك، ولكن النصر يكون حليفك! لا تؤاخذني يا أليوشا، يا صديقي. لا تقل إنني لا أفهم حبك، وإنني لا أقدِّره حق قدره. أنا أعلم أنك ما زلت تحبني، وأنك قد لا تفهم في هذه اللحظة ما أشتكي منه. وأنا أعلم أنني أسيء التصرف حين أقول هذ الكلام كله. ولكن ما حيلتي، وأنا أرى ما أرى، ما حيلتي وحبك في قلبي يقوى يوماً بعد يوم، ويصير إلى ما يشبه الجنون.

قالت ذلك ثم غطت وجهها بيديها، وارتمت على مقعدها،

وراحت تجهش في البكاء كطفل. فصرخ أليوشا، وأسرع إليها، وكان لا يستطيع أن يراها باكية دون أن يبكي.

استفاد الأمير من هذا النحيب فائدة كبيرة. إن هذه الحماسة التي أظهرتها ناتاشا خلال حديثها الطويل، وهذا الاندفاع في هجومها الذي كان ينبغي أن يُظهر استياءه منه واستنكاره له وأن يعده إهانة لحقت به، هذا كله أصبح يمكن أن يعتبر الآن نوبةً جنونية من نوبات الغيرة، وأن يرجع إلى شدة الحب الذي أُهين، بل إلى المرض أيضاً. وكان من اللباقة من جانب الأمير أن يظهر شيئاً من العطف، فقال يواسيها:

ـ هدئي نفسك يا ناتاليا نيقولايفنا، هدئي نفسك. هذا كله من فرط الحماسة والأحلام والعزلة. لقد أثار حفيظتك بخفته وسلوكه. ولكن ذلك كله لم يكن من جانبه إلا طيشاً. إن أهم شيء أوضحت قيمته، وهو ما حدث يوم الثلاثاء، كان ينبغي أن يقنعك بعمق حبه لك وتعلقه بك، ولكنك بدلاً من ذلك أخذت تتخيلين. . .

فقاطعته ناتاشا، وهي تبكي بكاء مراً، بقولها:

ـ آه، لا تكلمني، لا تعذبني، دعني وشأني في هذه اللحظة على الأقل. لقد قال قلبي ذلك كله منذ مدة طويلة. هل تظن أنني لا أفهم أن حبه القديم قد انقضى وانتهى الأمر؟. . هنا، في هذه الغرفة، حين كان يتركني، حين كان ينساني، كنت أقبع وحيدة. . . أعيش هذا كله. . وأفكر في هذا كله، وأعيد التفكير فيه. . . ماذا كان في وسعي أن أعمل؟ لا أتهمك يا أليوشا، لماذا تحاول أن تخدعني؟ هل تظن أنني لم أحاول أن أخدع نفسي؟ آه، كم مرة، كم مرة، حاولت ذلك!. . وكنت أتجسس على كل نبرة من نبراته، وأرصد كل حركة من حركات وجهه وعينيه. . لقد تعلمت أن أقرأ

في وجهه وفي عينيه.. ضاع كل شيء، مات كل شيء... ما أشقاني!..

كان أليوشا يبكي، راكعاً أمامها، وأخذ يردد من خلال النحيب:

ـ نعم نعم، الذنب ذنبي، الذنب ذنبي...

ـ لا لست أتهمك يا أليوشا.. ليس الذنب ذنبك.. هناك آخرون.. أعداؤنا.. إنهم هم.. هم.

فصرخ الأمير، بشيء من نفاد الصبر:

ـ ولكنني أستميحك العذر أخيراً: على أي أساس تسندين إليّ كل هذه الجرائم؟ كلامك كله افتراضات لا برهان عليها...

فصرخت ناتاشا تقول، وقد نهضت عن مقعدها:

ـ تريد براهين أيها الرجل الماكر؟ ما كنت تستطيع أن تفعل غير هذا حين جئت إليَّ بعرضك! كان لا بد لك أن تهدىء ابنك، وأن تنوّم ما يشعر به من عذاب الضمير، حتى يستطيع أن يستسلم لكاتيا بمزيد من الحرية. وبدون ذلك، كان لا بد أن يتذكرني وكان لا بد أن يتمرد، وكان لا بد أن تضيق أنت ذرعاً بالانتظار. أليس هذا صحيحاً؟

فأجاب الأمير، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ أعترف أنني لو أردت أن أخدعك لقمت حقاً بهذا الحساب. إنك تملكين كثيراً من نفاذ البصيرة: ولكن قبل أن توجهي إلى الناس مثل هذه الملامات، يجب أن تبرهني...

ـ أبرهن؟ فكيف تعلل إذن سلوكك السابق، حين كنت تحاول أن تنتزعه مني. إن من يعلّم ابنه أن يحتقر مثل هذه الواجبات، وأن يعبث بها، حباً بالظهور في المجتمع، وطمعاً في المال، إنما يفسده! ماذا قلت منذ لحظة عن السلّم، وعن هذا البيت الحقير؟ ألست أنت

الذي منعت عنه ما كنت تعطيه من مال، وذلك كي تُكْرِهَنا بالبؤس والجوع على الانفصال؟ أنت أنت السبب في هذا البيت وفي هذا السلّم، ثم تلومه بعد ذلك عليهما أيها المحتال! ومن أين أتتك في ذلك المساء، فجأة، تلك الحماسة، وتلك الاعتقادات التي لا عهد لمثلك بها؟ ولماذا شعرت بتلك الحاجة كلها إليَّ؟ إنني طوال الأيام الأربعة الماضية، لم أزد على أن أذرع الغرفة جيئة وذهاباً: فكرت في كل شيء، ووزنت كل شيء، أنعمت النظر في كل كلمة من كلماتك وحللت كل تعبير من تعابير وجهك، فانتهيت إلى الاعتقاد بأن ذلك كله كان تصنعاً، بأن ذلك كله لم يكن إلا مزاحاً، لم يكن إلا مهزلة مهينة، خبيثة، حقيرة... ذلك أنني أعرفك، أعرفك منذ مدة طويلة. كنتُ كلما أتى إليَّ أليوشا من عندك، أقرأ في وجهه كل ما قلتَه له، وكل ما أوحيت به إليه. عرفت كل أساليبك في التأثير فيه! لا، لا، أنت لا تستطيع أن تخدعني! قد تكون لك حسابات أخرى، وجائز أنني لم أضع يدي على الشيء الأساسي بعد، ولكن لا قيمة لهذا.. الأمر المهم هو أنك كذبت عليَّ... هذا ما وجب أن أقوله لك صراحة بلا لف ولا دوران!..

ـ أهذا كل شيء؟ أهذه هي براهينك كلها؟ ولكن فكري في الأمر بعد هذه الحماسة الشديدة: لو كان ما تم في يوم الثلاثاء حيلةً كما تقولين، لكانت هذه الحيلة تورطني كثيراً، ولكان ذلك مني طيشاً وأيّ طيش!..

ـ فيم كنت تورط نفسك؟ هل لمخادعتي من قيمة في نظرك؟ هل لإهانة فتاة حقيرة من شأن عندك؟ لست في نظرك إلا ابنة هاربة، شقية، عزلاء، نبذها أبوها، فليس هناك من يدافع عنها. لست في نظرك إلا ابنة تجردت من الأخلاق، ولوثت شرفها

بإرادتها.. فهل تستحق منك مثل هذه الفتاة أن تمتنع عن المزاح معها، إذا كان هذا المزاح يعود عليك بأي نفع مهما يكن ضئيلاً؟

- في أية منزلة تنزلين نفسك يا ناتاليا نيقولايفنا؟ فكري في الأمر. أنك تصرين على القول بأنني أهنتك. ولكن هذه الإهانة التي تتخيلينها فادحة مخزية مذلة.. لا أفهم كيف تفترضين هذا، وكيف تصرين عليه، لا بد في الواقع أن يخرج المرء على أشياء كثيرة حتى يقبل ذلك بمثل هذه السهولة، عفوك إذا قلت هذا الكلام. إن من حقي أن أوجه إليك بعض اللوم، لأنك تستعدين ابني عليَّ. ولئن لم يناصبني العداء في هذه اللحظة دفاعاً عنك، فلا شك أنه يشعر نحوي بالعداوة...

فصرخ أليوشا يقول:

- لا يا أبي، لئن لم أناصبك العداء، فلأنني أعتقد أنك لم تهنها، ولأنني لا أستطيع أن أصدق أن في وسع إنسان أن يهين أحداً بهذه الطريقة!

فهتف الأمير يسأل ناتاشا:

- هل تسمعين؟

- ناتاشا، الذنب كله ذنبي، فلا تتهميه. إنها خطيئة فظيعة.

فصرخت ناتاشا توجه الكلام إليَّ قائلة:

- هل ترى يافانيا؟ هو ذا ضدي.

فقال الأمير:

- كفى كفى. يجب أن ننهي هذا الفصل المؤلم. إن هذه الغيرة العمياء الحانقة ترسم لي صورة عن طبعك جديدة كل الجدة. لقد تعجلنا كثيراً، نعم لقد تعجلنا كثيراً. إنك لا تدركين مدى الجرح الذي أحدثته في نفسي، ذلك أن هذا الجرح لا يهمُّك. لقد تعجلنا

كثيراً، لقد أسرفنا في التعجل. صحيح أن عهدي الذي قطعته عهد مقدس، ولكن. . . ولكنني أب، وأريد لابني السعادة.

فصرخت ناتاشا، وقد خرجت عن طورها:

ـ أتسحب إذن وعدك؟ إذن فاعلموا أنني منذ يومين، وأنا وحيدة هنا، قد قررت أن أرد إليه وعده، وهأنا ذا أؤكد الآن ذلك أمامكم جميعاً أنني أرفض الزواج من أليوشا.

ـ ربما كان معنى ذلك أنك تريدين أن تجددي في نفسه كل أنواع القلق التي كان يعانيها، تريدين أن توقظي في نفسه الشعور بالواجب، تريدين أن تُحيي في قلبه ما كان يشعر به من «اضطراب بصدد واجباته» (كما عبَّرت عن ذلك بلسانك منذ هنيهة)، وذلك من أجل أن تشديه إليك مرة أخرى، كما شددته إليك في الماضي. إن ما أقوله الآن مبني على نظريتك نفسها، ولهذا أقوله. ولكن حسبنا هذا الآن، ولنترك الأمر للزمن. سأنتظر لحظة هادئة نتباسط فيها. آمل أن لا تكون علاقاتنا قد انقطعت انقطاعاً نهائياً. وآمل أيضاً أن يتغير رأيك، وأن تقدريني أكثر مما قدرتني حتى الآن. كنت أريد اليوم أن أطلعك على ما انتويته بصدد أهلك. . ولكن حسبنا هذا الآن. .

ثم التفت إليَّ وأضاف يقول، وهو يقترب مني:

ـ يا إيفان بتروفتش، يسرني الآن أكثر من أي وقت مضى أن نتعارف تعارفاً أعمق، لست أفصح بهذا عن رغبة تساورني منذ مدة طويلة فحسب، ولكنني آمل أنك ستفهمني. هل تسمح لي بزيارتك ذات يوم قريب؟

فانحنيت. كان يبدو لي أنني لا أستطيع الآن أن أتحاشاه. فصافحني وحيًا ناتاشا صامتاً، وخرج خروج من جُرحت كرامته.

الفصل الرابع

ظللنا دقائق لا ننطق بحرف. كانت ناتاشا واجمة تفكّر، حزينة مهدَّمة، فارقتها قواها كلها دفعة واحدة. كانت تنظر إلى أمام دون أن ترى شيئاً، كأنها غائبة عن نفسها، وكانت ممسكة بيد أليوشا، وأليوشا يبكي بلا ضوضاء، ويلقي على ناتاشا نظرة وجلة مستطلعة من حين إلى حين.

وأخذ أخيراً يعزيها على خجل، ويضرع إليها ألاّ تغضب، ويتهم نفسه. كان واضحاً أنه يريد أن يبرىء أباه، وأن ذلك كان يثقل عليه كثيراً. حاول عدة مرات أن يتحدث في هذا الموضوع، ولكنه لم يجرؤ أن يعبّر عما في نفسه تعبيراً واضحاً، مخافة أن يوقظ سخط ناتاشا، فكان يحلف لها أن حبه حب أبدي لا يتغير، ويبرر علاقاته بكاتيا في كثير من الحرارة، ويردد بلا توقف أنه لا يحب كاتيا إلا كما يحب أخ أخته الطيبة الرائعة التي لا يستطيع أن يهجرها هجراً تاماً، وأنه لو فعل لكان ذلك منه غلظة وقسوة. وكان يؤكد لناتاشا أنها لو عرفت كاتيا لأصبحتا فوراً صديقتين لا تفترقان أبداً، فما يبقى بعدئذٍ أي سوء تفاهم. وكانت هذه الفكرة تعجبه من بين سائر الأفكار. لقد كان المسكين صادقاً كل الصدق، وكان لا يفهم مخاوف ناتاشا، حتى ليمكن أن نقول إنه لم يدرك ما قالته ناتاشا لأبيه، فكل ما أدركه هوِ أن أباه وناتاشا قد تشاجرا، وكان ذلك هو ما يحزّ في نفسه خاصة.

سألته ناتاشا:

ـ هل تلومني على ما بدر مني نحو أبيك؟

فأجاب بمرارة:

ـ كيف ألومك وأنا سبب كل شيء؟ كيف ألومك وأنا المذنب؟ أنا الذي دفعتك إلى الغضب، حتى إذا استبد بك الغضب، أخذت تتهمينه حتى تبرئيني. أنك تبرئينني دائماً، وأنا لا أستحق ذلك. كان لا بد من أن تُلقى التبعة على أحد، فألقيتها عليه.

وأضاف أليوشا هاتفاً في حرارة:

ـ ولكنه ليس هو المذنب. أمن أجل هذا جاء إلى هنا؟ أهذا ما كان يتوقعه؟

ولكن أليوشا إذ رأى ناتاشا تنظر إليه نظرة عتب حزين، سرعان ما فقد ثقته بنفسه، وقال:

ـ لا، لن أقول شيئاً، أنا سبب كل شيء!

فقالت ناتاشا في جهد:

ـ نعم يا أليوشا، لقد مرَّ بيننا، فهدَّم أمننا إلى الأبد. كنت تصدقني دائماً أكثر مما تصدق أي إنسان آخر، أما الآن فقد سكب في قلبك الشك وسوء الظن: إنك تخطِّئني. لقد سلبني نصفَ قلبك. بيننا الآن ظل.

ـ لا تقولي هذا الكلام يا ناتاشا. لماذا تقولين: إن بيننا ظلاًّ؟

لقد جرحه التعبير.

وأردفت ناتاشا تقول:

ـ لقد اجتذبك إليه بنبل مصطنع وكرم كاذب، وسيستعديك عليَّ بعد الآن مزيداً من الاستعداء.

فهتف أليوشا يقول بحرارة:

ـ أقسم لك أن لا. . ولئن قال: «إننا تعجلنا كثيراً»، فقد دفعه إلى هذا القول: أنه كان مستاءً. سترين غداً، أو ذات يوم قريب، أنه سيتراجع عن هذا الكلام. وإذا بلغ به الغضب أن أصبح لا يوافق على زواجنا، فلن أطيعه. . أقسم لك. ربما أقوى على هذا. .

ثم هتف فجأة، وقد تحمس للفكرة التي راودته:

ـ هل تعرفين من الذين سيساعدنا في الأمر؟ إنها كاتيا. . سترين، سترين نبل هذه الإنسانة الرائعة. سترين هل تريد حقاً أن تنافسك وأن تفرق بيننا! لقد ظلمتني كثيراً، منذ قليل، حين زعمت أنني من أولئك الذين يمكن أن يزول حبهم بعد الزواج بيوم. لشد ما آلمني أن أسمع منك هذا الكلام! لا، لست كذلك. وإذا كنت أذهب كثيراً إلى كاتيا. .

ـ أرجوك يا أليوشا، إذهب إليها ما شئت. ليس هذا ما أردت أن أقوله. إنك لم تفهم ما أردت أن أقوله. كن سعيداً مع من تشاء. ولست أستطيع على كل حال، أن طلب من قلبك أكثر مما يقدر أن يعطيني. .

ودخلت مافرا.

ـ هل أقدم لكم الشاي؟ إن الماء يغلي في السماور منذ ساعتين. شيء عظيم! الساعة الآن الحادية عشرة.

كانت مافرا تتكلم بفظاظة وغضب. كان واضحاً أنها مستاءة، وأنها حانقة على ناتاشا. والحق أنها خلال تلك الأيام كلها، منذ يوم الثلاثاء، قد بلغت من شدة فرحها بأن سيدتها الشابة (التي تحمل لها حباً جماً) ستتزوج قريباً، أنها نشرت الخبر في العمارة كلها، ونقلته إلى الجيران، ورددته في الدكاكين، وأبلغته للبواب. وقد اعتزت بذلك كثيراً، فرددت للناس في كثير من الخيلاء، أن الأمير، وهو رجل خطير الشأن، واسع الغنى برتبة جنرال، قد جاء بنفسه إلى

سيدتها، يخطبها لابنه ويسألها أن توافق على زواجها به، وأنها، أي مافرا، قد سمعت ذلك كله بأذنيها. ثم ها هو هذا كله يذهب أدراج الرياح، كالدخان. فلقد خرج الأمير غاضباً، حتى إن الشاي لم يقدم إليه، ولا شك أن الآنسة هي السبب في هذا كله. لقد سمعتها مافرا تخاطب الأمير بغير أدب.

أجابت ناتاشا:

ـ نعم هاتِ الشاي.

ـ والمقبلات أيضاً؟

وأخذت ناتاشا تضحك. قالت مافرا:

ـ أهكذا، بعد كل ما هيأناه؟ لقد انهدّت قواي من التعب، حتى صرت لا أحس بساقيَّ منذ أمس. لقد ركضت أشتري الخمر من شارع نفسكي..

وخرجت، وأغلقت الباب بقوة من شدة الحنق.

فاحمرت ناتاشا، وألقت عليَّ نظرة غريبة.

وجاءتنا مافرا بالشاي والمقبلات: بط، وسمك، وزجاجتان من أجود الخمر اشترتهما مافرا من عند اليسييف. وسألتني مافرا قائلة:

ـ فيم إذن حضَّرنا هذا كله؟

قالت ناتاشا، وهي تقترب من المائدة، خجلةً حتى أمامي:

ـ هذا أنا يا فانيا. كنت أحس أن كل شيء سينتهي اليوم إلى هذه النهاية، ومع ذلك كنت آمل أن ينتهي إلى غير هذه النهاية. كنت آمل أن يجيء أليوشا، فيدخل الطمأنينة إلى قلبي، فنتصالح.. كنت آمل أن أجد شكوكي في غير محلها، وأن أقتنع بأنني كنت واهمة.. ومن أجل ذلك حضَّرت هذه المقبلات، لأنني قدَّرت أن حديثنا سيطول إلى ساعة متأخرة..

مسكينة ناتاشا. لقد احمرت احمراراً شديداً وهي تقول هذا الكلام. وثارت حماسة أليوشا فقال:

- هل ترين يا ناتاشا؟ أنت نفسك ما كنت واثقة من هذه الشكوك التي روادتك.. منذ ساعتين كنت غير واثقة منها! لا، لا، يجب أن نصلح الأمر. أنا المذنب. عليَّ تقع تبعة كل ما وقع، وعليَّ يقع عبء إصلاح ما فسد. ناتاشا، اسمحي لي أن أمضي إلى أبي فوراً. يجب أن أراه. لقد جُرح. لقد أُهين. يجب أن أواسيه. سوف أشرح له كل شيء، وسأتكلم باسمي وحدي، لا أقحمك في الموضوع. سأسوِّي كل شيء. لا تؤاخذيني إذا تركتك الآن وذهبت إليه. ليس الموضوع أنني أشفق عليه. سترين أنه سيبرىء نفسه أمامك، سترين. سأكون هنا غداً، منذ الفجر.. وسأبقى معك النهار كله، لن أذهب إلى كاتيا.

لم تمنعه ناتاشا من الخروج، بل نصحته بأن يمضي. كانت تخشى أشد الخشية أن يبقى أليوشا إلى جانبها مكرهاً، فيسأمها. ولكنها طلبت إليه أن لا يتكلم باسمها، وحاولت أن تبتسم له ابتسامة مرحة وهي تودِّعه. وكان يهم أن يخرج حين عاد إليها فجأة، فتناول يديها، وجلس إلى جانبها، وأخذ ينظر إليها في كثير من الرقة والعطف.

- ناتاشا، صديقتي، ملاكي، لا تحنقي عليَّ، لن نختصم بعد اليوم أبداً. عديني بأن تصدقيني دائماً في كل شيء. وسأصدقك أنا أيضاً في كل شيء. اسمعي، سأقص عليك أمراً. في ذات يوم، تشاجرنا، لا أذكر الآن لماذا. كنت أنا المذنب. وأصبحنا لا نتبادل الكلام. لم أشأ أن أكون البادىء بطلب العفو، وكنت حزيناً أشد الحزن. فجعلت أضرب في الشوارع على غير هدى، ثم ذهبت إلى

بعض الأصدقاء، وأنا أكاد أختنق من الحزن.. راودتني فكرة، قلت في نفسي: ترى لو مرضت ناتاشا، فماتت، ما عسى أن تصير إليه حالتي؟ فلما تصورت هذا، أصابني يأس شديد كأن الأمر وقع فعلاً، واشتدت عليّ وطأة هذه الأفكار، وازداد حزني الرهيب، ثم تخيلتني جاثياً على قبرك فاقد الوعي، أحيطه بذراعي وقد هدني الألم، ورأيتني أقبّل القبر، وأناديك، أسألك أن تخرجي إليَّ ولو دقيقة واحدة، وأضرع إلى الله أن يحقق معجزة من معجزاته، فيبعثك أمامي لحظة، فأرتمي عليك، وألفّك بذراعي، وأعانقك، وأقبّلك.. وخُيِّل إلي أنني سأموت من فرط السعادة إذا استطعت أن أحيطك بذراعي مرة أخرى، خلال ثانية، كما كنت أفعل في الماضي. ثم قلت في نفسي وأنا أتخيل هذا: أأضرع إلى الله أن يردها إليَّ لحظة واحدة، ونحن نعيش معاً منذ ستة شهور؟ ما أكثر ما اختصمنا خلال هذه الشهور الستة، وما أكثر الأيام التي قضيناها لا نتبادل الكلام!.. كنا نتشاجر أياماً بكاملها، ونغفل عن سعادتنا.. ثم أسألك أن تخرجي إليَّ من القبر ولو دقيقة واحدة، وأشعر أنني قادر على أن أدفع حياتي كلها ثمناً لهذه الدقيقة. حين تخيلت هذا كله، لم أملك أن أقاوم، فهرعت إليك فوراً، فلما وصلت كنت تنتظرينني، وأذكر أنني حين تعانقنا لنتصالح ضممتك إلى صدري ضماً قوياً جداً، كأنني كنت أوشك أن أفقدك فعلاً. ناتاشا! يجب أن لا نختصم بعد الآن أبداً. إن هذا يؤلمني كثيراً.. رباه! هل يمكن أن يخطر ببالي أن في وسعي أن أتركها!..

كانت ناتاشا تبكي. وتعانقا عناقاً شديداً. وحلف لها أليوشا مرة أخرى أنه لن ينفصل عنها مدى الحياة. ثم أسرع يمضي إلى أبيه. كان على قناعة جازمة بأنه سيرتب كل شيء.

قالت لي ناتاشا وهي تشد على يديّ شداً يشبه أن يكون تشنّجاً:

ـ انتهى كل شيء، ضاع كل شيء. إنه يحبني، وسيظل يحبني، إلى الأبد. ولكنه يحب أيضاً كاتيا، وما هي إلا فترة وجيزة حتى يحبها أكثر مما يحبني. إن هذا الأمير، هذا الثعبان، لن يغفل.. وعندئذٍ..

ـ ناتاشا، أنا أيضاً أعتقد أن الأمير يراوغ، ولكن..

ـ أنت لا تعتقد بكل ما قلته له، رأيت ذلك في وجهك. ولكن انتظر، فسترى من تلقاء نفسك أنني على حق. ذلك أنني لم أتحدث إلا في أمور عامة، ولا يعلم إلا الله ماذا يبيّت أيضاً. إنه رجل فظيع. خلال هذه الأيام الأربعة التي كنت أذرع فيها الغرفة جيئة وذهاباً، أدركت كل شيء. لقد أراد أن يحرر قلب أليوشا من الحزن الذي يمنعه من أن يخفق، أراد أن يخفف عنه وطأة الواجبات التي يشعر بها من حبه لي، فلفق هذه الخطبة، ليدسَّ نفسه بيننا، وليسحر أليوشا بنبله وكرمه. هذا صحيح، يا فانيا. ذلك هو أليوشا. كان سيطمئن عليَّ، كان سيهدأ قلقه عليَّ، قائلاً لنفسه: «إنها الآن زوجتي، وهي إذن معي إلى الأبد»، وكان سيزداد التفاتاً إلى كاتيا وعناية بها، على غير إرادة منه، ولا شك أن الأمير قد لقّن كاتيا هذه الدرس، وأدرك أنها تناسبه، وأنها تستطيع أن تجتذبه أكثر مني. وا أسفاه يا فانيا. إن رجائي كله معقود عليك الآن. إنه يريد أن يوثق علاقته بك فأستحلفك بالله أن لا ترفض، وافعل كل ما تستطيع فعله حتى تدخل إلى بيت الكونتيسة؛ واعرف كاتيا، وراقبها وقل لي من تكون. أنا في حاجة إلى ذهابك إلى هناك. ما من أحد يمكن أن يفهم مثلك، وستعرف ما عسى أن يفيدني. وراقب أيضاً مدى صداقتهما، وانظر ما بينهما، واعرف عم يتحدثان. وأنعم النظر،

خاصة، في كاتيا.. برهن لي مرة أخرى على صداقتك، يا صديقي العزيز اللطيف، يا فانيا، لم يبق لي أمل في غيرك!

حين عدت إلى بيتي كان الليل قد انتصف. وجاءت نللي تفتح لي الباب، وقد ظهرت في وجهها آثار النوم، فابتسمت ونظرت إليَّ نظرة فرحة. كانت المسكينة تلوم نفسها على أنها غفت. كانت تتمنى أن تنتظرني إلى أن أعود. وقالت: إن شخصاً جاء يسأل عني، وإنه انتظرني بعض الوقت، ثم ترك لي رسالة على المنضدة. كانت الرسالة من ماسلوبويف. إنه يطلب إليَّ أن أذهب إليه غداً، في الساعة الواحدة. كنت أود لو أسأل نللي بعض الأسئلة، ولكنني أرجأت ذلك إلى غد، وأصررت عليها أن تنام. كانت الطفلة المسكينة قد أخذ منها التعب كل مأخذ وهي تنتظرني، ولم تنم إلا قبل وصولي بنصف ساعة.

الفصل الخامس

في صباح الغد ذكرت لي نللي تفاصيل غريبة عن زيارة البارحة. وكان من المستغرب أصلاً أن يفكر ماسلوبويف في زيارتي، ذلك المساء. فقد كان يعرف أنني لن أكون في البيت، أنبأته بذلك حين لقيته آخر مرة، كان يعرف ذلك جيداً. قالت نللي إنها في أول الأمر لم تشأ أن تفتح له الباب، لأنها خافت، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة من المساء، ولكنه توسل إليها أن تفتح، مدعياً أنه إن لم يترك لي رسالة، فسيصيبني غداً سوء. فلما سمحت له أن يدخل كتب الرسالة فوراً. ثم اقترب منها وجلس إلى جانبها على الأريكة. قالت نللي: «فنهضت من مكاني ولم أشأ أن أكلمه، لأنني خفت منه خوفاً شديداً. فأخذ يحدثني عن بوبنوفا، وقال: إنها غضبت كثيراً، ولكنها لا تجرؤ على المجيء إلى هنا لتأخذني؛ ثم راح يثني عليك؛ فقال: إنك كنت من أعز أصدقائه وإنه عرفك صبياً صغيراً. عندئذٍ رضيت أن أكلمه. فأخرج لي من جيبه حلوى، وطلب إليَّ أخذها، ولكنني رفضت، فأكد لي أنه رجل شهم، وأنه يعرف أن يغني وأن يرقص، وقام رأساً فأخذ يرقص. وسررت بهذا. ثم قال: إنه سيمكث هنا بعض الوقت، ينتظر عودتك، وقال: إنك قد تعود، وطلب إليَّ أن لا أخاف منه، وأن أجلس إلى جانبه. فجلست، ولكنني لم أشأ أن أكلمه، فقال: إنه يعرف أمي وجدي. . . فأخذت أتكلم، ومكث مدة طويلة».

- فيم تكلمتما؟

ـ تكلمنا عن أمي... وعن بوبنوفا... وعن جدي. لقد لبث ما يقرب من ساعتين.

لاحظت أن نللي لا تريد أن تقصَّ عليَّ كل ما دار بينهما من حديث، فلم أسألها عن شيء، أملاً في أن أعرف ذلك كله من ماسلوبويف. ولكنني اعتقدت أن ما سلوبويف قد تعمد أن يأتي أثناء غيابي، ليلقى نللي وحدها. فتساءلت تُرى لماذا تعمد ذلك؟

وأرتني نللي ثلاث قطع من الحلوى قدمها إليها.. إنها سكاكر رديئة ملفوفة بورق أخضر وأحمر، لا شك أنه اشتراها من عند أحد البقالين. وضحكت نللي وهي تريني قطع الحلوى. فسألتها:

ـ لماذا لا تأكلينها؟

فأجابتني وقد بدا في وجهها الجد والعبوس:

ـ لا أريدها. ثم إنني لم آخذها. ولكنه تركها على الأريكة.

كان عليَّ في ذلك اليوم أن أقوم بعدد من الجولات، فودعت نللي، وسألتها وأنا أهم بالخروج:

ـ هل تزعجين حين تبقين وحدك.

ـ نعم ولا. أنزعج حين تغيب مدة طويلة.

قالت ذلك وهي ترشقني بنظرة تفيض حباً. وكانت طوال ذلك الصباح تنظر إليَّ نظرة رقيقة ودودة، وتبدو فرحةً كل الفرح. وكانت في الوقت نفسه تلتزم موقف التحفظ بل والخجل، كأنها تخشى أن تزعجني وأن تفقد صداقتي.. وكانت لا تسرف في التبسط معي كأن ذلك عيب.

ـ وما الذي لا يزعجك؟ لقد قلت: «نعم ولا».

طرحت عليها هذا السؤال، وأنا أبتسم رغم إرادتي. لقد أصبحت عزيزة عليَّ كثيراً.

فقالت وهي تطلق ضحكة خفيفة:

ـ ما لا يزعجني، أعرفه كل المعرفة.

وعاد إليها الاضطراب مرة أخرى. كنا نتحدث عند العتبة، وكان الباب مفتوحاً. كانت نللي أمامي خافضة العينين، قد وضعت إحدى يديها على كتفي وأمسكت بالأخرى كمى. فسألتها:

ـ ماذا؟ هل هو سر؟

ـ لا.. أبداً.. لا شيء.. ولكنني.. لكنني، بعد أن ذهبت أنت، أخذت أقرأ كتابك.

قالت ذلك بصوت خفيض، وهي تنظر إليَّ نظرة رقيقة نافذة. واحمر وجهها احمراراً شديداً.

ـ ها.. صحيح؟ هل يعجبك الكتاب؟

طرحت عليها السؤال، وأنا أرتبك ارتباك الكاتب حين يُقرَّظ في حضوره. تمنيت من أعماق قلبي لو أقبِّلها في تلك اللحظة. ولكن ذلك كان يبدو لي مستحيلاً. وصمتت نللي. ثم سألتني وقد لاح في وجهها حزن عميق:

ـ لماذا، لماذا يموت؟

وألقت عليَّ نظرة سريعة، ثم خفضت عينيها من جديد.

ـ من؟

ـ الشاب المصدور الذي تتحدث عنه في الكتاب.

ـ كان لا بد أن يموت يا نللي.. ما العمل؟

فأجابت بصوت يشبه أن يكون همساً قائلة:

ـ أبداً..

وأطرقت إلى الأرض حانقة.

انقضت على ذلك دقيقة. ثم دمدمت نللي تسألني، وهي تشد

كُمّي شداً أقوى:
ـ والفتاة والشيخ! هل سيعيشان معاً ولا يضنيهما الفقر؟
ـ بل تذهب الفتاة إلى بعيد. تتزوج أحد مالكي الأطيان، ويبقى العجوز وحده..
قلت لها ذلك على أسف، فقد آلمني حقاً أن لا أستطيع أن أطمئنها بشيء آخر.
ـ ها.. نعم هكذا إذن أنت! لن أستمر في قراءة الكتاب!
ونبذت يدي غاضبة، وأشاحت عني مهرولة، وأدارت وجهها إلى إحدى زوايا الغرفة خافضة العينين، وقد احمر وجهها احمراراً شديداً، واضطربت أنفاسها، كأن حزناً أليماً يخنقها خنقاً.
قلت وأنا أقترب منها:
ـ كفى يا نللي! لماذا تغضبين؟ القصة من ابتكار الخيال وليست واقعاً، فلا حاجة بك إلى الغضب! يا لك من صبية مبالغة في الإحساس!
فقالت خجلةً، وهي ترفع إليَّ نظرة وضاءة محبة:
ـ لست غاضبة.
ثم أمسكت يدي فجأة. وأسندت وجهها على صدري، وأخذت تبكي.
ولكن في هذه اللحظة نفسها انفجرت ضاحكةً، فكانت تبكي وتضحك معاً، وشعرت أنا نفسي أنني أضحك وأتألم في آن واحد. وعبثاً حاولت أن أنهض رأسها نحوي، وحين حاولت أن أبعد وجهها عن كتفي، ازدادت تشبثاً به وهي تضحك.
وانتهى أخيراً هذا المشهد. فودعتها، وحثثت الخطى، فما هبطت بضع درجات من السلم حتى رأيت نللي تجري ورائي، وقد اصطبغ

وجهها بالحمرة، وظهر عليها اضطراب الخجل، والتمعت عيناها، فطلبت إليَّ أن لا أغيب كثيراً، فوعدتها بأنني سأعود قطعاً في موعد العشاء.

ذهبت أولاً إلى العجوزين، فرأيتهما مريضين. كانت آنا أندريفنا تعاني آلاماً شديدة، وكان نيقولا سرجتش قابعاً في غرفته. وقد أحسّ بوصولي، ولكنني كنت أعرف أنه لا يأتي إليَّ قبل انقضاء ربع ساعة على مجيئي، وذلك ليفسح لنا مجال الكلام على انفراد، ولم أشأ أن أزعج آنا أندريفنا، فلطفت قصة سهرة الأمس ما أمكنني تلطيفها، ولكنني ذكرت لها الحقيقة. فما كان أشد عجبي حين لاحظت أن العجوز لم تستقبل نبأ احتمال القطيعة بكثير من الدهشة، رغم أن هذا النبأ قد آلمها.

قالت:

- نعم يا صديقي، ذلك ما كنت أقدِّر أن يقع. حين مضيتَ آخر مرة فكرتُ في الأمر طويلاً، وقلت في نفسي: إن هذا لن يتم. لعل الله يرى أننا لا نستحق ذلك. وهذا الرجل سافل لا يمكن أن يُنتظر منه خير. ليس قليلاً ذلك المبلغ الذي يسلبنا إياه، عشرة آلاف روبل، وهو يعلم حقَّ العلم أن ليس له فيه أي حق. إنه يسلبنا كسرة الخبز. يجب أن نبيع أخمنيفكا. ولقد كانت صغيرتي ناتاشا مستقيمة عاقلة حين لم تصدقه.

ثم أضافت وهي تخفض صوتها:

- ثم هل تعلم يا صديقي أن زوجي يعارض هذا الزواج. لقد أفصح عن رأيه، فقال: إنه لا يريد هذا الزواج. ظننت أول الأمر أن ذلك نزوة منه، ولكنني عرفت بعدئذٍ أنه كان جاداً لا يهزل. ما مصير حمامتي الصغيرة إذن؟ سيظل ساخطاً عليها إلى الأبد. وأليوشا ماذا يفعل؟

ظلت تسائلني مدة طويلة، وكانت على عادتها، تردُّ على كل جواب من أجوبتي بتأوهات وتنهدات وزفرات. كنتُ قد لاحظت أن حالتها ساءت كثيراً في الأيام الأخيرة، وأن كل نبأ من الأنباء أصبح يهزها هزاً عنيفاً. كان الحزن الذي تسببه لها ناتاشا يحطم قبلها وصحتها تحطيماً.

ودخل العجوز، مرتدياً مبذله، منتعلاً خفَّ المنزل. وشكا مما يعانيه من حمى، لكنه نظر إلى امرأته نظرة تفيض بالعطف والمودة، وظل طوال المدة التي قضيتها بينهما يحيطها بألوان الرعاية، كما ترعى المربية أطفالها. وكان ينظر إلى عينيها ويبدو كأنه خَجل منها. كان في نظراته كثير من الرقة والمحبة. كان يفزعه أن يراها مريضة، كان يحسّ أنه سيفقد كل شيء إذا فقدها.

لبثت معهما قرابة ساعة، وحين ودعتهما، صحبني حتى حجرة المدخل وحدّثني عن نللي. كان يفكر تفكيراً جاداً في ضمها إليه، في اتخاذها ابنة له. وسألني ماذا يجب أن يعمل حتى توافق آنا أندريفنا على ذلك. وطرح عليَّ أسئلة كثيرة عن نللي، في كثير من حب الاستطلاع، ثم سألني ألم أعرف شيئاً جديداً عنها، فقصصت عليه ما عرفته قصاً سريعاً، فتأثر مما رويته له تأثيراً واضحاً.

قال بلهجة حازمة:

ـ سنتحدث في هذا الأمر مرة أخرى.. ثم إنني سأجيء إليك، متى أبللت من مرضي، وعندئذٍ نعزم أمرنا..

وفي الظهر تماماً كنت عند ماسلوبويف فما كان أشد دهشتي حين دخلت عليه فرأيت عنده الأميرَ أولَ من رأيت. كان يرتدي معطفه في حجرة المدخل، وكان ماسلوبويف يعينه في ذلك متعجلاً، ويعيد إليه

عصاه. لقد سبق أن قال لي: إنه يعرف الأمير، ولكن هذا اللقاء أدهشني كثيراً.

ارتبك الأمير حين رآني، ولكنه ما لبث أن هتف بلهجة تظهر كثيراً من المودة:

ـ ها.. هذا أنت! أنظر كيف يتم اللقاء في بعض الأحيان!.. لقد علمت منذ لحظة أنك تعرف ماسلوبويف. سرتني رؤيتك، سرتني كثيراً، كنت أفكر في الذهاب إليك، وأرجو أن أفعل ذلك في أقرب فرصة، هل تسمح لي بذلك؟ لي رجاء عندك: ساعدني على توضيح الموقف. لا شك أنك فهمت ما أردت أن أقوله أمس. أنت هنالك صديق، وقد تابعت تطور هذه القضية من أولها إلى آخرها. وإنك لتستطيع أن تؤثر بعض التأثير.. يؤسفني كثيراً أنني لا أستطيع أن ألقاك حالاً.. كثرة الأعمال تمنعني من ذلك. ولكني أرجو أن نجتمع ذات يوم قريب، قريب جداً. سيسرني أن أجيء إليك.. أما الآن..

وصافحني بكثير من القوة، وتبادل نظرة مع ماسلوبويف، ثم خرج.

قلت وأنا أدخل الغرفة:

ـ ناشدتك الله هلاّ قلت لي..

فقاطعني ماسلوبويف يقول وهو يتناول قبعته بسرعة ويتجه إلى حجرة المدخل:

ـ لن أقول لك شيئاً. تنتظرني أعمال. لقد تأخرت، أنا ذاهب!

ـ ألم تكتب إليّ أنت نفسك أن أوافيك عند الظهر؟

ـ صحيح. كتبت إليك أمس، وكتبوا إليّ اليوم.. يكاد ينفجر رأسي. قصة فظيعة! إنهم ينتظرونني. عفوَك يا فانيا. كل ما أستطيع

أن أقدمه لك تعويضاً عن تعبك هو أن أسمح لك بأن تصفعني جزاء ما حمّلتك من عناء بدون طائل. فإذا أردت أن تقتص لنفسك، فهيا افعل، ولكن أرجوك أن تفعل بسرعة، حتى لا تؤخرني، فإنهم ينتظرونني.

ـ ولماذا أضربك؟ أسرع ما دام ينتظرك عمل. إن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بالطوارىء دائماً. ولكن. . .

فقاطعني وهو يثب إلى حجرة المدخل ويرتدي معطفه (وارتديت معطفي أنا أيضاً):

لا، لا، دع «لكن» هذه لي أنا. يجب أن أحدثك في قضية هامة جداً، ومن أجل ذلك إنما رجوتك أن تأتي إلي. والقضية تتصل بك رأساً، وتمسّ مصالحك. ولكنني لا أستطيع أن أحدثك في هذا كله خلال دقيقة واحدة، فعدني، ناشدتك الله، أن تجيء إليَّ هذا المساء، في الساعة السابعة تماماً. سأكون هنا. .

فقلت متردداً:

ـ هذا المساء؟ ولكنني كنت أريد أن أذهب هذا المساء إلى. .

ـ اذهب الآن إلى حيث كنت تريد أن تذهب في المساء، ثم عد إليَّ. . فانيا، لا تستطيع أن تتخيل الأنباء التي سأقولها لك.

ـ ولكن أرجوك، أرجوك، ما هو هذا الأمر؟ إنك تثير فيَّ حبّ الاطلاع، أعترف لك بذلك.

وفي أثناء ذلك كنا اجتزنا باب العمارة، وبلغنا الرصيف. فقال في إلحاح:

ـ إذن ستجيء؟

ـ سأجيء.

ـ لا، لا، عاهدني عهد الشرف.

ـ عجيب! أعاهدك.

ـ طيب. من أين أنت ذاهب؟

ـ من هنا.

قلت ذلك وأشرت إلى اليمين. فقال وهو يشير إلى الشمال:

ـ وأنا ذاهب من هنا. إلى اللقاء يا فانيا، لا تنس الموعد، في الساعة السابعة.

قلت في نفسي وأنا أراه يبتعد: «غريب».

كنت أريد أن أذهب إلى ناتاشا في ذلك المساء، ولكنني وعدت ماسلوبويف بأن أجيء إليه، فقررت أن أمضي إلى ناتاشا حالاً، وكنت على ثقة بأنني سأجد عندها أليوشا. وقد وجدته عندها فعلاً، فسرّ برؤيتي سروراً كبيراً.

كان لطيفاً جداً، وكان رقيقاً مع ناتاشا بخاصة، حتى إنه فرح فرحاً شديداً حين وصلت. وكانت ناتاشا تحاول أن تظهر بمظهر الفَرِحَة، ولكن كان واضحاً أن ذلك فوق طاقتها. كانت شاحبة اللون، وكان يبدو على وجهها أنها تعاني آلاماً. إنها لم تنم نوماً هادئاً. وكانت تُظهر لأليوشا مزيداً من العاطفة.

كان أليوشا يتكلم كثيراً، يريد أن يُفرح ناتاشا، أن ينتزع ابتسامة ما من شفتيها المنقبضتين على غير إرادة منها، ولكنه يتحاشى أن يذكر اسم كاتيا أو اسم أبيه. لا شك أن ما قام به أمس من مسعى للمصالحة قد أخفق.

وخرج أليوشا لحظةً ليقول شيئاً لمافرا، فدمدمت ناتاشا تشير إليَّ قائلةً:

ـ هل تعلم أنه يتحرق شوقاً إلى الذهاب؟ نعم، ولكنه لا يجرؤ. ولا أريد أن أطلب إليه أن يذهب، خشية أن يتعمد عندئذٍ البقاء. إني

أخاف أن يصيبه السأم، وأن تبرد عاطفته نحوي تماماً! ما العمل؟

ـ رباه، ما هذا الوضع الذي تضعان نفسيكما فيه؟ ما هذا الشك والحذر؟ ما هذا التجسس والتربص؟ لماذا لا تتصارحان فينتهي كل شيء؟ أغلب ظني أن هذا الوضع هو الذي سيدخل إلى قلبه الملل!

فصرخت ناتاشا مذعورة تقول:

ـ فماذا أعمل إذن؟

ـ اسمعي.. سأدبر كل شيء..

قلت ذلك، وذهبت إلى المطبخ، بحجة أنني أريد أن أطلب إلى مافرا أن تمسح حذائي الذي امتلأ وحلاً.

فصرخت بي ناتاشا تقول:

ـ تأنَّ يا فانيا.

فما أن دخلت المطبخ حتى أسرع أليوشا عليَّ، كأنه كان ينتظرني.

ـ إيفان بتروفتش، صديقي العزيز، ماذا يجب أن أعمل. انصحني. لقد وعدت كاتيا أمس بأن أذهب إليها في هذه الساعة نفسها. ولا أستطيع أن أخلف الوعد. إنني أحب ناتاشا حباً يعجز لساني عن وصفه، إنني مستعد لأن ألقي بنفسي إلى النار في سبيلها، ولكنك توافقني أنت نفسك على أنني لا أستطيع أن أترك كل شيء هناك. فذلك لا يليق.

ـ ما عليك إلاَّ أن تذهب.

ـ وناتاشا؟ إنها ستتألم يا إيفان بتروفتش، ساعدني على الخروج من هذا المأزق.

ـ رأيي أن تذهب. أنت تعلم أنها تحبك. فإن بقيتَ شعرتْ طوال الوقت بأنك مللت المقام معها، وأنك تُكره نفسك على البقاء

إكراهاً. أوثر أن تتصرف تصرفاً طبيعياً. ثم إنني سأساعدك، هيا بنا.

ـ عزيزي إيفان بتروفتش، ما أنبل قلبك!

ودخلنا، فما هي إلا دقيقة واحدة حتى قلت له:

ـ رأيت أباك منذ قليل.

فصرخ مذعوراً:

ـ أين؟

ـ في الشارع، مصادفةً، لم يبق معي إلا دقيقة. ورجاني مرة أخرى أن نتعارف تعارفاً أكمل. وقد سألني هل أعرف أين أنت. إنه في حاجة ملحة إلى رؤيتك، يريد أن يقول لك شيئاً.

وفطنت ناتاشا إلى الغرض الذي أهدف إليه من هذا الكلام، فساعدتني تقول:

ـ إذن فاذهب إليه يا أليوشا، إذهب إليه حالاً.

ـ ولكن.. أين يمكن أن أجده؟ هل هو في البيت؟

ـ قال: إنه سيكون عند الكونتيسة.

فنظر أليوشا إلى ناتاشا بحزن، وقال بسذاجة:

ـ فما العمل إذن؟

قالت ناتاشا:

ـ ما بك يا أليوشا؟ ما ينبغي أن تهجر هؤلاء الأصدقاء من أجل أن تهدئني، وإلا كنت تتصرف كأطفال. هذا أولاً مستحيل، وهو ثانياً إخلال بواجب الأدب نحو كاتيا. أنتما صديقان، ولا يمكن أن يقطع المرء علاقاته بأصدقائه على هذا النحو الفظ. ثم إنك تهينني إذا اعتقدت أنني غيورة إلى هذه الدرجة. إذهب إلى هناك حالاً، أرجوك. وبذلك تطمئن أباك.

فهتف أليوشا في حماسة وندامة:

ـ ناتاشا، أنت ملاك. أنا لا أساوي أصبعاً من أصابعك الصغيرة! ما أنبل قلبك يا ناتاشا.. وأنا.. أنا.. آه، أؤثر أن تعرفي! لقد سألت إيفان بتروفتش، منذ قليل، في المطبخ، أن يساعدني على الذهاب، فاخترع هذه الطريقة. ولكن لا تسيئي بي الظن يا ناتاشا. فلست مذنباً تماماً. إنني أحبك أكثر مما أحب أي شيء في العالم، أحبك ألف مرة أكثر مما أحب أي شيء في العالم.. لذلك تراودني الآن فكرة جديدة: أن أعترف لكاتيا بكل شيء، أن أكشف لها عن وضعنا، وأن أقصَّ عليها كل ما جرى أمس. فلعلها تتخيل مخرجاً ينقذنا، إنها مخلصة لنا كل الإخلاص.

فأجابته ناتاشا وهي تبتسم:

ـ إذن فاذهب إليها. وإني يا صديقي أحب كثيراً أن أتعرف إلى كاتيا فكيف نهيئ ذلك؟

فلما سمع أليوشا هذا الكلام تجاوز فرحه كل حد. واندفع يتخيل ألف مشروع ومشروع، وقال: إن ذلك أمر سهل، وإن كاتيا ستجد الحل. وبسط فكرته بحرارة وحماسة، ووعد أن يعود بجواب كاتيا في اليوم نفسه، بعد ساعتين، وعد أن يجيء إلى ناتاشا في المساء.

فسألته ناتاشا وهي تدفعه إلى الخروج:

ـ هل تجيء حقاً؟

ـ أتشكِّين في ذلك؟ إلى اللقاء يا ناتاشا، إلى اللقاء يا حبيبتي، أنت حبيبتي إلى الأبد. إلى اللقاء يا فانيا.. ها.. عفواً لقد خاطبتك بقولي يا فانيا دون أن أنتبه إلى ذلك. ولكن اسمع يا إيفان بتروفتش، لماذا لا نتخاطب بصيغة المفرد ونحن صديقان. فلنتخاطب بعد الآن بصيغة المفرد..

ـ موافق.

ـ الحمد لله. لقد راودتني هذه الفكرة مائة مرة. ولكنني لم أجرؤ على «مفاتحتكم» فيها. ها أنا ذا «أخاطبكم» مرة أخرى بميم الجمع. ذلك أن الاقتصار على كاف الخطاب صعب جداً. لقد عبَّر تولستوي عن ذلك أجمل تعبير، حين حدثنا عن شخصين تواعدا على أن يتخاطبا بصيغة المفرد، ولكنهما لم يظفرا بذلك، فأخذا يتحاشيان الجمل التي تشتمل على خطاب أصلاً. آه يا ناتاشا! لسوف نعيد قراءة كتاب «الطفولة والمراهقة» معاً. إنه كتاب رائع جداً*.

كانت ناتاشا تطرده وهي تضحك قائلةً:

ـ هيا، هيا، اسرع. لقد نسي نفسه من شدة الفرح وهو يثرثر.

ـ إلى اللقاء، سأعود بعد ساعتين.

قال ذلك، وقبَّل يدها، وخرج مسرعاً.

قالت لي ناتاشا والدموع تهطل من عينيها:

ـ هل رأيت، يا فانيا، هل رأيت؟

مكثت مع ناتاشا حوالي ساعتين، أحاول أن أواسيها، إلى أن ظفرت بإقناعها. لا شك أن لمخاوفها ما يبررها. ولقد كان صدري ينقبض حين أفكر في وضعها. كنت أشفق عليها. ولكن ما العمل؟

وكان يدهشني أليوشا أيضاً: إنه يحبها الآن مثلما كان يحبها من قبل. إنه يحبها حباً أملأ بالعذاب، لما يداخله من ندامة وعرفان بالجميل. إلا أن حباً جديداً قد نبت في قلبه وترسَّخ. وكان يستحيل على المرء أن يتنبأ بالمصير الذي سيصير إليه هذا كله. كنت أنا نفسي أتشوق إلى معرفة كاتيا. ووعدت ناتاشا بأن أهيّىء لها فرصة التعرّف إليها.

واستجابت ناتاشا، آخرَ الأمر، لشيء من المرح، وحدثتها في جملة ما حدثتها عن نللي وماسلوبويف وبوبنوفا، وعن لقائي مع

الأمير في منزل ماسلوبويف، وعن الموعد الذي ضربته لماسلوبويف في الساعة السابعة.

فاهتمت لهذا الحديث كثيراً. وحدثتها قليلاً عن أبويها، ولكني سكتُّ عن زيارة أبيها، وأرجأت الكلام عليها إلى أن يقع شيء جديد. كان يمكن أن ترعبها فكرة مبارزة بين أبيها وبين الأمير. وقد استغربت أيضاً أن يكون الأمير على صلة بماسلوبويف، وأن يكون ماسلوبويف في شوق إلى معرفتها، رغم أن هذا كله يسهل تعليله بالظرف الراهن.

وعدت إلى بيتي في نحو الساعة الثالثة، فطالعتني نللي بوجهها العنيد الوضاء.

الفصل السادس

في الساعة السابعة تماماً كنت عند ماسلوبويف. استقبلني بذراعين ممدودتين وصيحات كبيرة. كان نصف سكران، طبعاً، ولكن الأمر الذي أدهشني خاصةً هو تلك الأشياء الخارقة التي أعدها لاستقبالي. لقد كان واضحاً أنه ينتظر قدومي. كان هناك سماور من نحاس أصفر يغلي فيه الماء، على مائدة مستديرة فرشت بغطاء ثمين. وكانت الأطباق والأقداح من بلور وفضة وخزف، تتلألأ. وعلى مائدة أخرى مفروشة بغطاء آخر لا يقل عن الأول جمالاً، كانت هناك أصناف من الحلوى، وأشربة من كييف، ومعقود، وفاكهة مسكَّرة، وعصير محفوظ، ومربيات فرنسية، وبرتقال، وتفاح؛ وجوز؛ ولوز، وفستق.. كانت المائدة معرضَ فاكهة، وعلى مائدة ثالثة مختبئة تحت غطاء ناصع البياض صُفت أنواع من المقبلات: الكافيار، والجبن، وفطائر اللحم، والنقانق، والجامبون المدخَّن، والسمك، وصُفَّ جيش عرمرم من زجاجات الخمر بأنواعه المختلفة وألوانه الجميلة: الأخضر، والأصهب، والأحمر، والأصفر.

وفي ركن من الأركان، على منضدة صغيرة مفروشة بغطاء أبيض، وضع إناءان فيهما ثلج وزجاجتان من الشمبانيا تبتردان، وعلى المائدة أمام الأريكة تتبختر ثلاث زجاجات: زجاجة سوترن، وزجاجة شاتولافيت، وزجاجة كونياك، وهي في الخمر مما غلا ثمنه، يجيئون به من قبو اليسييف. كانت ألكسندرا سيمينوفنا جالسة إلى

مائدة الشاي، وقد عنت بزينتها على بساطة، فوفِّقت في ذلك كثيراً. كانت تعرف أن تصفيف شعرها على هذه الصورة يناسبها، وكانت معتزة بذلك اعتزازاً واضحاً. فلما دخلتُ نهضت تستقبلني بشيء من الاختيال. وكان الرضى والفرح يلمعان في وجهها النضر. وكان ماسلوبويف جالساً، وقد تدثر بثوب رائع تحته ملابس نضرة أنيقة، وانتعل خفين صينيين جميلين. كان قميصه مزخرفاً، له أزرار مما يُرى في أحدث الأزياء. وقد صفَّف شعره، ودَهَنه، وفَرَقَه من جانب، على ما كان رائجاً في ذلك الحين. بُهت حين دخلت، وبلغت من ذلك أنني جمدت في وسط الغرفة بلا حراك، أنظر تارة إلى ماسلوبويف، وتارة إلى ألكسندرا سيمينوفنا التي مضى بها الفرح إلى حد النشوة.

وهتفت أخيراً في قلق:

ـ ما هذا يا ماسلوبويف؟ هل عندك سهرة؟

فأجابني بصوت فخم:

ـ لا، لا، إننا لا ننتظر أحداً غيرك.

ـ ولكن، ما هذا؟ (قلت ذلك وأنا أشير إلى المآكل) إن هذا يكفي لإطعام فيلق بكامله.

فأضاف ماسلوبويف يقول:

ـ ولإشرابة خاصة. نسيت الشيء الأساسي.

ـ أكلُّ هذا من أجلي وحدي؟

ـ ومن أجل ألكسندرا سيمينوفنا أيضاً. هي التي أرادت أن ترتّب هذا الترتيب.

فهتفت ألكسندرا سيمينوفنا، وقد احمر وجهها، دون أن تفارقه معاني الرضى:

ـ ها ها.. كنت أتوقع هذا الكلام. ألاً يمكن أن يستقبل المرء ضيفاً من الضيوف استقبالاً لائقاً! لا بد أن يجد فوراً ما يأخذه عليَّ.

ـ تصوّر أنها منذ الصباح، منذ الصباح، منذ علمت أنك آت إلينا هذا المساء، أخذت تتحرك وتضطرب.

ـ إنه يكذب. لم يقل لي ذلك في هذا الصباح، بل مساء أمس؟ حين عدتَ أمس مساءً ذكرت أنه سيأتي إلينا يقضي السهرة معنا.

ـ لا بل أنت سمعت خطأً.

ـ غير صحيح أبداً. لقد قلتُ الحقيقة وأنا لا أكذب. ثم، لماذا لا نستقبل ضيفاً من الضيوف استقبالاً حسناً؟ إننا نعيش هنا وحدنا، لا يأتي إلينا أحد، مع أن عندنا كل ما يجب. ينبغي، على الأقل، أن يعرف الناس إننا نعيش نحن أيضاً كما يعيش غيرنا.

ـ ويجب أن يعرفوا خاصةً أنك ربة بيت من طراز ممتاز، وأنك سيدة منظمة من الطبقة الأولى. تصور يا عزيزي أنني أُقحِمتُ في هذا أنا أيضاً! ألبستني قميصاً من فاخر حرير هولانده، وزينت أكمامه بجميل الأزرار، ودست في قدميّ خفّين، ودثرتني بثوب صيني، وصففت شعري ودهنته. ألاً تشم رائحة الليمون؟ لقد أرادت أن ترشني بالعطر، ولكنني لم أعد أحتمل، فتمردت، وأظهرت من السطوة ما يظهره الزوج لزوجه.

فردت ألكسندرا سيمينوفنا تقول وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة:

ـ ليست الرائحة رائحة ليمون، لقد دهنته بأطيب دهن فرنسي يباع في أحقاق صغيرة من مزخرف الخزف. أحكم بنفسك يا إيفان بتروفتش، إنه لا يسمح لي أبداً بأن أذهب إلى المسرح أو إلى حفلة رقص. إنه لا يزيد على أن يهدي إليَّ الأثواب، فماذا أصنع

بالأثواب؟ إنني أرتديها، وأروح أتنزه بها في الغرفة وحدي. وفي ذات يوم، توسلت إليه أن يذهب بي إلى المسرح، وأكثرت من التوسل حتى وافق، فلما هممنا أن نخرج، رجعت أضع الحلية على صدري، فانتهز هذه الفرصة، ومضى إلى الخزانة، فشرب قدحاً، ثم شرب قدحاً آخر، فإذا هو يسكر، فاضطررنا أن نقبع في البيت. ما من أحد يزورنا، ما من أحد. بعض الناس يأتون في الصباح لأعمال، فأدعهم يتحدثون، وأنجو بنفسي. ومع ذلك عندنا سماور، ومجموعة من أجمل الأقداح، عندنا أشياء كثيرة، جاءتنا كلها هدايا. والناس يهدون إلينا كثيراً من المؤن أيضاً، فقلما نشتري شيئاً من المقبلات: لكننا اشترينا من أجلك الفطائر والحلوى وشرائح الجامبون. يجب أن يعرف واحد من الناس على الأقل كيف نعيش! كنت طوال السنة أقول لنفسي: حين يأتينا ضيف، ضيف حقيقي، فلسوف نريه كل هذا، ولسوف نولم له وليمة، ولسوف يهنئنا الناس، ولسوف يسرنا ذلك أيضاً. لماذا دهنت هذا الأحمق؟ إنه لا يستحق! سيظل يرتدي ملابس قذرة. أنظر إلى هذا الثوب الذي دثرته به، لقد قُدّم له هدية بين الهدايا. ألاَ ترى إنه أجمل من أن يرتديه؟ هذا رجل كل ما يطلبه هو أن يسكر؛ لسوف ترى أنه سيقترح عليك الفودكا قبل الشاي.

- صحيح. فلنشرب قدحاً من شراب الذهب، فقدحاً من شراب الفضة، حتى إذا انتعشت عزيمتنا، هجمنا على أشربة أخرى.

- ألم أقل لك؟

- لا تقلقي يا بنتي العزيزة، فسنشرب أيضاً شيئاً من الشاي مع الكونياك، نخبَ صحتك.

فصرخت وهي تضرب يداً بأخرى:

ـ أنظر، أنظر. شاي الملك، ثمن الرطل منه ستة روبلات، أهداه إليه أحد التجار أول أمس، يريد أن يشربه مع الكونياك! لا تطاوعه يا إيفان بتروفتش! سأصب لك الشاي، وسترى أي شاي هو..

قالت ذلك وقامت إلى السماور تشغل نفسها به.

كان واضحاً أنهما يريدان أن يستبقياني السهرة كلها. كانت ألكسندرا سيمينوفنا تنتظر أن يزورها أحد منذ سنة بكاملها، وكانت تتهيأ للاستمتاع بمثل هذه الزيارة فرحة كل الفرح. ولكن ذلك كان لا يدخل في حساب خططي. فقلت وأنا أجلس:

ـ اسمع يا ماسلوبويف، أنا لم أجىء إليك زائراً. هناك أعمال تنتظرني. لقد قلت أنت نفسك: إن هناك أموراً يجب أن تفضي بها إليَّ.

ـ نعم، نعم، ولكن الأعمال شيء، وحديث الصداقة شيء آخر.

ـ لا يا عزيزي، لا تعتمد على هذا، سأودّعك في الساعة الثامنة والنصف. إنني مشغول. لقد وعدت...

ـ لا أصدق شيئاً مما تقول.. وكيف تتصرف معي هذا التصرف؟ وكيف تتصرف هذا التصرف مع ألكسندرا سيمينوفنا؟ أنظر إليها، ألاَّ ترى أنها صُعقت مما تقول؟ فيم حمَّلت نفسها عناء دهني بالطيب إذا كنت ستتركنا؟ وهلا تذكرت أنني أتحمل رائحة الليمون من أجل هذه الزيارة؟

ـ كفاك مزاحاً يا ماسلوبويف. وإني لأحلف لألكسندرا سيمينوفنا أنني سأجيء إليكم أتناول العشاء معكم في الأسبوع المقبل، بل يوم الجمعة إذا شئتم. أما اليوم، أيها الأخ، فقد قطعت على نفسي عهداً، أو قل ببساطة أن عليَّ أن أذهب إلى مكان ما. فما هي الأشياء التي تريد أن تفضي بها إليَّ؟

فصرخت ألكسندرا سيمينوفنا تقول بصوت حزين خجلان، وهي تمد إليَّ قدحاً من شايها الرائع، وتكاد تبكي:

ـ إذن لن تبقى سوى إلى الساعة الثامنة والنصف!

فأجاب ماسلوبويف بقوله:

ـ اطمئني يا صغيرتي. هذا الكلام كله هراء. سيبقى. قل لي يافانيا، أين تذهب دائماً؟ ماذا وراءك؟ هل يمكن أن أعرف؟ إني أراك كل يوم تركض من هنا إلى هناك، أأنت لا تعمل؟..

ـ ما شأنك أنت في هذا؟ على أنني قد أشرح لك الأمر ذات يوم. ولكن قل لي الآن: لماذا جئت إلى بيتي أمس مع أنني ذكرت لك بنفسي، وأنت تتذكر ذلك، إنني لن أكون في البيت؟

ـ تذكرت ذلك فيما بعد، وكنت قد نسيته أمس. إنني أريد فعلاً أن أتحدث إليك في أمر من الأمور، ولكنني أحرص خاصةً على أن أرضي ألكسندرا سيمينوفنا. لقد قالت لي: «الآن وقد وجدت صديقاً، فلماذا لا تدعوه إلى زيارتنا؟». وظلت تصدع رأسي بك أربعة أيام برمتها. لا شك أن الله سيغفر لي جميع ما ارتكبت من آثام جزاء رائحة الليمون هذه التي أتحملها. قلت في نفسي: إننا نستطيع أن نقضي معاً سهرة كأصدقاء. فعمدت إلى هذه الحيلة الحربية: كتبت لك أقول: إن هناك أمراً خطيراً يستدعي أن تجيء إليَّ، فإن لم تجيء لحقك ضرر كبير.

فرجوته ألاَّ يعمد بعد الآن إلى مثل هذه الحِيَل، وأن يسلك معي سبيل الصراحة. على أن ما قاله لم يقنعني كل الإقناع.

ـ ولماذا هربت مني اليوم؟

ـ اليوم كان ينتظرني عمل حقاً. لم أكذب أبداً.

ـ مع الأمير؟

فسألتني ألكسندرا سيمينوفنا، بصوت متلطف:
ـ هل أعجبك مذاق الشاي؟
كانت تنتظر منذ خمس دقائق أن أثني على شايها، ولكنني لم أفطن إلى ذلك، فقلت:
ـ عظيم يا ألكسندرا سيمينوفنا، رائع. لم أذق في حياتي مثل هذا الشاي الطيبَ المذاق.
فاحمر وجهها سروراً، وأسرعت تصب لي قدحاً آخر.
صرخ ماسلوبويف يقول:
ـ الأمير؟ إن هذا الأمير، يا عزيزي، قاذورة، إنه لص. إسمع، سأقول لك شيئاً: أنا أيضاً لص، ولكنني أستحي أن أكون مثله، أخجل أن أكون مثله. ولكن كفى، كفى. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله عنه.
ـ لكأنني تعمدت أن أجيء إليك لأسألك عنه، بين ما أحب أن أسألك. ولكنني أرجىء ذلك الآن إلى وقت آخر. لماذا ذهبت أمس إلى بيتي أثناء غيابي تحمل حلوى إلى هيلين وترقص أمامها؟ وعمَّ حدثتها أثناء ساعة ونصف ساعة؟
فقال ماسلوبويف، وهو يتلفت إلى ألكسندرا سيمينوفنا فجأة:
ـ هيلين صبية صغيرة في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، تسكن الآن عند إيفان بتروفتش.
ثم أضاف إلى ذلك وهو يلوِّح بإصبعه:
ـ انتبه يا فانيا، انتبه، ألم ترى كيف اصطبغ وجهها بحمرة شديدة حين سمعتك تقول: إنني حملت حلوى إلى فتاة صغيرة لا تعرفها: لقد صار خداها بلون الجمر، وأخذت ترتعش من شدة الاضطراب، كأننا أطلقنا رصاصاً من مسدس. أنظر إلى هاتين العينين الصغيرتين

كيف تقدحان شرراً. عبثاً تحاولين إخفاء هذه الحقيقة يا ألكسندرا سيمينوفنا، حقيقة أنك غيورة شديدة الغيرة. لولا أنني شرحت لها أن هيلين صبية في الحادية عشرة من عمرها، لشدتني من شعري فوراً ولما أنقذتني منها رائحة الليمون.

ـ ولن تنقذك!

قالت ذلك ووثبت وثبة واحدة فإذا هي أمامنا، وقبل أن يتسع وقت ماسلوبويف لحماية نفسه أمسكت بشعره وأخذت تشده شداً قوياً.

ـ خذ، خذ، إياك أن تقول أمام ضيف إنني غيورة، إياك أن تقول هذا!

كان وجهها بلون الأرجوان، ورغم أنها كانت تمزَح، فقد اهتز ماسلوبويف حقاً.

وأضافت تقول بلهجة الجد، وهي تلتفت إليّ:

ـ إنه يقول أنواعاً وأنواعاً من الكلام الوسخ.

ـ هل رأيت يا فانيا؟ هذه حياتي.. لا بد لنا، حتماً، من شيء من الفودكا.

قال ذلك بلهجة حازمة، وهو يعيد ترتيب شعره ويسرع إلى القنينة. ولكن ألكسندرا سيمينوفنا سبقته، فوثبت إلى المائدة، وصبت له بنفسها قدحاً صغيراً فمدَّته إليه وهي تضرب خده ضرباً لطيفاً متودداً. فألقى عليَّ ماسلوبويف نظرة سريعة تفيض بالخيلاء، وطقطق بلسانه، وأفرغ كأسه الصغير في جوفه مزهواً.

ثم بدأ يقول، وهو يجلس إلى جانبي على الأريكة:

ـ أما الحلوى فيصعب شرح أمرها. كنت أول أمس سكران، فاشتريتها من عند أحد البقالين، لا أدري لماذا! قد يكون سبب ذلك

إنني أردت دعم الصناعة الوطنية والتجارة الوطنية، لا أعرف على وجه الضبط. ولكنني أتذكر أنني أكنت أسير في الشارع، وأنني سقطت في الوحل، وأنني أخذت أشد شعري، وأبكي، لشعوري بأنني لا أصلح لشيء. وطبيعي أنني نسيت الحلوى، فبقيت في جيبي، إلى اللحظة التي جلست فيها على الأريكة في بيتك. وأما الرقص فهو يرجع دائماً إلى حالة السكر: لقد كنت أمس ثملاً، وحين أكون ثملاً، يتفق لي أن أرقص، إذا كنت راضياً عن حظي. هذا كل شيء، اللهم إلاّ أن تضيف إليه أن تلك اليتيمة قد أيقظت الشفقة في قلبي، وأنها لم تشأ أن تتكلم معي، كأنها غاضبة، فأخذت أرقص لأجعلها مرحة، وأعطيتها الحلوى لأسليها.

ـ ألم تفعل ذلك رغبةً في شرائها، رغبةً في أن تعرف منها شيئاً؟ اعترف بذلك صراحة: لقد تعمدت أن تأتي أثناء غيابي، لتتحدث إليها في خلوة، ولتعلم منها شيئاً، أليس كذلك؟ أنا أعرف أنك بقيت معها ساعة، وأنك قلت لها إنك تعرف أمها، وأعرف أنك طرحت عليها أسئلة كثيرة.

فغمز ماسلوبويف بعينه، وضحك ضحكة صغيرة دنيئة. وقال:

ـ كان يمكن أن يكون ذلك فكرةً حسنة.. ولكن لا يا فانيا، ليس الأمر كذلك. وبالمناسبة، لماذا لا أطلعك على الموضوع حقاً؟ ولكن ليس الأمر كذلك. اسمع أيها الصديق القديم: رغم أنني ثمل، على عادتي، فيجب أن تعرف أن فيليب فيليبتش لن يخدعك أبداً بقصد سيئ، أقول ذلك وأعنيه: أن فيليب فيليبتش لن يخدعك بقصد سيئ.

ـ وبدون قصد سيئ؟

ـ وبدون قصد سيئ! ولكن مالنا ولهذا الكلام. فلنشرب أولاً، وبعد ذلك نعود إلى الأعمال!

قال ذلك ثم أضاف بعد أن شرب:

- لم يكن لبوبنوفا تلك أي حق في الاحتفاظ بهذه الطفلة. لقد تحريت الأمر. لم يكن ثمة تبنٌ ولا ما يشبه ذلك. كانت الأم مدينة لها بمال، فأخذت الطفلة. وبوبنوفا، رغم أنها لصة ورغم أنها حقيرة، فهي غبية كسائر النساء. لقد كان للمتوفاة جواز سفر، وكان كل شيء إذن واضحاً. ويمكن أن تسكن هيلين عندك، ولكن إذا جاء أناس طيبون كرماء، يعيشون في جو أسرة، فضموها إليهم، ليتعهدوا تربيتها، كان في ذلك خير لها. ولتبق معك بانتظار ذلك. هذا ممكن. سأدبر لك الأمر كله. ولن تجرؤ بوبنوفا على أن تحرك ساكناً. لم أستطع أن أعرف أشياء دقيقة عن الأم. كل ما عرفته أنها كانت أرملة، وأن اسمها سالتسمان.

- صحيح. هذا ما قالته لي نللي.

- نعم. ذلك كل شيء.

قال ذلك، ثم أضاف يقول بشيء من الأبهة:

- لي رجاء أوجهه إليك، وآمل أن تستجيب. حدثني بمزيد من التفصيل عما تعمله: أين تذهب؟ أين تقضي أياماً بكاملها؟ أنا أعرف هذا بعض المعرفة، ولكنني أريد مزيداً من الدقة.

أدهشتني لهجة الأبهة هذه، بل أقلقتني. فقلت:

- لماذا؟ فيمَ يفيدك ذلك؟ وما معنى لهجة الاحتفال والأبهة هذه؟

- إليك الموضوع بكلمتين: إنني أريد أن أخدمك. أنظر يا صديقي، لو أردت أن أمكر بك، لو أردت أن أحتال عليك، لعرفت كيف أحملك على الكلام دون حذر. لماذا تظن أنني أمكر بك؟ لقد أدركت أنك تظن بي ذلك من سؤالك عن الحلوى منذ قليل. اسمع، لئن اصطنعت لهجة الجد والأبهة، فإنني لم أفعل ذلك لأنني أفكر

في مصالحي، بل في مصالحك أنت. فلا تشك فيَّ، بل أجبني، وقل لي الحقيقة..

ـ في أي أمر تريد أن تخدمني؟ اسمع يا ماسلوبويف: لماذا لا تحدثني عن الأمير؟ إنني في حاجة إلى معرفة بعض التفاصيل. في هذا تستطيع أن تخدمني.

ـ عن الأمير، هم.. ليكن ذلك. سأكلمك بلا لف ولا دوران: إنني بصدد الأمير إنما طرحت عليك تلك الأسئلة.

ـ كيف؟

لقد لاحظت أنه يهتم قليلاً بشؤونك. سألني عنك، بين ما سألني عنه من أمور. أما كيف عرف أنني أعرفك وأنك تعرفني، فذلك شيء لا يعنيك. المهم أن عليك أن تحذر منه. إنه يهوذا الخائن، بل هو أسوأ من ذلك. ولهذا، حين لاحظت أنه يريد أن يمد إليك شباكه، ارتعشت من الخوف. على أنني لا أعرف من الأمر شيئاً. لذلك أطلب إليك أن تطلعني على الموضوع، كي أستطيع أن أرى رأياً.. ومن أجل هذا إنما دعوتك اليوم.. هذا هو الأمر الهام، بسطته لك بصراحة..

ـ قل لي على الأقل شيئاً، قل لي على الأقل لماذا يجب أن أحذر من الأمير؟

ـ اسمع يا صديقي، إنني أتولى القيام ببعض الأعمال في بعض الأحيان، وأدع لك أن تحكم في الأمر بنفسك: لو كنت ثرثاراً أكان يثق الناس بي؟ فكيف استطيع إذن أن أقص عليك كل شيء؟ فلا تؤاخذني إذا أنا تكلمت بوجه عام، بوجه عام جداً، لا لشيء إلا لأبرهن لك على أنه شخص دنيء. ولكن حدثني أنت أولاً.

فكرت في الأمر فرأيت أن ليس هناك شيء أخفيه عن

ماسلوبويف. إن قصة ناتاشا ليست سراً. ثم إن من الممكن أن يفيدها ماسلوبويف في شيء، وقد كتمت طبعاً بعض الأمور ما أمكنني الكتمان. فكان ماسلوبويف يصغي باهتمام خاص إلى كل ما يتصل بالأمير، حتى إنه استوقفني في غير موضع، ليطرح عليَّ بعض الأسئلة؛ وهكذا رويت له القصة بغير قليل من التفصيل، متحدثاً خلال نصف ساعة على وجه التقريب.

فلما انتهيت قال ماسلوبويف:

ـ همْ. . هذه فتاة ذكية. ولئن لم تكن تقديراتها صحيحة تماماً فيما يتصل بالأمير، لقد أحسنت حين أدركت منذ البداية من هو هذا الرجل، وأحسنت حين قطعت كل علاقة به. إنها لفتاة باسلة، ناتاليا نيقولايفنا هذه! وها أنا ذا أشرب نخب صحتها! (قال ذلك وافرغ كأساً). ليس يكفي المرء أن يكون ذكيَّ العقل حتى لا يُخدع، بل لا بد له أيضاً من قلب حسّاس. وقد صدقها قلبها، فلم تخطىء الحدس. إن قضيتها خاسرة طبعاً. فالأمير سيصمد، وأليوشا سيهجرها. ولكن الشخص الوحيد الذي أشفق عليه هو أخمنيف الذي يدفع لهذا اللص الحقير عشرة آلاف روبل! من ذا الذي اهتم بقضاياه، من ذا الذي لاحق الدعوى؟ أراهن أنه تولى ذلك كله بنفسه! هه. . يا لهؤلاء الناس الذين تفيض قلوبهم بالشهامة والحماسة. إنهم جميعاً كذلك! لا يصلحون لشيء! ما هكذا يؤخذ الأمير! لو علمت بالأمر، لدللته على واحد من أولئك المحامين الصغار. . هه. .

قال ذلك وضرب المائدة بيده أسفاً. فقلت:

ـ والآن حدثني عن الأمير.

فقال:

ـ إنك لا تتكلم إلا عن الأمير! ماذا أستطيع أن أقول عنه؟ يؤسفني أنني طرحت هذا الأمر على بساط البحث. إن كل ما أردته هو أن أحذرك من هذا النذل اللئيم، أن أحررك من سلطانه إن صحَّ التعبير. إن كل من يتصل به يصبح في خطر. فكن على حذر من أمرك. هذا كل شيء. أكنت تظن أنني سأكشف لك عن أسرار باريز؟ إنك لروائي حقاً! ماذا أقول عن لص دنيء؟ كل ما أستطيع أن أقوله هو أنه لص دنيء، لا أكثر من ذلك ولا أقل. إليك مثلاً هذه القصة من قصصه الصغيرة، سأرويها لك طبعاً دون أن أذكر أسماء البلدان، ولا أسماء الأشخاص، ودون أن أحدد التواريخ تحديداً دقيقاً. أنت تعلم أن هذا الأمير، في أيام شبابه، حين كان مضطراً أن يعيش من راتب الوظيفة، قد تزوج ابنة تاجر غني. فكان يسيء معاملة هذه المرأة.. وأحب أن ألفت نظرك يا صديقي، رغم أن ذلك ليس مدار الحديث الآن، إلى أن هذا الأمير قد ظل طوال حياته يقوم بأعمال من هذا النوع. إليك مثالاً آخر: لقد سافر إلى الخارج، وهناك...

ـ انتظر يا ماسلوبويف؟ عن أية سفرة من سفراته نتكلم؟ في أية سنة؟

ـ منذ تسعة وسبعين عاماً على وجه الضبط!.. وهناك، أغرى فتاة أخرى من الفتيات، فاختطفها من أبيها، ومضى بها إلى باريس. وانظر كيف جرت حوادث القصة. كان أبو الفتاة يملك مصنعاً، أو يساهم في مشروع من هذا القبيل، لا أدري على وجه الدقة. فما أقصه عليك إنما هو استنتاجات خاصة، واستدلالات أستمدُّها من معلومات أخرى. مكر الأمير بالرجل، فحشر نفسه في أعماله، وخدعه خداعاً تاماً، فاقترض منه مالاً، لقاء أوراق تثبت عليه هذا الدَّيْن. ولكن الأمير كان يريد أن يقترض المال دون أن يرده، كان

يريد أن يسرق وكفى. وكان للرجل العجوز ابنة هي آية من آيات الجمال، وكانت هذه الابنة تحب فتى مثالياً كأنه شيللر، فتى شاعراً يتعاطى التجارة في الوقت نفسه، فتى حالماً، أو قل بكلمة واحدة فتى ألمانيا وكفى. . كان اسمه بيفركوخن.

ـ بيفركوخن؟

ـ قد لا يكون اسمه كذلك، ولكن دعنا منه الآن، ليس مدارَ الحديث عليه. المهم أن الأمير ما زال يلاحق الفتاة حتى وقعت في غرامه وجنت حباً به. وكان هو يريد أمرين: أولهما الفتاة، وثانيهما الأوراق التي تثبت دين العجوز عليه. وكانت مفاتيح جميع صناديق العجوز في عهدة الفتاة، وكان العجوز يحب ابنته حب العبادة، ولا يريد أن يزوجها، ويغار من جميع من يتقدمون إليها، ولا يتصور أن في وسعه أن ينفصل عنها؛ وكان قد طرد بيفركوخن، الفتى الإنجليزي الطريف!

ـ الإنجليزي؟ ولكن أين وقع هذا؟

ـ قلت إنه إنجليزي من قبيل التمويه، وها أنت ذا تمسك رأساً بتلابيبي. لقد وقع ذلك في سانتافي دو بوجوتا، اللهم إلاَّ أن يكون قد وقع في كراكوفيا، والأرجح أنه وقع في إمارة ناسو. . ألاَّ تعرف ناسو؟ إننا نرى اسمها على زجاجات ماء سلتس. . نعم وقع ذلك في ناسو. هل يكفيك هذا؟ المهم أن الأمير قد أغرى الفتاة، فانتزعها من أبيها، واضطرها بشدة إلحاحه إلى سرقة بعض الأوراق. هل ترى إلى الحب أيّ مدى يبلغ يا فانيا؟ كيف يمكن، يا ربّ، أن نقول إنها كانت فتاة شريفة نبيلة مهذبة! ولكن لعلها كانت جاهلة بكل ما يتصل «بالورقيات من شؤون». وكانت لا تخشى إلا شيئاً واحداً: هو أن يلعنها أبوها. فعرف الأمير كيف يداورها في هذا الأمر أيضاً، فوقَّع

لها تعهداً قاطعاً شرعياً بأنه سيتزوجها؛ وبذلك أوهمها بأنهما سيسافران في نزهة إلى حين، حتى إذا هدأ غضب أبيها، عادا زوجين، وعاشوا هم الثلاثة معاً إلى الأبد. فهربت الفتاة معه، ولعنها أبوها، ثم أفلس، وهجر فاورملك تجارته، وهجر كل شيء، ولحق بالفتاة إلى باريز. لقد كان مولَّهاً بها إلى حد الجنون.

ـ انتظر، أي فاورملك تعني؟

ـ أعني الرجل الآخر! ماذا سميناه منذ قليل؟ فاورباخ.. أو بيفركوخن، كما تريد.. وطبيعي أن الأمير ما كان يرغب أبداً في أن يتزوج الفتاة، وإلا فما عساه يقول للكونتيسة؟ وما عساه يقول للبارون بوموئيكين؟ كان لا بد إذن أن يخدعها. وهذا ما يفعله، وقد فعله بوقاحة لا نظير لها: كان يكاد يضربها.. ودعا بيفركوخن إلى زيارتهما عامداً، فكان هذا يجيء إليهما من حين إلى حين، وأصبح صديق المرأة، فكانا يبكيان ليالي برمتها، ويتوجعان مما آلا إليه من شقاء: كانا طفلين حقاً. لقد دبر الأمير ذلك كله عامداً، ففاجاءهما معاً ذات يوم، في ساعة متأخرة من المساء، فادعى أنهما على علاقة آثمة، وأخذ يشاجرهما، وقال إنه رآهما بعيني رأسه، ثم طردهما كليهما شر طردة، وسافر هو في رحلة إلى لندن. كانت المرأة يومئذ توشك أن تلد، فما انقضى على طردها إلا زمن يسير، حتى ولدت.. بنتا.. أقصد ابناً.. سمته فولوديا. وكان بيفركوخن اشبينه. وسافرت مع بيفركوخن. ولم يكن الفتى يملك إلا موارد ضئيلة. وطافت معه سويسرا، وإيطاليا، وجميع البلاد الشعرية. وكانت لا تفتأ تبكي، وكذلك هو... وانقضى على هذه الحال عدد من السنين. وكبر الصبي. أما الأمير فكان يمكن أن تسير أموره كلها على ما يجب، لولا نقطة سوداء هي أنه لم يستطع أن يسترد من

المرأة تلك الوثيقة التي يتعهد فيها بالزواج. لقد قالت له وهي تتركه: «لقد سرقتني، أيها الجبان، ولوَّثت شرفي، وها أنت ذا تهجرني، وداعاً! ولكنني لن أرد إليك تعهدك؛ لا لأنني أرغب في أن أتزوجك أبداً، بل لأنك تخاف من هذه الوثيقة. سأحتفظ بها إلى الأبد». الخلاصة أنها غضبت غضباً شديداً، أما الأمير فقد احتفظ بهدوئه. إنه ليسعد هؤلاء الأوباش أن يكون خصومهم «أناساً شرفاء». فإن هؤلاء الشرفاء يسهل خداعهم، حتى إذا اكتشفوا أنهم خُدعوا، اعتصموا بنوع من الاحتقار المتكبر، بدلاً من أن يلجأوا إلى القانون، إذا كان ذلك في الإمكان. فهذه المرأة مثلاً لاذت بازدراء متغطرس، وكان الأمير يعلم، رغم احتفاظها بالوثيقة، أنها تؤثر أن تشنق نفسها على أن تنتفع بهذه الوثيقة. فظل هادىء البال خلال مدة من الزمن. وقد بصقت هي في وجهه، ولكن فولوديا كان بين ذراعيها، فما عسى أن يصير إليه لو ماتت؟ إنها لم تفكر في هذا الأمر أبداً. وكان برودرشافت يشجعها ولا يفكر في هذا الأمر كذلك. وكانا يقرءان شيللر. وأخيراً ساءت حال برودرشافت ومات..

ـ تقصد بيفركوخن؟

ـ نعم، إلى جهنم!.. أما هي...

ـ انتظر، كم استغرقت رحلتهم؟

ـ مائتي سنة تماماً. أما هي فقد عادت إلى كراكوفيا. فرفض أبوها أن يستقبلها، ولعنها، وماتت، فرسم الأمير على نفسه إشارة الصليب فرحاً. كنت هنالك، وشربت هيدروميل، فكان يسيل على شاربيَّ ولا تدخل منه في فمي قطرة.. فلنشرب أيها الأخ!

ـ أظن أنك أنت الذي تتولى الاهتمام بهذا الأمر من أجله يا ماسلوبويف؟

ـ هل تحرص على أن أتولاه حتماً؟

ـ ولكنني لا أرى ماذا تستطيع أن تفعل!

ـ اسمع، حين عادت إلى مدريد، بعد غياب عشر سنين، وقد عادت باسم مستعار، كان يجب الحصول على معلومات عن برودرشافت، وعن العجوز. كان يجب أن نعلم هل عادت حقاً، أين هو الطفل، هل ماتت، هل تحمل وثائق إلخ.. إلى غير نهاية.. ثم هناك شيء آخر. يا له من رجل حقير! حذار منه يا فانيا. أما ماسلوبويف، فإليك ما يجب أن ترى فيه من رأى: لا يذهب بك الظن أبداً إلى أنه نذل! وهبه نذلاً (وأنا أعتقد أن جميع الناس كذلك)، فإنه ليس عدوك. صحيح أنني الآن سكران، ولكن اسمع: إذا خطر ببالك في ذات يوم قريب أو بعيد، إذا خطر ببالك الآن أو في السنة المقبلة، أن ماسلوبويف قد مكر بك (أرجوك، لا تنسى كلمة «مكر») فاعلم أن ذلك يكون بغير سوء نية. إن ماسلوبويف يسهر عليك. فلا تدع للشكوك سبيلاً إلى نفسك، بل تعال إليه، وابسط له أمرك بصراحة، كأنه أخوك وكأنك أخوه. ألاّ تريد أن تشرب؟

ـ لا.

ـ أتأكل شيئاً؟

ـ لا، أيها الأخ، اعذرني.

ـ إذن فاذهب، الساعة الآن هي التاسعة إلا ربعاً. كفاك تكبراً. لقد آن أن تمضي.

ـ ماذا؟ كيف؟ إنه يسكر ثم يطرد ضيوفه، إنه دائماً كذلك. يا لك من وقح!

بهذا صرخت ألكسندرا سيمينوفنا، وهي تكاد تبكي.

ـ لا تخلطي المخلل بالمناشف، يا ألكسندرا سيمينوفنا. سنبقى معاً، وسنتغازل. أما هو، فهو جنرال. يا فانيا، لقد كذبت، لست جنرالاً. أما أنا فوغد. أنظر إلى حالتي الآن! ماذا أنا إذ قورنت بك؟ اعف عني يا فانيا، لا تسىء الظن فيَّ، واسمح لي أن..

قال ذلك وتناولني بذراعيه وأخذ يبكي، فنهضت لأخرج، فقالت ألكسندرا سيمينوفنا يائسة:

ـ وأنا التي حضّرت العشاء! ولكنك ستجيء يوم الجمعة، أليس كذلك؟

ـ سأجيء يا ألكسندرا سيمينوفنا، أعدك بهذا.

ـ قد تشمئز من رؤيته سكران هكذا. ولكن لا تحتقره يا إيفان بتروفتش، إنه طيب القلب، إنه كما تعلم طيب القلب جداً.. وهو يحبك كثيراً. لقد أصبح لا يحدثني إلا عنك، ليل نهار. واشترى لي كتبك. لم أقرأها بعد. سأبدأ ذلك غداً. وكم يسرني أن تجيء إلينا. إنني لا أرى أحداً، فليس يزورنا أحد. عندنا كل شيء، ونبقى وحدنا. لقد استمعت اليوم إلى كل ما قلته.. كان كلاماً جميلاً.. إذن.. إلى يوم الجمعة.

الفصل السابع

أسرعت أعود إلى بيتي. لقد أثر فيَّ كلام ماسلوبويف تأثيراً شديداً. خطرت ببالي خواطر كثيرة.. فلما وصلت إلى البيت كان ينتظرني هنالك، كأنما على عمد، حادث هزني هزاً عنيفاً كصدمة كهربائية.

كان في باب العمارة التي أسكنها مصباح، فما أن دخلت الدهليز حتى وثب عليَّ من تحت المصباح وجه غريب، ما إن رأيته حتى صرخت جزعاً: وجه مخلوق جُن جنونه من الذعر فهو يرتعش ارتعاشاً شديداً، ويتعلق بي صارخاً كأنه فاقد صوابه. إنها نللي.

هتفت:

ـ ما بك يا نللي؟ ما الأمر؟

ـ إنه هناك.. فوق.. في بيتنا.

ـ لا، لا أريد، انتظر في حجرة المدخل، إلى أن يخرج.. لا أريد أن أذهب إليه.

فصعدت إلى غرفتي، وأنا أتنبأ بشيء، فلما فتحت الباب، لمحت الأمير.

كان جالساً إلى المنضدة يقرأ، أو قل على الأقل كان بيده كتاب مفتوح، فلما رآني هتف يقول بلهجة فرحة:

ـ إيفان بتروفتش، يسرني جداً أنك عدت أخيراً. كنت على وشك أن أذهب. لقد تعهدت للكونتيسة اليوم أن أجيء بك إليها، بعد أن ألحَّت عليَّ في ذلك إلحاحاً شديداً. لقد رجتني في ذلك رجاءً

حاراً، فهي في شوق كبير إلى معرفتك. فرأيت أن آتي إليك قبل أن تخرج، وأن أدعوك، ما دمت قد وعدتني بذلك. وما كان أشد خيبة أملي حين قالت لي خادمتك أنك لست في البيت. ولكنني كنت قد قطعت للكونتيسة وعداً بأن أصحبك إليها، فقلت: أنتظرك ربع ساعة، وفتحت روايتك، فإذا أنا أستغرق في القراءة وقتاً طويلاً. ما هذا يا إيفان بتروفتش! شيء عظيم! هل تعلم أنك أسلت من عينيّ الدموع؟ نعم لقد بكيت، مع أنني لا أبكي إلا نادراً.

- تريد أن أذهب إلى هناك؟ ولكن يجب أن أعترف لك أنني في هذه اللحظة.. رغم أنني لا أرجو أحسن من ذلك..

- ناشدتك الله ألاّ جئت! ما عسى أن يكون موقفي إذا لم تأتِ»! انني أنتظرك هنا منذ ساعة ونصف ساعة!.. ثم إنني في حاجة ماسة، ماسة جداً، إلى التحدث معك، في الموضوع الذي تعرفه.. إنك تعرف هذا الموضوع كله أكثر مما أعرفه.. فلعلنا ننتهي إلى قرار، لعلنا نصل إلى حل، ما رأيك؟ فكر في هذا؟ أرجوك؛ لا ترفض أن تأتي معي!

وفكرت في الأمر فوجدت أن عليّ أن أذهب إلى هناك عاجلاً أو آجلاً. صحيح أن ناتاشا تقبع الآن وحدها وأنها في حاجة إليّ، ولكن ألم ترجني هي نفسها أن أتعرف إلى كاتيا في أقرب فرصة ممكنة؟ ثم إن أليوشا قد يكون هنالك أيضا.. كنت أعرف أن ناتاشا لن يهدأ بالها ما لم آتها بأخبار كاتيا، فقررت أن أذهب، إلا أن نللي هي التي كان يشغلني أمرها.

قلت للأمير وأنا أخرج إلى السلم:

- انتظرني قليلاً.

كانت نللي هنالك، قابعة في ركن مظلم.

ـ لماذا لا تريدين أن تدخلي يا نللي؟ ما صنع بك؟ ما قال لك؟

ـ لا شيء.. لا أريد.. لا أريد.. أنا خائفة.

عبثاً حاولت أن أقنعها. فاتفقنا على أن تدخل هي إلى الغرفة متى خرجت أنا مع الأمير، وعلى أن تقفل باب الغرفة بالمفتاح من داخل.

ـ ولا تسمحي لأحد بأن يدخل، يا نللي، مهما يقل لك.

ـ هل تذهب معه؟

ـ نعم.

فارتعشت، وتناولت يدي، كأنها تود لو ترجوني ألاَّ أذهب، ولكنها لم تقل شيئاً. فقررت أن أسألها عن التفاصيل غداً.

وعدت إلى الأمير، فاعتذرت إليه، ورحت أبدّل ثيابي. فأكد لي ألاَّ حاجة بي إلى الإسراف في العناية بهندامي، ولكنه بعد أن نظر إليَّ من قمة الرأس إلى أخمص القدم نظرة فاحصة قال:

ـ ومع ذلك لا بأس أن ترتدي ملابس أكثر جدّة من هذه. أنت تعرف تلك السفاسف الاجتماعية.. يستحيل أن يتحرر الإنسان منها تحرراً تاماً... ولن ترى هذا الكمال يتحقق في مجتمعنا قريباً..

قال جملته الأخيرة هذه بعد أن لاحظ راضياً أن عندي ملابس جديدة.

وخرجنا.. ولكنني تركته على السلم، وعدت إلى الغرفة، وكانت نللي قد تسللت إليها، فودعتها مرة أخرى. كانت مضطربة اضطراباً فظيعاً. كان وجهها أزرق من فرط الاضطراب. فشعرت بقلق عليها، وحزّ في نفسي أنني أتركها.

قال لي الأمير وهو يهبط السلم:

ـ خادمتك غريبة الأطوار! هل هذه البنت الصغيرة خادمتك؟

ـ لا . . بل هي بنيّة تسكن عندي الآن.

ـ إنها غريبة الأطوار. أظن أنها مجنونة. تصور أنها في أول الأمر أجابتني بكلام مناسب، ولكنها ما إن نظرت إليّ، حتى ارتمت عليّ، وصرخت، وأخذت ترتعش، وأمسكت بتلابيبي. . كانت تريد أن تقول شيئاً، ولكنها لم تستطع ذلك. وأعترف لك بأنني خفت، وأوشكت أن أهرب، لولا أنها سبقتني إلى الهرب، ولله الحمد. لقد شُدهت. ولكن كيف تستطيع أن تحتملها؟

ـ إنها مصابة بالصرعة.

ـ ها . . إذن لا غرابة. . . ما دامت تجيئها نوبات. . .

وخطر ببالي أن مجيء ماسلوبويف إلى البيت أمس، رغم علمه بأنني لست في البيت، وزيارتي اليوم لماسلوبويف، وما رواه لي على مضض وهو سكران، وكونه دعاني إلى المجيء إليه في الساعة السابعة، وما قاله لي من أنه لا يخادعني ولا يمكر بي، وانتظار الأمير هنا منذ ساعة ونصف ساعة مع أنه ربما كان يعرف أنني عند ماسلوبويف، وكون نللي هربت إلى الشارع منه، خطر ببالي أن هذا كله يرتبط بعضه ببعض. إن هذه الأمور كلها لتستحق التفكير.

كانت عربة الأمير تنتظره عند الباب، فصعدنا إليها، ومضت بنا.

الفصل الثامن

لَم يكن الطريق طويلاً، فالبيت يقع عند جسر «التجارة». لزمنا الصمت في أول الأمر. وتساءلت: ترى كيف يبدأ الأمير الحديث. وظننت أنه سيمتحنني، سيجربني، سيحملني على الكلام. ولكنه تناول الموضوع رأساً، وبدأ يقول بلا لف ولا دوران:

ـ هناك شيء يقلقني كثيراً يا إيفان بتروفتش، أريد أن أتحدث عنه قبل كل شيء، وأن أسألك فيه النصيحة. لقد قررت منذ مدة طويلة أن أتنازل عن ربح الدعوى، وأن أرد إلى أخمنيف آلافه العشرة من الروبلات. فكيف أعمل؟

قلت في نفسي: «يستحيل أن تجهل كيف تعمل. أتريد أن تسخر مني؟». ثم أجبته بسذاجة:

ـ لا أدري أيها الأمير.. أنا مستعد، فيما يتصل بناتاليا نيقولايفنا، أن أمدك بجميع المعلومات اللازمة، أما فيما يتصل بهذا الموضوع فأنت أدرى مني، حتماً، بما يجب أن يُعمل.

ـ لا.. لا.. بالعكس. إنك تعرفهم، ولعل ناتاليا نيقولايفنا قد قالت لك رأيها في هذا الموضوع غير مرة. وهذا ما يمكن أن يوجهني ويقود خطاي أكثر من أي شيء آخر. تستطيع أن تعاونني كثيراً. إن القضية حرجة إلى أبعد حدود الحرج. إنني مستعد لأن أتنازل عن جميع حقوقي، بل لقد عزمت على ذلك عزماً قاطعاً، مهما تكن نتيجة الأمور الأخرى، هل تفهمني؟ ولكن المسألة هي:

كيف، وفي أية صورة، وعلى أي نحو أنفذ هذا التخلي؟ إن العجوز رجل متغطرس عنيد. إنه قادر على أن يحقرني جزاء ما أقدِّم له من يد، وأن يقذف المال في وجهي..

ـ ولكن قل لي من فضلك: هل تعد هذا المال مالك أم تعده ماله؟

ـ أنا ربحت الدعوى، فالمال إذن مالي.

ـ ومن ناحية ضميرك؟

ـ طبعاً أعده مالي.

قال ذلك وكأن استهتاري به قد قرصه قليلاً. ثم أردف يقول:

ـ يبدو لي أنك لا تعرف القضية معرفة عميقة. أنا لا أتهم العجوز بأنه خدعني عن سابق تصور وتصميم، اعترف لك بذلك؛ إنني ما اتهمته بهذا قط. هو الذي أراد أن يعتقد أنه أوذي في كرامته. كل ما في الأمر أنه اقترف جريمة الإهمال في أعمال عُهد بها إليه، والاتفاق الذي تم بيننا ينص على أنه مسؤول. على أن هذا أيضاً ليس أهم ما في الأمر. أخطر ما في الأمر هو تلك المشاجرات التي قامت بيننا، وتلك الإهانات التي تبادلناها؛ أي أن كرامتنا قد جُرحت. ولولا ذلك لما ألتفت إلى بضعة الآلاف التافهة تلك من الروبلات. ولكن لا بد أنك تعرف كيف بدأ هذا الأمر كله. أعترف لك بأنني أسأت الظن، وربما كان سوء ظني في غير محله (يومئذٍ)، ولكنني لم أدرك ذلك، فلم أشأ، وقد استبد بي الغضب وأهانني العجوز بكلامه الفظ، أن تفلت مني الفرصة، فشرعت في إقامة الدعوى. قد يبدو لك ذلك عملاً غير نبيل مني. ولست في معرض تبرئة نفسي، ولكنني أحب أن ألفت نظرك إلى أن الغضب، والدفاع عن الكرامة خاصة، لا يدلان أيضاً على قلة النبل، فهما أمران طبيعيان إنسانيان. وأعود فأقول لك: إنني كنت لا أكاد أعرف أخمنيف، فاعتقدت اعتقاداً

أعمى بجميع تلك الإشاعات التي تناولت ابنته وأليوشا، لذلك أيضاً ظننت أنه سرقني عامداً متعمداً. . على أن هذه الأمور تفاصيل لا حاجة بنا إلى الدخول فيها الآن. الشيء الأساسي هو أنني لا أعرف ماذا يجب أن أعمل. أن أتنازل عن المال وأن أعد شكواي عادلة في الوقت نفسه، فإن معنى ذلك أنني أهدي إليه المال إهداء. أضف إلى ذلك الموقف الحرج الذي نحن فيه بسبب نيقولايفنا. . ليس يخالجني ريب في أنه سيقذف بالمال في وجهي. .

ـ أنظر. . ما دمت تقول هذا الكلام، فمعنى ذلك أنك تعدّه رجلاً شريفاً. ويترتب على هذا أن في وسعك أن تقتنع بأنه لم يسرقك. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تمضي إليه فتقول له صراحة: إنك تعدّ شكواك باطلة؟ فإن فعلت هذا كان نبلاً منك. . ولن يزعج أخمنيف عندئذٍ أن يسترد ماله.

ـ هم. . ماله. . هذه هي الصعوبة. ماذا تريد أن أعمل؟ أن أذهب إلَيه فأقول له: إنني أعد شكواي باطلة؟ ولكن ما عسى يقول الناس عندئذٍ؟ سيقولون لي: ما دمت تعرف أن شكواك باطلة فلماذا قدمتها؟ الواقع إنني لا أستحق أن يقول لي الناس هذا الكلام. ذلك إنني كنت على حق. أنا لم أقل لأحد ولا كتبت لأحد أن أخمنيف سرقني، ولكنني ما زلت مقتنعاً بأنه أسرف في الإهمال، وبأنه لا يعرف كيف يسوس عملاً من الأعمال. وذلك المال هو مالي حقاً، لهذا يعز عليَّ أن أتهم نفسي بأنني رفعت دعوى باطلة. الخلاصة أن العجوز أراد أن يرى أنه أهين، وأنت تريد أن أستغفره عن هذه الإهانة، وهذا كثير بعض الشيء!

ـ يُخيَّل إلي أنه حين يريد شخصان أن يتصالحا. .

ـ هل تظن أن هذا سهل؟

ـ نعم.
ـ هذا صعب جداً في بعض الأحيان، خاصة و. . .
ـ خاصةً وأن ظروفاً أخرى قد أضيفت إلى المسألة. على هذا أوافقك، أيها الأمير. فيجب أن تحل قضية ناتاليا نيقولايفنا وابنك، من جميع النواحي التي تتصل بك، حتى يرتاح العجوزان، وعندئذٍ تستطيع أن تتفاهم تفاهماً صادقاً مع نيقولا سرجتش. أما وأن شيئاً لم يقرر بعد في هذا الموضوع، فليس ثمة إلا سبيل واحد، هو أن تعترف ببطلان دعواك، وأن تعترف بذلك صراحة، وربما كان عليك أن تعلن ذلك على رؤوس الإشهاد، أن تعلنه للناس عامةً. ذلك هو رأيي، أقوله لك صراحة، لأنك أنت سألتني النصح، ولا شك أنك لا تريد أن أراوغ معك. وهذا يشجعني على أن أطرح عليك هذا السؤال: لماذا يهمك أن ترد هذا المال إلى أخمنيف؟ إذا كنت تعد دعواك عادلة فلماذا ترد المال؟ اغفر لي فضولي، ولكن لهذا صلة بظروف أخرى. .
ـ ولكن ما رأيك؟ هل أنت على يقين من أن أخمنيف سيرفض هذه الآلاف العشرة من الروبلات، إذا أنا رددتها إليه دون أن أشفعها بأي اعتذار و. . و. . أي تلطيف؟
ـ أنا على يقين من ذلك.
قلت هذا وقد احمر وجهي وأخذت أرتجف من فرط الاستياء. كان لهذا السؤال الذي يحمل معنى الشك الوقح، من التأثير في نفسي مثلُ ما يمكن أن يكون لبصقة يبصقها الرجل في وجهي. أضف إلى هذه الإهانة إهانة أخرى، هي هذه الطريقة الفظة التي قاطع بها كلامي، دون أن يجيب على سؤالي ودون أن يحفل به، على عادة أبناء طبقته الراقية، كأنما أراد بذلك أن يُشعرني بأنني

أسرفت في رفع الكلفة بيني وبينه، حين طرحت عليه سؤالي على هذا النحو. كنت أبغض في أبناء هذه الطبقة تلك الأساليب وأمقتها أشد المقت، حتى لقد حاولت أن أحرر منها أليوشا.

أجاب الأمير على اندفاعي، بفتور، قائلاً:

ـ هِم.. أنت مندفع شديد الاندفاع، هناك أمور في هذه الحياة تتم على غير النحو الذي تتصوره. ثم إنني أرى أن في وسع ناتاليا نيقولايفنا أن تساعدني في حلّ هذه المسألة، فاشرحْ لها الأمر، عسى أن تسدي إلينا بالنصح.

قلت بلهجة خشنة:

ـ مستحيل.. إنك لم تتنازل فتصغي حتى النهاية إلى ما بدأت أقوله لك منذ قليل. إن ناتاليا نيقولايفنا، إذا أنت رددت المال إلى أبيها دون صدق، ودون تلطيف على حد تعبيرك، ستعتقد أنك تحاول أن ترضيهما بالمال، ترضي أباها عن ابنته، وترضيها هي عن أليوشا، أي ستعتقد أنك تدفع لهما تعويضاً..

ـ هم.. أهكذا تفهمني يا عزيزي إيفان بتروفتش؟

قال ذلك وأخذ يضحك. لماذا أخذ يضحك؟

ثم تابع يقول:

ـ عدا هذا، هناك أشياء كثيرة يجب أن نتحدث فيها. ولكن الوقت لا يتسع لذلك الآن. غير أنني أسألك أن تفهم هذا الأمر: إن هذه القضية تتصل بناتاليا نيقولايفنا رأساً، ومستقبلها كله مرهون، بعض الشيء، بما سوف نقرره أنا وأنت. لذلك، إذا كنت متعلقاً بناتاشا نيقولايفنا، فإنك لا تستطيع أن ترفض الحديث معي، ولو كان شعورك نحوي لا يشتمل على كثير من الحب. ها نحن أولاء وصلنا.. فلنرجىء الكلام إلى وقت قريب.

الفصل التاسع

كان بيت الكونتيسة بيتاً جميلاً، وكان في أثاث غُرَفِهِ كثير من الرخاء والذوق، على خلوِّه من أي ترف. ومع ذلك كان كل ما في البيت يدل على أن الإقامة فيه مؤقتة. فهو بيت مريح إلى حين، ولكنه لا يليق أن يكون المسكن الدائم الثابت لأسرة غنية، لأنه خال من مظاهر الأبهة التي يحرص عليها السادة، ويعدُّونها ضرورة لازمة حتى في أدق التفاصيل. وكان يُرَوَّج أن الكونتيسة ستقضي فصل الصيف في أطيانها (المدمَّرة المثقلة بالديون) بسمبرسك، وأن الأمير سيصحبها. كنت قد سمعت ذلك، فتساءلت قلقاً: تُرى ما عسى يصنع أليوشا حين تسافر كاتيا. ولم أكن قد تحدثت في هذا إلى ناتاشا، فإنني لم أجرؤ أن أفاتحها فيه، ومع ذلك قدَّرت من بعض العلائم أنها لا تجهله، ولكنها تسكت عنه، وتتألم صامتة. .

استقبلتني الكونتيسة استقبالاً لطيفاً جداً، ومدت إليَّ يدها برقة وهي تقول: إنها ترغب في رؤيتي بمنزلها منذ مدة طويلة. وصبّت لي بنفسها قدحاً من الشاي، من سماور من الفضة جلسنا قربه أنا والأمير وسيد من الطبقة الراقية متقدم في السن، متزين، متصنع بعض التصنُّع، يتصرف تصرف الدبلوماسيين. كان واضحاً أنهم يولونه احتراماً خاصاً جداً. إن الكونتيسة، بعد أن رجعت من الخارج، لم يتسع وقتها بعد لأن تعقد هذا الشتاء في بطرسبرغ

علاقات كبيرة، ولا أن توطد وضعها كما كانت تأمل. لم يكن هناك ضيوف آخرون، ولا جاء أحد طوال السهرة. ونظرت أبحث عن كاترين فيدوروفنا: لقد كانت مع أليوشا في الغرفة الأخرى، ولكنها ما أن علمت بقدومنا حتى جاءت، فقبّل الأمير يدها في لطف وتحبب، وقدمتني الأميرة إليها. وسرعان ما عرّف الأميرُ أحدنا بالآخر: فتاة شقراء في ثوب أبيض، قصيرة القامة، يعبّر وجهها عن نعومة وهدوء، عيناها زرقاوان صافيتان، كما قال لنا أليوشا. ولكن ليس لها من الجمال إلا نضارة الصبا. كنت أتوقع أن أرى فتاة جميلة رائعة الجمال، ولكن لم يكن فيها شيء من ذلك. وجهها بيضاوي رقيق، وقسماتها دقيقة، وشعرها كثيف وجميل حقاً، قد صففته تصفيفاً بسيطاً؛ ونظرتها عذبة يقظة، ولكنني لو رأيتها في أي مكان لمررت بها دون أن أوليها أي التفات خاص. غير أن هذه هي النظرة الأولى فحسب، وقد اتسع وقتي في ذلك المساء لإنعام النظر فيها أكثر من ذلك. مدّت إليّ يدها وهي تنظر في عينيّ بإلحاح ساذج، دون أن تقول كلمة واحدة. ففاجأتني هذه البادرة بغرابتها، وابتسمت لها بالرغم مني. لقد شعرت على الفور أنني أمام إنسانة صافية القلب. وكانت الكونتيسة تراقبها بكثير من اليقظة. وبعد أن صافحتني كاتيا، تركتني مسرعة، ومضت تجلس إلى جانب أليوشا في الطرف الآخر من الغرفة. وحين حيّاني أليوشا قال لي بصوت خافت: «لن أمكث هنا إلا دقيقة واحدة وسأذهب حالاً إلى هناك».

كان الدبلوماسي (لست أعرف اسمه وإنما أطلق عليه اسم الدبلوماسي لأسميه بطريقة من الطرق) يتحدث بهدوء ووقار وهو يشرح فكرة من الأفكار. وكانت الكونتيسة تصغي إليه باهتمام. وكان الأمير يبتسم ابتسامة الموافقة المتملقة. وكان المحدِّث يتجه بالكلام

في أغلب الأحيان إليه، ربما لأنه يعده مستمعاً جديراً به. صبوا لي الشاي وتركوني وشأني، فَسَرَّني ذلك كثيراً. كنت خلال ذلك الوقت ألاحظ الكونتيسة وقد أعجبتني في أول الأمر، بالرغم مني إن صح التعبير. لعلها قد تجاوزت مرحلة الصبا، ولكنني لم أقدِّر لها أكثر من ثمانية وعشرين عاماً. كان وجهها ما يزال نضراً، ولا شك أنها كانت في الماضي جميلة جداً. كان شعرها الأشقر الأربد ما يزال كثيفاً غزيراً، وكانت لها نظرة حلوة يمازجها نوع من الطيش والمكر. غير أنها كانت في تلك اللحظة تسيطر على نفسها سيطرة واضحة. وكانت نظرتها تشف أيضاً عن ذكاء، ولكنها تشف خاصة عن طيبة وفرح. وتراءى لي أن الملامح البارزة في طبعها هي الخفة، والظمأ إلى الملذات، ونوع من أثرة الأطفال. وكانت واقعة تحت سلطان الأمير يؤثر فيها تأثيراً كبيراً. كنت أعرف أنه قد كانت بينهما علاقة، وكنت سمعت أنه لم يكن ذلك العشق الغيور أثناء إقامتهما في الخارج، ولكن يبدو لي (وما يزال يبدو لي حتى الآن) إنه لا بد أن قد كان بينهما علاقة أخرى مستمرة، هي نوع من الاضطرار المتبادل الذي يقوم على حساب.. كنت أعلم أيضاً أن الأمير قد سئمها، ولكنه لم يقطع علاقته بها. ولعل ما يهيئانه لكاتيا (ولا شك أن المبادرة قد جاءت من الأمير) هو الشيء الذي لا يزال يربط أحدهما بالآخر. وعلى هذا الأساس إنما بنى الأمير رفضه للزواج من الكونتيسة التي لا شك أنها طالبته بأن يتزوجها، فأقنعها بأنه سيساعد على زواج أليوشا بابنتها الجميلة. هذا، على الأقل، ما أستخرجه من الأقاصيص الساذجة التي قصها على أليوشا، بعد أن استطاع أن يلاحظ بعض الأمور رغم كل شيء. وقد قدَّرت أيضاً، بالاستناد إلى أقاصيص أليوشا كذلك، أن الأمير كان يخشى الكونتيسة رغم سيطرته

الكاملة عليها، وأن هناك سبباً يدعوه إلى الخشية منها. لقد أحس أليوشا نفسه بذلك. وعرفت فيما بعد أن الأمير كان يرغب رغبة شديدة في تزويج الكونتيسة، وأن هذا من جملة الأسباب التي تحمله على إرسالها إلى أطيانها بمنطقة سمبرسك، عسى أن يجد لها هنالك زوجاً مناسباً.

كنت جالساً أصغي، وأنا أتساءل كيف يمكنني أن أخلو إلى كاترين فيدوروفنا فأكلمها على انفراد بلا إبطاء. كان الدبلوماسي يجيب على سؤال طرحته الكونتيسة، سؤال يتناول الوضع الراهن، والإصلاحات التي شُرِع فيها: أيجب أن نخشاها أم لا؟ فتكلم كثيراً، وتحدث حديثاً طويلاً، هادئاً، كأنه رجل من رجال السلطة. كان يشرح فكرته شرحاً مرهفاً بارعاً، ولكن فكرته هذه كانت مثيرة. كان يلح خاصة على أن روح الإصلاح سرعان ما ستسفر عن بعض النتائج، وأن الناس سيعودون إلى صوابهم حين يرون تلك النتائج. إن روح الإصلاح هذه ستختفي من المجتمع (أعني من قسم من المجتمع، طبعاً)، فسيدركون عند التطبيق أنهم اقترفوا خطأ، وسيعودون إلى النظام القديم بمزيد من القوة. وقال: إن تجربة هذه الإصلاحات ستكون مفيدة على كل حال، رغم أنها محزنة، ذلك لأنها ستبين أن المحافظة على الوضع القديم واجبة، ولأنها ستأتي بمعلومات جديدة، ولذلك يجب أن يتمنى المرء منذ الآن أن يمضوا بها إلى آخر حدود الطيش، وختم كلامه بقوله: «إنهم لا يستطيعون بدوننا أن يفعلوا شيئاً، وما من مجتمع أمكن أن يبقى بدوننا. لن نخسر إذن شيئاً: بل سنربح كثيراً. سننجو، سننجو، ويجب أن يكون شعارنا في هذه اللحظة: الأفضل أن تسوء الحال». فابتسم له الأمير ابتسامة تودد بعثت في نفسي الاشمئزاز. كان الخطيب راضياً

عن نفسه كل الرضى. وكان يمكن أن أرتكب حماقة فأرد على كلامه، ذلك أن قلبي كان يغلي حنقاً، لولا نظرة مسمومة من الأمير أوقفتني: لقد اختلس الأمير هذه النظرة إليَّ اختلاساً من جانب، فبدا لي أنه يتوقع أن أندفع اندفاعة غريبة طفولية وأنه ربما كان يتمنى ذلك، وأنه يسره أن يراني أعرِّض نفسي للمخاطر. وكنت في الوقت نفسه مقتنعاً كل الاقتناع بأن الدبلوماسي لن يلتفت إلى ردي، وأنه قد لا يلتفت إلى وجودي أصلاً. وشعرت بانزعاج فظيع، إلا أن أليوشا أخرجني من المأزق.

اقترب مني أليوشا بلا ضجة، ولمس كتفي، ورجاني أن أجيء ليقول لي كلمتين. فأدركت أن كاتيا هي التي أرسلته إليَّ. فما هي إلا دقيقة واحدة حتى كنت أجلس إلى جانبها. شملتني أول الأمر بنظرة فاحصة، وكأنها تقول بينها وبين نفسها: «أهذا أنت إذن؟»، ولم نعرف في اللحظة الأولى، لا أنا ولا هي، كيف نبدأ الحديث. كنت مقتنعاً بأننا متى بدأنا الكلام فلن نتوقف، بل سنظل نتحدث إلى الصباح. وتذكرت ما قاله لنا أليوشا عن «الساعات الخمس أو الست من الحديث». كان أليوشا جالساً قربنا ينتظر أن نبدأ بالكلام بفارغ صبر. فقال أخيراً وهو ينظر إلينا مبتسماً:

ـ لماذا لا تقولان شيئاً؟ أنجمعكما ثم تصمتان؟

فأجابت كاتيا:

ـ آه منك يا أليوشا.. سنتكلم حالاً. ولكن هناك أشياء كثيرة نحب، أنا وإيفان بتروفتش، أن نقولها.. فما ندري بأيها نبدأ.. لقد تأخر تعارفنا كثيراً، وكان يجب أن نلتقي منذ مدة طويلة. ما كان أشد شوقي إلى رؤيتك.. حتى لقد خطر لي أن أكتب إليك..

فسألتها وأنا أبتسم بالرغم مني:

ـ في أي موضوع؟
فأجابتني بقولها جادة:
ـ ليست الموضوعات هي ما يعوزنا. كان يمكنني، على الأقل، أن أكتب إليك لأسألك هلا تشعر ناتاليا نيقولايفنا بأنه يسيء إليها حين يتركها وحدها في مثل هذه اللحظة؟ هل يجوز له أن يسلك هذا السلوك؟ لماذا أنت هنا يا أليوشا؟ هل لك أن تقول لي لماذا أنت هنا؟
ـ سأذهب حالاً. . قلت: إنني لن أمكث إلا دقيقة واحدة. أحب أن أرى أولاً كيف تبدءان الحديث، ثم أذهب.
ـ ها نحن معاً. . . هل رأيتنا؟
قالت ذلك ثم أضافت تقول لي وهي تحمر احمراراً خفيفاً وتشير إليه:
ـ إنه دائماً هكذا. . يقول: «دقيقة واحدة فقط»، ثم، بدون أن نشعر، يبقى إلى منتصف الليل، فيكون الأوان قد فات. «لن تزعل، فهي طيبة جداً». هكذا يفكر في الأمر! هل يحسن ذلك؟ هل في هذا شيء من نبل؟
فأجاب أليوشا بلهجة حزينة كئيبة:
ـ أنا ذاهب إذا كنت تصرين على ذهابي. ولكنني كنت أتمنى لو أبقى معكما. .
ـ لسنا في حاجة إليك. . بالعكس. . هناك أمور كثيرة يجب أن نتحدث فيها منفردين. . هيا. . لا تزعل. هذا شيء لا بد منه. . أحْسِنْ فهمَ ذلك.
ـ إذا كان لا بد من هذا، فأنا ذاهب حالاً. . ليس ثمة ما يوجب الزعل. أريد أن أذهب إلى ليون دقيقة واحدة، ثم أمضي إليها فوراً.

قال ذلك ثم أردف وهو يتناول قبعته:

ـ بالمناسبة، هل بلغك يا إيفان بتروفتش أن أبي يريد أن يتنازل عن المبلغ الذي ربحه في دعواه ضد أخمنيف؟

ـ نعم بلغني... قال لي.

أنظر ما أنبل هذا العمل منه! إن كاتيا لا تصدق أنه سلك سلوكاً نبيلاً. حدثها في هذا الأمر.. إلى اللقاء يا كاتيا.. ورجائي إليك ألاّ تشكّي في صدق حبي لناتاشا. لماذا تفرضون عليَّ هذه الشروط، لماذا توجهون إليّ هذه الملامات، لماذا ترصدون حركاتي وسكناتي.. كأنكم رقباء عليّ! إنها تعرف مدى ما أكنّه لها من حب، وهي واثقة بي، أؤكد لكم ذلك. إنني أحبها بصرف النظر عن جميع الظروف. أحبها، لا أدري كيف! أحبها وكفى! لذلك يجب ألاّ تسائلوني كما يُساءل مجرم. هذا إيفان بتروفتش، فاسأليه ما دام هنا، فيقول لك إن ناتاشا غيورة، فهي تحبني ولكن حبها يشتمل على كثير من الأثرة، إنها لا تريد أن تضحي من أجلي بشيء.

فسألته دهشاً وأنا لا أكاد أصدق ما تسمعه أذناي:

ـ ماذا تقول؟

وقالت له كاتيا في شبه صراخ، وهي تضرب كفاً بكف:

ـ ماذا دهاك يا أليوشا؟

ـ نعم. ما وجه الغرابة فيما أقول؟ إن إيفان بتروفتش يعرف ذلك. إنها تصرُّ على أن أبقى معها دائماً، لا أقول إنها تصرّ على ذلك إصراراً، ولكن المرء يرى أنها تريده.

فقالت له كاتيا وقد اصطبغ وجهها بحمرة الغضب:

ـ ألاً تستحي؟ ألاً تستحي؟

ـ لماذا أستحي؟ إنك لتضحكينني حقاً يا كاتيا! أنا أحبها أكثر مما

تظن هي، ولو كانت تحبني مثلما أحبها حقاً لضحت بلذتها من أجلي. صحيح أنها هي التي تصرفني من عندها، ولكنني أرى في وجهها أنها تفعل ذلك على مضض... ولا فرق عندي بين ذلك وبين أن تمنعني من الخروج.

ـ لا، لا.. هذا الكلام لست أنت مصدره! اعترف يا أليوشا، اعترف حالاً بأن أباك هو الذي لقّنك هذا الكلام، اليوم. ولا تخادعني، أرجوك، فإن مخادعتك لا تنطلي عليّ. أليس ما قلته صحيحاً؟

ـ نعم، قال لي ذلك. وأي بأس في هذا؟ لقد حدثني حديث صداقة وحب، وظل يثني عليها طوال الوقت. حتى لقد أدهشني ذلك. أهانته إهانة شديدة، ثم هو يثني عليها!

فقلت له:

ـ وهل صدّقته، أنت يا من أعطتك ناتاشا كل ما تستطيع أن تعطي؟ إنها، في هذا اليوم نفسه، ما كان يهمها إلا أمر واحد: أن تجنبك الملل، أن لا تحرمك من فرصة الاجتماع بكاترين فيدوروفنا. لقد قالت لي ذلك هي بنفسها. ثم أنت تمضي تصدّق ما يقوله أبوك في حقها تجنياً! ألاً تستحي؟

قالت كاتيا وهي تشير إليه بيدها إشارتها إلى رجل ضائع تماماً:

ـ هذا العاق! لا يستحي أبداً من شيء.

واستأنف أليوشا يقول بلهجة شاكية:

ـ ولكن ماذا تريدين مني؟ أنت دائماً هكذا يا كاتيا: تظنين فيَّ أسوأ الظنون. وكذلك إيفان بتروفتش.. إنكما تعتقدان بأنني لا أحب ناتاشا. ولكنني حين وصفتها بالأثرة، إنما أردت أن أقول إنها تسرف في حبي، وإن هذا إفراط يؤذينا كلينا. أما أبي فلن يخدعني أبداً،

ولو أراد ذلك. لن أدع له أن يخدعني. إنه لم يصفها بالأثرة من ناحية المعنى السيئ الذي تدل عليه هذه الكلمة، ولقد فهمت ما يريد أن يقوله حق الفهم. لقد قال ما ذكرته لكما منذ لحظة نصاً، قال: إنها تسرف في حبي إلى حيث يصبح هذا الحب أثرة، وإن ذلك يثقل عليَّ، وأنه سيسيء إليها في المستقبل أكثر مما يسيء إليَّ.. وكلامه هذا حق، قاله حباً بي، لا رغبةً في الإساءة إلى ناتاشا. بالعكس، هو يرى أنها قادرة على حب عنيف لا حدود له، حبٍ يصل إلى درجة المستحيل..

فقاطعته كاتيا ولم تدع له أن يتم كلامه، وأخذت تقرّعه تقريعاً شديداً، وتُبيِّن له أن أباه لم يثنِ على ناتاشا إلا ليخدعه بالتظاهر بطيبة القلب، وأنه لا يهدف من وراء ذلك إلا إلى قطع العلاقة بينه وبينها، وإثارة حفيظته عليها. وبرهنت له، بحرارة وذكاء، على أن ناتاشا تحبه حباً عميقاً، وعلى أنه ما من حب يمكن أن يغتفر سلوكاً كسلوكه، وعلى أنه هو الأناني حقاً، لا ناتاشا. وشيئاً فشيئاً أوصلته إلى حزن شديد وندامة تامة.. كان يجلس إلى جانبنا، مطرقاً إلى الأرض، لا يجيب بشيء، منهاراً تماماً، ينم وجهه عن ألم شديد. ولكن كاتيا لم يشف غليلها.. كنت أراقبها بكثير من حب الاستطلاع. كنت أريد أن أعرف هذه الفتاة الغريبة بأقصى سرعة. إنها لطفلة حقاً، ولكنها طفلة غريبة، طفلة مؤمنة، طفلة ذات مبادىء راسخة. تحب الخير والعدالة بفطرتها حباً حاراً جارفاً. وإذا أمكن حقاً أن توصف بأنها طفلة فيجب أن تصنَّفَ في طائفة الأطفال الحالمين الذين ما أكثرهم في أسرنا. كان واضحاً أنها فكرت في الأمر قبل ذلك كثيراً. إن المرء ليتمنى أن ينفذ بنظرة سريعة إلى هذا الدماغ المفكر، فيرى كيف تختلط فيه أفكار وتصورات هي من

الطفولة بملاحظات وأفكار عاشها صاحبها (لأن كاتيا قد عاشت هذه الملاحظات والأفكار) وبأفكار أخرى لم تعشها ولا تزال تجهلها، أفكار مأخوذة من الكتب، مجردة، لعلها تظن أنها اكتسبتها من التجربة. لقد عرفت كاتيا معرفة كافية، في ذلك المساء وبعد ذلك المساء. إن لها قلباً عاتياً حساساً. كان يبدو، في بعض المناسبات، أنها تحتقر فن سيطرة الإنسان على نفسه جاعلةً الحقيقة فوق كل شيء، وقبل كل شيء. كانت ترى أن كل إكراه هو خطأ، وكانت تزهو بهذا الرأي، كما يتفق ذلك لكثير من ذوي الأهواء الجامحة، حتى بعد أن يتجاوزوا ميعة الصبا. ولكن ذلك كان يضفي عليها سحراً خاصاً. كانت تحب أن تفكر وأن تبحث عن الحقيقة، ولكنها كانت لا تدّعي بل تندفع اندفاعات طفولية، فما يملك المرء، منذ النظرة الأولى، إلا أن يحب شذوذها وأن يألفه. وتذكرت ليون وبوريس، فلاح لي ذلك كله أمراً طبيعياً. شيء غريب: إن وجهها الذي لم ألمح فيه أول الأمر شيئاً من جمال، كان في ذلك المساء يزداد في نظري جمالاً وفتنة، لحظة بعد لحظة. كان هذا الالتقاء الساذج بين الطفلة والمرأة العاقلة فيها، وكان ذلك الظمأ الطفولي الصادق إلى الحقيقة والعدالة، كان ذلك الإيمان القوي بما تصبو إليه. كان ذلك كله يضيء وجهها بنور جميل من الصدق، ويضفي عليها جمالاً أسمى، يضفي عليها جمالاً روحياً... واضح أن المرء لا يستطيع أن يستنفد بسرعة كل معاني هذا الجمال الذي لا ينكشف دفعة واحدة لنظرة غير مبالية. ولم أستغرب أن يتوله بها أليوشا، فهو لأنه لا يستطيع أن يفكر، لا بد أن يحب أولئك الذين يفكرون من أجله، بل ويرغبون من أجله، وقد احتضنت أليوشا وأصبحت وصية عليه. كان القلب النبيلُ الذي يحمله هذا الفتى ينقاد لكل ما هو

شريف نبيل جميل، وكثيراً ما عبَّرت كاتيا عن نفسها أمامه بكل ما في الطفولة من صدق ومحبة. كان أليوشا لا يملك شيئاً من إرادة، وكانت إرادتها حازمة حارة مثابرة. إن أليوشا لا يستطيع أن يتعلق إلا بأولئك الذين يمكن أن يسيطروا عليه وأن يقودوا خطاه. وهذا عينه كان من جملة الأسباب التي ربطته بناتاشا في أول العلاقة التي قامت بينهما، ولكن كاتيا تمتاز على ناتاشا بميزة كبيرة، هي أنها ما تزال طفلة، وتبدو كأنها ستظل طفلةً زمناً طويلاً. كان هذا الطبع الطفولي وهذا الذهن الحادُّ وشيء من قلة التبصر، كان هذا كله يقربها من أليوشا. وكان أليوشا يحس ذلك، فيزداد ارتباطه بها يوماً بعد يوم. وأغلب الظن عندي أنهما حين كانا يتحدثان منفردين، كانا إلى جانب المناقشات الحادة التي تثيرها كاتيا على سبيل «الدعابة»، يتكلمان أيضاً في الألعاب. ورغم أن كاتيا كانت تؤنبه في كثير من الأحيان وتسيطر عليه، فلقد كان واضحاً أنه يرتاح إلى وجوده معها. لقد كانا أكثر انسجاماً، وهذا هو الشيء الجوهري.

قال لها أليوشا وهو يمد إليها يده مودعاً:

- كفى كفى يا كاتيا. أنت دائماً في النهاية على حق. ذلك أن لك روحاً أصفى من روحي. أنا ماضٍ إليها الآن، دون أن أذهب إلى ليون. . .

- لا شأن لك بليون الآن، ما ألطفك إذ تطاوعني وتذهب.

قال أليوشا بلهجة حزينة:

- أنت ألطف من في الأرض طراً. يا إيفان بتروفتش، أريد أن أقول لك كلمتين.

ابتعدنا بضع خطوات، فقال لي بصوت خفيض:

- لقد سلكت اليوم سلوكاً مخزياً، حقيراً، دنيئاً. . أجرمت في

حق العلم بأسره، وأجرمت في حقها خاصةً. فقد عرَّفني أبي، بعد الغداء، بألكسندرين، وهي امرأة فرنسية جميلة... فاستسلمت للإغراء، وزلَّت بي القدم... ماذا أقول؟ إنني لا أستحقهما، إلى اللقاء يا إيفان بتروفتش!

وأسرعت كاتيا تقول حين عدت فجلست إلى جانبها:

ـ إنه طيب القلب نبيل النفس... ولكن دعنا من الحديث عنه الآن، فسنتكلم عنه كثيراً فيما بعد. وإنما يجب في هذه اللحظة أن نوضح هذه النقطة: ما رأيك في الأمير؟

ـ شخص كريه.

ـ هذا ما أراه أنا أيضاً. ونحن إذن متفقان في الرأي. وهذا ما يسهِّل علينا الانتهاء إلى شيء. فلنتحدث بعد عن ناتاليا نيقولايفنا.. أنت تعلم يا إيفان بتروفيتش إنني في ظلمات، ولقد كنت أنتظرك انتظاري للنور يأتي فيقشع عني هذه الظلمات. ستشرح لي كل هذه الأمور، لأنني فيما يتعلق بالنقطة الأساسية لا أملك إلا الحدس والتخمين على أساس ما يرويه لي أليوشا. وما كنت أستطيع أن أسأل أحداً في هذا الموضوع. قل لي أولاً، وهذا هو الشيء الجوهري: هل تعتقد أن أليوشا وناتاشا سعيدان معاً؟ هذا ما أريد أن أعرفه قبل كل شيء، لأنتهي إلى نتيجة، ولأعرف كيف ينبغي أن أسلك.

ـ هل يمكن أن يقول المرء شيئاً في هذا الموضوع على وجه اليقين؟

فقاطعتني قائلة:

ـ على وجه اليقين، طبعاً لا... ولكن ما هو إحساسك؟ ذلك أنك رجل ذكي جداً.

ـ أعتقد أنهما لا يمكنْ أن يكونا سعيدين.

ـ لماذا؟

ـ لأنهما لا يناسب أحدهما الآخر.

ـ هذا ما كنت أقدِّره.

قالت ذلك ثم شبكت ذراعيها وقد لاحت في وجهها كآبة عميقة، وأردفت:

ـ قصَّ عليَّ كل شيء تفصيلاً. أنت تعلم أنني أتحرق شوقاً إلى لقاء ناتاشا، لأن هناك أشياء كثيرة يجب أن أقولها لها، ويبدو لي إننا سنجد حلاً لكل شيء. إنني أتخيلها دائماً: لا بد أنها ذكية ذكاءً فذاً، ولا شك أنها جادة، مستقيمة، وجميلة. هل هذا صحيح؟

ـ نعم.

ـ كنت واثقة من ذلك. ولكن كيف استطاعت، وهي على ما وصفنا، أن تحب مثل هذا الطفل أليوشا؟ اشرح لي هذا الأمر، فإنني أفكر فيه أكثر الأحيان.

ـ يستحيل شرح ذلك يا كاترين فيدوروفنا. يصعب على المرء أن يتخيل لماذا وكيف يصبح الإنسان عاشقاً؟ صحيح أنه طفل. ولكن تعلمين إلى أي حد يمكن أن يحب الإنسان طفلاً؟ (رأيت عينيها تتفرسان فيَّ، بانتباه عميق جاد مستطلع، فشعرت بحنان يستيقظ في قلبي، وتابعت كلامي) وعلى قدر اختلاف روح ناتاشا عن روح الطفل، على قدر ما فيها من جد، سارعت إلى الافتتان به. إنه مستقيم، صادق، ساذج سذاجة هائلة، سذاجة لطيفة أحياناً. ولعلها أحبته... كيف أقول؟ لعلها أحبته بنوع من الشفقة... أن القلب الكريم يمكن أن يحب من قبيل الشفقة... على أنني أشعر بأنني لا أستطيع أن أوضح لك هذا الأمر، ولكنني سأسألك سؤالاً: أنت تحبينه، أليس كذلك؟

لقد طرحت هذا السؤال بجسارة، وكنت أحسُّ أن التعجل الذي فيه لا يمكن أن يعكِّر ما لهذه الروح الشفافة من نقاء طفولي، فأجابت بصوت منخفض، وهي تلقي عليَّ نظرة رصينة:

ـ يشهد الله أنني لا أعرف ذلك بعد. يُخيَّل إليَّ أنني أحبه كثيراً.

ـ أرأيت إذن؟ هل تستطيعين أن تفسري هذا الحب؟

فأجابتني تقول بعد لحظة من تفكير:

ـ حين يتفرّس في عيني وهو يقول لي شيئاً من الأشياء، أشعر بلذة. . أقول لك هذا الكلام، يا إيفان بتروفيتش، وأنا فتاة وأنت رجل، أليس في سلوكي هذا ما يشين؟

ـ أي ضير فيه؟

ـ صحيح، ولكن انظر إلى هؤلاء (قالت ذلك وهي تشير بعينها إلى الزمرة الجالسة قرب السماور)، إنهم لو علموا به لعدُّوه شائناً من غير شك، فهل هم على صواب أم على خطأ؟

ـ على خطأ، فما دمت لا تشعرين في أعماق قلبك بأن سلوكك معيب. . .

فقاطعتني تتعجل الكلام:

ـ هذا ما أفعله دائماً. متى راودني شك من الشكوك، سألت قلبي، فإذا كان هادئاً، هدأت أنا أيضاً. هذا ما يجب على المرء أن يفعله دائماً. وإذا كنت أخاطبك الآن بصدق كامل، كأنني أخاطب نفسي، فلأنك رجل ممتاز، ولأنني أعرف قصتك مع ناتاشا، قبل أن تحب أليوشا. لقد بكيت حين قُصت عليَّ هذه القصة.

ـ من قصَّها عليك؟

ـ أليوشا، طبعاً. وكان هو نفسه يبكي حين قصَّها عليَّ: كان ذلك جميلاً منه، أعجبني منه ذلك كثيراً: يُخيَّل إليَّ أنه يحبك أكثر مما

تحبه يا إيفان بتروفيتش. إنه بمثل هذه الأمور يعجبني. ثم إنني إذا كنت أخاطبك بمثل هذه الصراحة فلأنك رجل ذكي جداً، وفي وسعك أن تسدي إليَّ بنصائح كثيرة، وأن تضيء لي الطريق.

ـ لماذا تظنين أنني أملك من الذكاء ما يكفي لأن أكون لك كالمعلم؟

ـ انظروا ما هذا السؤال!

قالت ذلك، وراحت تفكِّر، ثم أردفت:

ـ على أنني قلت هذا كله، فلنعد إلى الشيء الجوهري. قل لي يا إيفان بتروفيتش: أنا أشعر الآن بأنني أنافس ناتاشا، أنا أعرف ذلك، فماذا أعمل؟ من أجل هذا سألتك هل هما سعيدان؟ إنني أفكر في هذا الأمر ليل نهار. إن وضع ناتاشا وضع فظيع، فظيع! لقد أصبح لا يحبها، وحبه لي يزداد يوماً بعد يوم، هذا هو الواقع. أليس كذلك؟

ـ يُخيَّل إليَّ.

ـ لكنه مع ذلك لا يخدعها. فهو يجهل أنه أصبح لا يحبها... أما هي فتعرف ذلك حتماً. لا شك أنها تتألم أشد الألم!

ـ ماذا تنوين أن تفعلي يا كاترين فيدوروفنا؟

فقالت جادةً:

ـ في رأسي احتمالات كثيرة أتخبط بينها. كنت أنتظرك بفارغ صبر، لتحلَّ لي هذه الأمور كلها. أنت تعرف القضية كلها أكثر مني. اليوم لي كالإله. لقد قلت لنفسي في أول الأمر: إذا كانا متحابين، فيجب أن يسعدا ويجب أن أضحي أنا بنفسي، ويجب أن أساعدهما. أؤكد لك ذلك.

ـ أعرف أنك ضحيت بنفسك فعلاً.

ـ نعم، ولكنني بعد ذلك، حين أخذ يتردد إليّ ويزداد تعلُّقاً بي يوماً بعد يوم، فكرت في الأمر، وما زلت إلى اليوم أتساءل هل يجب أن أضحي بنفسي أم لا؟ هذا لا يليق، أليس كذلك؟

ـ هذا طبيعي، لا بد أن يكون الأمر كذلك. لست آثمة.

ـ ليس هذا رأيي، وأنت إنما تقول ذلك لأنك امرؤ طيب جداً. أنا أرى أنني لا أملك قلباً نقياً كل النقاء. ولو كنت أملك قلباً نقياً لعرفت ما الذي يجب أن أعزم عليه. ولكن دعنا من هذا.. لقد ازددت معرفة بعلاقاتهما، حدثني في ذلك الأمير وأمي وأليوشا نفسه، فأدركت أنهما لا يناسب أحدهما الآخر، كما أيدت ذلك أنت منذ قليل.. ففكرت مرة أخرى فيما يجب أن أفعل.. ذلك أنهما إذا كانا شقيين، فالأَوْلى أن ينفصلا، فقررت أن أسألك عن كل هذا تفصيلاً، وأن أذهب بنفسي إلى ناتاشا، وأن أتخذ قراراً معها.

ـ ولكن أي قرار؟ هذا هو السؤال.

ـ سأقول لها: «أنت تحبينه أكثر مما تحبين أي شيء في العالم، فيجب إذن أن تؤثري سعادته على سعادتك. ويجب عليك إذن أن تنفصلي عنه».

ـ ولكن على أي معنى ستحمل ناتاشا هذا الكلام؟ هبي أنها اتفقت معك في الرأي، فهل تملك القوة على تنفيذه؟

ـ ذلك بعينه ما أفكر فيه ليل نهار، و... و...

قالت ذلك وأخذت تبكي فجأة. ثم دمدمت تقول، وشفتاها ترتجفان:

ـ لا تستطيع أن تصدِّق كم أشفق على ناتاشا.

لم يكن ثمة ما يضاف إلى هذا، فلزمت الصمت، وتأثرت تأثراً كبيراً، حتى لقد شعرت بحاجة إلى البكاء وأنا أراها تبكي. يا لها من

طفلة رائعة! لم أسألها عن الأسباب التي تجعلها تظن أنها قادرة على إسعاد أليوشا.

قالت بعد أن هدأت قليلاً، وما زالت تفكر بعد الدموع:

ـ تحب الموسيقى، أليس كذلك!

فقلت بشيء من الدهشة:

ـ نعم.

ـ لو كان الوقت يتسع لعزفت لك السيمفونية الثالثة لبتهوڤن. إنني أعزفها في هذه الأيام. إنها تعبِّر عن جميع هذه العواطف. إنها هي ما أعانيه تماماً. ذلك شعوري. ولكنني سأعزفها لك في مرة أخرى. أما الآن فيجب أن نتحدث.

تساءلنا كيف نهيئ لقاءها بناتاشا وكيف ندبِّر هذا الأمر كله. قالت: إنهم يراقبونها، وأنهم لن يسمحوا لها أبداً بمعرفة ناتاليا نيقولايفنا. لذلك قررت أن تعمد إلى الحيلة. إنها تمضي إلى النزهة في الصباح أحياناً والكونتيسة تصحبها في هذه النزهة دائماً على وجه التقريب. غير أنها تمتنع في بعض الأحيان عن مصاحبتها وتترك لها أن تخرج مع مربية فرنسية هي الآن مريضة، وذلك حين تكون الكونتيسة مصابةً بصداع: فيجب إذن انتظار هذا الاحتمال. وإلى أن يحين ذلك تأخذ كاتيا بإقناع الفرنسية (وهي امرأة عجوز تقوم بدور الوصيفة تقريباً)، لأنها امرأة طيبة جداً. وقد ترتب على ذلك أننا لم نستطع أن نحدد موعداً لزيارة ناتاشا.

قلت لها:

ـ لن تندمي على أنك عرفت ناتاشا. إنها ترغب هي نفسها في لقائك، وهذا ضروري، على الأقل لتعرف الشخص الذي تعهد إليه بأليوشا. لا تحزني كثيراً لهذا الأمر. فسيأتي الزمن بحل. أظن أنك

مسافرة إلى الريف، أليس كذلك؟

ـ نعم، قريباً، بعد شهر فيما أظن. إن الأمير يحرص على ذلك.

ـ هل تعتقدين أن أليوشا سيصحبكم؟

ـ هذا بعينه ما كنت أفكر فيه الآن. إنه سيصحبنا.

قالت ذلك وهي تنظر إليَّ بإلحاح.

ـ نعم...

ـ رباه، إني لا أعرف ما عسى ينتج عن هذا كله! اسمع يا إيفان بتروفيتش. سأكتب إليك كثيراً، لأقصّ عليك كل شيء. وما دمت قد بدأت تصدع رأسك بنا، فهل توافق على أن تزورنا من حين إلى حين؟

ـ لا أدري يا كاترين فيدوروفنا: ذلك رهن بالظروف. وقد لا أجيء إليكم البتة.

ـ لماذا؟

ـ لأسباب كثيرة... ذلك يتوقف خاصةً على علاقاتي بالأمير.

ـ إنه لرجل منحط.

قالت كاتيا ذلك بلهجة جازمة، ثم أردفت تسألني:

ـ ما رأيك في أن أذهب إليك أنا؟ هل يحسن هذا أو لا يحسن؟

ـ ما رأيك أنت في ذلك؟

ـ رأيي أنه لا ضير فيه.

قالت ذلك ثم أضافت مبتسمة:

ـ يمكنني أن أزورك. أقول هذا لا لأنني أحترمك فحسب، بل لأنني أيضاً أحبك كثيراً... وأستطيع أن أتعلم منك أشياء كثيرة.. إنني أشعر نحوك بعاطفة.. أليس عيباً أن أقول هذا كله؟

ـ أبداً. وأنت غالية عندي كأنك قريبة لي.

ـ إذن هل تريد أن تكون صديقي؟
ـ طبعاً.
قالت وهي تشير مرة أخرى إلى الفئة القليلة التي تحيط بالمائدة:
ـ لا شك أنهم سيعدّون هذا عيباً، إنهم يرون أن الفتاة لا يليق بها أنت تسلك هذا السلوك.
يجب أن أذكر هنا أن الأمير قد ترك لنا هذه الخلوة عامداً من غير شك، وذلك حتى نتحدث حديثاً حراً.
ومضت كاتيا تقول:
ـ إنني أعلم حق العلم أن الأمير يطمع في مالي. إنهم يظنون أنني طفلة تماماً، حتى إنهم يقولون لي ذلك صراحة. لست أوافقهم على هذا الرأي. أنا لم أعد طفلة. ما أغربهم من أناس! إنهم هم الأطفال. لماذا يضطربون هذا الاضطراب كله؟
ـ نسيت أن أسألك يا كاترين فيدوروفنا: من هما ليون وبوريس هذان اللذان يذهب إليهما أليوشا في كثير من الأحيان؟
ـ هما من أقربائي البعيدين. إنهما ذكيان جداً، شريفان جداً، ولكنهما يتكلمان كثيراً..
قالت ذلك وابتسمت.
ـ هل صحيح أنك تنوين أن تعطيهما في المستقبل مليوناً؟
ـ لقد ثرثروا في هذا الموضوع حتى أصبح لا يطاق. إنني مستعدة حقاً لتقديم تضحيات في سبيل كل ما هو مفيد، أفعل ذلك راضيةً عنه فرحةً به، ولكن لماذا كل هذا المبلغ؟ ألاّ ترى أنه مبلغ ضخم؟ على كل حال، لا أدري متى أستطيع أن أقدم لهم المال. لقد أخذوا هنالك يقسمونه، وأخذوا يفكرون في أفضل الوجوه لإنفاقه، وأخذوا يتناقشون، ويصرخون... بل إنهم ليختصمون حول هذا الموضوع.

أمر غريب حقاً! . . . إنهم على عجلة من أمرهم. . . ولكنهم، رغم كل شيء، أناس مخلصون جداً، أذكياء جداً. إنهم يدرسون. وحياتهم هذه خير من الحياة التي يعيشها غيرهم، ألستَ من هذا الرأي؟

تحدثنا مدة طويلة أيضاً. فقصت عليَّ حياتها كلها تقريباً، وأصغت إلى ما قلته لها، حتى لقد كانت تلتهم كلامي بشراهة. وكانت تسألني طوال الوقت أن أحدثها عن ناتاشا وأليوشا. وحين جاء إليَّ الأمير يسمعني أن علينا أن ننسحب، كان الليل قد انتصف. فاستأذنت بالانصراف. فصافحتني كاتيا بحرارة، وألقت عليَّ نظرة معبِّرة، ورجتني الكونتيسة أن أعود إلى زيارتها من حين إلى حين. وخرجت مع الأمير.

لا أملك أن أمنع نفسي عن إيراد هذه الملاحظة الخاصة التي قد لا يكون لها بقصتي صلة: لقد خرجت من هذا الحديث الذي دام بيني وبين كاتيا ثلاث ساعات، بقناعة غريبة ولكنها عميقة، وهي أن هذه الفتاة ما تزال طفلة، حتى لتجهل كل الجهل العلاقات السرية التي تقوم بين الرجل والمرأة. كان هذا يضفي طابعاً مضحكاً على بعض آرائها، وخاصةً على تلك اللهجة الجادة التي تصطنعها في مواجهة كثير من الموضوعات الهامة جداً.

الفصل العاشر

قال الأمير وهو يجلس إلى جانبي في عربته:

ـ راودتني فكرة. ما رأيك في أن نتعشى معاً؟

فأجبت متردداً:

ـ لا أدري يا أمير، ولكنني لا أتعشى أبداً.

فقال وهو ينظر إليّ في مكر:

ـ وطبعاً سنتحدث أثناء العشاء.

كيف لا أفهم؟ إنه يريد أن يشرح ما في نفسه، وهذا بعينه ما أنا في حاجة إليه. فقبلت.

ـ اتفقنا، خذنا إلى مورسكايا، مطعم ب..

قال ذلك للحوذي فسألته مضطرباً بعض الاضطراب:

ـ أتذهب إلى مطعم؟

ـ نعم، ولِمَ لا؟ أنا قلما أتعشى في البيت. اسمح لي أن أدعوك.

ـ ولكنني ذكرت لك أنني لا أتعشى أبداً.

ـ تستطيع أن تخرج على عادتك مرة واحدة. ثم إنني أنا الذي أدعوك.

بتعبير آخر «أنا الذي سأدفع الحساب». كنت مقتنعاً بأنه أضاف قوله هذا عامداً متعمداً. طاوعته. ولكنني عزمت عزماً قوياً على أن أدفع الحساب عن نفسي. ووصلنا. فحجز الأمير حجرةً خاصة، واختار طبقين أو ثلاثة من ألوان الطعام بحكم خبرته. كانت هذه

الأطباق غالية الثمن، وكذلك طلب زجاجة من الخمر الجيد، ولم يكن في إمكاني أن أدفع ثمن شيء من هذا كله، فطلبت نصف دجاجة وقدحاً من خمر شاتولافيت، فغضب الأمير قائلاً:

ـ ألاً تريد أن تتعشى معي؟ هذا مضحك.. عفوك يا صديقي، ولكن هذا السلوك يثير الحنق.. إنه أردأ أشكال الكبرياء. أراهن أن في سلوكك هذا شيئاً من التعصب الطبقي. أؤكد لك أنك تهينني.

فصمتّ ولم أجب بكلمة.

ـ على كل حال، لك ما تشاء. لا أريد أن أُكرهك على ما لا تحب.. قل لي يا إيفان بتروفيتش، هل يمكن أن نتحدث حديث صديقين تماماً؟

ـ طبعاً.

ـ إذن فاعلم أن هذا السلوك المسكين لا يمكن إلا أن يسيء إليك. يخطىء مثلك إذا سلك مثل هذا السلوك. أنت كاتب، والكتّاب في حاجة إلى معرفة الطبقة الراقية ولكنك تعزل نفسك عن كل شيء. لا أتحدث الآن عن نصف الدجاجة التي طلبتها، ولكنني ألاحظ أنك مستعد لقطع كل العلاقات بيئتنا. وهذا خطأ. دعنا من كونك تفوّت بهذا السلوك كثيراً من الأمور. أنت في حاجة إلى أن تعرف بنفسك ما تضعه في رواياتك: الأمراء، البارونات، المخادع.. ولكن ماذا أقول؟ لا، لا، إنكم لا تتحدثون الآن إلا عن البؤس، والمعاطف الضائعة، وناظري المحطات، والضباط الشرسين، والموظفين، والماضي، وأخلاق المؤمنين القدماء. أنا أعرف ذلك. أنا أعرف ذلك*.

ـ أنت مخطىء أيها الأمير. فإذا كنت لا أتردد إلى ما تسميه «بالمجتمع الراقي» فلأنني أولاً أشعر فيه بالضجر، ولأنني ثانياً لا

شأن لي به! ومع ذلك يتفق لي أحياناً أن أختلف إليه!

ـ أعرف أنك تذهب إلى الأمير ر.. مرة في السنة، فهناك إنما التقيت بك. ولكنك فيما عدا ذلك اليوم من أيام السنة، تظل مستنقعاً في كبريائك الديمقراطية. وهكذا تذبلون في أكواخكم.. على أنكم، والحق يقال، لا تسلكون جميعاً هذا السلوك. هناك مغامرون يبعثون في النفس الغثيان.

ـ أرجوك أن تبدل الحديث أيها الأمير، وأن تدع أكواخنا وشأنها.

ـ ها.. هاأنت تظن أنني أهينك. ألم تسمح لي أنت نفسك بأن نتحدث حديث أصدقاء. ولكن لا.. إنني لم أفعل بعد شيئاً أستحق من أجله صداقتك! هذا الخمر من طيب الخمر. هل لك أن تذوقه؟

قال ذلك وصب لي نصف قدح من الخمر.

ـ اسمع يا إيفان بتروفيتش، ليس من الحشمة أن يفرض الإنسان صداقته على أحد فرضاً، أنا أعرف ذلك حق المعرفة. ولسنا جميعاً على قدر واحد من الفظاظة والوقاحة معك، كما يُخيَّل إليك. ولكنني أعرف أيضاً حق المعرفة أنك إن جالستني هذا المساء، فلست تفعل ذلك لأنك تحبني وتستطيب صحبتي، بل لأنني وعدتك بالتحدث إليك. أليس هذا صحيحاً؟

قال ذلك وأخذ يضحك، ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ إنك تسهر على مصالح شخص من الأشخاص، فتحب أن تسمع ما سأقوله.

فقاطعته أقول وقد فرغ صبري:

ـ لم تخطىء التقدير أيها الأمير.

(لاحظت أنه من أولئك الذين إذا رأوا أحد الناس واقعاً تحت سلطانهم أشعروه بذلك رأساً، ولقد كنت واقعاً تحت سلطانه. كنت

لا أستطيع أن أذهب قبل أن أسمع منه كل ما كان ينوي أن يقوله لي، وكان هو يعرف ذلك حق المعرفة. فقد غير لهجته فجأة، فكان يزداد وقاحة واستخفافاً وسخرية).

ـ لم تخطىء التقدير أيها الأمير، فمن أجل هذا إنما جئت، ولولاه لما لبثت هنا في مثل هذا الوقت المتأخر.

كنت أريد أن أقول: لولاه لما لبثت معك على أي حال من الأحوال. ولكنني كبحت جماح نفسي، وأدرت عبارتي على وجه آخر، لا من قبيل الخوف، بل من قبيل اللطف، وبسبب ما أتصف به من ضعف مشؤوم. وفي الواقع، كيف يستطيع المرء أن يقول كلاماً فظاً لشخص من الأشخاص، وجهاً لوجه، ولو اشتهى أن يقوله وكان ذلك الشخص يستحق أن يقال له؟

خُيِّل إليَّ أن الأمير قد قرأ هذا في عيني، وأنه كان ينظر إليَّ نظرة ساخرة بينما كنت أتم جملتي، كأنه يتلذذ بجبني، وكأنه يريد بهذه النظرة أن يستفزني قائلاً: «إذن لم تجرؤ يا عزيزي، فأدرت اللجام»، ولا شك أن تقديري هذا كان صحيحاً، فما أنهيت عبارتي حتى انفجر ضاحكاً، وربت على ركبتي متلطفاً، وقرأت في نظراته قوله: «أنت تضحكني، أيها الأخ».

قلت لنفسي: «انتظر قليلاً»..

وهتف الأمير يقول:

ـ إنني اليوم مرح المزاج، لا أعرف سبب ذلك حقاً. نعم، نعم، يا صديقي، نعم. كنت أريد أن أكلمك عن ذلك الشخص. لا بد أن نتكاشف مرة، وأن نتفق على شيء، أرجو أن تفهمني هذه المرة حق الفهم. لقد حدثتك من قبل عن ذلك المال، وعن ذلك الأب الأبله، ذلك الطفل الذي عمره ستون عاماً. لقد قلت لك ذلك هكذا

هأهأها! . . أنت كاتب، ولا شك أنك أدركت. .

نظرت إليه مشدوهاً. فهو لم يكن مع ذلك ثملاً. .

وأضاف يقول:

ـ نعم، فيما يتصل بتلك الفتاة، أؤكد لك أنني أقدِّرها، بل وأحبها. صحيح أنها ذات نزوات، ولكن «لا وردَ بدون شوك»، كما كانوا يقولون منذ خمسين عاماً: إن الأشواك تخزّ، ولكن ذلك يجعلها جذابة؛ وقد عفوت عن ابني أليوشا بعض العفو، رغم أنه أحمق، وذلك لأنه صاحب ذوق. إن هاته البنات يعجبنني (قال ذلك ومصّ شفتيه مصّاً واضح الدلالة)، حتى إن لي رأياً في. . . ولكن دعنا من هذا الآن.

فهتفت أقول:

ـ يا أمير، أنا لا أفهم تبدلك المفاجىء هذا، ولكنني. . أرجوك أن تغير الحديث.

ـ ها أنت ذا تتحمس مرة أخرى! سمعاً وطاعة. . أنتقل إلى موضوع آخر! ولكنني كنت أريد أن أسألك سؤالاً، يا صديقي الطيب: هل تحمل أنت لها كثيراً من التقدير والاحترام؟

فقلت بلهجة من نفد صبره فجأة:

ـ حتماً.

ـ طيب. . وهل تحبها؟

قال ذلك وهو يكشف عن أسنانه ويغمض عينه نصف إغماض، على صورة تثير الاشمئزاز.

فصرخت أقول:

ـ أنت تنسى نفسك!

ـ طيب، سأسكت، سأسكت. . هدىء من روعك. . إنني أشعر

اليوم بفرح عجيب! منذ مدة طويلة لم أحس بما أحس به الآن من مرح ليتنا نشرب شيئاً من الشبمانيا، ما رأيك يا شاعري؟

ـ لن أشرب، لا أريد أن أشرب.

ـ بل يجب أن تشاركني سهرتي. إنني أشعر بسعادة رائعة، حتى إنني أحس بميل إلى العاطفية، ولا يمكن أن أكون سعيداً وحدي. من يدري؟ لعلنا إذا شربنا أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد هأهأهأ. . لا لا يا صديقي الفتى، إنك لا تعرفني بعد! أنا واثق أنك ستحبني متى عرفتني. أريد أن تشاطرني اليوم حزني وفرحي، ضحكي ودموعي، رغم أنني أرجو ألاَّ أبكي، أنا على الأقل. فما رأيك يا إيفان بتروفيتش؟ لاحظ أنني، إذا لم تجر الأمور على ما أشتهي، سيتخلى عني الوحي، سيختفي إلهامي، سيتبخر، فإذا وقع ذلك لم تستطع أن تعرف شيئاً. إنك لم تأتِ معي إلا لأنك تريد أن تعرف شيئاً، أليس كذلك؟ فاختر ما يحلو لك.

قال ذلك وهو يغمز مرة أخرى غمزة وقحة.

كان التهديد خطيراً، فقبلت. قلت في نفسي: «لعله يريد أن يسكرني». وبالمناسبة، يجب أن أذكر الآن هذه الشائعة التي تروج عن الأمير. والتي بلغتني منذ مدة طويلة، وهي أنه، على ما يلتزم مع الناس من دقة وأناقة في السلوك، يحب أحياناً، في الليل، أن يسكر كما يسكر حوذي، وأن يندفع في مجون حقير. . وقد رُويت لي عنه قصص فظيعة من هذا القبيل. كان يقال إن ابنه أليوشا يعرف عن أبيه أنه يشرب في بعض الأحيان، ولكنه يجهد في إخفاء ذلك عن الناس، وعن ناتاشا خاصة. وفي ذات يوم، زلّ لسانه أمامي ولكنه ما لبث أن غير الحديث، ولم يجب على ما طرحت عليه من أسئلة. ثم إنني سمعت عن هذا الأمر من غير أليوشا، ويجب أن

أعترف أنني لم أصدقه حتى ذلك اليوم. وكنت أنتظر ما سيقع.

جاؤونا بالشمبانيا، فملأ الأمير كأسين.

وقال وهو يذوق الشمانيا:

ـ بنت فاتنة، فاتنة، رغم أنها عنفت عليَّ قليلاً: ولكن هاته البنات اللذيذات يزددن سحراً في مثل تلك اللحظات. لا شك أنها ظنت أنها أربكتني في ذلك المساء، هل تتذكر؟ وأنها فتتني تفتيتاً.. هأهأهأ!. ما كان أروع حمرة وجهها؟ هل أنت خبير في النساء؟ إن الاحمرار المفاجىء يجمّل الخدين الشاحبين، هل لاحظت ذلك؟ آه منك، ها أنت ذا تغضب مرة أخرى...

قلت وقد أصبحت لا أستطيع أن أكبح جماحي:

ـ نعم، ولا أريد أن تكلمني عن ناتاليا نيقولايفنا.. لا تكلمني عنها بهذه اللهجة على الأقل.. لا.. لا أسمح لك بذلك.

ـ طيب.. طيب.. سأغير موضوع الحديث، إرضاءً لك.. أنا أمرؤ ليِّن العريكة، مرن كالعجين. سنتحدث عنك. إنني أشعر نحوك بحب. ليتك تعرف ما أحمله لك من اهتمام الصديق بصديقه مخلصاً.

فقاطعته قائلاً:

ـ أليس الأَوْلى، يا أمير، أن نتحدث في الموضوع؟

ـ تعني قضيتنا؟ إنني أفهمك من نصف كلمة يا صديقي. ولكنك لا تعلم يا صديقي أننا حين نتحدث عنك الآن، نقترب كثيراً من الموضوع، فلا تقاطعني، ودعني أتمّ كلامي. كنت أريد أن أقول لك، أيها الصديق الغالي، أن من يعيش مثلما تعيش يضيع نفسه لا محالة. اسمح لي أن ألامس هذه المسألة الدقيقة، فإنما أنا أفعل ذلك من باب الصداقة. أنت رجل فقير، تتقاضى ثمن روايتك من

الناشر سلفاً، فتسدد ديونك الصغيرة، وتنفق الباقي على تبلغك بالشاي وحدها ستةَ أشهر، وتتقرقف من البرد في غرفتك تحت السقف، بانتظار طبع روايتك في مجلة الناشر. أليس ما أقوله صحيحاً؟

ـ لنسلم بأنه صحيح، ولكن. .

ـ هذا أشرف من أن تسرق، وأن تتذلل، وأن تسمسر، وأن تحتال، إلخ إلخ، أنا أعرف ما كنت ستقوله. كل ما يمكن أن تقوله قد كتب بحبر على ورق منذ زمان طويل جداً.

ـ دعك إذن من الحديث في شؤوني. ليس عليَّ أنا، أيها الأمير، أن أعلمك الأناقة في معاملة الناس.

ـ طبعاً لا. . ولكن ما حيلتي، إذا كان لا بد لنا من ملامسة هذا الوتر الحساس؟ يستحيل بغير هذا. دعنا من الغُرَفِ التي تحت السقوف على كل حال. . أنا شخصياً لا أحبها كثيراً، إلا في بعض المناسبات (قال ذلك وانفجر يضحك ضحكة تثير الاشمئزاز). ولكن هناك شيء يدهشني: أي لذة تجد في أن تمثل أدواراً ثانوية؟ أعرف أن أحد كُتَّابكم قال في كتاب له، أذكر ذلك، إن أكبر مأثرة من مآثر الإنسان هي أن يعرف كيف يقتصر في الحياة على القيام بدور «كومبارس»، قال ذلك أو قال شيئاً من هذا القبيل، وقد سمعت أيضاً حديثاً يدور على هذه الفكرة. ولكن اسمع يا عزيزي: لقد انتزع أليوشا منك خطيبتك، أعرف أنا ذلك، ثم ها أنت ذا، يا شاعراً كشيللر، تمزق نفسك أربع مزقٍ من أجلهما. تقدم لهما ضروباً من الخدمات، وتكاد تكون بينهما كساعي البريد يوصل الرسائل. عفوك يا صديقي، إنني أعدّ عملك هذا نوعاً من الكرم الفاسد. كيف لا تسأم هذا الوضع؟ كيف لا تشعر بشيء من الخزي فيه؟ لو كنت في

مكانك، لمتُّ غيظاً. . خاصةً وأن هذا عار. . عار. .

فصرخت وقد خرجت عن طوري من فرط الحنق:

ـ أمير، يُخيَّل إليَّ أنك ما جئت بي هنا لتحقرني.

ـ لا يا صديقي، لا. وإنما أنا في هذه اللحظة رجل خبير يريد لك السعادة. اسمع، إنني أريد أن أدبر كل شيء. ولكن دعنا من هذه القصة كلها الآن، واصغِ إلى كلامي حتى النهاية، محاولاً أن تمنع نفسك من الغضب ولو دقيقتين. ما رأيك في أن تتزوج؟ ها أنت ذا ترى أنني أتحدث في شيء آخر. لماذا تنظر إلي دهشاً؟

فأجبته وأنا أنظر إليه مشدوهاً حقاً:

ـ أنتظر أن تنهي كلامك!

ـ أنهيت كلامي. . أريد أن أعرف ما عسى أن تقول لو جاء صديق يريد لك السعادة مخلصاً، فعرض لك فتاة جميلة، واقترح عليك أن تتزوجها: الفتاة جميلة، ولكن لها تجربة ما. فتاة من نوع ناتاليا نيقولايفنا مثلاً. . مع تعويض مناسب طبعاً. (لاحظ أنني أتكلم في شيء آخر لا في موضوعنا) ما عساك أن تقول في هذا؟

ـ أقول. . إنك مجنون.

ـ هأ هأ هأ. . . يحسب من يراك أنك تهمّ أن تضربني!

لقد كنت مستعداً حقاً لأن أهجم عليه. فلقد فقدت قدرتي على مزيد من الصبر. كنت أرى فيه حيواناً حقيراً، حشرة ضخمة أرغب رغبة جامحة في سحقها. كان يتلذذ، ويعبث بي عبث القطة بالفأرة، ويعتقد أنني أسيره. أدركت أنه يستمتع ويتلذذ بالوقاحة والسفاهة والغطرسة التي سفر عنها أخيراً أمامي. كان يريد أن يتلذذ باندهاشي وذعري. كان يمحضني الاحتقار صرفاً ويهزأ بي.

لقد أحسست منذ البداية أن كل هذا كان مقصوداً لهدف من

الأهداف. ولكن كان لا بد لمن هو في وضعي من أن يصغي إليه حتى النهاية مهما كلف الأمر. إن ذلك في مصلحة ناتاشا، وينبغي لي أن أتحمل كل شيء، فربما انتهت القضية كلها، في هذه اللحظة نفسها، إلى حل. ولكن كيف أستطيع أن أسمع هذه الأمازيح الدنيئة الحقيرة في حقها، كيف أستطيع أن أتحملها هادئاً؟ أضف إلى ذلك أنه كان يدرك كل الإدراك أنني مضطر إلى الإصغاء إليه حتى النهاية، وكان هذا يفاقم الإهانة. قلت في نفسي: «على كل حال هو في حاجة إليّ أيضاً» فأخذت أرد عليه بلهجة قاطعة عنيفة. ففهم ذلك. فقال وهو ينظر إليّ جاداً:

ـ اسمع يا صديقي الشاب: إننا لا نستطيع أن نستمر في الكلام بهذه الطريقة. الأحسن أن نتفاهم: إنني أنوى أن أشرح رأيي في عدد من الأمور، ولكن يجب أن توافق مشكوراً على الإصغاء إليّ حتى النهاية، مهما يكن كلامي. أريد أن أعبّر عن فكري على النحو الذي أحب، وهذا أمر لا بد منه في الظروف التي نحن فيها، فهل تصبر علي قليلاً يا صديقي الشاب؟

سيطرت على نفسي وسكتّ، رغم أنه أزعجني بنظرته القارصة الساخرة التي كانت تريد أن تحضني على اعتراض عنيف. ولكنه فهم أنني قبلت البقاء، فتابع يقول:

ـ لا تزعل مني يا صديقي! ما الذي تأخذه عليَّ؟ أليس هو هذا المظهر الذي أصطنعه فحسب؟ إن معنى الكلام يظل واحداً، سواء أخاطبتك بأدب معطر أم خاطبتك كما أخاطبك الآن. أنت تحتقرني، أليس كذلك؟ فانظر ما تنطوي عليه نفسي من صفاء النية وصراحة اللسان وطيب القلب! إنني أعترف لك حتى بنزواتي الطفولية. نعم يا عزيزي نعم، قليلاً من طيب القلب منك، فنتّفق ونتفاهم أخيراً مرة

واحدة. لا تُدهش لما أقول. إن هذه البراءات وهذه الاندفاعات الشعرية من جانب اليوشا، هذه القصة الرومانسية كلها، هذه المراتب التي بلغتها تلك العلاقة اللعينة بناتاشا، (وهي فتاة ساحرة، من جهة أخرى)، هذا كله قد اضجرني وأزعجني حتى صرت، بالرغم مني، مفتوناً بانتهاز الفرصة للعبث قليلاً بهذا الموضوع كله. وقد عرضت الفرصة، فانتهزتها. زد على ذلك أنني أحببت أن أفتح نفسي لك. هأ هأ هأ..

ـ إنك تدهشني أيها الأمير، أكاد أنكرك ولا أعرفك. إنك بهذه الصراحة غير المتوقعة أشبه بمهرِّج.

ـ هأ هأ هأ.. لست على خطأ تام! تشبيه ظريف! هأ هأ هأ، إنني في عيد، يا صديقي، إنني في عيد. إنني سعيد راضٍ. وأنت يا شاعري يجب أن توليني كل ما تقدر عليه من سماحة.

وأضاف يقول بلهجة جازمة، وقد بدا عليه الرضى كله، وصبّ قدحاً من الخمر:

ـ ولكن فلنشرب. إعلم يا صديقي أن تلك السهرة الغبية في بيت ناتاشا ـ هل تتذكر؟ ـ قد دمرتني تدميراً. صحيح أن ناتاشا قد أظهرت كثيراً من اللطف، ولكنني خرجت من تلك السهرة أحمل حقداً فظيعاً، ولا أحب أن أنسى هذا الحقد، لا أن أنساه ولا أن أخفيه.. سيأتي يوم قريب، ما في ذلك شك... ولكن دعنا من هذا الآن. كنت أريد أن أقول لك، في جملة ما أريد أن أقوله: إن في طبعي خصلة ما تزال تجهلها: إنني أمقت جميع تلك السذاجات التافهة الرخيصة، أمقت جميع تلك الغراميات الشعرية.. وكان من أجمل مُتَعي دائماً أن أسبق إلى العزف على هذا الوتر، وأن أسرف في بذل الملاطفة والتشجيع لشخص عاطفي كشيللر، يظل شاباً إلى الأبد، ثم

إذا أنا، فجأة، أحيِّره وأوقعه في الاضطراب، إذ أخلع عن وجهي القناع، فما يرى تحت القناع شوقاً ولا وجداً ولا نشوة، بل كشرات ولساناً ممدوداً، حيث لا يتوقع ذلك. ماذا؟ ألاَّ تفهم هذا؟ هل يبدو لك هذا شيئاً سخيفاً دنيئاً؟

ـ نعم.

ـ أنت رجل صريح. ولكن ما عساي أفعل لهم وهم يعذبونني؟ أنا أيضاً صريح بغباوة. ولكن هذا طبيعي... ثم إنني أريد أن أقصَّ عليك أطرافاً من حياتي، عسى أن تزداد فهماً لي، وسيشوقك ذلك حتماً. نعم، قد أكون أشبه بمهرج، ولكن المهرج صريح، أليس كذلك؟

ـ اسمع يا أمير، لقد تأخر الوقت، وحقاً..

ـ هوه! ما أقل صبرك. فيم هذه العجلة؟ دعنا نستمر في حديثنا هذا، على مودة وصدق وإخلاص، أمام قدح من الخمر، نجوى صديقين. هل تظن أنني سكرت؟ لك أن تظن ذلك، وهذا أفضل أيضاً. هأ هأ هأ! حقاً.. إن هذه الاجتماعات التي تتم بين الأصدقاء تظل في الذاكرة مدة طويلة لا تبرحها، وأن المرء ليجد كثيراً من اللذة في تذكرها؟ أنت رجل شرير، يا إيفان بتروفيتش، ليس لك عاطفة، ليس لك إحساس. ما قيمة ساعة أو ساعتين تنفقهما من أجل صديق مثلي! زد على ذلك أن هذا يتصل بموضوعنا... كيف لا تفهم ذلك؟ كيف لا تفهمه ثم تدعى أنك كاتب!.. يجب عليك أن تبارك هذه الفرصة التي سنحت لك. تستطيع أن تتخذني نموذجاً. هأ هأ هأ... يا رب ما أجملني بهذه الصراحة اليوم!

كان واضحاً أنه بدأ يسكر. لقد تغير وجهه، فاكتسى طابع الكره والبغض. إذا نظرت إليه أدركت أنه يريد أن يجرح، أن يقرص، أن

يعض، أن يسخر، قلت في نفسي: «من الأفضل أن يسكر. فالسكران يقول دائماً أكثر مما يجب أن يقول». ولكنه كان مالكاً زمام عقله.

أخذ يقول وهو ظاهر الاغتباط بنفسه:

ـ يا صديقي، اعترفت لك قبل قليل، وربما كان ذلك الاعتراف في غير محله، اعترفت لك بأنني أرغب أحياناً في أن مدَّ لساني. فشبهتني عندئذ، يا لهذا الصدق الساذج البسيط، شبهتني بمهرج. وقد أطربني هذا التشبيه صراحة. ولكنك إذا لمتني الآن أو إذا أدهشك أنني فظ غليظ معك في هذه اللحظة، أو ربما قليل الأدب، كفلاح، وذلك لأن لهجتي قد تغيرت فجأة، فإنك تظلمني كل الظلم. أولاً لأن هذا يحلو لي، وثانياً: لأنني لست الآن في بيتي، بل أنا الآن معك. أعني أننا الآن نعيِّد، كما يعيِّد صديقان، وثالثاً: لأنني أحب النزوات. هل تعلم أنني اشتغلت قديماً في الميتافيزيقا وفي أعمال البِّر، لمجرد النزوة، وأنني كدت أعتنق عين ما تعتنقه أنت من آراء؟ على أن هذا قد وقع لي منذ مدة طويلة جداً، في أيام الشباب: ذهبت إلى أطياني أحمل أهدافاً إنسانية، وكنت بطبيعة الحال في سأم شديد، ولن تصدقني إذا رويت لك ما وقع لي عندئذٍ. لقد أخذت، لسأمي، أعاشر الفتيات الجميلات. لماذا تكشر؟ يا صديقي نحن نتكلم الآن وحدنا! والمرء حين يعيِّد يفك أزراره. وأنا امرؤ أحمل طبعاً روسياً، صريحاً كل الصراحة، أنا وطني، أحب أن أحلّ أزراري. ثم إن على الإنسان أن يعرف كيف ينتهز فرصة التمتع بالحياة. لسوف نموت، وماذا بعد الموت؟ إذن لقد أخذت أغازل البنات. ما زلت أتذكر راعيةً كان زوجها فلاحاً شاباً جميلاً. لقد أمرت بمعاقبته عقاباً صارماً، ثم أردت أن أرسله

إلى الخدمة (هذه شيطنات قديمة يا شاعري)، ولكنني لم أرسله.. لأنه مات في مستشفاي.. كنت قد بنيت مستشفى رائعاً يتسع لاثني عشر سريراً، مستشفى نظيفاً، فرشت أرض غرفه ببلاط من خشب، لقد هدمته منذ مدة طويلة، ولكنني كنت أيامئذٍ أعتز به اعتزازاً شديداً: كنت من رجال البِرّ والإحسان. أوشكت أن أميت الفلاح الصغير تحت السياط بسبب امرأته، لماذا تقطب حاجبيك من جديد؟ هل تشمئز من هذا؟ هذه الأعمال تثير عواطفكم النبيلة؟ هدىء روعك! إن ذلك كله مضى وانقضى. لقد فعلته في عهدٍ كنت فيه رومانطيقياً، في عهد أردت فيه أن أكون محسناً إلى الإنسانية، وأن أؤسس جميعة للبِرّ.. كنت قد سلكت هذه الطريق. كنت أيامئذ آمر بجلد الناس. أما الآن فلا يمكن أن أفعل ذلك. الآن يكفي أن أكشر؛ إننا جميعاً نكشر؛ هذا ما يريده العصر الراهن. ولكن الشيء الذي يضحكني حقاً هو ذلك السخيف أخمنيف. لا أشك في أنه عرف قصتي تلك كلها مع الفلاح. ولكنه لطيب نفسه التي لعلها صُنِعت من سكَّر، ولأنه كان في ذلك الوقت متعلقاً بي يتغنى بمدائحي، قرر أن لا يصدق شيئاً من تلك القصة، ثم لم يصدق منها شيئاً، أي أنه لم يصدِّق الواقعة، وظل يدافع عني خلال اثنتي عشرة سنة، إلى أن جاء دوره، هو. هأ هأ هأ.. ولكن هذا كله سخف.. فلنشرب يا صديقي العزيز. قل لي: هل تحب النساء؟

لم أجب بشيء، واكتفيت بالإصغاء إليه. كان قد بدأ زجاجة ثانية.

ـ أما أنا فأحب أن أتحدث عن النساء أثناء العشاء. أريد أن أقدمك، بعد أن تنهض عن المائدة، إلى امرأة تسمى مدموازيل فيليبرت، هه؟ ما رأيك؟ ولكن ما بك؟ لماذا لا تريد حتى أن تنظر إليَّ؟ هم..

قال ذلك وأطرق يفكر. وفجأة، رفع رأسه، وألقى عليَّ نظرة معبّرة وأردف يقول:

- اسمع يا شاعري. أريد أن أكشف لك سراً من أسرار طبيعتي التي يظهر أنك تجهلها جهلاً تاماً. أنا واثق من أنك تعدّني رجلاً فاسقاً، بل لعلك تعدّني رجلاً وَغْداً، شيطاناً من شياطين الفساد والرذيلة. ولكنني سأقول لك شيئاً! لو أمكن أن يتوصل كل منا (وهذا مستحيل بحكم الطبيعة الإنسانية) إلى الكشف عن جميع أفكاره، إلى الكشف عن جميع هذه الأفكار دون أن يخشى أن يطّلع الناس لا على ما لا يجرؤ أن يقوله لأحد، ولا على ما لا يجرؤ أن يقوله لأعز أصدقائه فحسب، بل أيضاً على ما يخشى أن يعترف به أحياناً لنفسه، لخرجت من الأرض عفونة تبلغ من النتانة أنها تخنقنا جميعاً. ومن ثم تلاحظ - أقول هذا على سبيل الاستطراد - لماذا كانت مواضعاتنا الاجتماعية ذات قيمة ثمينة جداً. إن لهذه المواضعات معنى عميقاً، لا أقول أخلاقياً، فلن أذهب بعيداً إلى هذا الحد، ولكن أقول إنها تصون المجتمع وتحقق له الراحة، وهذا أفضل، لأن الأخلاق ليست في جوهرها شيئاً آخر غير الراحة والرخاء، أعني أنها اختُرعت لغرض واحد هو هذه الراحة وهذا الرخاء. ولكن دعنا من المواضعات الآن، وسنعود إلى الكلام عليها في فرصة أخرى، إنني استطرد وأرجو أن تذكرني بهذا الموضوع فيما بعد. وأوجز فأقول: إنك تتهمني بالرذيلة والفساد والفسق والخروج على الأخلاق، مع أنني في واقع الأمر قد لا يكون لي من ذنب إلا أنني أصدق من الآخرين. هذا كل شيء، فأنا أعترف بأمور يخفيها الآخرون حتى عن أنفسهم، كما قلت لك منذ هنيهة. هذا يسيء إليَّ، ولكنه يطيب لي.

قال ذلك ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ على كل حال يجب أن لا تقلق كثيراً، فلقد قلت: إنني كنت «آثماً» ولست أستغفر عن أثمي البتة. لاحظ شيئاً آخر أيضاً: إنني لا أريد أن أحرجك، إنني لا أسألك هل عندك أسرار من هذا القبيل، لأبرر نفسي بما تقص عليَّ من أسرار. إنني أسلك سلوكاً، سلوكاً نبيلاً.. إن سلوكي دائماً نبيل بوجه عام.

ـ إنك تهذي، هذا كل شيء.

قلت له ذلك وأنا أنظر إليه نظرة احتقار.

ـ أهذي؟ هأ هأ هأ. هل تريد أن أقول لك فيم كنت تفكر في هذه اللحظة. كنت تتساءل لماذا أتيت بك إلى هنا، ولماذا فتحت لك قلبي فجأة بلا سبب. هل هذا صحيح؟

ـ صحيح.

ـ ستعرف الجواب فيما بعد.

ـ كل ما في الأمر أنك أفرغت في جوفك زجاجتين تقريباً و.. ثملت.

ـ تريد أن تقول: سكرت. هذا ممكن. «ثملت»! هذه الكلمة أجمل من كلمة سكرت. إلا ما أدمث أخلاقك! ولكن يبدو لي أننا نستأنف التشاجر، وكنا قد لامسنا موضوعاً شائقاً جداً! نعم يا شاعري، إذا كان لا يزال في هذا العالم الأدنى شيء جميل لذيذ فهو النساء.

ـ قل لي يا أمير، أنا لم أفهم حتى الآن لماذا خطر ببالك أن تختارني نجياً تفضي إليه بأسرارك.. وشهواتك.

ـ هم.. لقد وعدتك بأن تعرف الجواب فيما بعد. لا تقلق. وهبني فعلت ذلك بدون أي سبب! إنك شاعر، وتستطيع أن

تفهمني، وقد سبق أن حدثتك عن هذا من قبل. إنها للذة عظيمة أن يخلع المرء قناعه فجأة، وأن يسفر عن وجهه لشخص آخر حين يكون في حالة لا يتنازل فيها حتى لأن يشعر بالحياء أمام ذلك الشخص الآخر. سأقص عليك هذه النكتة: يُحكى أنه كان في باريس موظف مجنون عهدوا به إلى مستشفى للمجانين حين تأكدوا أنه مجنون. إليك ما كان تخيَّله هذا الرجل تحقيقاً للذته حين بدأ يفقد عقله: كان يجلس في بيته عارياً كل العري، كأبينا آدم، ولا يحتفظ إلا بحذاء واحد في أحد قدميه، ثم يلقي على جسمه معطفاً واسعاً يتهدل حتى كعبيه، ويخرج إلى الشارع رزين المظهر جاداً كل الجد. فإذا رآه راء من بعيد لم يحسبه إلا رجلاً كسائر الرجال يتنزه بهدوء مرتدياً معطفاً واسعاً على ما أحب له هواه، ولكنه كان متى صادف أحداً من الناس في مكان منعزل، حاذاه دون أن يقول شيئاً، وفي وجهه الجد والتفكير العميق، ثم وقف فجأة أمامه، فأزاح معطفه عن جسمه، وظهر عارياً تماماً.. كان ذلك يدوم دقيقة، ثم يتلفع الرجل بمعطفه مرة أخرى، دون أن يقول كلمة واحدة، ودون أن تهتز في وجهه عضلة ويبتعد عن صاحبه المتسمِّر في الأرض من الدهشة، يبتعد عنه بخطى هينة سهلة، كخطى الطيف في مسرحية هملت، وكان يفعل ذلك مع جميع الناس، رجالاً ونساءً وأطفالاً. وكان هذا كل لذته. إن لذة من هذا النوع هي ما يجده المرء إذ يحيِّر على حين غرة رجلاً كشيللر ماداً له لسانه من حيث لا يتوقع ذلك. حيَّر؟ ما هذه الكلمة؟ لقد قرأت عن هذا الموضوع في أدبكم المعاصر!

- نعم، ولكن ذلك الرجل مجنون، أما أنت..

- فعاقل؟

ـ نعم.

وأخذ الأمير يضحك. ثم أضاف بلهجة ماجنة سفيهة:

ـ تفكيرك سليم يا عزيزي.

قلت وقد استثارتني وقاحته:

ـ أمير، أنت تكرهنا، أنا وغيري. وأنت في هذه اللحظة تنتقم بي من كل الناس، ومن كل شيء. إن سلوكك هذا ينبع من أنانية حقيرة. أنت شرير، أنت شرير على دناءة. لقد ضايقناك، ربما منذ ذلك المساء خاصة، ولا شيء كهذا الاحتقار الذي تعاملني به يمكن أن يعوِّضك عن كرامتك التي أُهدِرت في ذلك المساء. إنك تخلع عن نفسك حتى التهذيب العادي الذي يجب أن يعامل به المرء جميع الناس. تريد أن تُظهر لي بوضوح أنك لا تتنازل حتى أن تشعر بالحياء مني إذ تخلع أمامي قناعك الدنيء بعنف، وأن تبدو لي بهذا الاستهتار الذي يبلغ ذلك المبلغ من مجافاة الأخلاق.

سألني الأمير بلهجة مفاجئة، وهو يلقي عليَّ نظرة مبغضة:

ـ لماذا تقول لي هذا كله؟ ألكي تُظهر نفاذ تفكيرك؟

ـ بل لكي أبيِّن لك أنني أفهمك، ولكي أُشعرك بذلك.

فقال وهو يسترد لهجته المرحة الفرحة:

ـ يا لها من فكرة يا عزيزي! كل ما في الأمر أنك قطعت سلسلة أفكاري، فلنشرب، يا صديقي. هل تسمح لي بأن أملأ لك قدحاً؟ كنت أريد أن أقص عليك مغامرة جميلة شائقة جداً. سأقصها عليك في خطوطها الكبرى. عرفت في الماضي سيدة تجاوزت الصبا الأول: فلقد كانت في نحو السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عمرها، ولكنها كانت جميلة رائعة الجمال، قلَّ أن يرى المرء مثلها بين النساء: أي جسم! أي مهابة! أي اختيال! كانت نظرتها كنظرة

نسر، وكانت قاسية دائماً. كانت متغطرسة، متعالية؛ إذ رآها الرائي قال: إنها باردة كالجليد، وكانت تخيف جميع الناس بفضيلتها الرهيبة التي لا سبيل إليها. . فضيلتها الرهيبة خاصة. . لم يكن بين كل أفراد البيئة التي تحيط بها قاضٍ أصرم منها حكماً. كانت تستنكر استنكاراً لا هوادة فيه، لا الرذائل التي تراها في غيرها من النساء، فحسب، بل أيسر ألوان الضعف في تلك النساء. كان الناس يجلّونها إجلالاً كبيراً. وكانت أشد العجائز تزمُّتاً وتكبراً واعتزازاً بفضيلتهن يسعين إليها ويخطبن ودها. وكانت تنظر إلى جميع الناس نظرة قاسية باردة، كراهبة من راهبات القرون الوسطى. وكانت الصبايا من النساء يرتعدن خوفاً من رأيها فيهن، وأحكامها عليهن. كان يكفي منها ملاحظة واحدة أو غمزة في حق إحداهن حتى تفسد سمعتها. فإلى هذه الدرجة بلغ نفوذها بين الناس وتأثيرها فيهم. وكان الرجال أنفسهم يخشون بأسها. وخلاصة الأمر أنها قد اصطنعت في حياتها نوعاً من الصوفية التأملية الهادئة المتكبرة. فهل تريد أن تعرف حقيقة هذه المرأة؟ إذن فاعلم أنه ليس بين النساء امرأة تضارعها فسقاً ومجوناً. . لقد كان لي شرف الحظوة بثقتها كاملة. وأقول لك باختصار إنني كنت خليلها سراً، وكنا ندبر خلواتنا ببراعة مُحْكَمة، حتى أن أحداً من خدمها لم يمكن أن يراوده طيف من شك. ولم يكن ثمة إلا وصيفة فرنسية تعرف أسرارها ولكن كان في وسعنا أن نطمئن إليها كل الاطمئنان، لأنها كانت شريكة. كيف أشرح لك الموضوع؟ اسمع: إن هذه السيدة كانت من شدة الشبق بحيث إن المركيز ساد نفسه كان يمكن أن يأخذ عنها دروساً في الفسق. ولكن أحدَّ لذة وأعنف لذة في هذه العلاقة كانت هي السر والخديعة الوقحة. إن هذه الطريقة في الاستهزاء بما تمجده بين الناس من عفة

سامية لا سبيل إلى خدشها ولا يمكن التعدي عليها؛ هذا الضحك الشيطاني الداخلي: هذا النوع من دَوْسِ كل ما هو مقدس لا يُمس، دون تمهّل ولا اعتدال، وعلى صورة تبلغ من الإغراق في المُضيِّ إلى أبعد الحدود أن أحداً ممن يملكون خيالاً ملتهباً جامحاً لا يمكن أن يتصورها. . هذا كله كان لذتها الكبرى. نعم، لقد كانت الشيطان نفسه. . ولكن كانت لها فتنة لا تقاوم، كان لها إغراء لا سبيل إلى الصمود أمامه. إنني، حتى الآن، لا أتذكرها إلاّ وتسري في جسدي نشوة. وكانت وهي في حمّى اللذة العنيفة الحارة، تضحك فجأة كأن بها مساً، فأفهم معنى ضحكها، فأضحك أنا أيضاً. إنني، حتى اليوم، حين أتذكر هذا الأمر وحده، تخرس أنفاسي في صدري. وبعد سنة، أحلَّت محلي شخصاً آخر. ولو شئت لأسأت إليها. ولكن من ذا الذي كان يمكن أن يصدقني؟ من؟ ما قولك في هذا يا صديقي الشاب؟

ـ حقارة قذرة.

قلت هذا، وكنت أصغى إلى اعترافاته مشمئزاً.

ـ لو أجبتَ بغير هذا الجواب لما كنت صديقي الشاب. كنت أعرف أنك ستقول ذلك. . هأ هأ هأ. . انتظر يا صديقي، ستعيش فتفهم. . أما الآن فأنت في حاجة إلى حلوى. . وإلا لا تكون شاعراً. لقد كانت هذه المرأة تفهم الحياة وتعرف كيف تستمتع بها.

ـ ولكن لماذا الوصول إلى هذه الحيوانية؟

ـ أي حيوانية؟

ـ الحيوانية التي بلغتها هذه المرأة وبلغتها أنت معها؟

ـ هل تسمي هذا حيوانية؟ ذلك أنك ما زلت طفلاً يُجر بحبل. . على أنني أعترف بأن استقلال المرء يمكن أن يتجلى في صورة

أخرى مختلفة عن هذه كل الإختلاف.. ولكن فلنتكلم ببساطة يا صديقي، اعترفْ بأن هذا كله باطل..

ـ أي شيء ليس إذن بباطل؟

ـ شخصيتي، ذاتي، أنا. كل شيء هو لي، ومن أجلي إنما خُلق العالم. اسمع يا صديقي: إنني ما زلت أعتقد أن في وسع الإنسان أن يحيا على الأرض. وهذا خير الاعتقادات طراً، إذ بدونه لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة سيئة، ولا يبقى له إلا أن يسمّ نفسه. ويقال: إن هذا ما فعله أحد الحمقى: بلغ من إغراقه في الفلسفة أن وصل إلى إنكار كل شيء، حتى الواجبات العادية البسيطة، فلم يبق له شيء. إن مجموع ما بقي له: صفر. وعندئذٍ أخذ يقول: إن خير ما في الحياة حامض السياندريك. ستقول لي: إن هذا هو هاملت، إنه ذروة اليأس، إنه شيء كبير لا نستطيع حتى أن نفكر فيه. ولكنك شاعر، أما أنا فمخلوق فانٍ، لذلك سأقول لك: يجب أن تنظر إلى الأمر نظرة عملية بسيطة. أنا مثلاً، قد تحررت، منذ مدة طويلة، من كل رابطة ومن كل واجب. فما أشعر بواجب إلا حين يحمل إليّ هذا الواجب منفعة من المنافع. طبعاً، أنت لا تستطيع أن تواجه الأمور على هذا النحو، لأن هناك قيوداً تثقل قدميك. إنك تحكم على الأمور من ناحية المثل الأعلى، من ناحية الفضيلة. وأنا مستعد لأن أسلّم بكل ما تقول، ولكن ما حيلتي وأنا مقتنع بأن الأنانية العميقة هي أساس جميع الفضائل الإنسانية، وأن فضيلة عمل من الأعمال هي على قدر ما ينطوي عليه من أنانية. أحب نفسك أيها الإنسان، تلك هي القاعدة الوحيدة التي أعترف بها. إن الحياة سوق: فلا تهدر مالك، ولكن إدفع ثمن لذتك إن شئت، وبذلك تحقق واجبك كله تجاه أخيك الإنسان. هذه هي أخلاقي، إذا كنت

تحرص على معرفتها، رغم أنني أعترف لك بأن الأفضل في رأيي ألاً تدفع شيئاً البتة، وأن تعرف كيف تحمل الناس على أن يعملوا لك ما تريد بلا ثمن. ليس لي مثل أعلى، ولا أريد أن يكون لي مثل أعلى. إنني لم أشعر يوماً بالحنين إلى مثل أعلى. إن المرء ليستطيع أن يعيش حياة فرحة ممتعة بدون مثل أعلى... ثم إنه ليسعدني، على الجملة، إنني أستطيع الاستغناء عن حامض السياندريك، ولو كنت على قدر من الفضيلة، لصعب عليَّ أن أستغني عنه، كما صعب على ذلك الفيلسوف الغبي (لا شك أنه ألماني). لا، لا، إن الحياة ما تزال تشتمل على أشياء جميلة! إنني أحب الاعتبار، والجاه، والفنادق الفخمة، والمقامرة الضخمة (إنني أعبد ورق اللعب عبادة)، وأحب النساء خاصةً، أحب النساء بشتى جوانبهن، أحب حتى الفجور المظلم، المختفي، الغريب، الشاذ، بل والقذر بعض القذارة، من قبيل التغيير.. هأ هأ هأ.. إنني أقرأ في وجهك ما تشعر به نحوي من احتقار شديد!

ـ صحيح!

ـ طيب.. لنسلم بأنك على حق. أليس ذلك خيراً من حامض السياندريك على كل حال.. ما رأيك؟

ـ بل أفضّل حامض السياندريك.

ـ سألتك هذا السؤال عن عمد، وذلك لأتلذذ بجوابك. كنت أعرف الجواب قبل أن أطرح السؤال. لا يا صديقي، إذا كنت حقاً تريد الخير للبشر فيجب أن تتمنى لجميع الأذكياء أن تكون أذواقهم كذوقي، رغم أن ذوقي قذر بعض القذارة، وإلا لم يبق لهم ما يعملونه في هذا العالم، فلا يبقى ثمة إلا الأغبياء الحمقى. إنهم بذلك يصبحون سعداء. هل تعلم؟ ما من شيء أمتع للإنسان من أن

يعيش في صحبة حمقى، ومن أن يعزف على أوتارهم: إنه يستفيد من ذلك! لا تأخذ عليّ أنني أقيم وزناً لآراء المجتمع، وإنني أحرص على بعض المواضعات، وأنني أنشد الاعتبار والجاه. أنا أعرف أنني أعيش في مجتمع تافه.. ولكنني حتى الآن أتحمس له، وأنعق مع الناعقين؛ إنني أتظاهر بالدفاع عنه دفاعاً حاراً، ومع ذلك فمن الممكن، إذا اقتضى الأمر، أن أهجره أول من يهجره. إنني أعرف جميع أفكارهم الجديدة، رغم أنني لم أحفل بها يوماً. وعلام أحفل بها؟ إنني لم أشعر يوماً بعذاب الضمير. إنني أقبل كل شيء، متى كان لي فيه نفع. وأمثالي كثيرون، ونحن جميعاً في أحسن حال حقاً. يمكن أن يفنى كل شيء على الأرض، وأن نظل نحن وحدنا لا نفنى أبداً. إننا نوجد منذ وُجِدَ الوجود.. قد يغرق الكون كله، ونبقى نحن نطفو على وجه الماء، نطفو إلى الأبد. أنظر، بهذه المناسبة، كم تطول حياة أمثالنا. إننا نعمر كثيراً، ألم يلفت نظرك ذلك؟ إننا نعيش حتى الثمانين، حتى التسعين. فالطبيعة نفسها تحمينا إذن.. هه هه.. أريد أن أبلغ التسعين حتماً، أنا لا أحب الموت. سحقاً للفلسفة. فلنشرب، يا عزيزي. كنا نتحدث عن البنات الجميلات.. لماذا تقوم؟

ـ أنا ذاهب، وقد آن أن تذهب أنت أيضاً.

ـ ما هذا، ما هذا؟ لقد فتحت لك قلبي كله، وها أنت ذا تتنكر لهذا الدليل القاطع على ما أكنّه لك من صداقة! إنك لا تعرف كيف تحب، يا شاعري. انتظر انتظر، سوف أطلب زجاجة أخرى.

ـ ثالثة؟

ـ نعم. أما فيما يتعلق بالفضيلة، يا تلميذي الشاب (اسمح لي أن أطلق عليك هذا الاسم اللطيف، فمن يدري، لعل تعاليمي تفيدك!)

أما فيما يتعلق بالفضيلة فقد ذكرت لك منذ لحظة أن «فضيلة عمل من الأعمال هي على قدر ما يشتمل عليه من أنانية». أريد في هذه المناسبة أن أقص عليك حكاية لطيفة. لقد أحببت ذات مرة فتاة، أحببتها حباً صادقاً تقريباً، حتى لقد ضحَّت في سبيلي تضحيات ضخمة..

- أهي تلك التي سرقتها؟

قلت له ذلك بفظاظة، وقد عزمت على ألاً أحتمل أكثر مما احتملت، فارتجف الأمير، وتغير وجهه، وحدق إليَّ بعينين مشتعلتين. كانت نظرته تعبِّر عن الاضطراب والحنق فقال كمن يخاطب نفسه:

- انتظر، انتظر، دعني أفكر. لقد سكرت حقاً، وأصبح عسيراً عليَّ أن أستجمع شتات أفكاري..

وسكت، ونظر إليَّ نظرة فاحصة شريرة، وهو يمسك بيدي، كأنه يخشى أن أذهب. لا شك أنه في تلك اللحظة أخذ يفكر متسائلاً: من أين عرفتُ هذه القصة التي يجهلها كل الناس تقريباً، وهلاً يحيق به خطر. وانقضى على ذلك دقيقة ما لبث وجهه بعدها أن تغير فجأة، فعادت إليه مظاهر السخرية، والتمع في عينيه مرح السُّكْر، وانفجر ضاحكاً.

- هأ هأ هأ. تاليران، لا أكثر ولا أقل. لقد غدوت أمامها كمنبوذ من المنبوذين حقاً حين رشقت في وجهي اتهامها بأنني سرقتها! ما أكثر ما عوت ونبحت، ما أكثر ما طرزت من شتائم وسباب! كانت كالمسعورة، تلك المرأة و... بدون أي تحفظ. ولكنني أترك لك أن تحكم في الموضوع بنفسك: أولاً، لم أسرقها كما قلتَ منذ لحظة، بل هي التي أعطتني ذلك المال، فكان المال إذن مالي.

لنفرض مثلاً أنك أهديت إليَّ أحسن رداء عندك (قال هذا وهو يلقي نظرة سريعة على ردائي الوحيد الذي كاد يبلى، وكان قد خاطه لي منذ سنين خياط رديء). ولنفرض أنني شكرت لك هديتك، وارتديتها. ولنفرض أننا اختصمنا بعد ذلك بسنة، فإذا أنت تطلب مني أن أرد لك رداءك بعد أن اهترأ.. فهل يكون في عملك هذا شيء من نبل؟ ثانياً، رغم أن المال مالي، فلقد وددت لو أرده حقاً، ولكن أنَّى لن أن أجد مبلغاً ضخماً كذلك المبلغ؟ احكم في الأمر بنفسك. ولاحظ خاصةً أنني لا أحتمل الغزليات الرومانسية ولا أحب المشكلات الغرامية على طريقة شيللر، قلت لك ذلك منذ قليل، ولقد كان هذا رأس البلاء في كل شيء. إنك لا تستطيع أن تصدق تلك المواقف التي كانت تقفها مني، صارخة بأنها أهدت إليَّ ذلك المال (مع أنه كان مالي) فاستبد بي الغضب، وفكرت في الأمر تفكيراً سليماً، ذلك أن حضور الذهن لا يعوزني أبداً. فقلت في نفسي: لو أرجعت إليها المال، فلربما سببت لها بذلك شقاء، لأنني أحرمها عندئذٍ من لذة الشعور بأنني كنت أنا سبب شقائها، وأحرمها من لذة النقمة عليَّ إلى الأبد. صدقني يا صديقي. إن المرء، حين ينتابه شقاء من هذا النوع، ليشعر من إحساسه بنبله وكماله، ومن حقه في أن يحتقر ذلك الذي أساء إليه وفي أن يعده وَغْداً، إن المرء ليشعر من إحساسه بذلك بنوع من النشوة. إن نشوة البغض هذه تلاحظ لدى الطبائع الشيللرية. لعل هذه المرأة لم تجد بعد ذلك ما تسد به رمقها، ولكني على يقين تام من أنها كانت سعيدة. لم أشأ أن أحرمها من هذه السعادة، فلم أرد إليها المال. وهكذا تلاحظ أن مبدئي الذي أعلنته لك منذ هنيهة، أعني أنه كلما كان كرم الإنسان كبيراً صاخباً كان يشتمل على قدر أكبر من الأنانية السيئة أكبر. هكذا

تلاحظ أن مبدئي ذلك يبرر تبريراً كاملاً. . هل هذا كله واضح وضوحاً كافياً؟ ولكن. . كنت تريد أن تستدرجني، هأ هأ هأ. . هيا اعترف بذلك، كنت تريد أن تستدرجني؟ آه منك يا تاليران!.

قلت له وأنا أنهض:

ـ وداعاً.

فصرخ وهو يتخلى عن لهجته السيئة، ويتكلم بلهجة جادة.

ـ لحظة. هناك كلمتان نختم بهما الحديث، ثمة شيء أخير: من كل ما قلته لك يخُرج بوضوح (وأظن أنك قد أدركت ذلك) إنني لن أدع منفعة من المنافع تفلت مني يوماً في سبيل أي إنسان! إنني أحب المال، وأنا الآن في حاجة إليه، وكاترين فيدوروفنا تملك مالاً كثيراً: كان أبوها تاجر خمور خلال عشر سنين. إنها تملك ثلاثة ملايين، وهذه الملايين الثلاثة ستسوي قضيتي على أحسن صورة. وأليوشا وكاتيا متناسبان كل التناسب، فكلاهما غبي إلى أقصى حدود الغباء. وهذا يفيدني كثيراً. لذلك أريد أن يتم زواجهما حتماً، بأقصى سرعة ممكنة: ستسافر الكونتيسة وكاتيا بعد خمسة عشر يوماً أو بعد ثلاثة أسابيع إلى الريف. ويجب أن يصحبهما أليوشا. فأبلغ ناتاليا نيقولايفنا ذلك، حتى لا نرى مشاهد مثيرة ولا درامات شيللريّة، وحتى لا يجيء أحد فيعارض فيما عقدت النية عليه. أنا امرؤ حَقود شديد الحقد أثأر لنفسي وأنتقم من خصمي. إني أعرف كيف أدافع عن مصالحي. لست أخاف منها، وسيتم كل شيء وفق إرادتي، ما في ذلك ريب. وإذا كنت أحذرها منذ الآن، فذلك من مصلحتها تقريباً. فلا تدعها ترتكب حماقات سخيفة، وأحملها على أن تلتزم في سلوكها سبيل العقل والحكمة، وإلا أحاق بها شرّ كبير. يجب عليها أن تشكر لي أنني لم أعاملها حتى الآن كما كان ينبغي أن

أعاملها وفقاً للقانون. إعلم، يا شاعري، أن القوانين تحمي هدوء الأُسَر الآمنة.. إنها تضمن للأب خضوع ابنه له، ولا تشجع أبداً أولئك الذين يصرفون الأبناء عن القيام بواجباتهم المقدسة نحو آبائهم. واعلم بعد ذلك أن لي علاقات.. وأن ليس لها مثل هذه العلاقات. يستحيل أن لا تدرك ما كان يمكنني أن أصنعه بها.. ولئن لم ألحق بها أذى حتى الآن فذلك لأنها كانت إلى الآن عاقلة. لا تخف: أن هناك عيوناً حاذقة كانت ترصد كل حركة من حركاتها وكل سكنة من سكناتها خلال هذه الأشهر الستة، وقد عرفت كل شيء حتى أدق التفاصيل. لذلك انتظرت هادئاً أن يهجرها أليوشا من تلقاء نفسه: وهذه اللحظة تقترب، فإلى أن تجيء، لا مانع أن يتلهى بها قليلاً. لقد ظللت في نظره أباً رؤوفاً رحيماً، وأنا في حاجة إلى أن يكون رأيه فيَّ كذلك. هأ هأ هأ.. إنني أتذكر كيف كدت أحمد لها أنها كانت من الكرم والإخلاص والتفاني بحيث لم تحمل أليوشا على الزواج بها.. كنت أريد أن أعرف ما عسى أن يكون احتمالها لهذا الكلام. أما زيارتي يومئذٍ فلم يكن لها من غرض إلا إنهاء هذه العلاقة. كان لا بد أن أتأكد من الأمر بنفسي. هل يكفيك هذا الذي قلته إلى الآن؟ أم تراك تريد أيضاً أن تعرف لماذا جئت بك إلى هنا، ولماذا عبثت كل هذا العبث أمامك، ولماذا حدثتك بكل تلك الصراحة، مع أن هذا الموضوع كله كان يمكن أن يُستغنى فيه عن البوح بالأسرار.. هل تريد أن تعرف ذلك؟

ـ نعم.

لقد كظمت غيظي، وكنت أصغي إليه، ولم يكن ثمة ما أجيب به على كلامه غير هذه الكلمة.

ـ فعلت ذلك كله بسبب واحد، هو أنني رأيت فيك من حُسن

الفهم وحُسن التبصر بالأمور أكثر مما أرى في ذينك الأبلهين الصغيرين. لعلك قد عرفتني قبل الآن، لعلك قد حزرت مَنص أنا قبل الآن بالظن والتخمين. فأردت أن أظهرك على حقيقة الشخص الذي تتعامل معه. رُبَّ معرفة صادقة تُجَنِّب كثيراً من المتاعب. فافهمني إذن، يا صديقي. ها أنت ذا تعرف الآن مَنْ هو الشخص الذي أمامك. إنك تحب هذه الفتاة فآمل أن تستعمل كل ما لك عليها من نفوذ وتأثير (وأنا أعرف أن لك عليها نفوذاً وتأثيراً) لكي تقيها بعض المتاعب، وإلا تعبت كثيراً، وأؤكد لك أن الأمر لن يكون مزاحاً والسبب الثالث في صراحتي معك هو أنني.. (ولا شك أنك أدركت ذلك يا عزيزي) هو أنني كنت أشتهي أن أبصق قليلاً على هذه القصة كلها، وكنت أشتهي أن أفعل ذلك أمامك أنت بالذات..

قلت له وأنا أرتجف حنقاً:

ـ لقد بلغت غايتك. أسلِّم لك بأنه ما من طريقة أفضل من هذه الطريقة تعبِّر بها عما تحمله من بُغض واحتقار لنا جميعاً. لقد أفضيت إليَّ بهذه الأمور كلها لا لأنك لا تخشى أن يعرِّضك ذلك لخطر من الأخطار فحسب، بل لأنك أيضاً لم تشعر حتى بالخجل أمامي، فكشفت عن عورتك، كذلك المجنون صاحب المعطف. أنك لم تعتبرني إنساناً.

قال وهو ينهض:

ـ ذلك هو الواقع قد حزرته يا صديقي الشاب.. لقد حزرت كل شيء. ما أنت كاتب عن عبث. آمل أن ننفصل على صداقة. وليتنا نشرب قدحاً على صحتنا كلينا؟

ـ أنت سكران. وهذا هو السبب الوحيد الذي من أجله لا أرد

عليك كما ينبغي أن أرد.

ـ أي أنك لجمت لسانك ولم تطلقه فيما كان ينبغي أن تطلقه به من كلام. هأ هأ هأ. . هل تسمح لي بأن أدفع عنك؟

ـ لا تحمل نفسك هذا العناء. سأدفع عن نفسي.

ـ كنت واثقاً من ذلك. فهل أوصلك إلى بيتك.

ـ لا.

ـ وداعاً يا شاعري. أرجو أن تكون قد فهمتني.

وخرج بخطى مترنحة، دون أن يلتفت إليّ. وأركبه خادمه العربة. ومضيت في طريقي. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية، وكان المطر يهطل، وكان الليل مظلماً. .

الجزء الرابع

الفصل الأول

لَنْ أصف ما كنت أشعر به من حنق. رغم أنني كنت أتوقع كل شيء فقد فوجئت بهذه الدمامة التي كشفَ عنها. على أنني أتذكر الآن أن مشاعري كانت يومئذٍ مختلطة: كنت أشعر بأنني مهدَّم محطَّم، وكان يخنق قلبي غمٌّ قاتم أسود. وكنت أرتعد خوفاً على ناتاشا. كنت أحس أنها ستعاني كثيراً من الآلام أيضاً. وكنت أبحث، في قلق، عن وسيلة تقيها هذه الآلام، وتهوِّن عليها اللحظات الأخيرة التي ستسبق الخاتمة. كانت الخاتمة آتية لا ريب فيها: تقترب شيئاً بعد شيء، وكنت أعرف ما هي!

وصلت إلى بيتي دون أن أشعر، رغم المطر الذي لم ينقطع عن الهطول لحظة واحدة. كانت الساعة تقترب من الثالثة. وقبل أن أطرق الباب سمعت أنيناً، ورأيت الباب يفتح بسرعة، كأن نللي كانت تنتظرني في العتبة. كانت الشمعة مشتعلة، فلما نظرت إلى نللي ذعرت ذعراً شديداً: كان وجهها لا يكاد يُعرف، وكانت عيناها تلتمعان بلهيب حمّى، وكانت نظرتها إليَّ غريبة، حتى لكأنها لا تتعرفني. كانت تعاني حمّى شديدة.

سألتها وأنا أنحني عليها وأحيطها بذراعيَّ:

ـ ما بك يا نللي؟ هل أنت مريضة؟

فشدت جسمها إليَّ وهي ترتعش، كأنها خائفة، وأخذت تتكلم كلاماً متقطعاً متعجلاً، كأنها كانت تنتظرني لتقول لي هذه الكلام

بسرعة. كانت كلماتها مفككة غريبة، فلم أفهم شيئاً: كانت تهذي.

قدتها فوراً إلى سريرها، ولكنها ما تنفك تلقي نفسها عليّ، وتتشبث بي تشبثاً قوياً كأنها خائفة، وتتوسل إليَّ أن أحميها من شخص ما. وحين استلقت على سريرها ظلت متمسكة بيدي تمسكاً قوياً مخافة أن أترك البيت وأذهب مرة أخرى. وكنت قد بلغت من فرط الاضطراب العصبي أنني أخذت أبكي حين رأيتها. لقد كنت مريضاً أنا أيضاً. فلما لاحظت دموعي ألقت عليَّ نظرة ثابتة طويلة، بانتباه متوتر، كأنها تحاول أن تفهم شيئاً وأن تفكر. وكان واضحاً أنها تقاسي من أجل ذلك كثيراً من العناء. وأخيراً التمع وجهها بشيء يشبه أن يكون فكرة: إنها بعد نوبة عنيفة من نوبات الصرعة، تظل في العادة بعض الوقت لا تستطيع أن تستجمع شتات أفكارها ولا أن تنطق بكلام واضح متميز. وتلك كانت حالتها في هذه اللحظة: لقد بذلت جهداً كبيراً وهي تحاول أن تكلمني، فلما أدركت أنني لا أفهمهما، مدَّت إليَّ يدها الصغيرة وأخذت تجفف دموعي، ثم أحاطت عنقي بذراعيها، وجذبتني إليها وقبَّلتني.

كان الأمر واضحاً: لقد انتابتها نوبة أثناء غيابي، وقد وقع لها ذلك لحظةَ كانت واقفة قرب الباب. فلما مضت النوبة ظلت مدة طويلة لا تستطيع أن تعود إلى وعيها. والهذيان في مثل تلك اللحظات يختلط بالواقع. فلا شك أن أخْيِلَة مخيفة رهيبة قد راودتها عندئذٍ. وكانت في الوقت نفسه تشعر شعوراً مختلطاً بأنني سأعود وبأنني سأطرق الباب، لذلك كانت، وهي متمددة على الأرض قرب العتبة، تترقب عودتي، فنهضت في اللحظة التي هممت فيها أن أطرق الباب.

ولكن لماذا كانت وراء الباب تماماً؟ ذلك ما تساءلت عنه. ثم

لاحظت فجأة، على دهشة مني، أنها كانت مرتدية معطفها الصغير (كنت قد اشتريت لها هذا المعطف من امرأة عجوز تبيع ثياباً قديمة، وكنت أعرف هذه العجوز، فكانت تجيئني إلى البيت وتبيعني بضائعها دَيْناً في بعض الأحيان). لا شك أن نللي كانت تتهيأ إذن للخروج، ولا شك أنها كانت قد فتحت الباب حين وافتها النوبة فألقتها أرضاً. فأين كانت تريد أن تذهب؟ هل كانت في حالة هذيان قبل أن توافيها النوبة؟

لم تهبط حرارتها، وعادت إلى الهذيان، وفقدت وعيها من جديد. لقد انتابتها نوبتان منذ أقامت معي، ولكن ذلك كان ينتهي بخير، أما الآن فيبدو أنها فريسة حمّى حارّة. ظللت جالساً إلى جانبها أسهر عليها قرابة نصف ساعة، ثم ألصقت بالأريكة عدداً من الكراسي، وتمددت إلى جانبها دون أن أخلع ملابسي، بغية أن أستيقظ حالما تناديني. ولم أطفىء الشمعة. ونظرت إليها عدة مرات قبل أن أغفو. كانت شاحبة. وكان على شفتيها اللتين جففتهما الحمى آثار دماء لا شك أنها ترجع إلى سقوطها. وكان وجهها ما يزال يحتفظ بمعاني الرعب، ويعكس خوفاً معذَّباً يظهر أنه كان يلاحقها حتى أثناء النوم. وقررت أن أمضي في الغد مبكراً لآتيها بطبيب إذا تفاقمت حالتها. كنت أخشى أن تكون مريضة حقاً.

قلت في نفسي وأنا أرتعش: «إن الأمير هو الذي أرعبها»، وتذكرت قصته عن المرأة التي رشقت المال في وجهه.

الفصل الثاني

انقضى على ذلك خمسة عشر يوماً. . كانت نللي تسترد عافيتها. كان مرضها خطيراً، ولكنه لم يكن هو الحمّى الحارة. ونهضت من فراش المرض في آخر نيسان، ذات يوم صاحٍ مضيء. وكنا يومئذٍ في «الأسبوع المقدس».

ما كان أتعس تلك المخلوقة! إنني لا أستطيع أن أتابع سرد قصتي مرتبةً منظمة. لقد انقضى وقت طويل بين ذلك الحين وبين هذه اللحظة التي أتناول فيها القلم وأقص ذلك الماضي كله. ولكنني ما زلت إلى الآن أشعر بحزن عميق كاوٍ حين أتذكر وجهها النحيل الشاحب، وعينيها السوداوين اللتين تنظران إليّ نظرات طويلة ملحّة حين نكون وحدنا، كأنما لتدعوني أن أفهم ما في ذهنها، حتى إذا أدركت أنني لا أفهم، وأنني ما زلت على غير يقين، ابتسمت ابتسامةً عذبة، كأنها تبتسم لنفسها لا لي، ثم مدت إليّ فجأة، بحركة ناعمة، يدها المحترقة ذات الأصابع الضاوية. . كل هذا بعيد الآن عني، وأنا أعرف الآن كل شيء، ولكنني لم أنفذ بعد إلى جميع أسرار ذلك القلب المريض المهان الذي هدّه العذاب.

أحس أنني بهذا الكلام أخرج عن قصتي، ولكنني في هذه اللحظة لا أريد أن أفكر إلا في نللي. أمر غريب: الآن وأنا متمدد في سريرٍ بمستشفى، وحيداً مهجوراً من جميع الذين طالما أحببتهم، يتفق لي في بعض الأحيان أو تنبثق في ذهني، على حين فجأة، ذكرى حادثة

جزئية من حوادث تلك الفترة، فأنظر فيها على انفراد، فإذا هي تكتسي معنى جديداً على حين غرة، وتفسر لي ما لم أكن قد فهمته بعد.

قلقنا أشدَّ القلق، أنا والطبيب، في الأيام الأربعة الأولى، ولكن الطبيب قادني في اليوم الخامس إلى المطبخ، وقال لي: إن الخطر قد زال، وإن الصبية ستسترد عافيتها حتماً. إنه ذلك الطبيب نفسه الذي أعرفه منذ مدة طويلة (عجوز عازب، شهم، متفرد) الذي أتيت به إلى نللي يوم مرضها الأول فلفت نظرها صليب سنانسلاس الضخم الذي كان يحمله في عنقه.

فهتفت أسأله فرحاً:

ـ لا خوف عليها بعد الآن؟

ـ لا، ستُشفى هذه المرة، ولكنها لن تعيش طويلاً.

ـ كيف؟ لماذا؟

هتفت بذلك وقد دهشت من كلامه أشد الدهشة:

ـ نعم، ستموت قريباً، ما في ذلك شك. أن في قلبها آفة عضوية، وستعود إلى سرير المرض عند أول فرصة سيئة، وقد تسترد يومئذٍ صحتها، ولكنها لن تلبث أن تمرض مرة أخرى، إلى أن تموت.

ـ وليس ثمة وسيلة لإنقاذها؟ لا، لا، هذا مستحيل!

ـ هذا ما سيقع. لكن إذا تمّ تجنيبها كل حادث سيئ، وعاشت حياة رخية ناعمة هادئة، وتوافر لها مزيد من المسرات، يمكن أن يطول عمرها، يمكن أن يتأخر أجلها.. بل إن هناك حالات غير متوقعة، حالات غريبة، شاذة.. الخلاصة أن المريضة يمكن إنقاذها بتعاون ظروف حسنة، أما أنْ تُشفى تماماً، فذلك مستحيل.

ـ رباه! فما العمل إذن؟

ـ تتبع نصائحي، وتواظب على تناول السفوف بانتظام. لقد لاحظت أن البنت ذات نزوات، وأنها مهيأة لقفزات في المزاج، وأنها ساخرة أيضاً. إنها تكره أن تتناول الدواء بانتظام، حتى لقد رفضت تناوله رفضاً قاطعاً منذ لحظة.

ـ صحيح. إنها حقاً غريبة الأطوار. ولكنني أردّ ذلك كله إلى اهتياج مرضي. لقد كانت أمس طيّعة جداً. واليوم، حين جئتها بالدواء، صدمت الملعقة كأنما بصدفة، فاندلق الدواء. فلما أردت أن أملأ لها ملعقة جديدة، انتزعت العلبة من بين يدي، وألقتها على الأرض، وأخذت تبكي.

قلت ذلك ثم أضفت بعد لحظة من تفكير:

ـ لا شك أنها لم تبك لأننا نحملها على تجرع الدواء فحسب!

ـ طبعاً لا.. وإنما يرجع ذلك إلى الاهتياج أيضاً. إن أنواع الشقاء التي عانتها في الماضي (كنت قد قصصت على الطبيب جزءاً كبيراً من حياة نللي بالتفصيل، فأثرت فيه قصتي تأثيراً شديداً)، ما تزال تفعل فيها فعلها، وهذا هو السبب في مرضها. الدواء الوحيد على كل حال إنما هو السفوف: يجب أن تتناول هذا السفوف. سأحاول مرة أخرى أن أقنعها باتباع نصائح الطبيب، و... بأن تتجرع دواءها... طبعاً سأكلمها كلاماً عاماً.

وخرجنا من المطبخ الذي دار فيه هذا الحديث، واقترب الطبيب من سرير نللي. ولكن يظهر أن نللي قد سمعتنا: كانت على الأقل قد أنهضت رأسها عن المخدة، والتفتت نحو الجهة التي كنا فيها، وظلت طوال الوقت تسترق السمع إلى ما نقول. لاحظتُ ذلك من خلال شق الباب. فلما عدنا إليها عادت الخبيثة فاندست تحت

الغطاء ونظرت إلينا وهي تبتسم ابتسامة ماكرة. لقد اشتد هزال الطفلة المسكينة كثيراً خلال هذه الأيام الأربعة من المرض: غارت عيناها، وكانت لا تزال تعاني من الحمى. وكانت معاني وجهها الماكر ونظراتها البراقة العدوانية التي أدهشت الطبيب كل الدهشة (وهو خير الألمان ببطرسبرغ) قد ازدادت من ذلك غرابة.

شرح لها الطبيب بلهجة جادة وصوت متودد متحبب حاول أن يلطفه ما أمكنه ذلك، شرح لها أن تناول السفوف أمر لا بد منه، وأنه مفيد، وأن على جميع المرضى أن يتجرعوه.

كانت نللي تنهض رأسها حين صدمت الملعقة فجأة بحركة من يدها لم تكن متوقعة أبداً، فسفح الدواء كله على الأرض. وأيقنت أنها فعلت ذلك عامدة.

فقال العجوز بهدوء:

ـ هذه غلطة مؤسفة. أظن أنك فعلت ذلك عن قصد، وهذا شيء غير محمود. ولكن يمكن تدارك الأمر بملء ملعقة جديدة.

فضحكت نللي أمام أنفه.

هز الدكتور رأسه وقال وهو يملأ ملعقة جديدة:

ـ سلوكك هذا سيئ، غير محمود أبداً.

فأجابت نللي وهي تبذل جهوداً عقيمة حتى لا تنفجر ضاحكةً من جديد:

ـ لا تزعل، سأتجرع الدواء قطعاً. ولكن هل تحبني؟

ـ إذا حسّنت سلوكك، سأحبك كثيراً.

ـ كثيراً.

ـ نعم.

ـ والآن، ألاّ تحبني؟

ـ بلى.
ـ وهل تقبّلني إذا أردت أنا ذلك؟
ـ نعم إذا كنت تستحقين.
عندئذٍ لم تستطع نللي أن تحبس نفسها عن الضحك، فضحكت مرة أخرى.
همس الطبيب يقول لي بلهجة جادة:
ـ إنها مرحة الآن، ولكن ليس ذلك إلا أعصاباً ونزوات.
صرخت نللي تقول بصوتها الضعيف:
ـ سآخذ الدواء، ولكن هل تتزوجني حين أكبر؟
كان واضحاً أن هذه الشيطنة تسليها كثيراً، فكانت عيناها تلتمعان، وكان الضحك يهز شفتيها، وهي تنتظر جواب الطبيب الذي تحير قليلاً.
قال الطبيب وهو يبتسم لهذه النزوة الجديدة بالرغم منه:
ـ نعم.. إذا وافقت على أن تكوني طيبة، مؤدبة، مطيعة، وإذا وافقت على...
ـ تناول الدواء؟
ـ نعم على تناول الدواء.
قال ذلك وهمس في أذني يضيف:
ـ إنها ابنة طيبة، طيبة وذكية، ولكن لماذا.. تريد أن تتزوجني.. ما هذه النزوة!
وقدم لها الجرعة. ولكنها في هذه المرة لم تعمد إلى الحيلة، بل ضربت الملعقة بيدها ضربة صغيرة، فاندلق محلول السفوف على قميص العجوز المسكين وعلى وجهه. وأخذت نللي تضحك ضحكاً صاخباً، ولكنه لم يكن في هذه المرة ضحكاً صريحاً فرحاً. وطاف

بوجهها شعاع قاس شرير. كانت خلال ذلك الوقت كله تتحاشى النظر إليَّ، ولا تنظر إلا إلى الطبيب، وكانت تنظر إليه نظرة ساخرة تنم مع ذلك عن قلق. كانت تنتظر ما سيفعله العجوز الصغير «المضحك».

قال الطبيب وهو يجفف وجهه وقميصه بمنديله:

ـ ها.. أيضاً؟.. هذه مصيبة.. ولكن يمكن أن نحلَّ ملعقة أخرى.

فوجئت نللي بهذا. فلقد كانت تتوقع أن نغضب، كانت تظن أننا سنؤنبها، ونقرعها، ولعلها كانت ترغب في ذلك على غير شعور منها، لكي تتخذ منه حجة للبكاء والنحيب كما في نوبة هسترية، ولدلق الدواء مرة أخرى، بل ولكسر شيء من الأشياء أيضاً، تهدئةً لقلبها الضعيف المحطم ذي النزوات. ليست نللي وحدها، ولا المرضى وحدهم يشعرون بنزوات من هذا النوع. ما أكثر ما اتفق لي أن كنت أذهب وأجيء في غرفتي وأنا أشتهي، على غير شعور، أن يعترضني أحد الناس فوراً وأن يتهجم علي وأن يقول لي كلاماً يمكن أن يعد شتماً، لكي أستطيع أن أخفف عن نفسي. إن النساء حين «يخففن» عن أنفسهن بهذه الطريقة يبدأن بذرف دموع غزيرة، حتى أن أكثرهن حساسية يمضين في هذا إلى حد النوبة الهسترية. تلك ظاهرة بسيطة شائعة كل الشيوع، وهي تقع خاصة حين يكون ثمة حزن آخر يحزّ في القلب، حزن يجهله جميع الناس، ولا يريد الإنسان أن يفضي به إلى أحد، ولا يستطيع أن يفضي به إلى أحد.

ولكن نللي، وقد فوجئت بهذه الطيبة الملائكية من الطبيب العجوز الذي أساءت إليه، وبهذا الصبر الذي أظهره إذ أخذ يسكب جرعة جديدة من الدواء، دون أن يوجه إليها أي لوم، هدأت فجأة،

فاختفت ابتسامتها الساخرة، واحمرّ وجهها، وتبللت عيناها، ونظرت إليَّ نظرة سريعة ما لبثت بعدها أن تحوّلت عني. وقدم إليها الطبيب الدواء، فتجرعته طائعة، وتناولت يد العجوز الحمراء المنتفخة، وحدقت في عينيه.

ـ أنت زعلت.. لأنني شريرة..

قالت ذلك، ولكنها لم تتم كلامها، بل دست رأسها تحت الغطاء، وانفجرت تبكي بكاء منتحباً صاخباً هيستيرياً.

ـ أوه.. لا تبك يا بنيتي.. لا تبك.. الأمر يسير... هذا من العصبية. اشربي قليلاً من الماء.

ولكن نللي لم تصغ إليه.

وتابع الطبيب يقول، وهو يهمّ أن يبكي، لأنه رجل حساس:

ـ هدئي نفسك يا بنيتي.. لا تزعلي.. إنني أغفر لك، وسأتزوجك إذا سلكت سلوكاً حسناً، وإذا..

ـ تناولت دواءك.

بهذا أكملت نللي كلام العجوز، من تحت الغطاء، وشفعته بضحكة أعرفها منها حق المعرفة، ضحكة عصبية ضعيفة، تشبه أن تكون صوت جرس، ضحكة يتخللها نحيب.

فقال الطبيب بلهجة فخمة، وهو يكاد يبكي:

ـ يا لك من بنية طيبة تعترف بالجميل.. أيتها الطفلة البائسة.

ومنذ ذلك الحين قامت بينه وبين نللي مودة غريبة. أما أنا فقد أخذ سلوك نللي معي يزداد عداوة وعصبية واهتياجاً. ولم أعرف السبب في ذلك، خاصةً وأن هذا التغير قد طرأ فجأة. كانت خلال الأيام الأولى من مرضها تُظهر لي كثيراً من المودة والحنان والعاطفة كأنها لا تشبع من النظر إليَّ: كانت لا تدعني أبتعد عنها، بل تمسك

يدي بيدها المحترقة، وتجلسني إلى جانبها، فإذا لاحظت أنني قاتم المزاج أو قلق حاولت أن تفرحني، فأخذت تمازحني وتلاعبني وتبتسم لي. ويكون واضحاً أثناء ذلك أنها تخنق آلامها الخاصة. كانت لا تريد أن أعمل في الليل، ولا أن أسهر عليها، وكان يحزنها أن لا أطيعها في ذلك. وكنت أراها في بعض الأحيان مغمومة مهمومة. وكانت في هذه الأحيان تسألني لماذا أنا حزين، وفيم أنا أفكر. والأمر الغريب أنها كانت، حين أتحدث عرضاً عن ناتاشا، تصمت فجأة، وتتكلم في شيء آخر. كان يبدو أنها تتحاشى الكلام على ناتاشا وقد أدهشني ذلك. وكانت تشعر بسعادة كبيرة حين أعود إلى البيت. حتى إذا تناولت قبعتي وهممت أن أخرج نظرت إليَّ نظرة غريبة حزينة مفعمة باللوم.

في اليوم الرابع من مرضها، قضيت السهرة كلها عند ناتاشا، وبقيت هنالك إلى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل. كان ثمة أشياء كثيرة يجب أن نتحدث فيها. وكنت حين تركت نللي وعدتها بأن لا أغيب كثيراً، وكنت أزمع ذلك فعلاً، ولكنني كنت مطمئناً عليها، رغم أنني بقيت عند ناتاشا أكثر مما كنت أقدِّر، ذلك أنها لم تكن وحدها. فإن ألكسندرا سيمينوفنا، حين علمت من ماسلوبويف الذي جاءني ذات مرة، أن الصغيرة مريضة، وأن أعمالي كثيرة، وأنني وحدي في البيت، جاءت فزارت المريضة. ما أكثر ما حمَّلت ألكسندرا سيمينوفنا نفسها من عناء!

قالت لماسلوبويف حين أبلغها ذلك:

ـ ألن يأتي للعشاء! آه يا رب! إنه وحيد هذا المسكين! يجب أن نبرهن له على أخلاصنا. يجب أن لا نفوِّت هذه الفرصة.

ولم تلبث أن وصلت على عربة، وهي تحمل حزمة مليئة

بالهدايا. وأعلنت أنها ستمكث هنا بعض الوقت، وأنها جاءت لمساعدتي. وفضت حزمتها، فكانت تحتوي على أشربة ومربيات للمريضة، وعلى دجاج تطعمها إياه حين تدخل فترة النقاهة، وعلى تفاح يُطهى في الفرن وعلى برتقال وعلى أنواع من معقود الفاكهة من كييف (إذا سمح الطبيب بذلك)، وعلى ثياب، وأغطية، ومناشف، وقمصان، وعصائب، ولفائف، مما يمكن أن يجهز به مستشفى بكامله. قالت لي وهي تلفظ كل كلمة بسرعة:

ـ عندنا كل شيء. وأنت رجل عازب، ليس عندك هذا كله. لذلك أرجو أن تسمح لي.. على أن فيليب فيليبتش هو الذي أمرني بهذا والآن هيا بسرعة، بسرعة. ماذا يجب عليَّ أن أعمل؟ كيف حالها الآن؟ هل هي صاحية؟!.. هذا لا يجوز... يجب أن نرتب لها مخدتها بحيث ينخفض رأسها عن ذلك. قل لي: أليس الأفضل أن تسند رأسها إلى مخدة من جلد؟ إن الجلد أطرى. آه ما أغباني! لم أتذكر أن أجيء بمخدة من جلد. سأذهب باحثة عن مخدة من جلد. هل يجب أن نشعل ناراً؟ سأرسل إليك خادمة عجوزاً أعرفها، إذ ليس عندك خادمة.. ولكن ماذا يجب أن نعمل الآن؟ ما هذا؟ نوع من العشب؟ هل الطبيب هو الذي وصف لها هذا النوع من العشب؟ يُغلى ويشرب طبعاً، أليس كذلك؟ سأشعل النار حالاً.

ولكنني هدأتها، فلما رأت أن ليس هنالك أعمال كثيرة يجب أن تقوم بها، أدهشها ذلك بل أحزنها. على أن هذا لم يثبط عزيمتها. وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بينها وبين نللي، وما أكثر ما قدمت لي من خدمات طوال مدة مرض الصبية. كانت تزورها كل يوم تقريباً، وكانت تصل دائماً متعجلة كأنها تريد أن تتدارك شيئاً فات، وكانت تقول دائماً: إن فيليب فيليبتش هو الذي أمرها

بالمجيء. وقد أعجبت بنللي كثيراً، وأحبت كل منهما الأخرى كأنهما أختان. أعتقد أن ألكسندرا سيميوفنا لا تقل عن نللي طفولة من نواح كثيرة. كانت تقص لها حكايات طريفة، وتضحكها. وكانت نللي تشعر بكثير من السآمة حين تنصرف ألكسندرا سيمينوفنا إلى بيتها. حين جاءت ألكسندرا سيمينوفنا أول مرة، دُهشت مريضتي، ولكنها سرعان ما أدركت السبب الذي من أجله جاءت هذه الزائرة التي لم تكن في الحسبان، فتجهم وجهها، ولزمت صمتاً عدائياً. حتى إذا ذهبت ألكسندرا سيمينوفنا، سألتني نللي مستاءة:

ـ لماذا جاءت؟

ـ جاءت لتساعدك يا نللي، جاءت لتعتني بك؟

ـ لماذا؟ إنني لم أحسن إليها يوماً!

ـ الناس الطيبون لا ينتظرون أن يحسن أحد إليهم حتى يحسنوا إليه، إنهم يحبون من تلقاء أنفسهم خدمة من هم في حاجة إلى هذه الخدمة. إن هناك أناساً طيبين كثيرين. وإنما المصيبة أنك لم تلقي هؤلاء الناس حين كان يحب أن تلقيهم.

سكتت نللي. وابتعدتُ أنا عنها. ولكنها نادتني بعد ربع ساعة بصوتها الضعيف، وطلبت إليّ أن أسقيها جرعة ماء، ثم أحاطتني بذراعيها فجأة، وأسندت رأسها إلى صدري، وظلت على هذه الحالة مد طويلة. وحين جاءت ألكسندرا سيمينوفنا في الغد، استقبلتها نللي فرحةً، ولكن كان يبدو عليها أنها ما تزال تخجل منها.

الفصل الثالث

في ذلك اليوم قضيت السهرة كلها عند ناتاشا، وعدت إلى البيت في ساعة متأخرة. كانت نللي نائمة. وكانت ألكسندرا سيمينوفنا نعسة هي أيضاً. ولكنها تنتظرني جالسةً قرب المريضة. فلما وصلت أخذت تقص علي، بسرعة، وبصوت منخفض، أن نللي كانت مرحةً في أول الأمر، حتى إنها ضحكت كثيراً، ولكن الحزن بان في وجهها بعد ذلك، حين لاحظت أنني تأخرت، فصمتت وأصبحت واجمة ثم شكت من صداع في رأسها، وأخذت تبكي وتنتحب. قالت ألكسندرا سيمينوفنا: تحيرت فما أعرف ماذا أعمل. وقد راحت تكلمني عن ناتاليا نيقولايفنا، ولكنني لم أجبها بشيء، فانقطعت عن مساءلتي، وظلت طوال الوقت بعد ذلك تبكي إلى أن نامت أخيراً. إلى اللقاء يا إيفان بتروفيتش. أظن أن حالتها ستتحسن مع ذلك، يجب أن أذهب، لقد أوصاني فيليب فيليبتش بأن لا أتأخر. وأعترف لك بأنه لم يسمح لي بالتغيب أكثر من ساعتين، لقد بقيت هنا من تلقاء نفسي. على كل حال، لا بأس، لا تقلق من أجلي. إنه لا يجرؤ أن يغضب. ألاَّ أن يكون.. آه، يا إيفان بتروفيتش، ماذا أستطيع أن أفعل؟ سيعود الآن ثملاً! إنه مشغول جداً في هذه الأيام، أصبح لا يكلمني، هناك شيء يقلقه، ويثقل على نفسه. إنني ألاحظ ذلك واضحاً. وهو يسكر في المساء مع ذلك.. كنت أقول لنفسي طوال الوقت: تُرى لو عاد في هذه اللحظة، فمن يهيئه للنوم؟ ولكنني ذاهبة، إلى اللقاء يا إيفان

بتروفيتش. لقد نظرت في كتبك. عندك كتب كثيرة، ولا بد أنها كتب ذكية.. أما أنا، الغبية، فإنني لم أقرأ في حياتي شيئاً.. هيا، إلى الغد..».

استيقظت نللي في الغد حزينة مكتئبة، فكانت تجيب عن أسئلتي على مضض. وكانت لا توجه إليّ من تلقاء نفسها كلمة واحدة، كأنها حانقة عليّ، ولكنني لاحظت أنها كانت تلقي عليّ نظرات تختلسها اختلاساً من حين إلى حين. وكنت أقرأ في هذه النظرات حزناً دفيناً، ولكنني كنت أقرأ فيها في الوقت نفسه محبةً وحناناً لا ألاحظهما حين تنظر إليّ وجهاً لوجه. وفي ذلك اليوم إنما وقع المشهد الذي جرى مع الطبيب. كنت لا أعرف ماذا أقول في تعليل ذلك.

ولكن نللي غيرت موقفها مني تغييراً حاسماً بعد ذلك. فاستمرت في أعمالها الشاذة ونزواتها الغريبة وفي مشاعر الكره نحوي أحياناً إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أصبحت فيه لا تعيش معي، إلى أن حلت تلك الكارثة التي ختمت قصتنا. ولكننا سنعود إلى هذا فيما بعد.

على أنها كانت في بعض الأحيان تسترد عاطفتها نحوي ساعة أو ساعتين، فكان يبدو عندئذٍ أنها تضاعف ملاطفاتها، وكانت في أغلب الأحيان تبكي بكاء مراً. غير أن هذه الساعات تنقضي بسرعة، فإذا هي تعود إلى كآبتها، وتعود تنظر إليّ نظرة عداوة. حتى إذا لاحظت أحياناً أن شيطنة من شيطناتها الجديدة لا تعجبني أخذت تضحك ثم تضحك، وكان ذلك ينتهي بذرف الدموع في أغلب الأحيان.

حتى لقد تشاجرت مرة مع ألكسندرا سيمينوفنا، وأعلنت أنها لا تريدها، فلما أنبتها على ذلك أمام ألكسندرا سيمينوفنا، غضبت غضباً

شديداً، وأجابتني بخشونة، كأنها تفيض حقداً. ثم صمتت فجأة يومين كاملين تقريباً فلم تتوجه إليَّ بكلمة واحدة، ولا رضيت أن تتجرع دواءها، ولا أن تشرب ولا أن تأكل. ولم يستطع أحد غير الطبيب العجوز أن يردها إلى مشاعر طيبة.

سبق أن ذكرت أن مودة غريبة قد قامت بينها وبين الطبيب منذ ذلك اليوم الذي جرعها فيه الدواء. فأصبحت نللي تحبه كثيراً، وتستقبله دائماً بابتسامة متألقة، كأن لم يكن بها ظل من حزن قبل وصوله. وقد أخذ العجوز يجيء إليها كل يوم، فلقد بلغ من الافتتان بها أنه أصبح لا يستطيع أن يقضي يوماً واحداً من أيامه دون أن يسمع ضحكتها ودون أن يسمع أمازيحها التي كثيراً ما كانت مسلية جداً. وقد حمل إليها كتباً من كتب الصور المثقَّفة، ومن بين هذه الكتب كتاب اشتراه لها خصيصاً. وحمل إليها بعد ذلك حلوى وعلباً جميلة من علب السكاكر. فكان في الأيام التي يحمل فيها الهدايا إلى نللي يصل رافع الرأس كأن اليوم يوم عيد، وكانت نللي تحزر فوراً أنه يحمل هدية. ولكنه كان لا يظهر هديته، بل يضحك ضحكةً متخابثة، ويجلس إلى جانب نللي، ويقول لها: إن الفتاة حين تسلك سلوكاً حسناً فتستحق التقدير، يجب أن تكافأ على ذلك، وكان وهو يقول لها هذا الكلام ينظر نظرة تبلغ من البساطة والطيبة أن نللي تأخذ تضحك من أعماق قلبها، وتدل نظراتها التي عادت إليها البشاشة على عاطفة رقيقة صادقة، وكان العجوز ينهض أخيراً بفخامة وجلال، ويخرج علبة السكاكر، ويقدمها إلى نللي، مردداً هذه العبارة نفسها في كل مرة: «إلى عروستي اللطيفة». ولا شك أبداً أنه يكون في تلك اللحظة أسعد من نللي.

ثم يأخذان يتحدثان، وكان يحضها كل مرة، في جد وبلاغة،

على العناية بصحتها، ويسدي إليها نصائح مجرّب. كان يقول لها بلهجة مؤمنة:

ـ يجب على المرء أن يُعنى بصحته قبل كل شيء، أولاً: وخاصةً ليبقى على قيد الحياة، وثانياً: ليكون موفور العافية فيحقق بذلك السعادة. أما الأحزان، يا بنيتي العزيزة، فحاولي أن تنسيها أو حاولي أن لا تفكري فيها، وإذا لم تخامرك الأحزان، فلا تفكري في الأحزان أيضاً، وحاولي أن تفكري في ما يُفرح، حاولي أن تفكري في أمور مفرحة مسلية.

فسألته نللي مرةً:

ـ ولكن في أي شيء يجب أن أفكر؟

فتحير الطبيب، ولم يعرف بم يجيب، ثم قال:

ـ مثلاً، في لعبة بريئة، تناسب سنك، أو في شيء من هذا القبيل.

ـ لا أريد أن ألعب، لا أحب اللعب، أفضل الأثواب الجديدة.

ـ الأثواب الجديدة! هم.. لا.. يجب أن يعرف المرء كيف يكتفي بأشياء بسيطة. على كل حال.. يمكن أن يحب الإنسان أيضاً الأثواب الجديدة.

ـ هل تنوي أن تشتري لي أثواباً كثيرة حين تتزوجني؟

ـ ما هذه الفكرة!

ذلك ما قاله الطبيب، ثم قطّب ما بين حاجبيه على غير إرادة منه. وكانت نللي تبتسم ابتسامة دلال، حتى إنها نسيت نفسها فنظرت إليّ مبتسمة.

وأضاف الطبيب يقول:

ـ على كل حال سأشتري لك ثوباً إذا استحققت ذلك بسلوكك.

ـ هل يجب أن أستمر على تجرع الدواء حين أكون زوجتك؟
ـ قد لا يجب ذلك، قد لا يجب ذلك دائماً.
قال الطبيب هذا، وأخذ يبتسم.
وقطعت نللي الحديث بضحكة صاخبة، وكان العجوز يضحك أيضاً، وهو ينظر إليها نظرة تفيض بالعاطفة.
قال وهو يلتفت نحوي:
ـ إن لها نفساً مرحة. ولكنها ما زالت تحتفظ بمزاج كثير النزوات والتهاويل، وما زالت تحتفظ بشيء من فرط الاهتياج.
نعم، إن الطبيب على حق. إنني أجهل كل الجهل ما الذي انتابها حتى صارت لا تريد أن تكلمني، كأنني أذنبت في حقها. ولقد آلمني ذلك، حتى إنني تجهمت أنا أيضاً، وظللت يوماً بكامله لا أتوجه إليها بكلمة واحدة، ولكنني خجلت من ذلك في الغد. كانت تبكي في كثير من الأحيان، وكنت لا أعرف كيف أواسيها. على أنها قطعت الصمت ذات يوم.
كنت قد عدت إلى البيت قبيل الغسق، فلمحتها تواري كتاباً تحت مخدتها بسرعة. كان هذا الكتاب هو روايتي، أخذتها من على المنضدة وجعلت تقرأ فيها أثناء غيابي. لماذا تخفي الكتاب كأنها تستحي من قراءته؟ ذلك هو السؤال الذي طرحته على نفسي عندئذٍ، ولكنني تظاهرت بأنني لم ألاحظ شيئاً. وبعد ربع ساعة ذهبت إلى المطبخ لأمر من الأمور، فإذا هي تقفز من سريرها بسرعة، وتردّ الكتاب إلى مكانه، فلما عدت رأيته على المنضدة. وما هي إلا لحظة حتى نادتني، وكان صوتها يدل على انفعال. كان قد انقضى أربعة أيام لم أكد أكلمها خلالها. سألتني بصوت متقطع:
ـ هل.. تذهب اليوم إلى ناتاشا؟

ـ نعم يا نللي، يجب أن أراها اليوم حتماً.

ـ هل.. تحبها.. كثيراً.

ـ نعم كثيراً يا نللي.

ـ أنا أيضاً أحبها.

قالت ذلك بصوت خافت، ثم خيَّم الصمت مرة أخرى. وقالت بعد قليل وهي تلقي عليّ نظرة خجلى:

ـ أريد أن أذهب إليها وأن أعيش معها.

فقلت دهشاً:

ـ هذا مستحيل يا نللي.. أأنت متضايقة في بيتك هنا؟

قالت وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة:

ـ لماذا مستحيل؟ أنت تنصحني أن أذهب إلى أبيها، ولكنني أؤثر أن أذهب إليها. هل عندها خادمة؟

ـ نعم.

ـ إذن تصرفُ الخادمة، وأتولى أنا خدمتها. سأعمل لها كل شيء، وسأرفض أن أتقاضى منها أي أجر. سأحبها، وسأطبخ لها. قل لها اليوم هذا.

ـ ولكن لماذا يا نللي؟ ما هذه الفكرة؟ أي رأي قد استقر في ذهنك عنها؟ هل تظنين أنها تقبل أن تتخذك طبَّاخة؟ إنها إذا ضمتك إليها، فإنما تضمك قرينةً، أختاً صغيرة.

ـ لا، لا أريد أن تأخذني إليها قرينة، لا، لا.

ـ لماذا؟

صمتت نللي، وارتعشت شفتاها.. إنها تريد أن تبكي.

وقالت أخيراً.

ـ ولكن الشخص الذي تُحبه سيذهب وسيتركها وحيدة.

شُدهت حين سمعتها تقول هذا الكلام. فسألتها:

ـ كيد عرفت هذا يا نللي؟

ـ قلته لي أنت، وصباح أول أمس، حين جاء زوج ألكسندرا سيمينوفنا سألته فقصَّ عليّ كل شيء.

ـ هل جاء ماسلوبويف إلى هنا ذات صباح؟

قالت وهي تغض طرفها:

ـ نعم.

ـ لماذا لم تخبريني بذلك؟

ـ هكذا.

وأطرقتُ أفكر، لماذا يحوم حولها ماسلوبويف على هذا النحو الخفي؟ ماذا يريد؟ كان يجب أن أراه. وسألت نللي:

ـ ولكن ماذا يعنيك أن يتركها أو أن لا يتركها؟

فأجابتني دون أن ترفع رأسها:

ـ أنت تحبها كثيراً، أليس كذلك؟ وإذا كنت تحبها، فستتزوجها متى تركها الآخر؟

ـ لا يا نللي، إنها لا تحبني كما أحبها، وأنا.. لا لن يكون هذا يا نللي.

قالت بما يشبه الهمس، دون أن تنظر إليّ:

ـ سأخدمكما معاً، وستكونان سعيدين.

قلت في نفسي مضطرباً أشد الاضطراب: «ماذا بها، ماذا دهاها؟» وصمتت نللي، فما عادت تقول شيئاً. ولكنها انفجرت باكية حين خرجت، وظلت تبكي طوال الليل كله، كما أخبرتني بذلك ألكسندرا سيمينوفنا، ونامت تبكي، حتى إنها ظلت أثناء الليل، وهي نائمة، تبكي وتتكلم هاذية.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أشد كآبة وصمتاً، وأصبحت لا تكلمني أبداً. صحيح أنني لمحتها تختلس النظر إليّ مرتين أو ثلاث مرات، وصحيح أن نظرتها كانت تفيض عاطفة، ولكن هذه العاطفة كانت تنقضي في لحظة واحدة، وكانت نللي تزداد عبوساً من ساعة إلى ساعة، كأنما لتقاوم وثبة العاطفة تلك، وأصبحت تعبس هذا العبوس نفسه حتى للطبيب، الذي دُهش من هذا التغير الطارىء. وأثناء ذلك كانت قد استردت صحتها تقريباً، وسمح لها الطبيب أخيراً أن تخرج للنزهة في الهواء الطلق لحظات قصاراً. كان الجو صحواً دافئاً. وكنا في الأسبوع المقدس الذي جاء متأخراً في تلك السنة. وخرجتُ في ذات صباح، إذ كان لا بد من الذهاب حتماً إلى ناتاشا، ولكنني عاهدت نفسي أن أعود إلى البيت مبكراً، وأن أصحب نللي في نزهة قصيرة. كنت إلى ذلك الحين أتركها وحدها.

لا أستطيع أن أصف الضربة الصاعقة التي كانت تنتظرني في البيت. كنت أسرع الخطى عائداً. فلما وصلت وجدت المفتاح في الباب. ودخلت، فلم أجد أحداً. شعرت بانهيار. ونظرت، فرأيت على المنضدة ورقة كتب عليها بقلم الرصاص، بخط ضخم متفاوت، ما يلي:

«ذهبت من عندك، ولن أعود أبداً، ولكنني أحبك كثيراً».

المخلصة لك

نللي

أطلقت صرخة مذعورة، وخرجت من البيت.

الفصل الرابع

لَم أكن قد خرجت إلى الشارع، ولا كان أتسع وقتي للتفكير فيما سأفعله، حين رأيت فجأةً عربة تقف أمام باب العمارة، فتنزل منها ألكسندرا سيمينوفنا ممسكة بيد نللي. كانت تقبض على يدها بقوة كأنها تخاف أن تهرب مرةً أخرى، فهرعت إليها، وهتفت أقول:

ـ ماذا دهاك يا نللي؟ إلى أين ذهبت؟ لماذا؟

فقالت ألكسندرا سيمينوفنا:

ـ انتظر، لا تستعجل. لنصعد إلى بيتك أولاً. ستعرف كل شيء.

وهمست تقول لي بسرعة أثناء الطريق:

ـ ما سأقصه عليك لا يصدق. ستعرف حالاً.

كان واضحاً في وجهها أنها تحمل أنباء خطيرة كل الخطورة. فلما وصلنا إلى الغرفة اتجهت بالكلام إلى نللي تقول لها:

ـ هيا استلقى قليلاً يا نللي. أنت تعبة. إن السير تلك المسافة كلها ليس بالأمر الهيِّن، وخاصةً بعد المرض. إنه مرهق. هيا استلقى يا عزيزتي.

قالت ذلك لنللي ثم اتجهت إليَّ تقول:

- سنمضي نحن حتى لا نزعجها.

وأشارت إلى جهة المطبخ بغمزة.

ولكن نللي لم تمض إلى السرير، بل جلست على الأريكة، وغطت وجهها بيديها.

خرجنا، وراحت ألكسندرا سيمينوفنا تقص عليَّ ما تعرفه بسرعة، وقد اطلعت بعد ذلك على تفاصيل أخرى. وهذا ما وقع:

بعد أن خرجت نللي من عندي تاركةً رسالتها تلك، أي قبل أن أعود إلى البيت بنحو ساعتين، هرعتْ قبل كل شيء إلى منزل الطبيب العجوز. كانت قد حصلت على عنوانه قبل ذلك، وقد حدثني الطبيب عن مجيئها إليه فقال: إنه كاد يقع مغشياً عليه حين رآها في بيته، وأنه ظل طوال مدة بقائها عنده «لا يصدق عينيه»، وأضاف إلى ذلك قوله: إنني حتى الآن لا أصدق هذا الأمر، ولن أصدقه في حياتي يوماً. لقد جاءت إليه نللي مع ذلك. كان جالساً على مقعده في حجرته، هادىء البال، مرتدياً ثوب المنزل، يحتسي قهوته، حين دخلت راكضة، وارتمت على عنقه قبل أن يفيء إلى نفسه. كانت تبكي وتشده إلى صدرها بذراعيها، وتقبّله، وتقبّل يديه، وترجوه ملحةً، بكلمات متقطعة، أن يأخذها إليه. قالت له: إنها أصبحت لا تريد أن تعيش عندي، ولا تطيق أن تعيش عندي، وإنها من أجل هذا تركت بيتي وجاءت إليه، وإنها كانت منزعجة في منزلي، وإنها لن تسخر منه بعد اليوم أبداً، ولن تكلمه عن الأثواب الجديدة، وإنها ستحسّن سلوكها، وستتعلم غسل قمصانه وكيِّها (لا شك أنها هيأت خطابها هذا كله أثناء الطريق، وربما قبل ذلك)، وإنها ستكون طيِّعة فتتجرع ما يشاء من دواء، كل يوم إذا اقتضى الأمر، وأنها ما تحدثت عن زواجها به إلا من قبيل المزاح، وأنها لم تفكر في هذا أبداً ولا خطر لها ببال. ولقد بلغ الألماني العجوز من شدة الانشداه والانصعاق أنه ظل طوال الوقت فاغراً فاه، تاركاً سيكاره ينطفىء في الهواء، وقال لها أخيراً حين استطاع أن يحرك لسانه على نحو ما من الأنحاء:

ـ يا آنسة، إذا كنت قد فهمتك، فأنت تطلبين مني أن آخذك إليَّ. ولكن هذا مستحيل. إنك ترين أنني أعيش حياة ضيقة، وأن مواردي ضئيلة. ثم إنك، كما أرى، قد هربت من منزلك. وهذا أمر تُلامين عليه كل اللوم، هذا شيء مستحيل تماماً. ثم إنني لم أسمح لك بالخروج إلا لحظة قصيرة للنزهة، حين يكون الجو صحواً جميلاً، وذلك تحت رقابة وليِّ نعمتك.. وها أنت تتركين وليَّ نعمتك، وتهرعين إليَّ، بينما يجب عليك أن تسهري على صحتك.. و.. و.. أن تتجرعى دواءك.. إنني لا أفهم..

لم تترك له نللي أن يتم كلامه، بل عادت لتبكي، وتتوسل إليه من جديد. ولكن ذلك كله لم يُجدها شيئاً. فإن العجوز كان يزداد انشداهه ويقل فهمه لحظة بعد لحظة. وأخيراً تركته نللي هاربة وهي تصرخ: «آه يا رب». قال لي الطبيب وهو يختم كلامه: «وبقيت مريضاً طوال ذلك اليوم، واضطررت إلى تناول مغليٍّ بعض الأعشاب حتى أنام».

بعدئذٍ أسرعت نللي تسعى إلى منزل ماسلوبويف. وكانت قد حصلت على عنوانه، فاهتدت إلى البيت بعد عناء. وكان ماسلوبويف في البيت. فلما رجتهما أن يضماها إليهما رفعت ألكسندرا سيمينوفنا يديها إلى السماء. وسألاها لماذا خطرت لها هذه الفكرة، وهل هي غير مرتاحة في بيتي، فلم تجب بشيء، بل ارتمت على أحد الكراسي تنتحب. قالت لي ألكسندرا سيمينوفنا: «كانت تبكي بكاءً عنيفاً، حتى خُيِّل إليَّ أنها ستموت من فرط البكاء». وتوسلت نللي إليهما أن يأخذاها ولو خادمة أو طباخة، وقالت: إنها ستمسح الأرض وتغسل الغسيل. (كانت تعقد على غسل الغسيل هذا آمالاً خاصة، وتعتقد أن ذلك خير وسيلة لإغراء الناس بأخذها). وقد

أرادت ألكسندرا سيمينوفنا أن تحتفظ بها مدة من الوقت لتحصل منها على مزيد من الإيضاح، وأن تبلغني ذلك، ولكن فيليب فيليبتش عارضها في هذا معارضة قاطعة، وأمرها بأن تعود بالهاربة إليَّ، وقد عانقتها ألكسندرا سيمينوفنا أثناء الطريق وقبَّلتها، فاشتد بكاء نللي، فأخذت ألكسندرا سيمينوفنا تبكي هي أيضاً، حتى إنهما ظلتا تبكيان طوال الوقت. قالت لها ألكسندرا سيمينوفنا أثناء الطريق، وهي تبكي:

ـ ولكن لماذا، لماذا لا تريدين أن تعيشي عنده؟ هل يسيء معاملتك؟

ـ لا.

ـ إذن لماذا؟

ـ هكذا. . لا أريد أن أعيش عنده، لا أريد، إنني دائماً شريرة معه. وهو. . طيب جداً. أما عندكم فلن أكون شريرة؛ عندكم، سأعمل.

قالت ذلك وهي تجهش باكية كأنها في نوبة هسترية.

ـ ولكن لماذا أنت شريرة معه يا نللي؟

ـ هكذا.

وختمت ألكسندرا سيمينوفنا حديثها لي وهي تجفف دموعها قائلة: «لم أستطع أن أحصل منها على غير كلمة «هكذا». تُرى لِمَ هي شقية كل هذا الشقاء؟ هل تظن أن ذلك يرجع إلى مرضها؟ ما رأيك يا إيفان بتروفيتش؟».

وعدنا. كانت نللي مستلقية، وقد دسَّت وجهها بين المخدات تبكي. فركعت أمامها على ركبتي، وتناولت يديها، وأخذت أقبِّلهما، فسحبت يديها، وازداد نحيبها قوة وعنفاً. كنت لا أعرف ماذا أقول. وفي هذه اللحظة دخل العجوز أخمنيف.

ـ صباخ الخير يا إيفان، جئت إليك لعمل من الأعمال.

قال ذلك وهو ينظر إلينا كلينا ويستغرب أن يراني راكعاً على ركبتي. لقد كان العجوز مريضاً جداً في هذه الأيام الأخيرة، كان شاحباً نحيلاً؛ ولكنه كان يحتقر مرضه، كأنما ليستخف بشخص من الأشخاص، ويرفض أن يتبع نصائح آنا أندرييفنا: فهو ينهض من فراشه، ويمضي يسعى وراء أعماله.

قالت ألكسندرا سيمينوفنا وهي تنظر إلى العجوز بإلحاح:

ـ إلى اللقاء يا إيفان بتروفيتش، إلى الغد. لقد أوصاني فيليب فيليبتش أن أعود بأقصى سرعة، هناك أعمال يجب أن نقوم بها، ولكنني سأرجع هذا المساء، لأبقى ساعةً أو ساعتين.

سألني العجوز بصوت خافت، وكان واضحاً أنه يفكر في شيء آخر:

ـ من هذه؟

فشرحت له الأمر.

ـ هِمْ.. لقد جئت لأمر من الأمور، يا إيفان.

كنت أعرف ما هو ذلك الأمر، وكنت أنتظر زيارة العجوز. لقد أتى ليتحدث إليَّ وإلى نللي، وليطالبني بها. فقد وافقت آنا أندريفنا أخيراً على أخذ اليتيمة إلى بيتها. وكانت هذه الموافقة ثمرة محادثات سرية قامت بيني وبينها، فأقنعتُها؛ قلت لها: إن رؤية هذه اليتيمة التي لُعِنَ أبوها وأمها يمكن أن ترد قلب العجوز إلى عواطف أخرى. وقد بلغت من الوضوح في عرض خطتي أنها أصبحت هي التي تحث زوجها الآن على المجيء بالطفلة. وبادر العجوز إلى تنفيذ الأمر بسرعة، وكان يريد قبل كل شيء أن يحظى بإعجاب نللي، وكان يبيِّت أمراً. ولكن سأعود إلى هذا تفصيلاً.

سبق أن ذكرت أن نللي شعرت بالكره نحو العجوز منذ زيارته الأولى. وقد لاحظتُ بعد ذلك نوعاً من البغض والحقد يظهر في وجهها حين يُذكر أمامها اسم أخمنيف. ودخل العجوز في الموضوع رأساً بلا تمهيد. فمضى قُدُماً إلى نللي التي كانت لا تزال مستلقية مخبئة وجهها تحت الوسائد، فتناول يدها وسألها ألاَّ تريد أن تجيء معه إلى بيته، وأن تكون بمثابة ابنته. وختم العجوز كلامه لها بقوله:

ـ كان لي ابنة، وكنت أحبها أكثر مما أحب نفسي، ولكنها لا تعيش معي، لقد ماتت، فهل تريدين أن تحلي محلّها في بيتي و.. في قلبي؟

قال ذلك وترقرق الدمع في عينيه اللتين جففتهما وألهبتهما الحمى. فأجابته نللي دون أن ترفع رأسها:

ـ لا، لا أريد.

ـ لماذا يا بنيتي؟ ليس لك أحد. إن إيفان لا يستطيع أن يحتفظ بك في بيته إلى الأبد. وستعيشين عندنا في جو أسرة.

ـ لا أريد، لأنك رجل شرير.

قالت ذلك ثم رفعت رأسها وجلست على السرير أمام العجوز، وأضافت تقول:

ـ نعم، أنت شرير. وأنا أيضاً شريرة، شريرة جداً، ولكنك شرير أكثر مني.

قالت نللي ذلك وامتقع لونها، والتمعت عيناها، واصفرت شفتاها المرتعشتان وتصعرتا بتأثير الانفعال العنيف. وكان العجوز ينظر إليها مرتبكاً.

ـ نعم، أنت شرير أكثر مني، لأنك لا تريد أن تعفو عن ابنتك. إنك تريد أن تنساها نسياناً تاماً، وأن تتخذ لك ابنة أخرى. هل يمكن

أن ينسى الإنسان طفله؟ هل يمكن أن تحبني في المستقبل؟ إنك متى نظرت إليَّ، ستذكر أنني غريبة، وأن لك ابنة أردت أن تنساها من فرط قسوتك. أنا لا أريد أن أعيش عند أناسٍ قساة، لا أريد، لا أريد.

واصطبغ وجه نللي بحمرة شديدة، وألقت عليَّ نظرة سريعة، وأضافت تقول للعجوز:

ـ بعد غدٍ عيد الفصح.. بعد غد سيتعانق الناس ويتصالحون ويغفر بعضهم لبعض.. أعرف ذلك.. إلا أنت.. أنت وحدك! إنك رجل قاس، إذهب عني.

وأخذت تذرف دموعاً غزيرة. لا شك أنها هيأت هذا الخطاب منذ مدة طويلة، وحفظته على ظهر قلب، لتوجهه إلى العجوز متى جاء يدعوها إلى الذهاب معه. وتأثر أخمنيف تأثراً شديداً، فامتقع لونه، وارتسمت على وجهه معاني الألم.

وصرخت نللي فجأة وهي حانقة أشد الحنق:

ـ ولماذا، لماذا يهتم بي جميع الناس هذا الاهتمام كلّه؟ لا أريد، لا أريد، سأمضي أطلب الصدقات.

فهتفت على غير إرادة مني أقول:

ـ نللي، ماذا دهاك؟ نللي، ابنتي!

ولكن صرختي لم تزد على أن صبت فوق النار زيتاً، إذ صرخت نللي منتحبة تقول:

ـ نعم أفضل أن أمضي في الشوارع أطلب الصدقة. لن أبقى هنا. لقد كانت أمي أيضاً تتسول، وحين ماتت قالت لي: «ظلي فقيرة، ولأن تتسولي خير من أن..» ليس عاراً أن يتسول الإنسان. إن المتسول لا يطلب الصدقة من واحد، بل من جميع الناس، وجميع

الناس ليسوا واحداً. من العار أن أطلب الصدقة من واحد، أما من جميع الناس فلا. . هذا ما قالته لي متسولة. أنا صغيرة، وليس لي مخرج آخر. سأطلب الصدقة من جميع الناس. لا أريد، لا أريد، أنا شريرة، أكثر من أي إنسان، أنظروا كم أنا شريرة.

قالت كلمتها الأخيرة هذه، وهي تتناول فنجاناً كان على المنضدة، وترميه على الأرض. ثم قالت وهي تنظر إليَّ نظرة تحدٍ ظافر:

ـ ها قد انكسر.

ثم أضافت:

ـ ليس عندك إلا فنجانان. وسأكسر الفنجان الآخر. فكيف تشرب الشاي بعد الآن؟

كانت كمن مسَّه جن، وكان واضحاً أنها تجد في هذه السورة من الغضب لذة عنيفة: كانت تحس بأن ما تفعله شر وعيب، ولكنها كانت في الوقت نفسه كأنما تحض نفسها على اقتراف شذوذ جديد.

قال العجوز:

ـ إنها مريضة. . أو إنها. . أنا لا أفهم هذه الطفلة! إلى اللقاء.

وتناول قبعته، وصافحني. كان مهدماً. لقد جرحته نللي جرحاً بالغاً. وكنت حانقاً أشد الحنق. فصرخت أقول لنللي حين أصبحنا وحدنا:

ـ كيف لم تشفقي عليه؟ كيف لم ترحميه؟ إلا تستحين من ذلك؟ لا، لا، أنت لست طيبة، أنت شريرة حقاً!

قلت ذلك وهرعت وراء العجوز عاري الرأس، أريد أن أشيعه إلى باب العمارة، وأن أواسيه ببضع كلمات. وخيل إليَّ وأنا أهبط السلم بسرعة أنني ما زلت أرى وجه نللي متجهماً بتأثير ما وجّهت إليها من لوم. وما لبث أن أدركت صديقي العجوز. قال لي وهو يبتسم ابتسامة مرة:

ـ إن الطفلة المسكينة تشعر بأنها مهانة. . إن لها أحزانها، صدقني يا إيفان. وقد أخذت أقص عليها أحزاني، فنكأت جرحها. المثل يقول: الخلي لا يسمع الشجي، وإني لأضيف إلى ذلك أن الشجي نفسه لا يفهم الشجي دائماً. هيَّا. إلى اللقاء.

أردت أن أكلمه في شيء آخر، ولكنه أشار بيده إشارة يائسة، وقال في نوع من الهياج:

ـ لا تحاول أن تواسيني. الأفضل أن تسهر على أن لا تهرب من بيتك. لقد قرأت هذه الرغبة في وجهها.

قال ذلك ثم ابتعد بخطى سريعة وهو يؤرجح ذراعه ويضرب الرصيف بعصاه. إنه لا يتصور أنه بكلامه هذا كان نبياً.

ذلك أنني حين عدت إلى الغرفة وجدتها خاليةً مرة أخرى. لا أستطيع أن أصف ما تملكني عندئذٍ من رعب! أسرعت إلى المدخل، وبحثت عن نللي على السلم، وناديتها، حتى لقد طرقت أبواب الجيران أسألهم هل رأوها. لم أستطع أن أصدق ولا أردت أن أصدق أنها هربت ثانية. كيف استطاعت أن تهرب؟ ليس للعمارة إلا باب واحد، فلعلها مرت إذن أمامنا بينما كنا نتحدث أنا والعجوز. ولكنني ما لبثت أن قدرت، على أسف وحزن، أنها لا شك قد اختبأت أولاً على السلم، وتربصت هنالك إلى أن صعدت، فهربت. وبذلك لم يستطع أحد أن يراها. قلت في نفسي: إنها لم تبتعد كثيراً على كل حال.

وأسرعت أبحث عنها وقد استبد بي قلق رهيب. . تاركاً الباب مفتوحاً.

ذهبت أولاً إلى بيت ماسلوبويف، فلم أجده ولا وجدت ألكسندرا سيمينوفنا. فتركت لهما بطاقة أبلغهما فيها المصيبة الجديدة،

وأرجوهما أن يخبراني عن وصول نللي إليهما إذا وصلت، ثم ذهبت إلى منزل الطبيب، فلم أجده هو أيضاً، وقالت لي خادمته أن نللي لم تزرهما غير تلك الزيارة الأولى. ماذا أعمل؟ ذهبت إلى بيت بوبنوفا فعرفت من امرأة صانع التوابيت أن الساكنة قد اقتيدت إلى القسم منذ أمس، وأن أحداً لم ير نللي منذ ذلك اليوم. وهرعت ثانية إلى منزل ماسلوبويف وقد هدني التعب والإعياء، فكان الجواب هو نفسه: لم يجىء هو نفسه، لم يجىء أحد، ولا عادا هما بعد.. وكانت بطاقتي ما تزال على المنضدة. لم أعرف ماذا أعمل.

واتخذت سبيلي إلى البيت، في ساعة متأخرة من المساء، وقد استبد بي قلق خانق قاتل. كان يجب عليَّ أن أذهب أيضاً إلى ناتاشا، فقد استدعتني إليها منذ الصباح. ولم أكن قد تناولت شيئاً من الطعام النهارَ كله. وكان التفكير في نللي يعذبني أشد العذاب.

تساءلت: ما معنى هذا؟ أهو نتيجة لمرضها؟ أهي مجنونة، أو بسبيل أن تصبح مجنونة؟ ولكن أين هي الآن يا رب، أين يمكن أن أجدها؟ فما أن صرخت بهذا الكلام حتى لمحتها فجأة، على خطوات مني، فوق جسر ف... كانت واقفة قرب فانوس، ولم تلمحني. فتساءلت دهشاً: «ما عساها تفعل هنا». وقررت، وأنا واثق من أنها لن تفلت مني، قررت أن أنتظر وأن أراقبها. وانقضى على ذلك عشر دقائق. لقد ظلت خلال ذلك واقفة في مكانها تنظر إلى المارة. وأخيراً ظهر رجل عجوز قصير، حسن الهندام، فاقتربت نللي منه، فأخرج من جيبه شيئاً، ومده إليها دون أن يتوقف فانحنت له تشكره. لا أستطيع أن أصف ما شعرت به في تلك اللحظة. لقد انقبض صدري انقباضاً أليماً. تراءى لي أن شيئاً كان عزيزاً على نفسي، شيئاً كنت أحبه، وأدلله، وألاطفه، وأداعبه، يتسخ في هذه

اللحظة، ويتلوث شرفه، ولكن الدموع هطلت من عيني في الوقت نفسه.

نعم، بكيت على صغيرتي نللي، رغم أنني شعرت في الوقت نفسه باستياء شديد. إنها لا تستجدي عن حاجة، إنها لم تُقذَف إلى الشارع، ولا هُجِرت. إنها لم تهرب من أناس قساة اضطهدوها، بل من بيت أصدقاء أحبوها ودللوها. لكأنها كانت تريد بسلوكها أن تدهش وأن تخيف. كان يبدو أنها تريد أن تتحدى أحداً. ألاَّ أن شيئاً خفياً عجيباً كان يتخمر في نفسها. صدق العجوز. لقد أُهينت، ولم يمكن أن يلتئم حرجها، فكانت تحاول أن تغطيه بهذه التصرفات العجيبة، بهذا الشك فينا جميعاً، وهذا الحذر منا جميعاً. كانت تتلذذ بهذا الألم، كانت تتلذذ بأنانية العذاب هذه، إن صح التعبير. إنني أفهم هذه الحاجة إلى إذكاء هذا العذاب وهذه اللذة: إن هذا شأن كثير من المُذَلِّين المُهَانين الذين اضطهدهم القدر ووعوا ما أحاق بهم من ظلم. ولكن ما هو الظلم الذي أوقعناه نحن في نللي؟ لكأنها تريد أن تدهشنا وأن تخيفنا بأعمالها ونزواتها وشذوذها الغريب، زهواً وتباهياً. ولكن لا، ليس الأمر كذلك! إنها الآن وحيدة، وما من أحد منا يراها تستجدي. يستحيل أن تجد في ذلك لذة؟ لماذا تطلب الصدقات؟ ما حاجتها إلى المال؟

تركت نللي الجسر، حين تلقت ذلك الدريهم، واقتربت من نوافذ مخزن من المخازن تضيئه أنوار ساطعة. وأخذت هنالك تعد غنائمها. وقفتُ على بُعد عشر خطوات منها. كان في يدها مبلغ. كان واضحاً أنها ظلت تستجدي طوال اليوم. وعادت فقبضت يدها ثم اجتازت الشارع، ودخلت إلى إحدى الدكاكين. فأسرعتُ واقتربت من الباب الذي كان مفتوحاً على مصراعيه، وأخذت أراقبها لأرى ما عساها تصنع.

فرأيتها تناول البائع درهمها، ورأيت البائع يخرج لها فنجاناً للشاي، فنجاناً بسيطاً كالذي كسرته اليوم لتبرهن لنا، أنا وأخمنيف، على أنها شريرة جداً. إن ثمن هذا الفنجان نحو من خمسة عشرة كوبيكاً، أو يقل، لفه البائع لها بورقة وحزمه بخيط، وقدمه إليها، فأسرعت تخرج من الدكان وقد بدا على وجهها كثير من الرضا. فلما وصلت إلى حيث كنت أقف صرخت بها:

ـ نللي!

فارتعشت ونظرت إليَّ وأفلت الفنجان من يديها فسقط على الأرض وانكسر. كانت شاحبة الوجه، ولكنها حين نظرت إليَّ وأدركت أنني رأيت كل شيء وعرفت كل شيء، احمرّ وجهها فجأةً. إن هذا الإحمرار يكشف عن شعور بالعار قوي أليم. فأمسكت بيدها، وقدتها إلى البيت. لم ننبس أثناء الطريق بكلمة واحدة. فلما وصلنا، جلست، وظلت نللي واقفة أمامي، واجمة مضطربة. كان الشحوب قد عاد إلى وجهها، وكانت غاضة طرفها، لا تقوى على النظر إليّ.

ـ نللي، كنت تستجدين؟

ـ نعم.

ـ هل لمتك على كسر الفنجان؟ هل أنبَّتك؟ هل تدركين ما في عملك هذا من شر، هل تدركين ما فيه من شر متكبر؟ أَحَسَنٌ ما تفعلينه؟ ألا تشعرين بالعار؟ ألا..

فدمدمت تقول بصوت لا يكادُ يسمع، ودمعة تجري على خدها:

ـ أشعر بالعار!

ـ تشعرين بالعار يا نللي؟ بنيتي الغالية، إذا كنت قد أسأت إليك، إذا كنت قد أذنبت في حقك، فاغفري لي، ولنتصالح!

نظرت نللي إليَّ، وتفجرت من عينها الدموع، وألقت بوجهها على صدري.

وفي هذه اللحظة دخلت ألكسندرا سيمينوفنا كأنها الريح.

ـ آه.. رجعتْ؟ مرة أخرى يا نللي؟، نللي، ماذا أصابك؟ الحمد لله على أنها رجعتْ على كل حال! أين وجدتها يا إيفان بتروفيتش؟

فغمزت ألكسندرا سيمينوفنا أطلب إليها أن لا تطرح عليَّ هذه الأسئلة، ففهمت مني ما أريد. وودعتُ نللي وداعاً رقيقاً، وكانت ما تزال تبكي بكاء مراً، ورجوت ألكسندرا سيمينوفنا الطيبة أن تبقى معها إلى أن أعود. وأسرعت أذهب إلى ناتاشا. كنت قد تأخرت عنها، فحثثت الخطى.

كان مصيرنا يقرر في ذلك المساء، كان هناك أشياء كثيرة يجب أن يقولها أحدنا للآخر، أنا وناتاشا، ومع ذلك حدثتها عن نللي، وقصصت عليها كل ما حدث تفصيلاً. فاهتمت ناتاشا بقصتي كثيراً، بل تأثرت أشد التأثر، وقالت لي بعد أن فكرت لحظة:

ـ يُخيَّل إلي يا فانيا أنها تحبك؟

فأجبتها مدهوشاً؟

ـ كيف؟ ماذا؟

ـ نعم، هذا بداية حب، حب امرأة.

ـ ماذا تقولين يا ناتاشا؟ أنت تحلمين؟ إنها طفلة!

ـ طفلة سيكون عمرها بعد قليل أربعة عشر عاماً. إن هذا الحنق يرجع إلى أنك لا تفهم حبها، وإلى أنها ربما كانت لا تفهم هي أيضاً نفسها. لئن كان هياجها طفولياً من كثير من النواحي، فإنه مع ذلك هياج حاد قاس. إنها تغار مني، خاصة. إنك من شدة حبك لي لا تكاد تحدثها إلا عني، دون أن تلتفت إليها. وقد لاحظت هي

ذلك، فآذاها. لعلها تريد أن تكلمك، لعلها تشعر بالحاجة إلى أن تفتح لك قلبها، ولكنها لا تعرف، ولكنها تخجل، وهي لا تفهم نفسها، وهي تنتظر فرصة من الفرص، وأنت، بدلاً من أن تعجل هذه الفرصة، تبتعد، وتهرب إلى. حتى في أيام مرضها كنت تتركها وحيدة أياماً برمتها. إنها لهذا تبكي: إنها في حاجة إليك، وأنت لا تلاحظ ذلك، وهذا ما يحزّ في نفسها أكثر من أي شيء آخر. أنظر: لقد تركتها وحدها حتى في هذه اللحظة من أجلي أنا، ستكون غداً مريضة بسبب ذلك. كيف أمكنك أن تتركها وحدها؟ ارجع إليها حالاً..

ـ ما كنت لأتركها لولا..

ـ نعم أنا استدعيتك، والآن اذهب.

ـ سأذهب، ولكنني لا أصدق شيئاً مما قلته طبعاً.

ألأنها لا تشبه غيرها؟ تذكر ماضيها، فكّر في كل ذلك، فتصدق ما قلته لك. لم تكن طفولتها كما كانت طفولتنا نحن..

مع ذلك عدت في ساعة متأخرة. فروت لي ألكسندرا سيمينوفنا أن نللي قد بكت كثيراً، وأنها نامت وهي تبكي، كما حدث في المساء السابق.

ـ والآن يجب أن أذهب يا إيفان بتروفيتش. لقد أمرني فيليب فيليبتش بذلك. وهو ينتظرني.

فشكرت لها صنيعها وجلست أسهر على نللي. لقد حزَّ في نفسي أنني تركتها في لحظة كهذه. وبقيت قربها إلى ساعة متأخرة من الليل، غارقاً في أحلامي.. يا لذلك العهد ما كان أشقاه!

ولكن يجب أن أقص ما قد جرى خلال هذه الأيام الخمسة عشر.

الفصل الخامس

بَعْد تلك السهرة الخالدة التي قضيتها مع الأمير في المطعم، ظللت عدة أيام خائفاً على ناتاشا. «بم يهدِّدها هذا الأمير النذل، وكيف سينتقم منها؟» هذا هو السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي كل لحظة، وأمضي أحدس وأظن وأخمِّن. . . ثم انتهيت أخيراً إلى الاعتقاد بأن هذه التهديدات ليس مزاحاً ولا فيشاً، وأن الأمير يمكن أن يسبب لناتاشا كثيراً من المتاعب ما ظلت تعيش مع أليوشا. إنه رجل حقير، منتقم، خبيث، حيسوب. ويُستغرب من مثله أن ينسى إهانة، وأن لا ينتهز فرصة من الفرض ليثأر.

على كل حال، هناك نقطة من هذه النقط كلها حدثني فيها صراحةً وهي أنه يصر إصراراً حاسماً على القطيعة بين أليوشا وناتاشا، وينتظر مني أن أهيىء ناتاشا لانفصال قريب، فما يكون ثمة «مشاهد مثيرة ولا درامات شيللرية». طبيعي أن همه الأول هو أن يظل أليوشا راضياً عنه، وأن يظل يعده أباً رؤوفاً: إنه في حاجة إلى هذا، حتى يستطيع الاستيلاء بعد ذلك على ثروة كاتيا بأيسر الطرق. كان عليَّ إذن أن أعد ناتاشا لقطيعة قريبة. وكنت قد لاحظت فيها تغيراً كبيراً. لم يبق في سلوكها معي شيء من ذلك الإنطلاق، حتى لقد أصبح يبدو أنها ترتاب فيَّ وتحذر مني. أصبح يزعجها ما أقوله لها من كلام على سبيل المواساة، وأصبحت تضيق ذرعاً بما أطرح عليها من أسئلة، بل لقد أصبحت أسئلتي تغضبها وتثير حنقها. كنت

أظل جالساً أنظر إليها وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وقد شبكت ذراعيها، وأطرقت برأسها، وامتقع لونها، وبدت كأنها غائبة، كأنها نسيت أنني معها إلى جانبها، فإذا وقع نظرها عليَّ (وكانت تتحاشى نظراتي) ظهر في وجهها شيء من الهياج ونفاذ الصبر، وتحولت عني بسرعة. قدَّرت أنها تفكر في خطة لنفسها من أجل القطيعة الوشيكة، وهل يمكن أن تفكر في هذا دون ألم ودون مرارة؟ كنت مقتنعاً بأنها قررت القطيعة. ولكن هذا اليأس المظلم كان يعذبني ويخيفني. حتى لقد كنت في بعض الأحيان لا أجرؤ أن أوجّه إليها كلمة واحدة على سبيل المواساة، وكنت أنتظر الخاتمة مذعوراً.

وقد أقلقني موقف التعالي والفتور، الذي وقفته مني، ولكني كنت واثقاً من قلب صديقتي ناتاشا. كنت أرى أنها تتألم كثيراً، وأنها عزلاء تماماً. فكل تدخُّل من قِبَل شخص آخر لا يثير فيها إلا الحقد والعداوة. والحق أن الإنسان يزعجه في مثل هذه الأحوال تدخل أحد من أصدقائه الخُلّص الواقفين على أسراره. ولكنني كنت أعلم حق العلم أن ناتاشا ستعود إليَّ في الدقيقة الأخيرة تبحث في قلبي عما تنشده من عزاء وسلوى.

كتمت عنها حديثي مع الأمير طبعاً: ولو قصصته عليها لما زادها إلا اضطراباً وانهياراً. ولكنني ذكرت لها أنني ذهبت مع الأمير إلى الكونتيسة وأنني أيقنت أن هذا الأمير حقير حقارة رهيبة. فلم تسألني عن شيء بصدده، وسَرَّني منها ذلك. غير أنها أصغت بشراهة إلى كل ما رويته لها عن لقائي بكاتيا. فلما انتهيت من حديثي، لم تُضِفْ شيئاً، ولكن اصطبغ وجهها الشاحب بحمرة شديدة، ثم ظلت مضطربة طوال اليوم كله تقريباً. لم أخف عنها شيئاً مما رأيته في كاتيا، حتى لقد اعترفت لها صراحة بأن الفتاة قد خلّفت في نفسي أنا

أيضاً أروع صورة. وفيم الإخفاء؟ لو قد أخفيت للاحظت ناتاشا أنني أخفي عنها شيئاً، ولزعلت مني. لذلك تعمدت أن أقص عليها كل شيء تفصيلاً، وحرصت على التنبؤ بجميع أسئلتها التي يسوءها أن تطرحها وهي في حالتها تلك. هل من السهل على فتاة أن تستخبر عن فضائل غريمتها هادئة البال؟

وكنت أظن أنها ما تزال تجهل أن أليوشا سيصحب الكونتيسة وكاتيا إلى الريف، نزولاً على أوامر أبيه، وكنت أتساءل قلقاً كيف أبلغها النبأ على نحو يلطّف الضربة إذا أمكن التطليف. ولكن ما كان أشد دهشتي حين استوقفتني بعد بضع كلمات، وقالت إنه لا داعي إلى مواساتها، فهي تعرف الأمر منذ خمسة أيام، فهتفت أسألها:

ـ من الذي أنبأك بذلك؟

ـ أليوشا!

ـ أليوشا؟ قال لك ذلك؟

ـ نعم. وأنا مستعدة لكل شيء يا فانيا.

قالت ذلك، وقد بدا على وجهها التململ وظهر أنها تؤثر أن يقف الحديث هنا.

كان أليوشا يأتي إلى ناتاشا أحياناً كثيرة، ولكنه لا يمكث عندها إلا لحظة قصيرة. وفي مرة واحدة بقي معها بضع ساعات، وكان ذلك في غيابي. كان يدخل إليها حزين الوجه، وينظر إليها نظرة خجل رقيقة. ولكن ناتاشا كانت تظهر له من العاطفة ما ينسيه كل شيء فوراً، فإذا هو يمرح ويضحك. وكان يأتي إليَّ في كثير من الأحيان أيضاً، كل يوم تقريباً. كان يتألم ألماً صادقاً، وكان لا يستطيع أن يخلو إلى حزنه دقيقة واحدة، فكان يأتي إليَّ نشداناً للسلوى.

ماذا كنت أستطيع أن أقول له؟ كان يلومني على فتوري نحوه، وعلى أنني أضمر له العداوة. فكان يتفجَّع ويبكي، ثم يذهب إلى كاتيا فيجد في قربها عزاء.

ويوم ذكرت لي ناتاشا أنها تعلم بأمر سفره (كان ذلك بعد حديثي مع الأمير بأسبوع)، هرع إليَّ يائساً، فعانقني، وألقى برأسه على صدري، وأخذ يبكي منتحباً كأنه طفل. فسكتُّ أنتظر ما سيقوله. وبدأ يقول:

ـ إنني رجل سيئ فاسد يا فانيا، أنقذني من نفسي. لست أبكي لأنني فاسد وسيئ، بل لأن ناتاشا ستشقى بسببي. إنني أتركها لشقائها... قل لي يا فانيا، يا صاحبي، قل لي: من منهما أحب أكثر من الأخرى: أكاتيا أم ناتاشا؟

ـ لا أستطيع أن أقطع برأي في هذا الموضوع يا أليوشا، أنت أدري مني...

ـ لا يا فانيا، ليس الأمر كذلك. لستُ من الغباوة بحيث أطرح مثل هذا السؤال. ولكن الواقع أنني لا أعرف... إنني أسأل نفسي، فما أجد جواباً. وأنت ترى الأمر من بُعد، فقد تكون أدري مني... وهَبْكَ لا تعرف... قل لي: ما الذي يتراءى لك؟

ـ أظن أنك تحب كاتيا أكثر من ناتاشا؟

ـ تظن ذلك! لا، لا، هذا خطأ، خطأ تماماً. إنني أحب ناتاشا حباً لا حدَّ له. ولن أستطيع تركها يوماً. لقد قلت ذلك لكاتيا، وهي توافقني على رأيي. لماذا لا تقول شيئاً؟ لماذا تبتسم؟ آه منك يا فانيا، إنك واسيتني يوماً حين كان يستبد بي الحزن كما يستبد بي في هذه اللحظة.

وخرج مسرعاً، وكانت نللي تسمع حديثنا صامتة، فدهشت أشد

الدهشة من هذا الرجل العجيب. . . كانت لا تزال يومئذ مريضة، لم تبارح سريرها، وكانت تتناول أدويتها. وكان أليوشا إذا جاء لا يخاطبها بكلمة، ولا يكاد ينتبه إليها.

وعاد بعد ساعتين، فدُهشت مما يشيع في وجهه من فرح، وارتمى مرة أخرى على عنقي يقبلني.

ـ انتهينا. انحلت مشكلاتنا كلها. لقد ذهبت إلى ناتاشا رأساً حين خرجت من هنا. كنت محطماً، لا أستطيع أن أستغني عن لقائها. فما أن دخلت عليها، ركعت أمامها على ركبتي، وقبلت قدميها: كنت في حاجة إلى تقبيل قدميها، كنت أشتهي أن أقبّل قدميها: ولو لم أقبّل قدميها لمتّ حزناً. فقبلتني ناتاشا دون أن تقول شيئاً، وأخذت تبكي. عندئذٍ صارحتها بلا لف ولا دوران بأنني أحب كاتيا أكثر منها.

ـ وماذا قالت؟

ـ لم تجب بشيء، بل أخذت تلاطفني وتواسيني. . أنا الذي قلت لها ذلك الكلام. . إنها تعرف كيف تواسي يا إيفان بتروفيتش. آه يا فانيا، شكوت لها كل ما أعاني من شقاء، بسطت لها كل شيء. . قلت لها صراحةً: إني أحب كاتيا كثيراً، ولكنني مهما يكن حبي لكاتيا، لا أستطيع أن أعيش بدونها هي، وإنني أؤثر أن أموت على أن أتركها. لذلك اتفقنا على أن نتزوج بلا إبطاء. ولما كان يستحيل علينا أن نتزوج قبل سفري، لأننا في فترة الصوم الكبير، والزواج حرام في هذه الفترة، فقد أجّلنا ذلك إلى حين أعود في أوائل حزيران (يونيه). ولا شك أن أبي سيوافق على زواجنا. أما كاتيا. ماذا تريد؟ إنني لا أستطيع أن أعيش بدون ناتاشا!

مسكينة ناتاشا! لا بد أنها قاست كثيراً من الألم لتواسي هذا

الصبي، ولتُعنى به ولتصغي إلى اعترافه، ولتتخيل خرافة الزواج تلك حرصاً على طمأنينة ذلك الأناني الغرّ. وهدأ أليوشا حقاً خلال بضعة أيام. كان لا يُسرع إلى ناتاشا إلا لأن قلبه الضعيف لا يقوى على احتمال الحزن وحيداً. ولكن ما إن اقتربت لحظة الفراق حتى عاد إلى القلق والدموع، وحتى استأنف مجيئه إليّ نادباً حظه متوجعاً من شقائه. لقد بلغ في الأيام الأخيرة من شدة التعلق بناتاشا أنه كان يقول إنه لا يستطيع أن يتركها يوماً واحداً فكيف بستة أسابيع. وظل من جهة أخرى مقتنعاً إلى آخر لحظة بأنه لن يفارقها إلا ستة أسابيع، وأن الزواج سيتم عند عودته. أما ناتاشا فقد أدركت كل الإدراك أن مصيرها سيتغير، وأن أليوشا لن يعود إليها أبداً في هذه المرة، وأن الأمر يجب أن يكون كذلك.

وجاء يوم الفراق. كانت ناتاشا مريضة. كانت، وقد شحب لونها، والتهبت نظرتها، وجفَّت شفتاها، تتحدث إلى نفسها تارةً، وتلقي عليّ نظرة حادة نافذة تارةً أخرى. كانت لا تبكي، ولا تجيب على أسئلتي. فلما دوى صوت أليوشا أخذت ترتعش ارتعاش ورقة في مهب الريح. واحمرّ وجهها حتى صار بلون الأرجوان، ووثبت إليه، فأخذ يعانقها عناقاً قوياً، ويقبّلها، ويضحك.. كان ينعم النظر فيها ويسألها من حين إلى حين عن صمتها ويواسيها بقوله: إن غيابه لن يطول وإن الزواج سيتم عند عودته. وكانت ناتاشا تبذل جهوداً واضحة من أجل أن تملك نفسها وتحبس دموعها. فلم تبك أمامه.

وقال لها في لحظة من اللحظات: إنه سيترك لها مالاً يكفيها طوال مدة غيابه، فما يجب أن تقلق لهذا الأمر، لأن أباه قد وعده بمبلغ ضخم للرحلة. فقطبتِ ناتاشا ما بين حاجبيها.

وكنت قد قلت لها حين كنا وحدنا: إن هناك مئة وخمسين روبلاً

وضعت معي تحت تصرفها للطوارىء. فلم تسألني عن مصدر هذا المال. كان ذلك قبل سفر أليوشا بيومين، وقبل اللقاء الأول والأخير الذي تم بين ناتاشا وكاتيا، بيوم واحد. كانت كاتيا قد حمّلت أليوشا رسالة إلى ناتاشا ترجوها أن تسمح لها بزيارتها غداً، كما كتبت إليَّ رسالة أخرى ترجوني فيها أن أشهد هذا اللقاء.

فقررت أن أذهب إلى ناتاشا حتماً عند الظهر (وهي الساعة التي حددتها كاتيا) رغم جميع العوائق، وكانت هذه العوائق كثيرة: فهناك نللي وهناك العجوزان أخمنيف اللذان يسببان لي كثيراً من الهموم منذ بعض الوقت.

كانت قد بدأت هذه الهموم قبل أسبوع. استدعتني آنا أندريفنا ذات صباح، راجية أن أدع كل شيء وأن أوافيها حالاً، لأمر خطير لا يحتمل أي إبطاء. فذهبت إليها، فوجدتها وحدها تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً في حُمّى من الاضطراب والقلق والخوف، منتظرة عودة نيقولا سرجتش. وكالعادة، لبثتُ مدة طويلة لا أستطيع أن أفهم منها الموضوع ولا أن أعرف ما تخشاه كل هذه الخشية، رغم أن كل دقيقة كانت ثمينة. وأخيراً، بعد عتب عنيف ولوم شديد، كقولها: «لماذا لا آتي إليهما، لماذا أهجرهما يتيمين وحيدين مع الشقاء رغم أن هناك أشياء كثيرة تحدث في غيابي، لا يعلم بها إلا الله؟».. قالت لي: إن نيقولا سرجتش كان منذ ثلاثة أيام في «حالة من الاضطراب لا يمكن وصفها»، واستطردت تقول:

ـ إنك إذا رأيته أنكرته ولم تعرفه، إنه ينهض من فراشه في الليل، وهو في غمرة الحمّى، فيركع أمام صورة العذراء، ويأخذ يصلي وهو يهذي أثناء النوم، ويكاد يكون في اليقظة كالمجنون: أمس تعشينا حساءً، فكان لا يهتدي إلى ملعقته. تسأله عن شيء، فيجيبك عن

شيء آخر وهو يخرج من البيت في كل لحظة، مدعياً أنه يخرج لبعض الأعمال، وأنه في حاجة إلى مقابلة محاميه. وأخيراً، في هذا الصباح، حبس نفسه في غرفته قائلاً: إن عليه أن يحرر ورقة ضرورية للدعوى. «أية ورقة تستطيع أن تحرر وأنت لا تهتدي إلى ملعقتك قرب صحنك؟» ذلك ما قلته بيني وبين نفسي. وراقبته من ثقب الباب: كان جالساً يكتب والدموع تتدفق من عينيه تدفق الماء من الينبوع. تساءلت: ما عسى أن تكون هذه الورقة؟ أهو يتحسّر على ضياع أرضه أخمنيفكا؟ ذلك أن أرضنا قد ضاعت يا عزيزي. وإني لأفكر في هذا، إذا هو ينهض فجأة، ويرمي القلم. كان وجهه أحمر، وكان في عينيه شرر وتناول قبعته، وجاء إليَّ يقول: «سأعود بعد قليل يا آنا أندريفنا». وخرج. فمضيت رأساً إلى مكتبه. كان هناك أكداس من الأوراق تتصل بالدعوى، ولا يسمح لي بلمسها. ما أكثر ما سبق أن قلت له: «دعني أرتب لك هذه الأوراق مرة واحدة على الأقل حتى أستطيع نفض الغبار»، فكان يصرخ ويلوح بيديه. لقد أصبح في بطرسبرغ نافد الصبر كثير الصراخ. اقتربت من المكتب، وبحثت عن الورقة التي كان يكتبها. كنت أعرف أنه لم يأخذها معه، فلقد دسها بين أوراق أخرى حين نهض. وإليك ما وجدته، يا صديقي، انظر قليلاً.

قالت ذلك ومدت إليَّ ورقة من الأوراق التي تكتب عليها الرسائل، كانت الكتابة تملأ نصف الصفحة تقريباً، ولكنها كانت من الامتلاء بالشطب بحيث أن بعض الفقرات لا تمكن قراءتها.

مسكين هذا العجوز! إن المرء يعرف منذ قراءة الأسطر الأولى الموضوع الذي تدور عليه الكتابة، والشخص الذي توجه إليه الرسالة: إنها رسالة إلى ناتاشا، إلى حبيبته ناتاشا. إنه يبدأ خطابه

إلى ابنته بلهجة حارة رقيقة، يغفر لها ويعفو عنها، ويدعوها أن تعود إليه. كان من الصعب أن تقرأ الرسالة كلها، فقد كتبت بخط مضطرب مشوش متنافر وشُطب كثير من كلماتها. ولكن القارىء يلاحظ أن العاطفة الدافقة التي أملت عليه أن يمسك القلم وأن يكتب الأسطر الأولى التي تفيض بالمحبة تتبدل فجأة. فإذا العجوز يمضي يقرِّع ابنته ويصف لها فداحة جريمتها، ويذكرها بعنادها مستاءً مستنكراً، ويتهمها بأنها ليس لها قلب وبأنها لعلها لم تفكر مرة واحدة فيما صنعته بأبويها، ويهددها بالعقاب واللعن إلى الأبد جزاء كبريائها وصَلَفها. ويختم رسالته بقوله: إن عليها أن تعود إلى البيت خاضعة طائعة، حتى إذا «رجعت إلى أسرتها» فعاشت بين أحضانها حياة جديدة مستسلمة كان يمكن أن يفكرا عندئذٍ في العفو عنها. كان واضحاً أنه بعد أن كتب بضعة أسطر عدَّ عاطفته السمحة الكريمة الأولى ضعفاً، فخجل من هذا الضعف وشعر بما يشعر به المُهان من غضب الكبرياء، ثم انتهى إلى الحنق والسخط والتهديد. كانت العجوز واقفة أمامي وقد كتفت ذراعيها تنتظر على قلق ما سأقوله بعد قراءة الرسالة.

فقلت لها ما أراه صراحة، وهو أن العجوز أصبح لا يقوى على أن يعيش بدون ناتاشا وإننا نستطيع أن نعتقد جازمين بأن الصلح القريب أصبح أمراً لا بد منه. ولكن كل شيء رهن بالظروف. قلت لها: إن خسران القضية قد هزَّ العجوز وصعقه، عدا ما لحقه من أذى في كرامته من انتصار الأمير عليه، وعدا ما أثاره فيه مثل ذلك الحل من استياء واستنكار. والنفس في مثل هذه اللحظات تبحث عن مظاهر العطف بحثاً لا سبيل إلى قهره. فعندئذٍ تذكَّر العجوز أكثر من أي وقت مضى تلك التي يحبها حباً فوق كل حب. ومن الممكن

أيضاً (ما دام واقفاً على ما يحدث هنالك عند ناتاشا) أن يكون قد سمع أن أليوشا سيهجر ابنته قريباً فقدَّر ما تقاسيه من آلام في هذه اللحظة وعرف مدى حاجتها إلى المواساة. ولكنه لم يستطع أن يسيطر على نفسه، لأنه يرى أن ابنته قد أهانته وأذلته. ولعله قدَّر أنها لن تكون البادئة بالمجيء إليه، وأنها ربما كانت لا تفكر فيه أصلاً، ولا تشعر بالحاجة إلى الصلح، لذلك كله لم يُكمل رسالته. ومن يدري؟ فلقد تخرج من هذا كله إهانات جديدة يحسها العجوز أقوى من إحساسه بالإهانات الأولى. فإذا الصلح يؤجَّل مدة طويلة أيضاً.

كانت العجوز تصغي إليَّ باكية. فلما قلت لها: إن عليَّ أن أذهب حقاً إلى ناتاشا وإنني تأخرت عنها هزَّت رأسها وقالت: إنها نسيت الشيء الأساسي.. فإنها حين أخرجت الرسالة من بين أكداس الأوراق، قلبت دواة الحبر من قلة الاحتياط والحذر. وقد لاحظتُ فعلاً أن ركناً بكامله من ورقة الرسالة كان أسود من اندلاق الحبر عليه. كانت آنا أندريفنا تخشى خشية رهيبة أن يفطن العجوز إلى أن أوراقه قد نُبشت أثناء غيابه، وإلى أن امرأته قد قرأت رسالته إلى ناتاشا. ولقد كان خوفها في محله، إذ يكفي أن يعرف العجوز أننا وقفنا على سرِّه حتى يضاعف حفيظته على ناتاشا خجلاً وحنقاً، وحتى يصرّ على أن لا يعفو عنها كبرياء وصلفاً.

ولكنني بعد أن فكرت في الأمر أقنعت العجوز بأن لا تقلق، فإن زوجها حين كتب رسالته كان في حالة من الاضطراب لا يستطيع معها أن يتذكر جميع التفاصيل. فقد يظن أنه هو الذي لطَّخ الورقة ونسي ذلك الآن. فلما طمأنتها بهذه الطريقة قمنا كلانا فأعدنا الرسالة إلى مكانها في كثير من الاحتياط والحذر. وحين هممت أن أذهب بدا لي أن أحدِّث العجوز في أمر نللي. كان يتراءى لي أن اليتيمة

المسكينة المهجورة التي كان جدها قد لعن أمها هي الأخرى يمكن أن تؤثر في قلب العجوز بقصة حياتها الحزينة الأليمة، وأن تحرك فيه عاطفة الكرم والسماحة. لقد كان قلبه مهيأ لهذا، فإن الحزن الذي يسببه له غياب ابنته قد أخذ يتغلب على صَلَفِهِ، وأخذ ينتصر على كبريائه الجريحة. وليس يعوزه الآن إلا اندفاعة واحدة ـ إلا فرصة مواتية ـ وهذه هي الفرصة المواتية يمكن أن تأتي بها نللي. قلت ذلك للعجوز فكانت تصغي إلى كلامي باهتمام كبير، وانتعش وجهها بالأمل والحماسة. ثم راحت تلومني على أني لم أذكر لها ذلك منذ مدة طويلة. وأخذت تسألني عن نللي السؤال تلو السؤال. وختمت كلامها بأن قطعت على نفسها عهداً أن تتولى هي نفسها مطالبة زوجها بضمٍّ الطفلة إليهما. لقد كانت تحب نللي حباً صادقاً، وكان يحزنها أن نللي مريضة وكانت تسألني عنها. حتى إنها في ذات مرة حمَّلتني إليها آنية مملوءة بمربب الفاكهة أسرعت تأتي بها من دولاب الطعام.. كما جاءتني بخمسة روبلات فضية لأنها قدَّرت أنني قد لا أملك ما أدفعه أجراً للطبيب، فلما رفضتُ ذلك غضبت غضباً شديداً، ولم تهدأ بعض الهدوء إلا حين علمت أن نللي في حاجة إلى ملابس داخلية وأنها تستطيع إذن أن تخدمها بطريقة أخرى، فأسرعت إلى صندوقها تفض أثوابها واحداً واحداً لتنتقي منها ما يمكن أن تقدمه لليتيمة.

ذهبت إلى ناتاشا. فلما كنت أصعد سلم الدور الأخير الذي كان سلماً حلزونياً كما ذكرت ذلك من قبل، لمحت أمام الباب رجلاً كان يهم أن يطرقه ولكنه أحجم حين سمع وقع خطواتي. وأخيراً، ربما بعد لحظة من تردد، عدل من طرق الباب وقفل راجعاً. التقيت به عند الدرجة الأخيرة، فما كان أشد دهشتي حين نظرت إليه فإذا هو أخمنيف. إن السلم مظلم حتى عند الظهيرة. ألصَقَ الرجل جسده

بالحائط كي يتيح لي أن أمرَّ. ما أزال أذكر البريق الغريب الذي كان في عينيه وهو يحدق فيَّ بإلحاح! وخُيِّل إليَّ أن وجهه اصطبغ بالحمرة، وقد بدا عليه كثير من الاضطراب والحيرة على كل حال.
قال بصوت متعثر:
ـ ها.. هذا أنت يا فانيا؟ لقد جئت إلى هنا لمقابلة كاتب من كُتَّاب العرائض من أجل القضية نفسها.. سكن هنا منذ مدة قريبة، ولكن أظن في غير هذه العمارة. لقد أخطأت. إلى اللقاء..
وهبط السلم بسرعة.
قررت أن لا أذكر شيئاً لناتاشا عن هذا اللقاء الآن، على أن أتحدث إليها عنه متى سافر أليوشا وبقيت وحدها. إنها الآن مهدمة، فهبها فهمت كل ما يشتمل عليه هذا الحادث من معنى فإنها لن تستطيع أن تستقبله وأن تحسَّه كما يمكن أن تستقبله وأن تحسَّه متى تغلبت على حزنها ويأسها. ليس هذا الوقت وقت التحدث في ذلك.
كان يمكنني أن أعود إلى أخمنيف بعد خروجي من عند ناتاشا. وكنت أرغب في ذلك رغبةً شديدةً. ولكن بدا لي أن العجوز قد يسوءه أن يراني، حتى لقد يظن أنني أسرعت إليه عامداً على أثر لقائنا اليوم. لذلك لم أذهب إليهما إلا بعد يومين. فرأيت العجوز حزيناً، ولكنه استقبلني استقبالاً سهلاً، ولم يتحدث إليَّ إلا في شؤون أعماله. سألني فجأةً:
ـ قل لي أين كنت ذاهباً ذلك اليوم؟ يوم التقينا، ألاَّ تتذكر؟ متى كان ذلك يا ترى؟ كان ذلك أول أمس فيما أعتقد، أليس كذلك؟
قال هذا بلهجة من يصطنع عدم المبالاة، ولكنه حوَّل نظره عني، فأجبته وأنا أحوِّل نظري عنه أيضاً:
ـ كنت ذاهباً إلى صديق يقطن في ذلك البيت.

ـ ها. . . وأنا كنت ذاهباً إلى واحد من كُتّاب العرائض يقال له: آستافيف. ذكروا لي أنه يسكن ذلك البيت، ولكنني أخطأت. كنت أحدّثك عن الدعوى. . . نعم لقد قرروا في مجلس الشيوخ. . . إلخ إلخ.

واخمّر وجهه حين استأنف الكلام على قضيّته.

قصصت في ذلك اليوم كل شيء على آنا أندريفنا لأُدخل السرور إلى قلبها. ولكنني توسلت إليها أن لا تنظر إليه نظرة خاصة وأن لا تشير أية إشارة من شأنها أن تشعره بأنها واقفة على محاولته الأخيرة مهما يكن الأمر. وقد بلغت من الدهشة والفرح أنها لم تصدقني في أول الأمر. وذكرت لي من جهتها أنها أشارت إلى موضوع نللي. ولكنه ظل صامتاً لا يجيب بشيء، مع أنه هو الذي كان يصر في الماضي على ضمّ الطفلة إلى البيت. وقررنا أن نطرح عليه السؤال في اليوم التالي واضحاً بلا مقدمات ولا مداورات، ولكننا أصبحنا في اليوم التالي على حالة رهيبة من القلق.

ذلك أن أخمنيف التقى في الصباح بموظف كان يُعنى بقضيته، فأخبره هذا الموظف بأنه التقى بالأمير وأعلمه أنه على احتفاظه بأخمنيفكا قد قرر بسبب بعض الظروف العائلية أن يعوّض العجوز برد العشرة آلاف روبل إليه. فلما سمع العجوز هذا الكلام جُنّ جنونه اضطراباً وجاء إليّ فوراً: كانت عيناه تلتمعان بشرر من الحنق. قادني إلى السلم، لا يعلم إلا الله لماذا، وأمرني أن أذهب حالاً إلى الأمير وأن أدعوه إلى مبارزته. فبلغت من الإنشداه أنني لم أستطع أن أجمع شتات أفكاري. وحاولت أن أردّه إلى صوابه، ولكنه كان في طور من الهياج لا يجدي فيه كلام، حتى إن صحّته كانت من ذلك في حالة سيئة، فأسرعت أجيئه بكأس من الماء، فلما عدت لم أجده.

وذهبت إليه في اليوم التالي، ولكنه كان قد خرج. ثم اختفى مدة ثلاثة أيام.

ولم نعرف الأمر كله إلا بعد غد. لقد هرع العجوز من عندي إلى بيت الأمير، فلم يجده، فترك له بطاقة يذكر فيها أن الموظف قد نقل إليه كلامه، وأنه يعد هذا الكلام إهانة قاتلة، وأنه يعد الأمير رجلاً جباناً، وأنه لهذا كله يدعوه إلى منازلته، وأنه ينصحه بأن لا يرفض هذه الدعوة، إذا كان لا يريد أن يتلطخ شرفه أمام الناس.

وذكرت لي آنا أندريفنا أنه حين عاد كان في حالة شديدة من الاضطراب والاختلاط والتشوش، فكان لا بد أن يرقد في سريره. قالت العجوز: وقد أظهر لي كثيراً من العطف، ولكنه لم يكن يجيب على أسئلتي. كان واضحاً أنه ينتظر شيئاً من الأشياء بصبر نافد محموم. وفي صباح اليوم التالي، وصلت إليه رسالة بالبريد. فلما قرأها صرخ صرخةً مدوية وأمسك رأسه بيديه. وذعرت آنا أندريفنا. وما لبث العجوز أن تناول قبعته، وحمل عصاه، وخرج مسرعاً.

كانت الرسالة من الأمير، وفيها يُخبر أخمنيف، بعبارات جافة موجزة مهذبة، أنه غير ملزم بأن يشرح لأحد ما قاله للموظف؛ وأنه، يرثي لحال أخمنيف من خسران القضية، يؤسفه أنه لا يستطيع أن يرى أن من حق الخاسر أن يدعو خصمه للمبارزة انتقاماً. أما ما يهدده به من «تلطخ شرفه» أمام الناس، فهو يرجوه أن لا يقلقه ذلك، إذ لن يُلَطَّخَ شرفه أمام الناس، ولا يمكن أن يقع شيء من ذلك، وأنه سيسلم رسالته فوراً إلى المراجع المختصة، وأن الشرطة المكلفة بحماية الأمن ستتخذ التدابير اللازمة محافظةً على النظام.

هرع أخمنيف فوراً إلى الأمير، وهو يحمل الرسالة بيده، فلم

يجده في بيته، ولكنه علم من خادمه أن الأمير لا بد أن يكون الآن عند الكونت ن، فمضى العجوز إلى الكونت دون أن يفكر في الأمر. فاستوقفه البواب بينما كان يجتاز السلم، فلم يتورّع العجوز عن ضربه بعصاه من شدة الغضب، فألقي القبض عليه فوراً، وجُرَّ جرًّا إلى مركز الشرطة، واقتيد من هناك إلى مفوض الشرطة. وأبلغ الكونت النبأ، وكان الأمير عنده، فشرح الأمير للعجوز الفاسق أن أخمنيف المقبوض عليه هو أخمنيف نفسه أبو ناتاليا نيقولايفنا (لقد سبق للأمير غير مرة أن قدم خدمات من هذا النوع للكونت)، فلم يزد هذا السيد العظيم على أن ضحك، فانتقل من سورة الغضب إلى الشعور بالرأفة، وأمر بإطلاق سراح أخمنيف، ولكنهم لم يطلقوا سراحه إلا بعد يومين قائلين له (ولا شك أن ذلك كان بأمر الأمير) أن الأمير نفسه هو الذي تشفّع له عند الكونت.

عاد العجوز إلى بيته كالمجنون، فارتمى على سريره، ومكث راقداً ساعة بكاملها لا يقوم بأية حركة، ثم نهض، واتجه إلى آنا أندريفنا المذعورة، فأعلن لها رافعاً رأسه أنه يلعن ابنته إلى الأبد، وينزع عنها بركته الأبوية.

كانت آنا أندريفنا مرتاعة أشد الارتياع، وكان لا بد من مساعدة العجوز: وقد ظلت النهارَ كله والليل كله تحيطه بأنواع الرعاية والعناية، على غير وعي تقريباً، تبلل صدغيه بالخل، وتضع على جبينه كمادات الثلج. لقد كان في حمى شديدة، وكان يهذي. ولم أتركها إلا عند الساعة الثالثة من الصباح. ومع ذلك نهض أخمنيف في الضحى، وجاء إليّ يطلب نللي. سبق أن قصصت ما دار بينه وبين نللي، وذكرت أن هذا الذي دار بينه وبينها قد حطمه تحطيماً، فلما عاد إلى بيته رقد في سريره. حدث هذا كله يوم

الجمعة المقدسة، وهو اليوم الذي ضُرب موعداً للقاء كاتيا وناتاشا، قبل سفر أليوشا بيوم واحد. وقد حضرت ذلك اللقاء الذي تم في ساعة مبكرة من الصباح، قبل وصول العجوز إليَّ، وقبل هرب نللي أول مرة.

الفصل السادس

وصَل أليوشا قبل كاتيا بساعة، ليبلغ ناتاشا أن كاتيا قادمة. أما أنا فوصلت لحظة كانت عربة كاتيا تقف أمام الباب. كانت كاتيا مع وصيفتها الفرنسية العجوز التي وافقت بعد كثير من التضرع من جانب كاتيا وبعد كثير من التردد من جانبها هي، على أن تصحب كاتيا إلى بيت ناتاشا، وعلى أن تتركها عندها، بشرط أن يتم ذلك بحضور أليوشا. نادتني كاتيا، ورجتني، دون أن تنزل من عربتها، أن أدعو إليها أليوشا. فصعدت ووجدت ناتاشا تبكي، ووجدت أليوشا يبكي هو أيضاً. فلما علمت ناتاشا أن كاتيا وصلت، نهضت وجففت دموعها، ثم وقفت أمام الباب مضطربة أشد الاضطراب. كانت في ذلك الصباح ترتدي ثوباً أبيض، وقد صقلت شعرها الكستنائي وربطته عند النقرة بعقدة كبيرة. كنت أحب هذه التسريحة كثيراً. وحين رأت ناتاشا أنني بقيت معها، رجتني أن أنزل أنا للقاء الضيوف.

قالت كاتيا، وهي تصعد السلم:

- لم أستطع أن أجيء قبل الآن. كانوا يتجسسون عليّ بغير انقطاع، هذا شيء فظيع. ظللت أداور مدام ألبير خمسة عشر يوماً حتى قبلت. وأنت يا إيفان بتروفيتش، لم تزرني مرةً واحدة طوال هذه المدة! كنت من جهتي لا أستطيع أن أكتب إليك، وكنت لا أريد أيضاً أن أكتب إليك، لأن المرء لا يستطيع أن يفصح بالرسائل عن شيء. ولقد كنت في حاجة شديدة إلى رؤيتك. ما لقلبي يدق!..

ـ السلم متعب.

ـ نعم، ربما كان السلم سبباً أيضاً.. ولكن ما رأيك؟ ألن تحنق عليّ ناتاشا؟

ـ لماذا تحنق عليك؟

ـ صحيح، لماذا تحنق علي؟ سنرى على كل حال.. فلا حاجة إلى هذا السؤال..

ومددت إليها ذراعي. كانت شاحبة جداً، كأنها خائفة. ووقفت عند المنعطف الأخير تتنفس، ولكنها ألقت عليَّ نظرة، ثم أخذت تصعد بخطى حازمة.

وتوقف مرة أخيرة عند الباب، فقالت لي هامسة:

ـ سأدخل ببساطة، وسأقول لها إن لي من ثقتي بها ما جعلني أجيء إليها بلا خوف.. ولكن فيم أقول هذا الكلام؟ إنني على يقين من أن ناتاشا أنبل مخلوقة على وجه الأرض. أليس هذا صحيحاً؟

قالت ذلك ثم دخلت خجلى، كأنها مجرمة، وألقت على ناتاشا نظرة نافذة، فابتسمت لها ناتاشا، فتقدمت عندئذٍ نحوها بحرارة. وأمسكت يديها، وأطبقت شفتيها النضرتين على شفتي ناتاشا. وقبل أن تقول لناتاشا كلمة واحدة، التفتت نحو أليوشا عابسة، ورجته أن يتركنا وحدنا نصفَ ساعة. ثم أضافت تقول:

ـ لا تزعل يا أليوشا.. سأتحدث مع ناتاشا في أمور خطيرة يجب أن لا تسمعها. كن عاقلاً، ودعنا وحدنا. أما أنت يا إيفان بتروفيتش فابق معنا. يجب أن تسمع حديثنا كله.

وقالت لناتاشا حين خرج أليوشا:

ـ فلنجلس. سأجلس هنا أمامك. يجب أولاً أن أنظر إليك.

قالت ذلك وجلست أمام ناتاشا وأنعمت النظر إليها خلال لحظات.

كانت ناتاشا تبتسم ابتسامة مكرهة.

قالت كاتيا:

ـ سبق أن رأيت صورتك.. أرانيها أليوشا.

ـ وهل أشبه صورتي؟

ـ بل أنت أجمل منها، وكنت أقدِّر أن تكوني أجمل منها.

قالت ذلك بلهجة جادة جازمة.

ـ صحيح؟ ما أجملك أنت!

ـ ماذا تقولين؟ أنا..

قالت ذلك، ثم أضافت وهي تمسك يد ناتاشا:

ـ صديقتي!..

وصمتتا كلتاهما مرة أخرى، تنظر كل منهما في صاحبتها.

واستأنفت كاتيا تقول:

ـ اسمعي يا ملاكي، ليس أمامنا إلا نصف ساعة نقضيها معاً، بل إن مدام ألبير لم توافق على هذه المدة إلا بكثير من العناء. وهناك أشياء كثيرة يجب أن نقولها.. أريد.. يجب.. سأسألك بكل بساطة هذا السؤال: أنت تحبين أليوشا كثيراً، أليس كذلك؟

ـ نعم كثيراً.

ـ إذا كان الأمر كذلك، إذا كنت تحبينه كثيراً، فيجب أن تريدي له السعادة..

قالت كاتيا ذلك خجلى بصوت منخفض. فأجابتها ناتاشا:

ـ نعم إنني أتمنى له السعادة.

ـ نعم.. ولكن هذا هو السؤال: هل أحقق أنا له السعادة؟ إذا كنت ترين، وهذا ما سنبت فيه الآن، أنك تسعدينه أكثر مني..

أجابت ناتاشا بصوت خافت وهي تطرق برأسها:

ـ لقد بُتَّ في الموضوع وانتهى الأمر. . إنك لترين أنت نفسك أنه قد بُتَّ في الموضوع.

كان واضحاً أن متابعة هذا الحديث تشق كثيراً على ناتاشا.

لا شك أن كاتيا كانت تنتظر مناقشة طويلة حول المسألة التالية: أيتهما تضمن السعادة لأليوشا أكثر من الأخرى، وأيتهما ينبغي لها تبعاً لذلك أن تضحّي بنفسها؟ ولكنها فهمت بعد جواب ناتاشا أن الأمر قد بُتَّ فيه منذ مدة طويلة، وأن الكلام في هذا الموضوع لا طائل تحته بعد الآن فأخذت تتأمل ناتاشا حزينة حيرى، وظلت ممسكة بيدها، وشفتاها الجميلتان فاغرتان.

سألتها ناتاشا فجأة:

ـ وأنت، هل تحبينه كثيراً؟

ـ نعم. كنت أريد أن أسألك أيضاً، ومن أجل هذا جئت: لماذا تحبينه؟

فأجابت ناتاشا بلهجة يحس فيها المرء نوعاً مراً من نفاد الصبر:

ـ لا أدري.

ـ هل تجدينه ذكياً؟

ـ لا، إنني أحبه هكذا، أحبه وكفى.

ـ وأنا أيضاً، إنني أشفق عليه.

ـ أنا أيضاً.

هتفت كاتيا:

ـ وما العمل الآن؟ كيف أمكنه أن يتركك من أجلي؟ إنني لا أفهم ذلك بعد أن رأيتك!

لم تجب ناتاشا، وكانت ما تزال مطرقة إلى الأرض. وصمتت كاتيا، ثم نهضت فجأة، ولفَّت ناتاشا بذراعيها دون أن تقول كلمة

واحدة. وأخذت الاثنتان تبكيان، وقد تشبثت إحداهما بالأخرى. وجلست كاتيا على ذراع المقعد الذي تجلس عليه ناتاشا، وهي تشد ناتاشا إلى صدرها، وأخذت تقبل يديها، وقالت وهي تبكي:

ـ ليتك تعلمين كم أحبك يا ناتاشا. لسوف نكون أختين، ولسوف نتراسل.. سأظل أحبك إلى الأبد، سأحبك كثيراً، كثيراً.

فسألتها ناتاشا:

ـ هل حدثك عن زواجنا في شهر حزيران (يونيه)؟

ـ نعم، وقال: إنك موافقة. كان ذلك لمواساته، أليس كذلك؟

ـ طبعاً.

ـ لقد فهمت ذلك. سأحبه كثيراً يا ناتاشا. وسأكتب إليك عن كل شيء. لا شك أنه سيكون قريباً زوجي، فنحن سائران في هذا الطريق. وإنهم ليقولون ذلك جميعاً. عزيزتي ناتاشا، والآن ستعودين إلى بيت أهلك، أليس كذلك؟

فلم تجبها ناتاشا، ولكنها قبّلتها بحرارة دون أن تقول كلمة، ثم قالت:

ـ أتمنى لك السعادة!

ـ وأنا أتمنى لك السعادة.

وفي هذه اللحظة فُتح الباب، ودخل أليوشا. فهو لم يستطع أن ينتظر نصف ساعة. ولما رآهما متعانقتين تبكيان، ركع على ركبتيه أمام المرأتين الشابتين مهدود القوى يبكي، فقالت له ناتاشا:

ـ لماذا تبكي؟ ألأنك تفارقني؟ ولكن فراقنا لن يطول، وستعود في شهر حزيران.

وأسرعت كاتيا تقول من خلال دموعها لتواسي أليوشا:

ـ وستتزوجان.

ـ ولكنني لا أستطيع. . . لا أستطيع أن أتركك يوماً واحداً يا ناتاشا. بدونك أموت. . أنت لا تعرفين كم أحبك الآن يا ناتاشا، الآن خاصة!

فقالت له ناتاشا:

ـ إذن اسمع ما تصنعه يا أليوشا: لا شك أن الكونتيسة ستتوقف بعض الوقت في موسكو، أليس كذلك؟

فقالت كاتيا تؤيد كلامها:

ـ نعم ثمانية أيام.

ـ ثمانية أيام. عظيم: تصحبها غداً إلى موسكو، ولن يستغرق هذا إلا يوماً واحداً، ومن هناك تعود إلى هنا فوراً. حتى إذا قررتا مغادرة موسكو لحقت بهما، على أن تعود بعد شهر.

فهتفت كاتيا بحماسة، وهي تتبادل وناتاشا نظرة مثقلة بالمعاني:

ـ نعم، وبذلك تقضيان معاً عدداً آخر من الأيام.

لا أستطيع أن أصف الحماسة التي تأججت في أليوشا عند سماع هذا الاقتراح. لقد هدأت نفسه فجأة، وأشرق وجهه بالفرح، وقبَّل ناتاشا، وقبَّل يد كاتيا، ثم قبَّلني. كانت ناتاشا تنظر إليه وهي تبتسم ابتسامة مُرة، أما كاتيا فلم تستطع أن تحتمل، فرشقتني بنظرة ملتمعة، وقبَّلت ناتاشا، ونهضت لتذهب. وفي هذه اللحظة نفسها دخل خادم يقول على لسان المربية الفرنسية: إن نصف الساعة قد انقضى، فهي لذلك ترجو إنهاء المقابلة.

نهضت ناتاشا. ووقفت كل منهما أمام الأخرى، كأنهما تريدان أن تتناقلا بالنظرات كل ما تجمّع في القلب:

ـ لن نلتقي بعد اليوم أبداً يا ناتاشا.

ـ نعم لن نلتقي أبداً يا كاتيا.

ـ وداعاً إذن يا ناتاشا.

وعانقت كل منهما الأخرى.. وقالت كاتيا بصوت منخفض جداً:

ـ لا تلعنيني يا ناتاشا.. وأنا.. إلى الأبد.، ثقي.. بأنه سيكون سعيداً..

ثم قالت لأليوشا بسرعة وهي تتناول ذراعه:

ـ هيا بنا يا أليوشا، أنزلني.

لما خرجت قالت لي ناتاشا وقد هدَّها الانفعال والتعب:

ـ فانيا، اذهب معها.. و.. لا تعد. سيبقى أليوشا معي حتى الساعة الثامنة، وبعدها يذهب. وسأبقى وحدي.. تعال في نحو الساعة التاسعة، أرجوك!

وحين وصلت إلى ناتاشا في الساعة التاسعة (بعد حادثة كسر الفنجان) تاركاً نللي مع ألكسندرا سيمينوفنا، كانت ناتاشا وحدها، وكانت تنتظرني بصبر نافذ. وحملت مافرا إلينا السماور، فصبّت لي ناتاشا الشاي، وجلستْ على الأريكة، وأجلستني قربها.

قالت وهي تحدّق فيَّ (لن أنسى نظرتها تلك ما حييت):

ـ انتهى كل شيء. انتهى حبنا.

ثم أضافت وهي تشد على يدي بيدها الملتهبة:

ـ في ستة أشهر، وإلى الأبد..

فنصحت لها بأن ترتدي ثياباً دافئة وأن تنام.

ـ سأفعل ذلك حالاً، يا فانيا، حالاً، يا صديقي الطيب. ولكن دعني الآن أتكلم، دعني أتكلم، دعني أتذكر قليلاً.. إنني الآن كالمحطمة.. غداً، في الساعة العاشرة، سأراه آخر مرة.. آخر مرة.

ـ ناتاشا، إن بك حمى.. وستنتابك الرعدة بعد قليل. داري نفسك..

ـ ماذا تقول يا فانيا؟ إنني أنتظرك منذ نصف ساعة، منذ ذهب. هل تعرف في أي موضوع كنت أفكر خلال هذه المدة، هل تعرف عن أي شيء كنت أتساءل؟ كنت أسأل نفسي هل أحببته أولاً، وماذا كان هذا الحب! قد ترى من المضحك أنني لم أطرح على نفسي هذا السؤال إلا الآن!

ـ هدئي نفسك يا ناتاشا.

ـ هل تعرف يا فانيا؟ لقد أدركت أنني لم أكن أحبه حب الندّ للندّ، كما تحب امرأة رجلاً في العادة. لقد أحببته.. تقريباً كما تحب أم ابنها. ويُخيَّل إليَّ أنه ليس على وجه الأرض حب بين ندَّين. ما رأيك في هذا؟

نظرت إليها قلقاً، وأنا أخشى أن تكون قد انتابتها نوبة شديدة من الحمى. كان يبدو أنها فقدت سلطانها على نفسها: كانت تشعر بحاجة إلى الكلام، فكانت تقول من حين إلى حين كلاماً لا روابط تربطه، بل كانت تقول في بعض الأحيان كلاماً لا تحسن النطق به. وشعرت أنا بكثير من الغم والقلق. وتابعت ناتاشا تقول:

ـ لقد كان لي. إنني منذ لقيته أول مرة تقريباً، شعرت بحاجة لا تقاوم إلى أن يكون لي، إلى أن لا يرى أحداً غيري، إلى أن لا يعرف أحداً غيري، غيري أنا...

إن كاتيا على حق في رأيها: كنت أحبه حبَّ إشفاق عليه.. كنت دائماً أتمنى بعنف وحرارة أن يكون سعيداً كل السَّعادة إلى الأبد (كان هذا ما يعذبني حين أبقى وحدي). لم أستطع في حياتي يوماً أن أنظر إلى وجهه بهدوء وطمأنينة (أنت تعرف تعبير وجهه): لا يمكن لأحد أن يكون له هذا التعبير في الوجه.. وكنت إذا ضحك أتجمد، وأرتعش.. نعم!..

ـ اسمعي يا ناتاشا. . .

ـ كانوا يقولون، وكنت أنت تقول أيضاً، إنه لا إرادة له. . . وإن عقله ليس أنمى من عقل طفل. . نعم، وهذا بعينه هو ما كنت أحبه فيه، هل تصدق ذلك؟ ولكنني لا أدري هل كنت أحب فيه هذا وحده. . . لقد كنت أحبه كله وكفى. . ولو قد اختلف قليلاً عمّا كان، لو قد كان ذا إرادة وذا ذكاء إذن لكان يمكن أن لا أحبه ذلك الحب كله. سأعترف لك بشيء يا فانيا: إنك تذكر أننا تشاجرنا مرة منذ ثلاثة أشهر حين كان يختلف إلى تلك المرأة، ماذا كان اسمها؟ نعم إلى تلك المرأة التي كان اسمها مينا. . كنت أعرف أنه يذهب إليها، فقد كلفت أحداً بمراقبته، وكنت أتألم ألماً رهيباً لا يُطاق. . ولكنني في الوقت نفسه كنت أشعر بشيء من السرور. . لا أدري لماذا؟ كنت إذا تصورت أنه يستمتع. . لا. . لا. . ليس هذا هو الأمر. . كنت إذا تصورت أنه يغازل البنات هو أيضاً، وأنه ذهب إلى مينا، كشاب كبير مع غيره من الشباب الكبار، أشعر بلذة عظيمة. آه ما كان أشد سروري بتلك المشاجرة، وبالعفو عنه بعد ذلك. يا حبيبي يا أليوشا!

قالت ناتاشا ذلك ونظرت إليَّ وجهاً لوجه، وضحكت ضحكة غريبة، ثم راحت تفكر. . كان يبدو أنها تستعيد ذكرياتها. وظلت على هذه الحال مدة طويلة، غارقة في الماضي، والابتسامة في شفتيها. ثم استأنفت تقول:

ـ كنت، يا فانيا، أحب أن أغفر له، كنت أجد في العفو عنه سعادة كبيرة. كنت حين يتركني وحدي، أظل أمشي في الغرفة مهتاجة باكية. . وكنت في الوقت نفسه أقول لنفسي: «كلما أذنب في حقي، كان ذلك أحسن» نعم. . وكنت أتخيله دائماً صبياً صغيراً:

يلقي رأسه على ركبتي وأنا جالسة، ويغط في نوم عميق، وأداعب أنا شعره.. على هذه الصورة كنت أتخيله دائماً، حين لا يكون معي..

وفجأة قالت:

ـ اسمع يا فانيا، ما هذه الفتاة الساحرة، كاتيا!

خُيِّل إليّ أنها تنكأ جرحها عامدة، وتشعر بحاجة إلى مزيد من اليأس والعذاب. إن هذا ليقع كثيراً لمن أصيب قلبه بخسارة فادحة لا طاقة له على احتمالها. وتابعت ناتاشا كلامها تقول:

ـ أعتقد أن كاتيا تستطيع أن تسعده. إن لها إرادة قوية. يدل كلامها على ثقتها بنفسها. إنها معه جادة صارمة. وهي تحدثه في أمور ذكية كأنها شخص كبير، مع أنها ليست إلا طفلة. ما أعذبها! أرجو لها السعادة، نعم، أتمنى أن يسعد كل منهما بالآخر.

قالت ذلك وأخذت الدموع تهطل من عينيها، ثم أفلت النحيب فجأة يخرج من أعماق قلبها. وظلت على هذه الحال نصف ساعة، لا تستطيع أن تثوب إلى رشدها، ولا أن تهدىء روعها.

يا لها من ملاك، ناتاشا هذه. لقد استطاعت منذ ذلك المساء، رغم ما بها من حزن ولوعة، أن تشاركني همومي، حين لاحظت أنها هدأت قليلاً أو تعبت، فأردت أن أسليها، فحدثتها عن نللي.. وقد تركتها ذلك المساء في ساعة متأخرة. انتظرت أن تنام. فلما انصرفت رجوت مافرا أن لا تدع سيدتها المريضة طوال الليل.

ـ آه... أما لهذه الآلام من آخر! ألاً فلتنته على أي نحو من الإنحاء، شريطة أن تنتهي بسرعة!

بهذا الكلام هتفت حين وصلت إلى بيتي.

وفي الساعة التاسعة تماماً من الغد كنت عند ناتاشا. ووصل أليوشا في الوقت نفسه ليودعها. لن أتحدث عن هذا المشهد، لا

أريد أن أتذكر هذا المشهد. لا شك أن ناتاشا كانت قد قطعت على نفسها عهداً أن تسيطر على مشاعرها، وأن تبدو مرحة لا تبالي. ولكنها لم تقو على ذلك. عانقت أليوشا عناقاً قوياً، ولم تكلمه إلا قليلاً، بيد أنها تأملته طويلاً بإلحاح. كانت نظرتها معذبة تائهة. كانت تلتهم بشراهة كل كلمة ينطق بها، وكان يبدو أنها لا تفهم شيئاً مما يقول.. أذكر أنه سألها أن تغفر له، أن تغفر له هذا الحب، وأن تغفر له ما سببه لها من آلام، وأن تغفر له خياناته، وأن تغفر له حبه لكاتيا، وأن تغفر له سفره... كان يسوق كلامه متقطعاً تخنقه الدموع. وفجأة أخذ يواسيها، فيقول لها: إنه لا يتركها إلا شهراً واحداً أو خمسة أسابيع في أكثر تقدير، وأنه سيعود في أول الصيف، وأنهما سيتزوجان، وأن أباه سيوافق على هذا الزواج، وأنه خاصةً، سيعود من موسكو بعد غد، فيقضيان معاً أربعة أيام أخرى، وأنهما لا يفترقان الآن إذن إلا يوماً واحداً.

الشيء الغريب أنه كان مقتنعاً كل الاقتناع بأنه يقول الحق، وبأنه سيعود حتماً بعد غد.. فلماذا كان يبكي إذن، ولماذا كان حزيناً هذا الحزن كله؟

ودقت الساعة الحادية عشرة. فأقنعته بأن يذهب بعد كثير من العناء، ذلك أن قطار موسكو يتحرك في الثانية عشرة، فلم يبق له إلا ساعة واحدة. وقد ذكرت لي ناتاشا فيما بعد أنها لا تذكر النظرة الأخيرة التي ألقتها عليه. لقد رسمت عليه إشارة الصليب وقبّلته، ثم غطت وجهها بيديها وأسرعت تعود إلى غرفتها. واضطررت أن أقود أليوشا إلى عربته، وإلا لرجع أدراجه حتماً، ولما استطاع أن يهبط السلّم. قال لي وهو ينزل:

ـ أملي كله فيك يا فانيا. أنا مذنب في حقك، ولم أستحق

صداقتك يوماً، ولكن كن أخاً لي حتى النهاية، أحبَّها، لا تتركها، اكتب إليَّ عن كل شيء، بكل ما يمكن من تفاصيل. . . سأعود بعد غد حتماً، ولكن أكتب إليَّ بعد أن أسافر.

وأجلسته في عربته.

وهتف يقول لي وقد سارت العربة.

ـ إلى غداة غد، حتماً.

وعدت أصعد إلى ناتاشا مهدَّم القلب. كانت واقفة في وسط الغرفة مكتفة يديها، تنظر إليَّ نظرة حائرة كأنها لا تعرفني. كان شعرها المنفوش متهدلاً إلى جانب. وكانت تائهة النظرة. وكانت مافرا تقف عند الباب طائشة العقل، تنظر إليها ملتاعة مذعورة. وفجأة التمعت عينا ناتاشا، وصرخت تقول:

ـ ها. . هذا أنت. . أنت. لم يبق لي غيرك الآن. لقد كنتَ تكرهه. لم تستطع يوماً أن تغفر له حبه إياي. . وها أنت قربي مرة أخرى تريد أن تواسيني، وأن تحضّني على العودة إلى أبي الذي هجرني ولعنني. . عرفت ذلك منذ أمس، بل إنني أعرفه منذ شهرين! لا، لا أريد، أنا أيضاً ألعنهما. . إذهب، لا أستطيع أن أراك، إذهب عني، إذهب عني!

أدركت أنها تهذي، وأن رؤيتي قد أيقظت في نفسها حنقاً مجنوناً! كان ذلك أمراً لا بد منه، ورأيت أن عليَّ أن أبتعد. فخرجت وجلست على الدرجة الأولى من السلم، وكنت أنهض من حين إلى حين فأفتح الباب وأنادي مافرا، واسألها. كانت مافرا تبكي.

وقضيت على هذه الحال نصف ساعة. لا أستطيع أن أصف ما كنت أشعر به أثناء ذلك. كان قلبي ينهار، كان يطحنه عذاب لا نهاية له. وفجأة فُتح الباب، فرأيت ناتاشا تخرج مرتدية أجمل ثيابها،

واضعة قبعتها على رأسها، وتسرع تهبط السلم. كانت كالغائبة عن وعيها. وقد ذكرت لي هي نفسها فيما بعد إنها لا تكاد تذكر تلك اللحظة، وأنها كانت لا تعرف أين تذهب، ولا لماذا تخرج!

ما كدت أنهض لأختبىء حتى لمحتني فجأة، فوقفت أمامي بلا حراك كأن صاعقة ألمت بها.

وقد قالت لي فيما بعد: «تذكرت فجأة أني طردتك، أنت يا من كنت صديقي، وأخي، ومنقذي.. ما كان أفدح جنوني وما كان أشد قسوتي! فلما لمحتك، شقياً جريحَ الكبرياء، تنتظر على سلمي أن أناديك.. آه.. يا رب.. ليتك تعرف يا فانيا ما الذي شعرت به عندئذٍ.. لقد أحسست بقلبي يُطعن..».

هتفت وهي تمد إليّ يدها:

ـ فانيا، فانيا، أنت هنا؟

وألقت بنفسها بين ذراعيّ.

فأمسكت بها، وحملتها إلى غرفتها. كانت مغشياً عليها. تساءلت: ما العمل؟ لا شك أن نوبة شديدة من الحمى ستنتابها.

وقررت أن أهرع إلى الطبيب أستدعيه. يجب خنق المرض قبل تفاقمه. وكان في وسعي أن أفعل ذلك بسرعة: إن صاحبي العجوز الألماني يبقى في بيته عادةً حتى الساعة الثانية، فمضيت إليه بعد أن توسلت إلى مافرا أن لا تترك ناتاشا لا دقيقة ولا ثانية، وأن لا تدعها تذهب إلى أي مكان. وقد رأف بي الله، فلو أنني تأخرت قليلاً لما وجدت صاحبي العجوز. لقد التقيت به في الشارع خارجاً من بيته. وما هي إلا طرفة عين حتى أركبته عربتي، وعدنا إلى ناتاشا قبل أن يفيء الرجل إلى نفسه.

نعم، لقد رأف بي الله. فقد وقع أثناء غيابي حادث كان يمكن أن

يجهز على ناتاشا لولا أننا وصلنا أنا والطبيب في اللحظة المناسبة. فقد جاء الأمير إليها بعد ذهابي بربع ساعة، وكان عائداً من المحطة حيث ودَّع المسافرين. لا شك أنه قد بيَّت هذه الزيارة منذ مدة طويلة وقد روت لي ناتاشا فيما بعد أنها لم تُدهش في أول الأمر لرؤية الأمير. «كان فكري في حالة اضطراب واختلاط» هذا ما قالته لي.

جلس الأمير أمامها ينظر إليها بتودد وعطف. ثم قال لها وهو يتنهد:

ـ إنني أفهم حزنك يا بنيتي العزيزة. كنت أعرف أن هذه اللحظة ستشق عليك كثيراً، لذلك رأيت من واجبي أن أزورك. ليكنْ عزاؤك، إذا استطعت إلى العزاء سبيلاً، أنك بالعدول عن أليوشا تحققين له السعادة وأنت تعرفين هذا خيراً مني، ما دمتِ قد أقدمت على هذا العمل البطولي.

قالت لي ناتاشا: «كنت جالسة أصغي إليه، ولكنني في أول الأمر كنت لا أفهم ما يقول. إنني أتذكر الآن أنه كان ينظر إليَّ بلا انقطاع ثم تناول يدي وشدَّ عليها، وكان يبدو عليه أن ذلك يسره كثيراً. وقد بلغت من شدة الذهول أنني لم يخطر ببالي أن أسحب يدي من يده».

وتابع الأمير يقول لناتاشا:

ـ لقد أدركتِ أنك إذا تزوجت أليوشا فقد توقظين في نفسه شعور الكره نحوك، وكان لك من نبل الكبرياء ما جعلك تدركين ذلك وتقررين أن.. ولكنني لم أجئ إلى هنا لأثني عليك، وإنما أردت أن أبلغك أنني سأكون لك خير صديق. إنني أشاطرك حزنك، وأشفق عليك، وأرثي لحالك، لقد أسهمت بالرغم مني في هذا الموضوع

كله... ولكنني بذلك قد قمت بواجبي.. إن لك من نبل القلب ما يجعلك تفهمين هذا الأمر، وما يحملك على المغفرة لي والعفو عني.. لقد تألمت أكثر منك، صدقيني.

فقالت له ناتاشا:

ـ كفى يا أيها الأمير، دعني وشأني.

فأجابها بقوله:

ـ أنا ذاهب طبعاً، ولكني أحبك كما يحب الأب ابنته. فاسمحي لي أن أزورك من حين إلى حين. عدّيني كأبيك. عدّيني كأبيك بعد الآن، وإذا استطعت أن أفيدك في أمر من الأمور..

فقاطعته ناتاشا مرة أخرى قائلة له:

ـ لست في حاجة إلى شيء.

ـ أعرف كبرياءك، ولكنني أكلمك الآن مخلصاً من أعماق قلبي. ما الذي تنوين أن تعمليه الآن؟ هل تنوين أن تصالحي أهلك؟ إن ذلك يمكن أن يكون حلاً سعيداً جداً. ولكن أباك ظالم، متكبر، مستبد. اغفري لي هذا الكلام، ولكنْ تلك هي الحقيقة. لن تجدي الآن في بيت أبيك إلا اللوم والتقريع وآلاماً جديدة.. يجب إذن أن تظلي الآن مستقلة، ومن واجبي أنا، من أقدس واجباتي أنا، أن أُعنى بك وأن أساعدك. وقد ضرع إليّ أليوشا أن لا أتركك وأن أكون لك الصديق الوفي. وهناك أشخاص آخرون يضمرون لك أعمق الإخلاص. آمل أن تسمحي لي بأن أقدم لك الكونت ن.. إن له قلباً نبيلاً رائعاً، وهو من أقاربنا، بل أستطيع أن أقول: إنه المحسن إلى الأسرة كلها. لقد خدم أليوشا كثيراً. وأليوشا يحترمه ويحبه. إنه رجل واسع السلطان، كثير النفوذ.. وهو عجوز جداً، فلا حرج في أن تستقبله فتاة في بيتها. سبق أن حدثته عنك. وهو

يستطيع أن يوظفك، بل يستطيع أن يجد لك عملاً ممتازاً لدى أحد أقاربه. لقد أطلعته على قضيتنا كلها منذ مدة طويلة، وبسطتها له بصراحة، فاستجابت عواطفه الطيبة النبيلة كل الاستجابة، حتى إنه طلب إليّ هو نفسه أن أقدمك إليه في أقرب فرصة.. إنه رجل يحب كل ما هو نبيل جميل، صدقيني، إنه شيخ محترم كريم، يعرف كيف يقدِّر الناس حق قدرهم. حتى إنه، منذ مدة وجيزة جداً، تصرف أنبل التصرف، أثناء حادثة وقعت لأبيك.

فنهضت ناتاشا كأنما لسعتها أفعى. إنها تفهم الآن ماذا يريد، وصاحت به:

- دعني، اذهب عني، حالاً.

- ولكن لا تنسي يا عزيزتي أن الكونت يمكن أن يفيد أباك أيضاً.

- أبي لن يقبل منكم شيئاً. هل لك أن تذهب؟

بهذا صاحت ناتاشا مرة أخرى، فقال الأمير، وهو ينظر حوله بشيء من القلق:

- كم أنت ريّابة حذرة قليلة الصبر!

وأضاف يقول، وهو يخرج من جيبه حزمة كبيرة:

- على كل حال، هل تسمحين لي بأن أترك لك هذا الدليل على ما أكنّه لك من عاطفة، وخاصة على ما يكنه لك الكونت من عاطفة... إنه هو الذي حضني على القيام بهذا المسعى.. إن هذه الحزمة تضم عشرة آلاف روبل.

فلما رأى ناتاشا تنهض غاضبة حانقة استأنف يقول:

- انتظري يا صديقتي، اصبري على كلامي حتى أتمه: أنت تعرفين أن أباك قد خسر دعواه: وهذه الآلاف العشرة من الروبلات هي التعويض عن...

ـ إذهب، إذهب أنت وروبلاتك. إنني أعرفك.. أنت حقير، حقير، حقير!

ونهض الأمير وقد امتقع لونه من شدة السخط.

لقد جاء الأمير إلى ناتاشا مستكشفاً يريد أن يعرف وضعها وأن يجس نبضها.. وكان يعتمد اعتماداً كبيراً على ما قد تحدثه هذه الآلاف العشرة من الروبلات من أثر بعد أن هجرها جميع الناس وأصبحت بلا مورد.. لقد سبق لهذا المخلوق القذر أن أدى للكونت ن.. العجوز الشهواني، خدمات كثيرة في شؤون من هذا النوع، ولكنه كان يبغض ناتاشا، فلما رأى أن الصّفقة لم تتم، غيّر لهجته فجأة، وأسرع يهينها، وهو فرح بذلك فرحاً خبيثاً، على الأقل حتى لا يخرج صفر اليدين.

قال بصوت يرتجف قليلاً من رغبته الجامحة في أن يرى أثر إهانته بأقصى سرعة:

ـ لا يحسن أن تغضبي يا طفلتي، لا يحسن أن تغضبي أبداً. أنقدم لك الحماية، ثم تشمخين بأنفك؟ ألاً تدرين أن عليك أن تشكريني؟ لقد كان في وسعي أن أسوقك إلى الحبس منذ مدة طويلة، كأب أفسدت أخلاق ابنه الشاب وسرقت ماله.. ومع ذلك لم أفعل شيئاً من هذا.. هيء هيء هيء.

ولكننا كنا في هذه اللحظة ندخل البيت. كنت قد سمعت صوته ونحن عند المطبخ، فاستوقفت الطبيب لحظة، وأصغيت إلى الجملة الأخيرة التي قالها. سمعت ضحكةً شنيعة تدوي في الغرفة، وسمعت ناتاشا في الوقت نفسه تصرخ يائسة «يا رب!». ففتحت الباب، وهجمت على الأمير، فبصقت في وجهه، وأخذت أصفعه بكل ما أوتيت من قوة. وقد أراد أن يهجم عليّ، لكنه رأى أننا اثنان، فهرب

بعد أن تناول حزمة الروبلات من على المنضدة. نعم، لقد فعل ذلك، رأيته بعيني رأسي. فاندفعت وراءه حاملاً شوبقاً تناولته من على مائدة المطبخ... فلما عدت إلى الغرفة، كان الطبيب يمسك بناتاشا التي كانت تصارعه مهتاجة وتحاول أن تفلت منه. ولم نستطع أن نهدىء روعها إلا بعد مدة طويلة، واستطعنا أخيراً أن نمددها على سريرها. كانت تهذي.

سألت الطبيب وأنا أكاد أموت ذعراً.

ـ ما الذي بها يا دكتور؟

فأجابني بقوله:

ـ انتظر! يجب أن ألاحظها مزيداً من الملاحظة، وأن أفكر... ولكن الأمر خطير قد ينتهي إلى نوبة حمّى حارة. على كل حال سنتخذ الاحتياطات اللازمة.

إلا أن فكرة أخرى كانت قد استولت عليّ. فتوسلت إلى الطبيب أن يمكث عند ناتاشا ساعتين أو ثلاث ساعات أيضاً، وناشدته أن لا يتركها لحظة واحدة، فوعد بذلك، وأسرعت إلى بيتي.

كانت نللي جالسةً في ركن من أركان الغرفة، قاتمة مضطربة، فلما رأتني نظرت إليّ نظرة غريبة. لا شك أن منظري أنا كان غريباً أيضاً.

فتناولت يدها، وجلست على الأريكة، وأجلستها على ركبتيها إلى جانبي، وقبّلتها قبلة فيها رقة وحنان. فاصطبغ وجهها بحمرة قانية. قلت لها:

ـ نللي، ملاكي، هل لك أن تنقذينا؟ هل لك أن تنقذينا جميعاً؟

فنظرت إليّ مرتبكة مشوشة. وأردفتُ أقول:

ـ نللي، أملنا كله فيك. هناك أب، أب ورأيته وتعرفينه، هذا

الأب قد لعن ابنته، وجاء أمس يريد أن يضمك إليه بدلاً من ابنته؛ ابنته تلك، ناتاشا (التي قلت إنك تحبينها) قد هجرها الآن ذلك الذي كانت تحبه، والذي من أجله تركت أباها. إنه ابن ذلك الأمير الذي جاء ذات مساء إلى هنا، تتذكرين ذلك، فوجدك وحدك في البيت، فهربت حتى لا تريه، ومرضت بعد ذلك، هل تعرفينه؟ إنه إنسان شرير خبيث!

ـ أعرف.

قالت ذلك، وارتعدت وامتقع لونها.

ـ نعم إنه إنسان خبيث شرير، يكره ناتاشا، لأن ابنه أليوشا كان يريد أن يتزوجها، لقد سافر أليوشا، وبعد ساعة جاء أبوه إلى ناتاشا، فأهانها، وهددها بزجها في السجن، وهزىء بها، هل تفهمينني يا نللي؟

التمعت عينا نللي، ولكنها خفضتهما، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ أفهم.

ـ وناتاشا، الآن، وحيدة، مريضة، تركتها مع صاحبنا الطبيب، وأسرعت إليك. اسمعي يا نللي: لنذهب إلى والد ناتاشا، أنت لا تحبينه، وقد رفضت أن تذهبي إليه، ولكن فلنذهب إليه الآن معاً، سأقول له حين ندخل عليه إنك تقبلين أن تجيئي إليه، وأن تكوني بمثابة ابنته. إن العجوز مريض، لأنه لعن ناتاشا، ولأن والد أليوشا قد أهانه في هذه الأيام الأخيرة إهانة قاتلة. إنه الآن لا يريد أن يسمع أحداً يحدثه عن ابنته، ولكنه يحبها، يحبها يا نللي، ويتمنى أن يصالحها. إنني أعرف ذلك، ولا أشك فيه، هل تسمعينني يا نللي؟

فقالت نللي بصوت ما يزال منخفضاً:

ـ نعم!

كنت وأنا أكلمها أذرف دموعاً غزاراً. وكانت تلقي عليَّ نظرات خجلى.

ـ هل تصدقين ما أقوله لك؟

ـ نعم.

ـ إذن سنذهب. سأذهب بك إليهما، سوف يستقبلانك أحسن استقبال، وسوف يغمرانك بملاطفاتها. وسيطرحان عليك أسئلة كثيرة. سأتولى إنا إدارة الحديث بحيث يسألانك عن ماضيك، وعن أمك، وعن جدك. فقصّي عليهما كل شيء كما قصصته علي.

قولي لهما كل شيء، لا تخفي عنهم شيئاً. ستذكرين لهم كيف أن رجلاً شريراً قد هجر أمك، وكيف أنها ماتت في قبو عند بوبنوفا. وكيف كنتما تتجولان في الشوارع أنت وأمك تطلبان الصدقات من الناس. واذكري لهما ما قالته لك أمك وهي تحتضر، وما طلبته إليك. حدثيهما أيضاً عن جدك. قولي: إنه كان لا يريد أن يعفو عن أمك، وإنها أرسلتك إليه قبل أن تموت ليجيء إليها وليغفر لها، فرفض... وأنها ماتت.. قولي لهم كل شيء، كل شيء. وأثناء ذلك، سيحسّ العجوز كل ما تقصّينه عليه، سيحسّه في أعماق قلبه. فهو يعلم أن أليوشا قد ترك ابنته اليوم، وأنها الآن مُذَلَّة، مُهانة، لا سند لها ولا عون، ولا من يحميها أو يدافع عنها، وأنها معرضة لإهانات خصمه. إنه يعرف كل ذلك. نللي! انقذي ناتاشا. تعالي معي. هل تريدين؟

ـ نعم.

كانت تتنفس بكثير من العناء، وألقت عليَّ نظرة غريبة، طويلة، فاحصة. كان في نظرتها شيء يشبه أن يكون لوماً، أحسست بهذا في أعماق نفسي.

ولكنني كنت لا أستطيع أن أترك ما شَرَعتُ به. كنت أؤمن به إيماناً قوياً.

فأمسكت بيد نللي، وخرجنا. كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر، وكانت السماء متلبدة بالغيوم. إن الجو في هذه الأيام الأخيرة حار خانق. كانت تُسمع من بعيد أولى همهمات رعد الربيع. وكانت الريح تهب على الأرض، فتثير غبار الشوارع.

ركبنا عربة. وظلت نللي ملتزمة الصمت طوال الطريق. وكانت من حين إلى حين تلقي عليَّ تلك النظرة نفسها، الغريبة، التي كأنها لغز. كان صدرها يعلو ويهبط، وكنت أحتضنها، فأحسّ قلبها الصغير يخفق بيدي كأنه يريد أن يخرج.

الفصل السابع

بدا لِيَ الطريق طويلاً لا ينتهي. ووصلنا أخيراً، فدخلت إلى صديقيَّ العجوزَيْن خائر القلب. كنت لا أعرف كيف سأخرج من هذا البيت، ولكنني كنت أعرف أن عليَّ، مهما كلف الأمر، أن أخرج منه بالعفو عن ناتاشا، والصلح معها.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة. وكان العجوزان وحدهما على عادتهما. كان نيقولا سرجتش متعباً مريضاً، كان يستريح على كرسيه الطويل، شاحب الوجه، ضعيفاً، على رأسه منديل. وكانت آنا أندريفنا جالسة قربه، تبلل صدغيه بالخل من حين إلى حين، ولا تنقطع عن النظر إليه متسائلة حزينة. وكان يبدو أن ذلك يقلق الشيخ ويزعجه. كان مصراً على الصمت، وكانت لا تجرؤ أن تقطع عليه هذا الصمت. وقد فوجئا كلاهما بوصولنا. حتى لقد خافت آنا أندريفنا حين رأتني أدخل مع نللي، وظلت خلال الدقائق الأولى تنظر إلينا وكأنها شعرت فجأة بأنها مذنبة.

قلت لها وأنا أدخل:

ـ أتيتكما بنللي. لقد فكرت نللي في الأمر، فرأت من تلقاء نفسها أن تجيء إليكما. فاستقبلاها وأحباها.

نظر إليَّ الشيخ نظرة ارتياب. وفهمت من هذه النظرة وحدها أنه كان يعرف كل شيء، وأنه كان يعرف أن ناتاشا هي الآن وحيدة، مهجورة وربما مهانة. كان يشعر برغبة قوية في اكتناه سر مجيئنا:

فكان ينظر إلينا نظرة متسائلة. وكانت نللي ترتعش، ممسكة يدي، مطرقة إلى الأرض، وكانت من حين إلى حين تلقي على ما حولها نظرات خائفة، كحيوان وقع في الفخ. ولكن آنا أندريفنا ما لبثت أن فاءت إلى نفسها، فاندفعت نحو نللي، فقبّلتها وداعبتها، وأخذت تبكي، وأجلستها إلى جانبها في كثير من الحنان، دون أن تترك يدها. فكانت نللي تنظر إليها من جانب، بفضول تمازجه دهشة.

ولكن العجوز الطيبة، بعد أن داعبت نللي وأجلستها إلى جانبها، لم تعرف ماذا تصنع، فأخذت تنظر إليَّ نظرة انتظار ساذج. وقطّب نيقولا سرجتش ما بين حاجبيه. إنه لم يكن بعيداً عن إدراك السبب الذي من أجله جئت بنللي. فلما رأى أنني ألاحظ ما في وجهه من استياء، وما في جبينه من همّ وقلق، وضع يده على رأسه وقال فجأة:

ـ بي صداع يا فانيا.

كنا لا نزال صامتين. وكنت لا أعرف من أين أبدأ. الغرفة مظلمة. وسحابة كبيرة تجري في السماء، وها نحن نسمع صوت الرعد مرة أخرى من بعيد. قال العجوز:

ـ لقد بكّر الرعد هذه السنة. أذكر أنه بكّر أكثر من ذلك سنة سبع وثلاثين.

وتنهدت آنا أندريفنا. وسألت تقترح:

ـ هل أشعل السماور.

ولكن أحداً لم يجبها، فالتفتت نحو نللي تسألها:

ـ ما اسمك يا حلوة؟

فذكرت لها نللي اسمها بصوت منخفض، وازدادت إطراقاً. وكان العجوز يتفرّس فيها.

فاستأنفت العجوز تقول وقد أشرقت نفسها قليلاً:

ـ هيلين، أليس كذلك؟

ـ نعم.

وساد الصمت مرة أخرى خلال دقيقة. ثم قال نيقولا سرجتش:

ـ كان لأختي براسكو في آندريفنا ابنة اسمها هيلين، وكانوا ينادونها نللي أيضاً.

وعادت آنا أندريفنا فسألتها:

ـ إذن، يا صغيرتي، ليس لك أب ولا أم ولا أقارب؟

فدمدمت نللي تقول بسرعة، بصوت وجل:

ـ لا.

هذا ما قيل لي. هل ماتت أمك منذ مدة طويلة؟

ـ بل منذ مدة غير طويلة.

عادت العجوز تقول وهي تنظر إليها نظرة عطف:

ـ مسكينة أيتها الطفلة الحبيبة، مسكينة أيتها اليتيمة الصغيرة!

وكان نيقولا سرجتش ضيّق الذرع نافد الصبر، ينقر المائدة بأصابعه. واستمرت العجوز تطرح أسئلتها الخجلي.

ـ هل كانت أمك أجنبية؟ أهذا ما ذكرته لي يا إيفان بتروفيتش؟

فنظرت إليّ نللي بعينيها السوداوين نظرة سريعة كأنما لتدعوني إلى نجدتها. كان تنفسها ثقيلاً متفاوتاً، فقلت:

ـ كانت أمها إنجليزية الأب، روسية الأم، والأجدر إذن أن نعدها روسية. وقد ولدت نللي في خارج روسيا.

ـ إذن لقد سافرت أمها مع زوجها إلى الخارج؟

قالت العجوز ذلك، فإذا بنللي يحمر وجهها احمراراً شديداً على حين فجأة، فما لبثت آنا أندريفنا إن أدركت أن لسانها زَلّ، فارتعشت

من النظرة الغاضبة التي رشقها بها زوجها. لقد حدق إليها بنظرة قاسية، وتحوَّل نحوَ النافذة ثم قال وهو يلتفت فجأة إلى آنا أندريفنا:

- إن رجلاً شريراً جباناً قد غرر بأمها، فتركت بيت أبويها وسافرت مع عشيقها إلى الخارج وعهدت إليه بمال أبيها. وقد اغتصب العشيق ذلك المال بالحيلة: مضى بالفتاة إلى الخارج، وهناك سرقها وهجرها. وكان هناك فتى شهم بقي إلى جانبها، وساعدها إلى أن مات. فلما مات، منذ سنتين، عادت إلى أبيها، أليس هذا ما قصصته علي يا فانيا؟

طرح العجوز عليَّ هذا السؤال بلهجة قاطعة، وكانت نللي قد بلغت غاية الاضطراب، فنهضت وهمت أن تتجه إلى الباب، فقال لها العجوز وهو يمد يده إليها أخيراً:

ـ تعالي إلى هنا يا نللي، اجلسي هنا، إلى جانبي.

وانحنى فقبّلها في جبينها، وداعب رأسها برفق. وأخذت نللي ترتعش، ولكنها سيطرت على نفسها. وكانت آنا أندريفنا تنظر إلى نيقولا سرجتش يلاطف اليتيمة، وقد امتلأت نفسها حناناً، وفاضت بالأمل المشرق. قال العجوز منفعلاً، وهو ما يزال يدغدغ رأس نللي، ولا يتردد عن قذفنا بهذا التحدي:

ـ أنا أعرف يا نللي أن ذلك الرجل الشرير الذي لا أخلاق له قد ضيّع أمك، وأعرف أيضاً أن أمك كانت تحب أباها وتحترمه..

قال ذلك وصعدت إلى خديه الشاحبين حمرة خفيفة. وكان يتحاشى أن ينظر إلينا.

فقالت نللي خجلة، ولكن على حزم، وهي تحاول أن لا ترى أحداً:

ـ كانت أمي تحب جدي أكثر مما كان جدي يحبها.

فسألها العجوز بخشونة، وقد أصبح لا يسيطر على نفسه أكثر من طفل، وكان كأنه يشعر بخجل من نفاد صبره:

ـ كيف عرفت ذلك؟

فقالت نللي بلهجة مفاجئة:

ـ أنا أعرف ذلك. لقد رفض أن يستقبل أمي، و.. طردها.

لاحظت أن نيقولا سرجتش كان يريد أن يقول شيئاً، أن يجيب مثلاً بأن العجوز إذا رفض استقبال ابنته فإنما تدفعه إلى ذلك أسباب هامة. ولكنه نظر إليها وسكت.

وسألتها آنا أندريفنا التي أصرت فجأة على الاستمرار في الحديث في هذا الاتجاه:

ـ وأين سكنتما حين رفض جدك أن يراكما؟

فقالت نللي:

ـ حين وصلنا أخذنا نبحث عن جَدّي في كل مكان، ولكننا لم نعثر عليه. وقد قالت لي أمي: إن جدي كان في الماضي غنياً جداً، وأنه كان يريد أن يبني مصنعاً. ولكنه أصبح الآن فقيراً. لأن الرجل الذي سافرت معه أمي قد أخذ من جدي ماله كله ولم يرده إليه. إن أمي نفسها هي التي قالت لي ذلك.

– هم....

هذا كل ما دمدم به العجوز. وتابعت نللي كلامها تقول، وقد أخذت تتحمس شيئاً فشيئاً، وبدا عليها أنها تريد أن تردَّ على نيقولا سرجتش مع أنها تتوجه بكلامها إلى آنا أندريفنا، تابعت كلامها تقول:

ـ وقالت لي أمي أيضاً: إن جدي كان غاضباً عليها أشدَّ الغضب، وأنها مذنبة في حقه، وليس لها في الدنيا سواه. وكانت تبكي وهي تقول لي ذلك. قالت لي قبل أن نصل: «إنه لن يغفر لي أنا، ولكن

قد يحبك حين يراك، فيغفر لي من أجلك». كانت أمي تحبني كثيراً، وكانت تقبّلني وهي تقول لي هذا الكلام، وكانت تخاف جداً من رؤيته. وقد علّمتني أن أُصَلّي من أجله، وكانت تصلّي من أجله هي أيضاً. وقصت عليّ كيف كانت تعيش في الماضي مع جدي. وكيف كان يحبها كثيراً، أكثر من أي شيء في الدنيا. كانت في المساء تعزف له على البيانو، أو تقرأ له، وكان يقبّلها ويقدم إليها الهدايا، حتى إنهما تخاصما ذات يوم، وهو يوم عيد ميلاد أمي، لأن جدي كان يظن أن أمي لا تعرف الهدية التي سيقدمها لها، في حين أن أمي كانت تعرفها منذ مدة طويلة. كانت أمي تريد أن تكون الهدية قرطين، ولكن جدي تعمد أن يوهمها بأن هديته إليها ستكون حلية مما يزين به الصدر، فلما جاءها يوم العيد بالقرطين، فلاحظ أنها كانت تعرف ذلك، زعل منها، وظل لا يكلمها نصف يوم بكامله. ولكنه جاء بعد ذلك من تلقاء نفسه، فقبّلها وطلب منها أن تسامحه.

انساقت نللي في رواية قصتها، وصعدت إلى خديها الشاحبين حمرة.

كان واضحاً إذن أن الأم قد حدثت ابنتها غير مرة عن أيامها الخوالي السعيدة. كانت وهي جالسة في ركن من قبوها، تعانق ابنتها الصغيرة وتقبّلها (وهذه هي السلوى الوحيدة التي بقيت لها) وتبكي عليها، لا تقدر الأصداء القوية التي تثيرها قصصها في هذا القلب الحساس إلى درجة المرض، الناضج قبل الأوان، قلب طفلتها..

ولكن نللي التي استسلمت لذكرياتها استسلاماً تاماً فاءت إلى نفسها فجأة، فألقت حولها نظرة حذرة، وتوقفت عن الكلام. وقطب العجوز ما بين حاجبيه، وعاد ينقر المائدة بأصابعه، وترقرقت دمعة صغيرة في عين آنا أندريفنا، فجففتها بمنديلها في صمت.

واستأنف نللي تقول بصوت أصم:

ـ كانت أمي مريضة جداً حين وصلنا إلى هنا. كانت مصدورة. وظللنا نبحث عن جدي مدة طويلة، فلم نستطع أن نعثر له على أثر. وكنا قد استأجرنا ركناً في قبو.

فهتفت آنا أندريفنا:

ـ تعيش في ركن من قبو، وهي مريضة بهذا المرض!

فأجابت نللي:

ـ نعم. فقد كانت أمي فقيرة.

ثم أضافت بحماسة:

ـ وكانت أمي تقول لي: إن الفقر ليس خطيئة، وإنما الخطيئة أن يكون المرء غنياً فيهين الآخرين.. وإن الله يعاقبها على ما جنت يداها.

ـ سكنتما في فاسيلي أوستروف، عند بوبنوفا، أليس كذلك؟

طرح العجوز هذا السؤال، وهو يلتفت نحوي ويحاول أن يتكلم بلهجة لا تدل على شيء من الاهتمام. طرح هذا السؤال كما لو كان يزعجه أن يظل جالساً معنا دون أن ينطق بكلمة.

فأجابته نللي بقولها:

ـ بل سكنا أول الأمر في متشكانسكايا.

ثم استأنفت تقول بعد أن صمتت لحظة:

ـ كان المكان مظلماً رطباً، فاشتدت وطأة المرض على أمي، ولكنها كانت لا تزال تنهض من فراشها. كنت أغسل لها غسيلها. وكانت تبكي. وكان يسكن معنا امرأة عجوز هي أرملة ضابط في الجيش، وموظفٌ محال على المعاش يعود إلى البيت ثملاً فيصرخ ويملأ البيت ضجيجاً كل ليلة.. كنت أخاف منه، فكانت أمي

تأخذني إلى سريرها، وتضمني إليها، وكانت هي نفسها ترتعد خوفاً حين يعود ذلك الموظف فيأخذ يصرخ ويشتم. وقد أراد ذات يوم أن يضرب أرملة الضابط التي كانت عجوزاً هرمة تتوكأ على عصا، فأشفقت أمي عليها، ودافعت عنها، فضرب الرجل أمي، فهجمت أنا عليه..

هنا توقفت نللي عن الكلام.. إن هذه الذكرى تهزها هزاً قوياً. وأخذت عيناها تلتمعان.

صرخت آنا أندريفنا وقد أَسَرَتها هذه القصة وكانت لا تتحوّل ببصرها عن نللي التي كانت تتوجه بالكلام إليها خاصة، صرخت تقول:

ـ يا رب يا رب!..

وتابعت نللي كلامها:

ـ عندئذ خرجت أمي من البيت وأخذتني معها. كان ذلك أثناء النهار. فظللنا نمشي في الشارع حتى المساء. كانت أمي لا تنقطع عن البكاء، وكانت تمسك بيدي. ظلت طوال الوقت تحدث نفسها وتقول لي: «يجب أن تبقي فقيرة يا نللي، إياك أن تصغي بعد موتي إلى أحد، إياك أن تصدقي بعد موتي شيئاً. لا تذهبي إلى أحد، ظلي وحيدة، فقيرة، واعملي، فإن لم تجدي عملاً، فتسولي.. ولكن لا تذهبي إليهم أبداً». وفيما نحن نجتاز أحد الشوارع عند هبوط الليل، صرخت أمي فجأة: «آزور، آزور»، فإذا بكلب كبير أمعط يجري نحو أمي نابحاً، ويرتمي عليها. اصفرت أمي اصفراراً شديداً، وصرخت، وركعت على ركبتيها أمام شيخ طويل كان يسير متوكئاً على عصاه وهو ينظر في الأرض. كان ذلك الشيخ هو جدي. كان نحيلاً نحولاً شديداً، وكان يرتدي أسمالاً خلقة بالية. هذه هي المرة

الأولى التي رأيته فيها. وقد ذُعِرَ هو أيضاً، وامتقع وجهه، فلما رأى أمي راكعة أمامه تُعانق ساقيه، خلَّص ساقيه منها، ودفعها، وضرب بعصاه الرصيف، وابتعد مسرعاً. وبقي آزور. وكان آزور يئن ويلعق وجه أمي. ثم ركض وراء جدي، وأمسكه من طرف ردائه وشده إلى وراء، ولكن جدي ضربه بعصاه. وعاد إلينا آزور مرةً أخرى، ولكن جدي ناداه، فمضى إليه وهو ما يزال يئن. ظلت أمي على الأرض، كأنها ميتة. والتفّ الناس حولنا، وجاء رجال الشرطة. كنت أنا أبكي وأحاول أن أُنهض أمي. ونهضت أمي أخيراً، فألقت من حولها نظرة، ثم سارت تتبعني، فقدتها إلى البيت، ولقد ظلّ الناس مدة طويلة ينظرون إلينا وهم يهزون رؤوسهم.

توقفت نللي عن الكلام لتتنفس وتسترد قواها. كانت شاحبة شديدة الشحوب، ولكن عينيها تلتمعان بعزم قوي. كان واضحاً أنها قررت أخيراً أن تقول كل شيء. بل لقد كان فيها عندئذٍ شيء من التحدي.

قال نيقولا سرجتش بصوت متعثر مكفهر:

ـ لقد أهانت أمك أباك، وكان من حقِّهِ أن يدفعها.

فأجابت نللي بلهجة نافذة:

ـ ذلك ما قالته أمي.. كانت تقول لي ونحن عائدتان إلى البيت: «هذا هو جدك يا نللي.. لقد أجرمت في حقه، فلعنني، والله يعاقبني الآن على ما اقترفت يداي من إثم». وظلت أمي تردد هذا الكلام طوال ذلك المساء، وطوال الأيام التي أعقبته، ظلت تردده في كل لحظة. كان يُخيَّل إلى المرء حين يسمعها تتكلم أنها فقدت عقلها.

كان العجوز صامتاً لا يقول شيئاً:

وسألتها آنا أندريفنا التي ما فتئت تبكي بكاء صامتاً:

ـ وبعد ذلك غيّرتما المسكن؟

ـ في تلك الليلة اشتدت وطأة المرض على أمي. ووجدت لها امرأة الضابط مسكناً عند بوبنوفا، ذهبنا إليه لنقيم فيه بعد يومين. فلما وصلناه رقدت أمي في فراشها ثلاثة أسابيع، وكنت أنا أعتني بها، ولم يبقَ معنا شيء من مال، فساعدتها امرأة الضابط، وساعدنا إيفان ألسكندرتش.

أضفت موضحاً:

ـ صانع التوابيت.

ـ وحين نهضت أمي من فراشها وبدأت تسير على قدميها، حدثتني عن آزور.

وقطعت نللي كلامها. لقد سر العجوز أن ينصرف الحديث إلى آزور. فسألها وهو يزيد استلقاءه على مقعده كأنه يريد أن يخفي عنا وجهه:

ـ ماذا قالت لك عن آزور؟

فأجابت نللي:

ـ كانت لا تنفك تحدثني عن جدي. كانت وهي مريضة لا تزيد على أن تكلمني عنه، وكذلك أثناء الهذيان. ولما أخذت تتحسن صحتها، عادت فقصت عليّ كيف كانت تعيش في الماضي.. وروت لي قصة آزور فقالت: ذات يوم، في القرية، رأت عدداً من الصبية يجرّون هذا الكلب بحبل ليلقوه في النهر. فأعطتهم بعض المال تفتديه. وحين رأى جدي آزور ضحك كثيراً. ولكن آزور هرب. فأخذت أمي تبكي. وخاف عليها جدي. فقال: إنه سيدفع مائة روبل لمن يعيد إليه آزور. وعادوا إليه بعد يومين بالكلب، فدفع

جدي مائة روبل، ومنذ ذلك اليوم أخذ يحب آزور. وكانت أمي تحب آزور حباً شديداً، حتى إنها كانت تضمه إليها في سريرها. وقد قصت عليَّ أمي أن آزور كان في الماضي يطوف الشوارع مع ممثلين هزليين، وأنه كان يعرف كيف يشهر السلاح، وكيف يحمل على ظهره قرداً، وكيف يقلب بندقية، وكيف يقوم بأشياء كثيرة أخرى. وحين تركت أمي جدي، احتفظ جدي بآزور، فكان يجره معه حيثما ذهب، لذلك حين رأت أمي آزور في الشارع أيقنت فوراً أن جدي معه.

كان العجوز يأمل أن يكون الكلام على آزور فرصة للابتعاد عن الموضوع، فلما رأى أن ذلك لم يتحقق، ازداد جموداً ولم يطرح بعد ذلك سؤالاً.

سألتها آنا أندريفنا:

ـ ألم تري جدك بعد ذلك؟

ـ بل رأيته. رأيته مرة أخرى حين أخذت تتحسن صحة أمي. كنت ذاهبة لشراء شيء من الخبز، فرأيت رجلاً يسير مع آزور، فلما نظرت إليه عرفت أنه جدي. فوقفت بجانب الحائط لأدع له أن يمرَّ. فنظر إليَّ طويلاً، طويلاً، وخفت منه، ثم مضى. وقد عرفني آزور، فأخذ يقفز من حولي، ويلحس أصابعي. واشتريت الخبز، وقفلت راجعة إلى البيت، وفيما أنا التفت إلى وراء، رأيت جدي يدخل دكان الخباز، فقلت في نفسي: لا شك أنه دخل إليه ليطرح عليه بعض الأسئلة، فازداد خوفي. وحين وصلت إلى البيت لم أحدث أمي بشيء مما وقع، مخافة أن تمرض مرةً أخرى. ولم أذهب في الغد إلى دكان الخباز. بل ادّعيت أنني مصابة بصداع. وحين ذهبت إليه بعد غد، لم أصادف أحداً، ولكنني كنت خائفة جداً. حتى لقد

كنت أركض بأقصى سرعة. ذهبت إلى الخباز في اليوم الذي بعده. وفيما أنا أنعطف عند الناصية، رأيت جدي وآزور أمامي. فهربت. ومضيت في شارع آخر. ودخلت إلى الخباز من باب غير الباب الأول. ولكنني اصطدمت به مرةً ثانية على حين فجأة. فبلغت من شدة الخوف أنني تسمرت في مكاني لا أستطيع حراكاً. فنظر إليّ طويلاً كالمرة الماضية، ثم داعب رأسي، وتناول يدي، وسار بي. وتبعنا آزور يحرك ذنبه. لاحظت عندئذٍ أن جدي كان لا يقوى على الانتصاب بقامته. فكان يتكيء على عصا. وكانت يداه ترتعشان... وقادني إلى بائع في الناصية يبيع في الشارع حلوى وتفاحاً، فاشترى لي حلوى في شكل ديك وسمكة، واشترى تفاحة. وحين مد يده إلى محفظته ليخرج منها النقود كانت ترتجف ارتجافاً شديداً، حتى لقد سقطت من بين أصابعه قطعة خمسة كوبيكات. فتناولتها من الأرض، ومددتها إليه، ولكنه أعطانيها مع الحلوى، فشد على شعري.. كل ذلك دون أن يقول كلمة واحدة. ثم مضى..

عدت إلى البيت، فقصصت على أمي كل شيء، وقلت لها: إنني خفت من جدي في أول الأمر، وإنني كنت أختبىء حين أراه. فلم تصدقني أمي باديء ذي بدء، ثم بلغت بعد ذلك من فرط السرور أنها ظلت طوال ذلك المساء تطرح عليّ السؤال تلو السؤال، وهي تعانقني وتبكي، ولما فرغتُ من قص كل شيء عليها، قالت: إن عليّ أن لا أخاف من جدي أبداً بعد الآن، فإنه يحبني، ما دام قد جاء عامداً ليراني. وطلبت إليّ أن أكون لطيفة معه، وأن أكلّمه. وفي الصباح أرسلتني عدة مرات، رغم أنني قلت لها: إن جدي لا يأتي إلا في المساء. وكانت تسير ورائي، وتختبىء عند ناصية الشارع. وفي اليوم الذي بعده لم يأت جدي أيضاً. وكانت السماء

تمطر في تلك الأيام، فأصاب أمي برد لخروجها معي، واضطرت أن تلزم فراشها من جديد.

وجاء جد بعد ثمانية أيام. فاشترى لي سمكة وتفاحة أيضاً، ولكنه لم يكلمني أبداً. فلما مضى، تبعته دون ضجة، لأنني قررت أن أعرف أين يسكن، لأقول ذلك لأمي، سرت في أثره على الطرف الآخر من الشارع، حتى لا يراني. كان يسكن في مكان بعيد، لا في ذلك المكان الذي انتقل إليه بعد ذلك ومات فيه، بل في شارع أشجار البطم، في الدور الرابع من بيت كبير. وعدت إلى البيت متأخرة. فوجدت أمي قلقة أشد القلق، لأنها لا تعرف أين كنت. فلما قلت لها أين كنت، فرحت كثيراً، وقررت أن تذهب إليه في اليوم التالي. ولكنها فكرت في الأمر، فخافت أن تذهب إليه، وظلت تتردد ثلاثة أيام، نادتني بعدها وقالت لي: «اسمعي يا نللي، أنا الآن مريضة، ولا أريد أن أخرج من البيت، ولكنني كتبت رسالة إلى جدك، فاذهبي إليه، وأعطه الرسالة. وراقبيه وهو يقرأ الرسالة، وانتبهي إلى ما سيقوله وما سيفعله. ثم اركعي على ركبيتك، وقبّليه، واسأليه أن يغفر لأمك..». كانت أمي تبكي كثيراً وهي تقبّلني، ورسمت عليّ إشارة الصليب قبل أن أذهب، وصَلَّت، وأركعتني على ركبتي أمام الأيقونة معها، ثم شيعتني إلى باب المنزل رغم مرضها، وحين التفت إلى وراء، وجدتها ما تزال عند الباب تشيّعني بنظراتها.

وصلت إلى بيت جدي، وفتحت الباب. كان المزلاج مرفوعاً. فرأيت جدي جالساً إلى مائدته يأكل خبزاً وقليلاً من البطاطس، ورأيت آزور إلى جانبه ينظر إليه ويحرك ذيله. في ذلك المنزل أيضاً، كانت النوافذ ضيقة مظلمة، ولم يكن ثمة إلا مائدة وكرسي واحد. كان جدي يعيش وحيداً. ودخلت. فبلغ جدي من فرط الخوف أن

وجهه أصفر اصفراراً شديداً، وأخذ يرتعش. أما أنا، فلم أقل شيئاً، وإنما اقتربت من المائدة، ووضعت عليها الرسالة. فلما رأى جدي الرسالة، غضب غضباً شديداً، ونهض فجأة، فتناول عصاه وهزها فوق رأسي، ولكنه لم يضربني. ثم جرَّني إلى المدخل، ودفعني إلى خارج، فما كدت أهبط بضع درجات من السلم حتى رأيته يفتح الباب، ويقذف إليَّ بالرسالة غير مفضوضة.

عدت إلى البيت. وقصصت على أمي كل شيء. فلزمت فراشها من جديد.

الفصل الثامن

في تلك اللحظة دوى رعد شديد، وتساقطت على زجاج النوافذ قطرات من المطر، وغرقت الغرفة في الظلام. فرسمت العجوز على نفسها إشارة الصليب كأنها خائفة، ونهضنا جميعاً على حين فجأة. قال العجوز وهو يلقي نظرة على النوافذ:

ـ سينقضي الرعد بعد قليل.

ثم نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. كانت نللي تتابعه ببصرها. وكانت في حالة من الاضطراب الشديد. لاحظت عليها ذلك. ولكنها كانت تتحاشى أن تنظر إلي.

سألها العجوز وهو يعود فيجلس على مقعده:

ـ وبعد؟

فألقت نللي حولها نظرة خائفة.

ـ ألم تري جدك بعد ذلك؟

ـ بلى، رأيته.

– أكملي حديثك يا حلوتي، نعم نعم، أكمليه.

فاستأنفت نللي سرد قصتها:

ـ خلال ثلاثة أسابيع لم أر جدي، إلى أن جاء الشتاء. جاء الشتاء، وهطل الثلج. وحين لقيت جدي مرة أخرى في ذلك المكان نفسه، سررت كثيراً.. لأن أمي حزنت أشد الحزن لانقطاعه عن المجيء. فلما رأيته تعمدت أن أنتقل إلى الرصيف الآخر، ليظن أنني

أهرب منه. والتفتّ ورائي فرأيته يحث الخطى ليلحق بي، ثم أخذ يركض صارخاً: «نللي نللي». وكان آزور يركض أيضاً وراءه، فرقّ قلبي لهذا المشهد، ووقفت. اقترب جدي وتناول يدي، وسار بي، ولما لاحظ أنني أبكي، توقف، ونظر إليَّ وانحنى عليَّ يقبلني، فلاحظ عندئذٍ أن حذائيَّ باليان، فسألني أليس عندي غير هذين الحذاءين. فأسرعت أقول له: إن أمي ليس معها نقود البتة، وسكان البيت الذي نحن فيه يتصدقون علينا بطعامنا شفقة ورحمة. فلم يقل جدي شيئاً، ولكنه قادني إلى السوق، فاشترى لي حذاءين، وأمرني أن أنتعلهما فوراً، ثم أخذني إلى بيته في شارع أشجار البطم. وقد دخل قبل ذلك إلى دكان من الدكاكين فاشترى لي فطيرة وقطعتين من الحلوى، فلما وصلنا إلى البيت، أمرني بأن آكل الفطيرة، وأخذ ينظر إلي وأنا آكلها، حتى إذا فرغت منها، أعطاني قطعتي الحلوى. وقد وضع آزور قائمته على المائدة يريد أن يأكل من الفطيرة، فأعطيته لقمة؛ فضحك جدي، ثم جذبني إليه، وداعب رأسي. وسألني هل تعلمت شيئاً، وما الذي أعرفه، فذكرت له ما أعرفه. فأمرني أن آتي إليه في الساعة الثالثة من كل يوم، ليعطيني دروساً. ثم طلب مني أن أنظر من خلال النافذة، إلى أن يأمرني بالالتفات، ففعلت، ولكنني التفت أثناء ذلك خلسة فرأيته يفتق زاوية وسادته ويخرج منها أربعة روبلات من الفضة. ثم جاء بها إليَّ وقال: «هذه لك وحدك». وهممت أن آخذها، ولكنني فكرت في الأمر، فقلت له: «إذا كانت لي وحدي، فلن آخذها». فإذا هو يغضب فجأة، ويصرخ بي: «كما تريدين، خذيها واذهبي». ولم يقبّلني قبل أن أذهب.

فلما وصلت إلى البيت قصصت على أمي كل شيء.. ولكن صحة أمي كانت تسوء شيئاً فشيئاً. وكان ثمة طالب من طلاب الطب

يتردد إلى صانع التوابيت، فكان يعالج أمي، ويجرّعها بعض الأدوية.

وصرت أذهب إلى جدي أحياناً كثيرة: فلقد أمرتني أمي بذلك. واشترى جدي نسخة من الإنجيل وكتاباً في الجغرافيا. وأخذ يعطيني دروساً. كان يعدد لي بلاد الدنيا. ويحدثني عن سكانها. ويذكر لي أسماء البحار. ويقص عليَّ أحداث التاريخ. ويروي لي كيف غفر لنا المسيح جميعاً. وكان يفرح حين ألقي عليه بعض الأسئلة. فأخذت أطرح عليه أسئلة كثيرة. فكان يروي لي كل شيء، وكان يكلمني في كثير من الأحيان عن الله. وكنا في بعض الأحيان نلاعب آزور بدلاً من أن ندرس. وكان آزور قد أخذ يحبني كثيراً. حتى لقد علّمته كيف يقفز فوق عصا، فكان جدي يضحك ويلاعب شعري. كان جدي لا يضحك إلا نادراً. وكان في بعض الأيام يتكلم كثيراً. ثم يصمت فجأة، ويظل جالساً كأنه نائم، مع بقاء عينيه مفتوحتين. وكان يبقى على هذه الحال حتى المساء. وكان وجهه يتبدل في المساء تبدلاً غريباً، فيصبح مخيفاً، ويظهر فيه هرم شديد. وكنت أصل في بعض الأحيان فأراه جالساً على كرسيه يفكر، ولا يسمع شيئاً، وقد رقد آزور قربه. فكنت أنتظر وأنتظر، ثم أسعل، فما ينظر إليَّ. فأنصرف عائدة، وكانت أمي تنتظرني في البيت على سريرها. وكنت أقص عليها كل شيء فأظل أقص عليها إلى أن يهبط الليل. وتظل هي تصغي إلى ما أرويه لها عن جدي: ما فعله في ذلك اليوم، الحكايات التي حكاها لي، الدرس الذي أعطانيه. وحين كنت أذكر لها أنني جعلت آزور يثب فوق العصا، وأن جدي ضحك، كانت تضحك هي أيضاً، وتظل تضحك مدة طويلة، فرحة كل الفرح، حتى لقد كانت تستعيدني ما قلت. ثم تأخذ تصلي. وكنت أتساءل دائماً: «كيف يمكن أن تحب أمي جدي، وأن لا يحبها هو».

وحين ذهبت إلى جدي في المرة التالية ذكرت له كيف أن أمي تحبه كثيراً. فأصغى إلى كلامي حتى النهاية، غاضباً مقطباً، دون أن يقول شيئاً. ثم سألته لماذا تحبه أمي كل هذا الحب، ولماذا تسألني دائماً عنه، في حين أنه لا يسألني هو عنها أبداً، فغضب جدي، وطردني، فلبثت لحظة وراء الباب، فإذا الباب يفتح ثانية، وإذا جدي يناديني إليه، ولكنه ظل غاضباً لا يقول شيئاً. فلما أخذنا نقرأ في الإنجيل، عدت أسأله مرةً أخرى لماذا لا يريد أن يعفو عن أمي مع أن المسيح يقول: «أحبوا بعضكم بعضاً، واغفروا الإساءات». فنهض فجأة، وأخذ يصرخ قائلاً: إن أمي هي التي علمتني أن أقول هذا الكلام، ثم دفعني خارج الغرفة مرةً ثانية وهو يأمرني أن لا أعود إليه بعد اليوم أبداً. فقلت له: إنني أنا أيضاً لا أحب أن أعود إليه، ومضيت. . . وفي اليوم التالي ترك جدي مسكنه وانتقل إلى مسكن آخر.

قال نيقولا سرجتش وهو يلتفت نحو النافذة:

ـ ألم أقل إن المطر سينقطع؟ هو ذا انقطع، وها هي ذي الشمس تظهر، هل ترى يا فانيا؟

فنظرت إليه آنا أندريفنا نظرةً مترددة، ثم التمع الاستياء فجأة في عين العجوز الطيبة، وكانت إلى ذلك الحين ناعمة. وتناولتْ يدي نللي دون أن تنبس بكلمة وأجلست الفتاة الصغيرة على ركبتيها.

ثم قالت لها:

ـ تكلمي يا ملاكي، قصي عليَّ، سأصغي إليك. أما الذين قست قلوبهم. .

ولم تكمل جملتها، بل أخذت تبكي. فألقت إليَّ نللي نظرةً سائلة، وبدت حائرة مذعورة، ونظر إليَّ العجوز هازاً كتفيه، ثم تحوَّل عني فوراً.

قلت:

ـ أكملي يا نللي.

ـ خلال ثلاثة أيام، لم أذهب إلى جدي. وفي أثناء ذلك ساءت صحة أمي وفرغت أيدينا من أي مال، وعجزنا عن شراء الأدوية، وأصبحنا لا نأكل شيئاً، لأن حال السكان كانت سيئة أيضاً، وبدأوا يأخذون علينا أننا نعيش عالةً عليهم. في اليوم الثالث نهضتُ من فراشي، وارتديت ملابسي، فسألتني أمي إلى أين أذهب، فقلت لها: إنني ذاهبة إلى جدي أطلب منه بعض المال، فسرت أمي، لأنني كنت قد ذكرت لها أن جدي طردني وقلت لها: إنني لن أعود إليه بعد الآن، فبكت وتوسلت إليَّ أن أعود فأزوره. قيل لي: إن جدي انتقل من مسكنه، فذهبت إليه في مسكنه الجديد. فلما دخلت عليه، نهض فجأةً وهجم عليَّ. وضرب برجله الأرض. ولكنني قلت له: إن أمي مريضة جداً، وإننا في حاجة إلى خمسين كوبيك ثمن الدواء. وليس في بيتنا ما نأكله. فأخذ جدي يصرخ. ودفعني إلى السلم وأغلق الباب. ولكنني قلت له وهو يدفعني إني سأبقى على السلم لا أبارحه قبل أن يعطيني المبلغ. فما هي إلا دقيقة حتى فتح الباب. فرأى أنني ما زلت واقفة. فعاد يغلق الباب. وانقضت على ذلك فترة طويلة فتح بعدها الباب، ثم أغلقه مرةً أخرى حين رآني. وكرر ذلك عدة مرات. وأخيراً خرج مع آزور. وأغلق الباب. ومر أمامي دون أن يخاطبني بكلمة. فلم أكلمه أنا أيضاً. بل بقيت في مكاني حتى المساء.

صاحت آنا أندريفنا:

ـ ولكن يَا صغيرتي البائسة، لا بد أن الجو كان بارداً وأنت على السلم.

ـ كنت أرتدي معطفي.

ـ ما قيمة المعطف في مثل ذلك الجو البارد! ما أكثر ما تحملت يا صغيرتي التعيسة! ثم ماذا فعل جدك؟

أخذت شفتا نللي ترتعشان. ولكنها بذلت جهداً جباراً من أجل أن تسيطر على نفسها. وأردفت تقول:

ـ عاد في المساء بعد أن ساد الظلام. فلما هم أن يدخل بيته، اصطدم بي. فصرخ قائلاً: «من هنا؟» فأجبته «أنا». كان يعتقد أنني انصرفت منذ مدة طويلة. فلما رأى أنني ما زلت واقفة، دهش كثيراً، وظل واقفاً أمامي زمناً. وفجأة ضرب السلم بعصاه. وأسرع يفتح الباب. ثم عاد بعد دقيقة يحمل نقوداً من نحاس كانت كلها قطعاً من ذات الخمس كوبيكات، فألقاها على السلم، وهو يقول لي: «خذي! هذا كل ما بقي لي. وقولي لأمك إنني ألعنها». ثم أغلق الباب. تدحرجت قطع النقود على السلم، فأخذت أبحث عنها في الظلام، ولا شك أن جدي أدرك أن النقود قد تبعثرت وأنني أتكلف كثيراً من العناء لالتقاطها، ففتح الباب وجاءني بشمعة فوجدت النقود بسهولة، وساعدني جدي في التقاطها، وقال لي: إن مجموعها يجب أن يكون سبعين كوبك، ثم مضى. فلما عدت إلى البيت أعطيت أمي النقود، وحكيت لها كل شيء، فازدادت صحتها سوءاً، ومرضت أنا أيضاً طوال الليل، وانتابتني الحمى في اليوم التالي، ولكنني كنت لا أفكر إلا في شيء واحد، لأنني كنت حانقة على جدي، فلما نامت أمي خرجت، وسرت في طريقي إلى بيت جدي. ولكنني توقفت عند الجسر. وفي تلك اللحظة إنما مر ذلك الرجل.

قلت:

ـ هو أرشيبوف. سبق أن حدثتك عنه يا نيقولا سرجتش: ذلك

الذي كان مع البائع عند بوبنوفا، وكيلت له الضربات. كانت تلك أول مرة تلقاه فيها نللي.

واستأنفت نللي تقص حكايتها:

ـ فاستوقفته. وسألته أن يعطيني روبل فضة. فنظر إلى وسألني: «روبل فضة؟» فقلت: «نعم»، فأخذ يضحك وقال لي: «تعالي معي» لم أكن أعرف أيجب أن أذهب معه أم لا. وفجأة اقترب عجوز قصير يضع على عينيه نظارتين ذهبتين، وكان قد سمع أنني أطلب روبل فضة، فانحنى عليّ وسألني لماذا أطلب هذا المبلغ. فقلت له: إن أمي مريضة، وإنها في حاجة إلى هذا المبلغ لتشتري دواء. فسألني أين نسكن، وسجل العنوان، وأعطاني الروبل. أما الآخر، فإنه حين رأى العجوز القصير، مضى في سبيله، ولم يطلب مني بعد ذلك أن أذهب معه. فدخلت إحدى الدكاكين، وأبدلت الروبل قطعاً نحاسية، لففت ثلاثين كوبك منها بورقة، محتفظةً بها لأمي، وتركت السبعين الأخرى بيدي، وذهبت إلى جدي. فلما وصلت فتحت الباب. ووقفت في العتبة وهززت يدي، ورميت له النقود. فتدحرجت على أرض الغرفة. ثم قلت له: «هذه نقودك. إن أمي ليست في حاجة إليها ما دمت تلعنها». ثم صفقت الباب ووليت هاربة.

كانت عينا نللي تلتمعان. ورشقت العجوز بنظرة متحدية.

قالت آنا أندريفنا، دون أن تنظر إلى نيقولا سرجتش، وهي تشد نللي إلى صدرها:

ـ ذلك ما كان يجب أن تفعليه.. ذلك ما كان يجب أن تفعليه: لقد كان جدك امرءاً شريراً قاسياً.

همهم نيقولا سرجتش:

ـ هم. .

وسألتها آنا أندريفنا، نافداً صبرها:

ـ وبعد ذلك. وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك لم أذهب إلى جدي ولا جاء هو ليراني.

ـ وما الذي حدث لكما أنت وأمك؟ آه يا رب. . ما أشقاهما!

ـ كانت صحة أمي تزداد سوءاً. وأصبحت لا تنهض من فراشها إلا نادراً.

قالت نللي ذلك وأخذ صوتها يرتعش، ويتكسر، ثم تابعت حديثها:

ـ لم يبق في أيدينا نقود، فأخذت أتسول مع امرأة الضابط. كانت تمضي من بيت إلى بيت، وتستوقف الناس في الشارع، تسألهم صدقة. هكذا كانت تعيش. وكانت تقول لي: إنها ليست شحاذة، وإن في يديها أوراقاً ذُكرت فيها رتبة زوجها وذكر فيها أنها فقيرة، فكانت تبرز هذه الأوراق للناس، فيتصدقون عليها. وكانت تقول لي أيضاً: إنه ليس عاراً أن يستجدي المرء جميع الناس. كنت إذن أذهب معها، وكان الناس يتصدقون علينا، وهكذا كنا نعيش. وقد علمت أمي بذلك، لأن السكان عيَّروها بأنها شحاذة، ولأن بوبنوفا جاءت تقول لها: إن من الأفضل أن ترسلني إليها بدلاً من أن أتسول. كانت قد جاءت قبل ذلك تحمل إلى أمي بعض المال، ولكن أمي رفضت المال، فاستغربت بوبنوفا هذه الكبرياء، وأرسلت إلى أمي طعاماً، حتى إذا حدثتها عني بذلك في هذه المرة أخذت أمي تبكي وخافت خوفاً شديداً، فأخذت بوبنوفا تكيل لها الشتائم. كانت سكرانة. قالت لأمي: إن ابنتك شحاذة، إنها تتسول مع امرأة الضابط. وفي ذلك المساء نفسه طردت بوبنوفا امرأة الضابط.

وأخذت أمي تبكي حين علمت بكل ذلك. ثم نهضت فارتدت ملابسها، وأمسكت بيدي، وسارت بي. وحاول إيفان الكسندرتش أن يمنعها من الخروج، فلم تطعه، وخرجنا. كانت أمي لا تكاد تقوى على السير، فكانت تقعد في كل لحظة، وكنت أسندها. وطلبت إليَّ أن أمضي بها إلى بيت جدي. كان الظلام قد خَيَّم منذ مدة طويلة. ووصلنا فجأة إلى شارع كبير. كانت عربات تتوقف أمام بيت جميل، فينزل منها الناس. وكانت نوافذ البيت تسطع بالأنوار، وتخرج منها موسيقى. فوقفت أمي، وأمسكتني، وقالت لي: «نللي، ابقي فقيرة، ابقي فقيرة مدى الحياة، ولكن لا تذهبي إليهم، كائناً من كان الشخص الذي قد يدعوك أو يبحث عنك. أنت أيضاً في وسعك أن تكوني هناك، غنية، بثوب جميل. ولكنني لا أريد ذلك. إنهم شريرون قُساة، إليك ما آمرك به: ظلي فقيرة، اعملي، اطلبي الصدقة، فإذا جاءك أحد يريد أن يأخذك إليه، فقولي له: لا أريد أن أذهب إليك». هذا ما قالته لي أمي حين كانت مريضة. وأريد أن أطيعها مدى الحياة (أضافت نللي هذا الكلام وهي ترتعش من فرط الانفعال، وقد احمر وجهها حتى صار بلون الأرجوان) سأظل طوال حياتي أخدم وأعمل. إنني أجيء إليكما الآن لأخدم وأعمل، ولا أريد أن أكون ابنتكما.

صاحت العجوز وهي تشد نللي إلى صدرها:

ـ كفى كفى يا صغيرتي كفى. لقد كانت أمك مريضة حين قالت لك هذا الكلام.

وعقَّب العجوز يقول بلهجة خشنة:

ـ كانت مجنونة.

فأجابت نللي بحرارة:

ـ يجوز أنها كانت مجنونة، ولكن هذا ما أمرتني به، وهذا ما سأفعله ما حييت. وبعد أن قالت لي أمي ذلك، سقطت مغشياً عليها.

صاحت آنا أندريفنا:

ـ يا رب يا رب. . مريضة، في الشارع، شتاءً.

ـ وأرادوا أن يقودونا إلى قسم الشرطة، ولكن رجلاً من المارة تدخل في الأمر، وسألني أين نسكن، وأعطاني عشرة روبلات، وأمر سائقه أن يوصلنا إلى بيتنا. وبعد ذلك اليوم، لم تنهض أمي من فراشها أبداً، وماتت بعد ثلاثة أسابيع.

صاحت آنا أندريفنا:

ـ وأبوها؟ ألم يغفر لها؟

فأجابت نللي، وكانت تسيطر على نفسها ولكن في كثير من العذاب:

ـ لا. . نادتني أمي قبل موتها بأسبوع واحد، وقالت لي: «اذهبي إلى جدك مرة أخيرة، واطلبي إليه أن يجيء ليراني ويغفر لي. قولي له: إنني سأموت خلال ثمانية أيام، وإنني أتركك للدنيا وحيدة، وقولي له أيضاً: إنني يحزنني أن أموت. .». فذهبت إليه، فطرقت الباب، ففتح، فلما رآني أراد أن يغلق الباب رأساً، ولكنني تشبثت به بكلتا يدي، وصحت: «أمي تموت وهي تطلبك، تعالى». ولكنه دفعني، وصفق الباب. فعدت إلى أمي، ورقدت إلى جانبها، وأحطتها بذراعي، ولم أقل لها شيئاً. وأحاطتني أمي بذراعيها أيضاً، ولم تسألني عن شيء.

في هذه اللحظة أسند نيقولا سرجتش يده على المائدة، ونهض ثقيلاً، ولكنه بعد أن شملنا جميعاً بنظرة غريبة مضطربة، هوى على

مقعده كمن خارت قواه. وكانت آنا أندريفنا لا تنظر إليه، وكانت تشد نللي إلى صدرها ناشجة.

ـ وفي اليوم الأخير، قبل أن تموت، وكان ذلك في المساء، نادتني، وأمسكت بيدي، وقالت لي: «سأموت اليوم يا نللي»، وأرادت أن تقول شيئاً آخر، ولكنها لم تستطع. ونظرت إليها، فخُيِّل إليّ أنها أصبحت لا تراني، ولكنها كانت لا تزال تشد على يدي بيديها، فسللت يدي برفق، وخرجت أركض، وظللت أركض طوال الطريق حتى وصلت إلى جدي. فلما رآني نهض رأساً ونظر إليَّ، فبلغ من شدة الرعب أنه اصفر اصفراراً شديداً، وأخذ يرتعش. تناولت يده ولم أستطع أن أقول له سوى هذه الكلمة «تموت». فجن جنونه فجأة، وأخذ عصاه، وركض ورائي ناسياً قبعته، وكان الجو بارداً، فتناولت أنا قبعته ووضعتها على رأسه وخرجنا نعدو. كنت أحثه على الإسراع، وطلبت إليه أن يستأجر عربة لأن أمي قد تموت من لحظة إلى أخرى، ولكن لم يكن معه إلا سبعة كوبيكات. فاستوقف السائقين وساومهم، فكان يضحكون منه، ويهزأون أيضاً بآزور. لقد ركض آزور وراءنا. وواصلنا الركض مسرعين. وقد تعب جدي، فكان يلهث لهاثاً شديداً، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس، ولكنه ظل رغم ذلك يركض. وفجأة وقع على الأرض وتدحرجت قبعته. فأنهضته وأعدت القبعة إلى رأسه، وأمسكت بيده أقوده.. ووصلنا قبيل الليل.. ولكن أمي كانت قد ماتت.. فلما رآها جدي ميتة، ضرب كفاً بكف، وأخذ يرتعش، وظل إلى جانبها دون أن يقول شيئاً. عندئذٍ اقتربت منه وتناولت يده، وصحت به قائلة: «انظر أيها الإنسان الشرير، أيها الإنسان القاسي، انظر الآن، انظر». فأخذ يصرخ، وسقط على الأرض كالميت.

فرغت نللي من رواية قصتها، ثم وثبت من مكانها تتملص من عناق آنا أندريفنا، ووقفت بيننا، شاحبة الوجه خائرة القوى، قد بلغت غاية العذاب. ولكن آنا أندريفنا هرعت إليها، وضمتها مرة أخرى بذراعيها، وأخذت تصيح كأنما يوحي إليها:

ـ سأكون أنا أمك الآن يا نللي، ستكونين ابنتي يا نللي!.. نعم يا نللي، فلنذهب، ولندعهم جميعاً هؤلاء القساة، هؤلاء الشريرين! فليعبثوا بالناس ما شاءوا، حسابهم عند الله!.. تعالي يا نللي، فلنذهب، فلنترك هذا المكان.

لم أرها في مثل هذه الحالة يوماً، وما كنت لأصدق أنها يمكن أن تنفعل هذا الانفعال كله. فنهض نيقولا سرجتش عن مقعده، وسألها بصوت متقطع:

ـ أين تذهبين يا آنا أندريفنا؟

ـ أذهب إليها، إلى ابنتي، إلى ناتاشا.

قالت ذلك وهي تجر نللي نحو الباب.

ـ انتظري، قفي.

ـ لا فائدة من الانتظار، يا من قلبه من صخر. لقد انتظرت طويلاً، وانتظرت هي أيضاً طويلاً.. وداعاً!

قالت العجوز ذلك، ثم استدارت، وألقت نظرة على زوجها، فتوقفت مشدوهة، لقد رأت نيقولا سرجتش أمامها، قد وضع قبعته على رأسه، وراحت يداه الخائرتان الضعيفتان تسربلانه بمعطفه بسرعة.

ـ وأنت أيضاً. وأنت أيضاً.. تأتي معي؟

ـ ناتاشا، أين ابنتي ناتاشا؟ أين هي؟ أين ابنتي؟ أعيدوا إليَّ ناتاشا. أين هي؟

بهذا هتف صدر الشيخ أخيراً.. ومددت إليه عصاه، فتناولها، وأسرع نحو الباب.

صاحت آنا أندريفنا:

- لقد غفر لها، لقد عفا عنها.

ولكن الشيخ لم يصل إلى العتبة. ذلك أن الباب فُتح فجأة، وإذا ناتاشا تدخل.. شاحبة، متقدة العينين، كأن بها حمّى. كان ثوبها متجعداً بلله المطر، وكان المنديل الذي أسبلته على رأسها قد انزلق إلى كتفيها.. وعلى خصلات شعرها المنفوشة كانت تلتمع قطرات كبيرة من ماء المطر. دخلت راكضة، فلما رأت أباها، ركعت أمامه، ممدودة الذراعين إليه.

الفصل التاسع

ولكنّه تلقاها بذراعيه! . .

أمسك بها، وأنهضها كطفل، وحملها إلى مقعده، ثم هوى على ركبتيه. كان يقبِّل يديها، ورجليها، ويسرع فيقبِّل وجهها، ويلتهمها التهاماً، كأنه لم يصدق بعد أنها معهما، وأنه يراها ويسمعها، هي ابنته، ناتاشا. وعانقت آنا أندريفنا ابنتها باكية، وحضنت رأسها بصدرها، وكانت تبدو كمن يوشك أن يغمى عليه في هذا العناق، وخارت قواها فما تستطيع أن تنطق بكلمة.

ـ صديقتي! . حياتي! . فرحتي! .

بهذا كان يهتف الشيخ بصوت متقطع. كان يمسك بيد ناتاشا؛ وكعاشق، كان يتأمل وجهها الشاحب، النحيل، الجميل، الساحر، ويتأمل عينيها اللتين تلتمع فيهما الدموع. وكان يردد هتافه «فرحتي؟. ابنتي!». ثم يسكت من جديد، ويأخذ يتأملها كالسكران من النشوة. وقال لنا وهو يبتسم ابتسامة سريعة طفولية وما يزال راكعاً أمامها:

ـ من قال لي إنها نحلت؟ إنها نحلت، صحيح، إنها شاحبة، صحيح، ولكن انظروا إليها قليلاً! هل ترون ما أجملها! إنها أجمل مما كانت أيضاً! نعم أجمل مما كانت أيضاً!

قال جملته الأخيرة هذه، واضطر أن يسكت رغم أنفه، تحت وطأة هذه الألم، النابع من الفرح، الذي كان يحس أنه سيشطر قلبه.

ـ انهض يا أبي، انهض يا أبت. أنا أيضاً أريد أن أقبِّلك.

ـ يا حبيبتي، يا حبيبتي، يا حبيبتي! هل سمعت يا آنا كيف تتكلم بلطف!

قال ذلك ثم لفها بذراعيه، وهو يرتعش. وأضاف:

ـ لا يا ناتاشا، أنا الذي يجب أن أبقى عند قدميك، إلى أن يحس قلبي أنك غفرت لي. إنني لا أستحق مغفرتك يا ناتاشا. لقد طردتك يا ناتاشا، ولعنتك، هل تسمعين يا ناتاشا؟ لقد لعنتك، استطعت أن ألعنك! وأنت يا ناتاشا، كيف صدقت أنني لعنتك، كيف صدقت ذلك؟. كان يجب ألاَّ تصدقي ذلك، أيتها القلب الصغير القاسي! لماذا لم تجيئي إليَّ؟ إنك لتعرفين حق المعرفة كيف يمكن أن أستقبلك.. آه يا ناتاشا.. هل تتذكرين كم كنت أحبك؟ إذن فاعلمي أنني أحبك الآن وأنني ظللت أحبك طوال هذه المدة، ضعفين.. ألف ضعف.. كان حبك في دمي! كان يمكن أن أنتزع قلبي من صدري، وأن ألقيه بين قدميك! آه يا فرحتي!

ـ قبلني إذن، أيها القاسي، في شفتيَّ، في وجهي، كما تفعل أمي.

هكذا صاحت ناتاشا بصوت ضعيف أليم تحجبه دموع الفرح.

ـ وفي عينيك أيضاً، في عينيك أيضاً.. هل تتذكرين كيف كنت أقبّلك في عينيك يا ناتاشا؟

ردد العجوز هذا، بعد عناق طويل عذب. ثم أردف يقول:

ـ هل كنت تحلمين بنا أحياناً يا ناتاشا؟ أما أنا فكنت أحلم بك كل ليلة تقريباً. كنت تجيئين إليَّ كل ليلة، وكنت أبكي. عليك وفي ذات مرة، رأيتك في المنام صغيرة جداً، كما كنت في العاشرة من عمرك، أيام بدأت تتعلمين البيانو: كان لك ثوب صغير قصير، وحذاءان صغيران جميلان، وأساور وردية.. كان لها يدان ورديتان

صغيرتان.. هل تتذكرين يا آنا؟ جئت إليَّ، وجلست على ركبتي، وأحطتني بذراعيك. كيف ظننت أيتها الطفلة الشريرة أنني لعنتك، وأنني لن أستقبلك إذا جئت؟. ولكن.. اسمعي يا ناتاشا، لقد ذهبت نحو بيتك مراراً.. أمك لم تعلم بذلك، ولا علم به أحد.. كنت أبقى تحت النوافذ أحياناً؛ وكنت أحياناً أخرى أنتظر. وفي بعض المرات انتظرت نصف يوم بكامله، في الشارع، في أي مكان، قرب بابك.. قائلاً لنفسي: لعلها تخرج بعد قليل، فأراها من بعيد. وفي المساء، يكون في نافذتك شمعة مشتعلة غالباً، فما أكثر ما ذهبت إلى هناك، لا لشيء إلا لأرى الشمعة، لا لشيء إلا لألمح خيالك، فأباركك مباركة المساء. وأنت يا ناتاشا هل باركتني مرة مباركة الليل؟ هل كنت تفكرين فيّ؟ هل كان قلبك الصغير يحس أنني هناك، تحت النافذة؟ وما أكثر ما صعدت السلم شتاء، في ساعات متأخرة من الليل!. فكنت أبقى وراء الباب في الظلام، وأرهف أذنيَّ، عسى أن أسمع صوتك، أو ضحكتك.. هل يمكن أن ألعنك، وتلك حالي؟ وفي ذات مساء، ذهبت إليك، وأردت أن أغفر لك، ولم أنكص على عقبي إلا عند الباب.. آه.. يا ناتاشا!

قال ذلك ثم وقف، فأنهضها عن المقعد، وحضنها إلى قلبه. وقال:

- إنها هنا، من جديد، على قلبي. أحمدك اللهم على كل شيء، على غضبك وعلى رأفتك!. أحمدك اللهم على الشمس التي تضيئنا الآن جميعاً بعد العاصفة. أحمدك اللهم على هذه اللحظة كلها. لقد أذلّونا وأهانونا، ولكن ها نحن أولاء عدنا فالتقينا. ألاً فليظفر الآن أولئك العتاة المتغطرسون الذين حقّرونا وأهانونا! ألاً فليرجمونا بالحجر! لا تخشي شيئاً يا ناتاشا! سأمضي إليهم، واضعاً يدي

بيدك، وسأقول لهم: «هذه ابنتي الغالية، هذه ابنتي الحبيبة، هذه ابنتي البريئة، التي أهنتموها وأذللتموها. . ولكنني أحبها، أنا، أحبها وأباركها إلى الأبد».

قالت ناتاشا بصوت ضعيف وهي تمد إليَّ يدها بينما كان أبوها يقبّلها:

ـ فانيا، فانيا!

لن أنسى ما حييت أنها تذكرتني في تلك اللحظة ونادتني.

قال الشيخ وهو ينظر حوله:

ـ أين نللي؟

وصاحت العجوز:

ـ نعم أين نللي؟ لقد تركناها، هذه الصغيرة العزيزة.

ولكن نللي لم تكن هناك. لقد تسللت خلسة إلى حجرة النوم. ذهبنا إلى هناك جميعاً، فرأيناها في ركن وراء الباب، مختفية على خوف.

صاح العجوز:

ـ ما بك يا ابنتي؟

وكان يريد أن يتناولها بذراعيه، ولكنها ألقت عليه نظرة طويلة، ثم قالت كالغائبة عن نفسها:

ـ أمي، أين أمي؟

ثم صرخت وهي تمد إلينا ذراعيها المرتجفتين:

ـ أين أمي؟

ثم إذا بصرخة فظيعة، رهيبة، تخرج من صدرها، وتشنّج وجهها، وسقطت على الأرض فريسة نوبة مرعبة.

ذكريات أخيرة

كُنّا في منتصف حزيران (يونيه). الجو حار خانق. يستحيل على المرء أن يبقى في المدينة مع الغبار، والكلس، والبيوت التي تُبنى، والبلاط المحرق، والهواء المسمم بالروائح. ولكن، يا فرحتنا! هذا هو الرعد يدوي. وأظلمت السماء شيئاً بعد شيء. وهبَّت الريح زوابع ذات اعجاج. وهطلت قطرات كبيرة من المطر على الأرض ثقيلة. وما هي إلا لحظة، إذ السماء كأنها تنشق، وإذا الأمطار تنزل على المدينة كأنها السيل، حتى إذا أشرقت الشمس بعد نصف ساعة، فتحت نافذة غرفتي الصغيرة، وتنشقت الهواء الطري ملء رئتي؛ ففاضت نفسي نشوة، فأردت أن أدع قلمي، وأعمالي، وأن أسرع إلى أصحابي هناك في فاسيلي أوستروف. ولكنني استطعت أن أنتصر على نفسي رغم شدة الإغراء، فعدت إلى أوراقي مقهوراً: يجب أن أنجز عملي مهما كلف الأمر. إن ناشري يطالبني بذلك، ثم إنه لن يدفع لي مالاً، ما لم أنجز عملي. إنهم ينتظرونني هناك، ولكنني في مساء هذا اليوم سأكون حراً، حراً كالهواء، وستعوِّضني هذه السهرة عما لقيت من عناء في اليومين الأخيرين والليلتين الأخريين إذ كتبت ثلاث صفحات ونصف الصفحة!

وها أناذا أنجز عملي أخيراً، فأرمي قلمي، وأنهض. إنني أحس بألم في ظهري وفي صدري، وأن بي لصداعاً. أعرف أن أعصابي في هذه اللحظة مهتزّة أشد الاهتزاز. وخُيِّل إليّ أنني ما زلت أسمع

الكلمات الأخيرة التي قالها لي صاحبي الطبيب: «لا لا، ما من صحة يمكن أن تحتمل هذا التوتر كله.. مستحيل». ومع ذلك لم يكن ذلك مستحيلاً حتى الآن. إن رأسي يدور، ولا أكاد أقوى على الوقوف. ولكن فرحاً عظيماً، فرحاً لا نهاية له ولا حدود له، يملأ قلبي. لقد أنجزت قصتي إنجازاً كاملاً. وناشري، رغم أنني مدين له بمال كثير، سوف يعطيني شيئاً على كل حال، حين يمسك فريسته بين يديه، سوف يعطيني ولو خمسين روبلاً، وأنا لم أحمل مثل هذا المبلغ منذ مدة طويلة. لسوف أستمتع بالحرية والمال معاً!. وفاضت نفسي حماسة، فتناولت قبعتي، وتأبطت مخطوطتي، ومضيت مسرعاً، عسى أن أجد عزيزنا الكسندر بتروفيتش.

ووجدته. ولكنه كان يوشك أن يخرج. لقد عقد منذ لحظة اتفاقاً لا شأن له بالأدب، ولكنه يدر عليه ربحاً وفيراً، فلما فرغ من تشييع اليهودي القصير الأسمر الذي كان قد مكث معه في حجرته ساعتين كاملتين، مدَّ يده إليَّ هاشاً باشاً، وسألني بصوته الرخو الأجش عن صحتي، وأظهر قلقه عليها. إنه أحسن الناس طراً؛ ولست أمزح إذا قلت: إن له عليَّ فضلاً. هل ذنبه أنه لم يكن في الأدب خلال حياته كلها إلا رجلاً من رجال الأعمال؟ لقد فهم أن الأدب في حاجة إلى رجال الأعمال، وأدرك ذلك في الوقت المناسب. له العزة والمجد، من ناحية الأعمال طبعاً.

وابتسم ابتسامة عذبة حين علم أن قصتي قد انتهت، وأن الباب الرئيسي في العدد القادم من مجلته قد هُيّئ إذن. وأدهشه أنني استطعت أن أنجز شيئاً. وأخذ ينكت ويمزح بهذا الصدد. ثم مضى إلى صندوقه ليأتيني بالخمسين روبلاً، وناولني بانتظار ذلك عدداً من مجلة تناصب مجلته العداء، مجلة سميكة ثخينة، ودلني على بضعة

أسطر في فصل النقد منها، تتحدث عن قصتي الأخيرة.

ونظرت فرأيت أن المقالة بقلم «الناسخ». إنه لا يسبّني في هذه المقالة ولكنه لا يغمرني أيضاً بالأزهار: فسررت كل السرور. غير أن «الناسخ» يقول فيما يقول: إن المرء يشم في مؤلفاتي «رائحة العرق»، يعني أن العرق يتصبب مني حين أكتب، وإنني أتكلف جهداً كبيراً، وإنني أسرف في الصقل والصنعة إسرافاً يغدو منفراً.

فضحكنا أنا والناشر ضحكاً شديداً، وأعلمته أن قصتي الأخيرة قد كتبت خلال ليلتين، وأنني كتبت قصتي هذه خلال هذين اليومين وهاتين الليلتين. لو علم بهذا ذلك «الناسخ» الذي يأخذ عليَّ إفراطي في التدقيق وبطئي!

ـ ولكن هذا خطأ منك أيضاً يا إيفان بتروفيتش، لماذا تتأخر كل هذا التأخر حتى تضطر إلى العمل ليلاً؟

صحيح أن الكسندر بتروفيتش أظرف الناس، إلا أن فيه ضعفاً: هو أنه يتباهى بأحكامه الأدبية أمام أناس يقدِّر هو نفسه أنهم يعرفونه حق المعرفة، ولكنني لا أحب أن أناقشه في الأدب، فتناولت المال وقبعتي، ونهضت، كان الكسندر بتروفيتش ذاهباً إلى بيته الجميل في الجزر، فلما علم أنني ذاهب إلى فاسيلي أوستروف، تلطف فاقترح أن يوصلني إلى هناك في عربته.

ـ هل تعلم أنني اشتريت عربة جديدة؟ إنك لم ترها بعد. إنها جميلة جداً. . ونزلنا. حقاً أن العربة جميلة جداً. إن الكسندر بتروفيتش فرحٌ بها كل الفرح، حتى إنه ليشعر بنوع من الحاجة إلى أن يركب أصدقاءه فيها.

واسترسل الكسندر بتروفيتش أثناء الطريق، عدة مرات، في الحديث عن الأدب المعاصر. إنه لا يتحرج أمامي، بل يردد بكل

هدوء الآراء التي سمعها مؤخراً من هذا أو ذاك من الكُتّاب الذين يثق بهم ويحترم أحكامهم. ويجب أن أذكر في هذه المناسبة أنه يتفق له في بعض الأحيان أن يحترم أشياء غريبة. ويتفق له كذلك أن يفسد رأياً ينقله، أو أن يضعه في غير موضعه: فتخرج من ذلك بلبلة ما بعدها بلبلة. وكنت أصغي إليه دون أن أنبس بكلمة، وأعجب للأهواء الإنسانية ما أكثر تنوعها وما أشد غرابتها، قائلاً لنفسي: «هذا الإنسان مثلاً كان ينبغي أن يكفيه جمع المال، بهدوء. ولكن لا، إنه يريد لنفسه المجد أيضاً، المجد الأدبي، يريد أن يشتهر بأنه ناشر ممتاز، بأنه ناقد جيد».

لقد حاول في هذه اللحظة أن يعرض عليَّ بالتفصيل رأياً سمعه مني منذ ثلاثة أيام، وتناقشنا فيه. وها هو ذا الآن يعرضه عليَّ رأياً من آرائه. إلا أن نسياناً من هذا القبيل كان يتفق لألكسندر بتروفيتش في كل لحظة، وجميع أصدقائه يعرفون فيه هذا الضعف البريء. ما أعظم سروره الآن، وهو يخطب ويعظ في عربته، ما أعظم رضاه عن نفسه! إنه يدير حديثاً أدبياً رفيقاً، وصوته الأجش العذب الهادىء يساهم في إضفاء صفة العلم على كلامه. وشيئاً فشيئاً، انتقل إلى لهجة حرة طليقة، فعبر عن اقتناعه الريبي البريء بأن أدبنا، وكل أدب بوجه عام، لا يملك أحد من أصحابه شيئاً من الاستقامة أو التواضع، وأنه لم يبق ثمة إلا تبادل لطم ولكم. وقدَّرت بيني وبين نفسي أن الكسندر بتروفيتش يميل حتى إلى اعتبار كل كاتب مستقيم صادق شخصاً غبياً إن لم يكن معتوهاً، لاستقامته وصدقه. بديهي أن هذا الرأي ناشىء عن أن الكسندر بتروفيتش بريء إلى أقصى حدود البراءة.

ولكنني لم أصغ إليه. وأنزلني في فاسيلي أوستروف. فأسرعت أمضي إلى أصدقائي. هذا هو الشارع الثالث هذا هو بيتهم الصغير.

فلما رأتني آنا أندريفنا لوّحت لي بإصبعها تسكتني، وحركت ذراعيها نحوي قائلة «هش»، وذلك حتى لا أحدث ضجة. وسرعان ما همستْ قائلةً:

ـ لقد نامت نللي المسكينة منذ لحظة، فأناشدك الله لا توقظها! إنها ضعيفة جداً. ونحن قلقون عليها. قال الطبيب: لا خطر عليها الآن. ولكن هيا حاول أن تحصل على كلام معقول من صاحبك هذا الطبيب. ألاً تستحي يا إيفان بتروفيتش؟ لقد انتظرناك على العشاء.. بعد أن مضى على غيابك يومان!

ـ قلت لك أول أمس: إنني لن أجيء إلا بعد يومين، لأن هناك عملاً كان عليَّ أن أنجزه.

ـ ولكنك وعدتنا بأن تتعشى اليوم معنا، فلماذا لم تأتِ؟ لقد نهضت نللي من فراشها خصيصاً، يا لها من ملاك! فحملناها إلى الكرسي الطويل، وكانت تقول: «أريد أن أنتظر فانيا معكم»، ولكن صاحبنا فانيا لم يظهر! أين كنت تتسكع؟ آه منكم أيها الغاوون! كانت المسكينة محطمة، لم أعرف كيف أبث فيها شيئاً من القوة.. ومن حُسن الحظ أنها نامت، هذه الطفلة العزيزة. ثم إن نيقولا سرجتش قد نزل إلى المدينة، وسيعود وقت الشاي، لقد عُرض عليه عمل يا إيفان بتروفيتش. ولكن مجرد التفكير في أن هذا العمل سيكون في برم يجمّد قلبي.

ـ أين ناتاشا؟

ـ في الحديقة يا عزيزي. إذهب إليها. إنها هي أيضاً غريبة.. لا أفهم ماذا بها. آه ما أشد عذابي يا إيفان بتروفيتش! إنها تؤكد لي أنها سعيدة مسرورة، ولكنني لا أصدق هذا الكلام.. إذهب إليها، يا فانيا، وستقص عليَّ بعد ذلك ما بها، سراً.. أليس كذلك؟

فهرعت إلى الحديقة قبل أن تنهي آنا أندريفنا كلامها. هي حديقة صغيرة تابعة للبيت، يبلغ طولها عشرين قدماً، وكذلك عرضها تقريباً، مخضوضرة في كل جانب منها: فيها ثلاث شجرات واسعة الفروع، وبضع سندرات، وغياض من الليلك وزهر الجبل، وشجرة من أشجار التوت الشوكي في ركن صغير، وطريدتان زرعتا بتوت الفراولة، ولها ممران متعرجان، طولاً وعرضاً. إن العجوز يحب هذه الحديقة الصغيرة حب العبادة، ويؤكد أن الفطر لن يلبث أن ينبت فيها. ونللي خاصة، أحبت هذا المكان، فكانوا يحملونها إليه على مقعدها في كثير من الأحيان، إذ لقد أصبحت معبودة البيت كله. ها هي ذي ناتاشا: إنها تقبل عليَّ بابتسامة فرحة، مادةً إليَّ يدها. ما أشد هزالها وشحوبها! إنها هي أيضاً لم تكد تخرج من المرض.

- هل أنجزت عملك إنجازاً تاماً يا فانيا؟

- نعم.. وأنا الليلة حر تماماً.

- الحمد لله! هل تعجلت الكتابة؟ هل أساء هذا التعجل إلى القصة؟

- ما حيلتي؟ على كل حال، لا ضير! إنني حين أعمل وأنا في مثل هذا التوتر النفسي، أصل إلى حالة خاصة، فيكون ذهني أصفى، ويكون إحساسي أعنف وأعمق، وأكون سيّد أسلوبي. إن التوتر يحسّن كتابتي.

- فانيا، فانيا.

لقد لاحظت أن ناتاشا أصبحت في الأيام الأخيرة شديدة الاحتفال بما أحقق من نجاح أدبي، وبما أصيب من شهرة. إنها تقرأ كل ما نشرته منذ عام، وتسألني في كل لحظة عن مشاريعي المقبلة، وتتابع

ما يُكتب من نقد يتناول آثاري، فيغضبها بعض هذا النقد، وتصرّ على أن أبلغ مكانة رفيعة في الأدب. وقد انكشفت رغباتها هذه قوية عنيفة فلم يسعني إزاءها إلا أن أدهش لهذا الميل الجديد.

قالت لي:

ـ أنت ترهق نفسك يا فانيا، أنت ترهق نفسك، وتحمِّلها فوق طاقتها. ثم إنك تهدم صحتك. انظر إلى س... لقد أنفق سنتين في كتابة قصة واحدة. وانظر إلى ن... لم ينشر إلا رواية واحدة خلال عشرة أعوام. ولكن كتابتهما مصقولة كاملة، لا يجد المرء فيها إهمالاً واحداً*.

ـ نعم، ولكن حياتهما مؤمَّنة، وليسا في حاجة إلى أن يكتبا في موعد معين، أما أنا... فحصان عربة! على كل حال، ليس هذا كله إلا سخافات. دعينا من هذه الأمور، يا صديقتي.. والآن، هل من جديد؟

ـ نعم، أولاً: رسالة منه.

ـ أيضاً؟

ـ نعم.

قالت ذلك ومدت إليَّ رسالة من أليوشا. إنها الرسالة الثالثة منذ افترقا. أما الأولى فقد وصلت من موسكو، ويظهر أنه كتبها وهو في حالة عصبية، وفيها يقول: إن الظروف تمنعه من العودة إلى بطرسبرغ كما كان ينوي. وأما الثانية فيعلن فيها أنه عائد قريباً للزواج بناتاشا، وأن هذا قد تقرر، وأنه ما من قوة في العالم يمكن أن تحول دونه. ومع ذلك كان واضحاً من لهجة رسالته كلها أنه يائس، وأنه يرزح تحت عبء تأثيرات أخرى، وأنه يشك منذ الآن في نفسه. وقال فيما قال: إن كاتيا هي التي تشد أزره. وأنها سلواه الوحيدة وسنده الوحيد.

وأسرعت ففضضت الرسالة الثالثة. هي صفحتان كتبتا بخط متعثر، مشوش، متعجل، لا يكاد يقرأ. . وعليها بقع حبر ودموع. إن أليوشا يعلن منذ البداية أنه يعدل عن ناتاشا، وينصحها بأن تنساه، ويحاول أن يبرهن لها أن زواجهما مستحيل، وأن هناك مؤثرات أجنبية معادية أقوى من كل شيء، وأنهما أخيراً لن يكونا معاً إلا شقيين لأنهما لا يصلح أحدهما للآخر. ولكن أليوشا لم يستمر على هذه النغمة، فإذا هو فجأة يترك نظرياته وبراهينه بلا لف ولا دوران، وبدلاً من أن يمزق الرسالة وأن يهمل هذا القسم الأول منها، يتابع كلامه قائلاً: إنه مجرم في حق ناتاشا، وأنه رجل ضائع، لم يملك من القوة ما يقاوم به إرادة أبيه الذي وصل إليهم منذ مدة قصيرة، وأنه لا يستطيع وصف الآلام التي يعانيها وأنه يشعر بأنه قادر على إسعاد ناتاشا، ويصرح فجأة بأن كلاً منهما قد خلق للآخر حتماً، ويأخذ يفند حجج أبيه في عناد وإصرار. ثم يرسم، يائساً، صورة السعادة التي كان يمكن أن تكون نصيبهما كليهما لو تزوجا، ويأخذ يلعن نفسه لما يتصف به من جبن. ثم يودع ناتاشا إلى الأبد.

واضح أن كتابة هذه الرسالة كانت عذاباً له. واضح أنه كان خارجاً عن طوره وهو يكتبها. وأغرورقت عيناي بالدموع، ومدت إليَّ ناتاشا رسالة أخرى، من كاتيا. لقد وصلت رسالة كاتيا مع رسالة أليوشا في ظرف واحد، ولكنها مودعة في غلاف مستقل. وفي هذه الرسالة تقول كاتيا: إن أليوشا كان حزيناً حقاً، وإنه كان يبكي كثيراً، وإنه كان يائساً، حتى أنه مرض قليلاً، ولكنها هي معه، وسيكون سعيداً. وحاولت كاتيا أن تشرح لناتاشا أن عليها ألاَّ تظن أن أليوشا سينساها بسهولة، فإن لوعته ليست بالشيء اليسير: «إنه لن ينساك أبداً. لن يستطيع أبداً أن ينساك، فأنت تعرفين قلبه. إنه يحبك حباً

لا حدود له، وسيظل يحبك مدى الحياة. ولو نَسيَكِ، لو أصبح يوماً لا يتألم لذكراك، فلن أحبه أنا بعد ذلك».

أعدت الرسالة إلى ناتاشا وتبادلنا نظرة صامتة. وهذا ما حدث للرسالة الأولى فالرسالة الثانية. لقد أصبحنا نتحاشى الحديث عن الماضي، كأننا اتفقنا على ذلك، ولكنها لا تريد أن تتحدث في هذا أمامي. إنها حين عادت إلى بيت أبيها ظلت طريحة الفراش ثلاثة أسابيع، فكانت تعاني من الحمّى ولا تكاد تنهض. وكنا لا نتحدث كذلك إلا نادراً عن التغير الذي سيطرأ، رغم أنها تعرف أن أباها قد وجد عملاً، وأن علينا أن نفترق في القريب. ورغم الحنان وألوان الرعاية التي كانت تغمرني بها طوال هذه المدة، ورغم اهتمامها بكل ما كان يتصل بي من قريب أو بعيد، ورغم إصغائها الشديد إلى كل ما كان عليَّ أن أقوله لها من تلقاء نفسي (وكان يثقل عليَّ ذلك في أول الأمر)، فقد كنت أشعر أنها تريد أن تعوضني عما لقيتُ من عذاب، لا أكثر من ذلك ولا أقل. غير أن هذا الشعور المؤلم لم يلبث أن زال. ولم ألبث أن فهمت أن لها رغبة أخرى، لم ألبث أن فهمت أنها تحبني بكل بساطة، تحبني حباً لا حدَّ له، وأنها لا تستطيع أن تعيش دون أن يقلقها كل ما يتصل بي من أمر. يقيني أنه ما من أخت أحبت أخاها يوماً كما تحبني ناتاشا. كنت أعرف أن فراقنا القريب يسحق قلبها سحقاً، وأنها تتألم أشد الألم. وكانت تعلم هي أيضاً أنني لا أستطيع أن أعيش بدونها. ولكننا كنا لا نتحدث في هذا، رغم أننا تحدثنا تفصيلاً عن الأحداث التي تتهيأ.

سألتها عن أنباء نيقولا سرجتش، فأجابتني:

ـ أظن أنه عائد بعد قليل، فلقد وعد بأن يكون هنا في موعد الشاي.

ـ ألاً يزال يقوم بمساعٍ للحصول على ذلك المركز؟

ـ نعم. . وسيحصل عليه من غير شك.

ثم أضافت حالمة:

ـ لم يكن اليوم في حاجة إلى الخروج. . كان يمكنه أن يرجىء ذلك إلى الغد.

ـ فلماذا خرج إذن؟

ـ لأنني تلقيت هذه الرسالة.

وأضافت بعد صمت:

ـ إنه مريض بحبي يا فانيا، وهذا يؤلمني. يقيني أنه لا يحلم إلا بي. يقيني أنه لا يهتم إلا بشيء واحد: ما يحدث لي، ما أفكر فيه. كل هم من همومي تترجع أصداؤه في نفسه. إنه في بعض الأحيان يحاول السيطرة على نفسه، ولكن في غير طائل. يحاول أن يتظاهر بأنه غير قلق، بأنه مرح، يحاول أن يضحك وأن يضحكنا. وأمي أيضاً تتبدل في مثل تلك اللحظات. . إنها لا تصدق هذه الحماسة في أبي، فتأخذ تتنهد. يا لها من خرقاء! إنها مستقيمة مسرفة في الاستقامة (قالت ناتاشا ذلك وهي تضحك). وهكذا، حين تلقيت هذه الرسالة اليوم، أحس أبي بحاجة ملحَّة إلى الخروج، وذلك حتى لا يلتقي نظره بنظري. . إنني أحبه أكثر من نفسي، أحبه أكثر من أي شيء في العالم، أحبه يا فانيا حتى أكثر مما أحبك. (قالت عبارتها الأخيرة هذه وهي تغض طرفها، وتشد على يدي).

ودرنا الحديقة مرتين قبل أن تستأنف ناتاشا كلامها. قالت:

ـ زارنا اليوم ماسلوبويف.

ـ نعم، لقد تعوَّد في هذه المدة الأخيرة أن يزوركم.

ـ وهل تعلم، هل تعلم لماذا يجيء إلينا؟ إن أمي تثق به ثقة

مطلقة. إنها تعتقد أنه من العلم بكل شيء (بالقوانين وسائر الأمور) بحيث يستطيع أن ينجح في حل أية قضية من القضايا. هل تعرف ما الذي يصدع رأسها الآن؟ إنها في أعماق نفسها يؤسفها ألاَّ أكون أميرة. وهي من حزنها على كل ذلك لا تنام. وأغلب ظني أنها فاتحت ماسلوبويف في هذا الأمر. إنها لا تجرؤ أن تتحدث في هذا الموضوع إلى أبي، وهي تعتقد أن ماسلوبويف يستطيع أن يساعدها باللجوء إلى القانون. وماسلوبويف لا يعارضها طبعاً، فتدلله بالشراب (أضافت ناتاشا ذلك وهي تطلق ضحكةً صغيرةً).

ـ لا أستغرب ذلك على هذا المشعوذ! ولكن كيف عرفت كل ذلك؟

ـ أمي نفسها ألمحت إليه.

ـ ونللي؟ كيف حالها؟

ـ أستغرب يا فانيا أنك لم تسألني عن أنبائها إلى الآن.

قالت ناتاشا ذلك بلهجة اللوم.

كانت نللي معبودة البيت كله. كانت ناتاشا تحبها كثيراً، وكانت نللي قد فتحت قلبها لها أخيراً. مسكينة هذه الطفلة. إنها لم يَدُرْ في خلدها يوماً أنها ستلتقي مثل هؤلاء الناس، وأنها ستجد كل هذا الحب! كنت ألاحظ، فرحاً، أن قلبها الحانق قد رق، وأن نفسها انفتحت لنا جميعاً، فكانت ترد على الحب الذي تحاط به، كانت ترد عليه بحماسة مرضية تتناقض كل التناقض مع العناد والعداء والحذر الذي كان يملأ نفسها في الماضي. على أن نللي كانت قد عندت مدة طويلة فأخفت عنا دموع الرضا الذي كان يتجمع في قلبها، ثم أسلمت نفسها أخيراً. وقد تعلقت بناتاشا تعلقاً شديداً، ثم تعلقت بالعجوز أيضاً. أما أنا فقد أصبحت لا تستغني عني لحظة،

حتى إن صحتها كانت تزداد سوءاً حين أتغيب مدة من أجل أن أنجز العمل الذي أهملته. ظللت أنصحها وأعظها مدة طويلة.. بكلام مغطى، طبعاً. كانت نللي ما تزال تشعر بشيء من الحياء من إظهار عاطفتها صريحة حرة..

كنا نشعر جميعاً بكثير من القلق عليها. لقد كان من المتفق عليه ضمناً أن تظل في بيت نيقولا سرجتش. ولكن سفرهم يقترب، وصحتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. لقد مرضت في ذلك اليوم نفسه الذي أخذتها فيه إلى العجوزين، في ذلك اليوم نفسه الذي تم فيه الصلح بينهما وبين ناتاشا. على أنها، ماذا أقول؟ كانت مريضة قبل ذلك كثيراً، ولكن مرضها يتفاقم الآن بسرعة لا تصدق. لا أدري ماذا كان مرضها على وجه الدقة، ولا أستطيع أن أعيّنه وأن أحدده. صحيح أن نوباتها ازدادت، ولكن التهدم وانهيار القوى والتوتر والحمّى، وهذه الأمور خاصة هي التي كانت تلزمها فراشها في الأيام الأخيرة. والشيء الغريب أن نللي كانت تزداد نعومة ورقة وحناناً وثقة في معاملتنا، كلما ألحَّ عليها المرض.

لقد مررت قربَ سريرها الصغير منذ ثلاثة أيام، فإذا هي تتناول يدي وتجذبني إليها. كنا وحدنا في الغرفة. وكان وجهها يحترق من شدة الحمّى (ولقد هزلت هزالاً رهيباً)، وكانت عيناها تتقدان. تطاولت نحوي بحركة عنيفة جامحة، حتى إذا انحنيت عليها أحاطتني بذراعيها الصغيرين الأسمرين الناحلين، وقبّلتني بحرارة. ثم ما لبثت أن طلبت ناتاشا، فناديتها. كانت نللي تصر على أن تجلس على سريرها وأن تنظر إليها.. قالت لها:

ـ أنا أيضاً أحب أن أنظر إليك. لقد حلمت بك أمس، وسأحلم بك الليلة. إنني أحلم بك كثيراً، كلَّ ليلة.

كان واضحاً أنها تريد أن تفصح عن شيء، أن تفضي بعاطفة تنوء بحملها، ولكنها كانت لا تفهم ما تحسّه، ولا تعرف كيف تعبّر عنه.

وكانت نللي تحب نيقولا سرجتش أكثر من أي شخص آخر بعدي أنا.. ويجب أن نذكر أن نيقولا سرجتش يمحضها من الحب مثل ما يمحض ناتاشا تقريباً. وكان يملك قدرة مدهشة على إفراحها وإضحاكها، فما يكاد يدخل غرفتها حتى يبدأ الضحك والعبث. كانت المريضة الصغيرة تضحك كطفلة، وتعابث العجوز، وتهزأ به، وتقص عليه أحلامها، وتخترع وتلفّق، ثم تجبره على أن يحكي هو أيضاً، فكان الشيخ يبلغ من الفرح والسرور وهو ينظر إلى «ابنته الصغيرة نللي» أن نشوته بمجالستها تزداد يوماً بعد يوم.

قال لي مرة وهو يترك نللي بعد أن رسم عليها إشارة الصليب في الليل على عادته:

- إن الله هو الذي بعث بها إلينا تعويضاً عما لقينا من الآلام..

كنا في المساء نجلس معاً (وكان ماسلوبويف يأتي أيضاً، كل مساء تقريباً)، وكان الطبيب العجوز الذي تعلق بأسرة أخمنيف تعلقاً شديداً ينضم إلينا في بعض الأحيان. كنا نحمل نللي على مقعدها إلى قرب المائدة المستديرة. ونفتح باب الشرفة، فنطل على الحديقة الصغيرة كلها وقد أغرقتها أشعة الشمس الغاربة. وكانت رائحة الخضرة الطرية والليلك المتفتح تنعش صدورنا. كانت نللي تنظر إلينا جميعاً من على مقعدها، وتصغي إلى حديثنا، وقد فاض وجهها عاطفة وحناناً. وكانت تتحمس من حين إلى حين فتقول بضع كلمات.. ولكننا نصغي إلى كلامها قلقين، لأن في ذكرياتها أموراً يجب ألاّ تُمس.. وكنا نشعر، أنا وناتاشا والعجوز وأخمنيف، أننا أذنبنا في حقها كثيراً يوم حملناها على أن تروي لنا حياتها كلها،

وهي ترتعش متعبة مرهقة. وكان الطبيب خاصةً يعارض إيقاظ هذه الذكريات ويحاول عادةً أن يغير مجرى الحديث. وكانت نللي تحاول أن تخفي أنها تلاحظ جهودنا، وتأخذ تضاحك الدكتور أو نيقولا سرجتش.

وفي أثناء ذلك كانت صحتها تزداد سوءاً. وأصبحت سريعة التأثر إلى أقصى الحدود. فكان قلبها يخفق خفوقاً غير مطرد. حتى لقد قال لي الطبيب إنها قد تموت قريباً جداً.

لم أخبر العجوزين بذلك حتى لا أفزعهما.. وكان نيقولا سرجتش يعتقد أنها ستشفى قبل السفر.

ـ هذا أبي، فلنعد يا فانيا.

ذلك ما قالته لي ناتاشا، وقد سمعت صوت أبيها.

ما كاد نيقولا سرجتش يجتاز العتبة حتى أخذ يتكلم بصوت عال، على عادته. فلوَّحت له آنا أندريفنا بذراعيها، فما لبث أن هدأ، حتى إذا لمحنا أنا وناتاشا أخذ يقص علينا نتيجة مساعيه بصوت خافت واهتمام كبير: إن المركز الذي يسعى إلى احتلاله قد ضُمن له، وهو سعيد بذلك كل السعادة. قال وهو يفرك يديه ويلقي على ناتاشا نظرة قلقة:

ـ نستطيع أن نسافر بعد خمسة عشر يوماً.

ولكن ناتاشا أجابته بابتسامة وقبَّلته، فتبددت شكوكه فوراً. قال فرحاً:

ـ فلنسافر، يا أعزائي، فلنسافر. لا تشق عليَّ مفارقة أحد غيرك يا فانيا..

(يجب أن ألفت نظر القارىء إلى أن نيقولا سرجتش لم يقترح عليَّ مرة واحدة أن أصحبهم. وهذا أمر ما كان ليفوته أن يفعله،

بحكم طبعه، في ظروف أخرى، أي لولا أنه علم بحبي لناتاشا). ولكن ما العمل، يا أعزائي، ما العمل؟ إن فراقك يحز في نفسي يا فانيا. ولكن تغيير مكان الإقامة سيرد إلينا الحياة جميعاً. من غيَّر بلده فقد غير كل شيء في حياته.

قال عبارته الأخيرة هذه وهو ينظر مرة أخرى إلى بيته.

كان يؤمن بهذا وكان يسعده أن يؤمن به.

قالت آنا أندريفنا:

ـ ونللي؟

ـ نللي؟ إنها مريضة الآن قليلاً، ولكنها ستشفى قبل أن نسافر. صحتها قد تحسنت منذ الآن، ألاً ترى ذلك يا فانيا (قال ذلك وقد ظهر في وجهه الرعب، وألقى عليَّ نظرة قلقة، كأن عليَّ أنا أن أبدد مخاوفه) كيف هي الآن؟ هل نامت نوماً هادئاً؟ ألم يحدث شيء؟ لا بد أنها استيقظت. آنا أندريفنا: سنضع المائدة على الشرفة، وتأتين بالسماور، ويجيء أصدقاؤنا، ونجلس هناك جميعاً، وتأتي نللي أيضاً.. هذه فكرة حسنة.. ولكن ألم تستيقظ؟ سأرى.. سأنظر إليها فقط.. لن أوقظها.. لا تقلقي! (أضاف ذلك إذ رأى آنا أندريفنا عادت تلوِّح له).

كانت نللي قد استيقظت. وما هي إلا ربع ساعة حتى كنا نجلس جميعاً قرب سماور المساء على عادتنا.

حُملت نللي على مقعدها. وجاء الطبيب. ووصل ماسلوبويف. وقد وصل يحمل باقة كبيرة من الليلك لنللي، ولكن وجهه كان يدل على هم وكدر.

يجب أن أذكر بهذه المناسبة أن ماسلوبويف كان يأتي كل يوم تقريباً. وقد سبق أن ذكرت أنهم أحبوه جميعاً، ولا سيما آنا

أندريفنا، ولكن أحداً ما كان يتحدث صراحةً عن ألكسندرا سيمينوفنا. وماسلوبويف نفسه ما كان يذكر اسمها. إن آنا أندريفنا، حين علمت مني أن ألكسندرا سيمينوفا لم تظفر بعد بأن تصبح زوجته الشرعية، قد رأت بينها وبين نفسها أن من الواجب ألاَّ تُستقبل وألا يذكر اسمها. وقد طبقنا جميعاً هذا القرار، وعلى رأسنا آنا أندريفنا. ولكن يجب أن أشير إلى أن آنا أندريفنا ما كانت لتتزمت هذه التزمُّت كله لو لم تكن ناتاشا هنا، ولو لم يقع ما وقع.

كانت نللي تبدو في ذلك المساء أشد حزناً وقلقاً. لكأنها رأت حلماً سيئاً ما تزال تفكر فيه. ولكنها سُرت كثيراً بهدية ماسلوبويف، فكانت تتأمل الأزهار التي وضعت في آنية إلى جانبها، فرحةً بها. قال العجوز:

ـ أنت تحبين الأزهار كثيراً يا نللي، أليس كذلك؟

ثم أضاف بحرارة وحماسة:

ـ انتظري.. غداً ترين!..

أجابته نللي بقولها:

ـ نعم أحبها، وأذكر أننا قدمنا في ذات مرة أزهاراً إلى أمي. كنا يومئذٍ هناك (أصبحت كلمة هناك تعني البلد الأجنبي)، وكانت أمي مريضة خلال شهر بكامله، فقررنا أنا وهنري أن نزين جميع الحجرات بالأزهار متى نهضت من فراشها أول مرة لتخرج من غرفتها بعد أن أقامت فيها لا تبرحها مدة شهر كامل. وهذا ما فعلناه. قالت لنا أمي ذات مساء إنها ستتناول طعام الإفطار معنا في الغد، فاستيقظنا في غدٍ مع الفجر، ومضى هنري فجاء بأزهار كثيرة، فزيّنا الغرفة بأوراق خضر وأكاليل: كان هناك لبلاب، وأوراق عريضة نسيت الآن اسمها، وأوراق أخرى علّقناها في كل مكان، وأزهار

كبيرة بيضاء، ونرجس (والنرجس أحب الأزهار إليَّ)، وورود، وورود رائعة، وكثير جداً من الأزهار الأخرى: علقناها كلها أكاليل أكاليل، ورتّبناها في آنية. وكان هناك أيضاً أزهار تشبه أن تكون أشجاراً، في صناديق كبيرة: وضعناها في أركان الغرفة وقرب مقعد أمي. فلما خرجت أمي من غرفتها دهشت، وسَرَّها هذا، وسَرَّ هنري. . أذكر ذلك.

كانت نللي في ذلك المساء قد ازدادت ضعفاً، وازدادت عصبية. فكان الطبيب ينظر إليها قلقاً. ولكنها كانت تشتهي كثيراً أن تتكلم. فظلت مدة طويلة، حتى الليل، تحدثنا عن حياتها هناك. ولم نقاطعها. لقد قامت هناك، مع أمها وهنري، بأسفار كثيرة. وذكرياتها تستيقظ الآن واضحة زاهية. حدثتنا بحرارة عن السماء الزرقاء، عن الجبال الشاهقة التي تغطيها الثلوج، عن كتل الجليد التي رأتها واجتازتها، عن السيول، عن بحيرات إيطاليا ووديانها، عن الأزهار والأشجار، عن سكان القرى، عن ملابسهم، عن وجوههم السمراء وعيونهم السوداء، عن الأشخاص الذين عرفوهم، عن الحوادث التي وقعت لهم. ثم وصفت المدن الكبرى، والقصور، وكنسيةً ذات قبة تشتعل فجأةً بنيران من كل لون، ثم وصفت مدينة حارة من مدن الجنوب، سماؤها زرقاء، والبحر قربها أزرق. . . لم تقص علينا نللي ذكرياتها بمثل هذا التفصيل قبل اليوم. وكنا نصغي إليها بانتباه شديد. كنا حتى تلك اللحظة لا نعرف إلا ذكرياتها الأخرى، تلك التي بقيت لها من مدينة مظلمة كالحة، ذات قصور ثمينة موسخة بالوحل، وشمس كابية بخيلة، وسكان أشرار أشباه مجانين، كنا لا نعرف إلا ذكرياتها عن هذه المدينة التي تألمت فيها هي وأمها كثيراً. وكنت أتصورهما كلتيهما في قبوهما الوسخ ذاك، ذات مساء مظلم رطب، قابعتين على سريرهما الرديء وقد تشبثت كل منهما

بالأخرى، وراحتا تتذكران الماضي، هنري الذي مات، وعجائب البلاد الأخرى. وكنت أيضاً أتصور نللي، وهي تستعيد هذه الذكريات كلها، وحيدةً بلا أم، عند بوبنوفا التي تريد بالضرب والصفع والقسوة الحيوانية أن تجهز عليها، وأن تُكْرِهها على. . .

وساءت حال نللي أخيراً، فحملوها إلى سريرها. وذعر العجوز، وندم على أنها تُركت تتحدث هذا الحديث الطويل كله. وباغتتها نوبة هي نوع من الإغماء. . لقد وقع لها ذلك قبل الآن مرات. فلما صَحَت طلبت أن تراني على انفراد. كان في صدرها شيء تريد أن تفضي به إليّ، وبلغت من الإلحاح في طلبها أن الطبيب نفسه أمر في هذه المرة بتلبيته، فخرجوا جميعاً، وبقيت معها وحدي، فقالت لي:

ـ فانيا، أعرف أنهم يظنون أنني سأسافر معهم، ولكنني لن أسافر، لأنني لا أستطيع ذلك: سأبقى معك. . هذا ما أردت أن أقوله لك.

فأخذت أقنعها بضرورة سفرها قائلاً: إنهم يحبونها جميعاً، وأن العجوزين يعدانها ابنةً لهما، وأنهما سيتألمان كثيراً إذاً هي رفضت أن تصحبهم في سفرهم، وأن الحياة ستكون شاقة، وأن علينا أن نفترق رغم كل ما أحمل لها من عاطفة. فأجابتني بلهجة جازمة تقول:

ـ لا، هذا مستحيل. إنني أرى أمي كثيراً في المنام، وهي تطلب إليّ في كل مرة ألاّ أذهب معهم، وأن أبقى هنا؛ وتقول لي: إنني اقترفت إثماً كبيراً بترك جدي وحده، وهي تقول ذلك باكية. أريد أن أبقى هنا وأن أعتني بجدي. فقلت لها دهشاً:

ـ ولكنك تعلمين أن جدك مات.

فشرد فكرها ونظرت إليّ نظرة ثابتة، ثم قالت:

ـ حدثني مرة أخرى كيف مات. . قُصّ عليّ كل شيء، ولا تغفل شيئاً.

شُدهت من هذا الطلب، ولكنني أخذت أقص عليها الحادث تفصيلاً. كنت أعتقد أنها تهذي، أو أنها على الأقل لم تسترد صفاء عقلها بعد نوبتها الأخيرة.

كانت تصغي إليَّ بانتباه، وأذكر الآن أن عينيها السوداوين الملتمعتين ببريق المرض والحمى كانتا لا تفارقاني لحظةً طوال مدة الحديث. وكانت الغرفة قد أظلمت. قالت لي بلهجة قاطعة بعد أن أصغت إلى حديثي حتى النهاية، وبعد أن فكرت لحظة أيضاً:

ـ لا يا فانيا، إنه لم يمت. إن أمي تحدثني دائماً عن جدي، وحين قلت لها أمس: إن جدي مات، أحزنها ذلك كثيراً، وأخذت تبكي، وقالت: إن هذا غير صحيح، وأنه قيل لي عمداً، وأن جدي ما يزال يعيش، وأنه يتجول في الشوارع يستجدي الناس «كما كنّا نستجدي، أنا وأنت في الماضي، وأنه يعود إلى المكان الذي لقيناه فيه أول مرة، حين جثوت بين قدميه، فعرفني آزور».

قلت لها:

ـ يا نللي، هذا حلم، هذا حلم مريض.. أنتِ ما زلت مريضة يا نللي!

ـ أنا أيضاً قلت لنفسي: إن هذا حلم، فلم أحدِّث به أحداً. كنت أريد ألاَّ أقص شيئاً من هذا كله إلا عليك.. ولكنني اليوم، حين نمت، لأنك لم تأت، رأيت جدي أيضاً.. كان جالساً في غرفته ينتظرني، وكان مخيفاً جداً، كان نحيلاً نحولاً رهيباً.. قال لي: إنه لم يأكل شيئاً منذ يومين، لا هو ولا آزور.. غضب مني، وأنحى عليَّ باللائمة. وقال لي أيضاً: إن تبغه الذي يتنشقه قد نفد، وأنه لا يستطيع أن يعيش بدون هذا التبغ. وهذا صحيح يا فانيا، لقد قال لي ذلك مرة قبل موت أمي، في يوم ذهبت فيه إليه. كان يومئذٍ مريضاً

تماماً، لا يكاد يفهم شيئاً. فلما سمعته يقول هذا الكلام اليوم قلت لنفسي: «سأذهب إلى الجسر أطلب الصدقة، ثم أشتري له شيئاً من الخبز ومسلوق البطاطس والتبغ». وخيِّل إليَّ أنني ذهبت إلى هناك، وتسوّلت، وكان جدي ينتظرني غير بعيد عني، ثم جاء إليّ، فرأى كم جمعت، فأخذ ما جمعته قائلاً: «هذا للخبز، فاجمعي الآن شيئاً للتبغ». ففعلت ما أمرني به، فجاء وأخذ ما جمعته. فقلت له: إنه لا حاجة به إلى ذلك، فسأعطيه كل شيء، ولن احتفظ لنفسي بشيء. فأجابني بقوله: «بل أنت تسرقينني. فقد قالت لي بوبنوفا إنك سارقة، ولهذا لن آخذك أبداً إليَّ. أين وضعت قطعة الخمس كوبيكات؟»، فأخذت أبكي لأنه لا يصدقني، ولكنه لم يصغ إليَّ بل استمرّ يصرخ قائلاً: «سرقت مني خمس كوبيكات!» وأخذ يضربني على الجسر ضرباً موجعاً. لقد بكيت كثيراً، لذلك أعتقد الآن إنه ما يزال حياً، ويتجول في مكان ما، وأنه ينتظرني..

حاولت مرة أخرى أن أرجعها إلى صوابها، وأن أردّها عن أوهامها. وخُيِّل إلي أنني نجحت في ذلك. قالت لي: إنها تخاف أن تنام، لأنها سترى جدها مرةً أخرى. وأخيراً أحاطتني بذراعيها، وقالت وهي تضع خدها على خدي:

ـ ومع ذلك لا أستطيع أن أتركك.. هب جدي لم يمت فسأبقى معك إلى الأبد.

ذُعر جميع من في البيت من النوبة التي أصابت نللي. وقصصت على الطبيب أحلام الطفلة همساً، وسألته عما يظن أنه مرضها. فقال لي شاردَ الفكر:

ـ لا أعرف مرضها بعد. إنني أحاول أن أعرفه، إنني أفكر، وألاحظ، وأراقب، ولكنني لم أعرف شيئاً بعد. وعلى كل حال،

يستحيل أن تشفى. وستموت. لقد أوصيتني بأن لا أقول لهم ذلك، فعملت بوصيتك، ولكن هذا يؤلمني، وسأقترح عليهم غداً استشارة أحد الأطباء. مسكينة هذه الطفلة، أنا أشفق عليها كأنها ابنتي. . ما أروعها ما ألطف روحها الفكهة! . .

وكان نيقولا سرجتش متأثراً أشد التأثر. قال:

ـ تراودني فكرة يا فانيا، إنها تحب الأزهار كثيراً، فلنهيىء لها غداً، عند الصباح، مفاجأة كالتي هيأتها لأمها مع هنري، كما حدثتنا بذلك اليوم. . لقد قصّت علينا هذا منفعلة.

ـ نعم، ولكن الانفعالات تؤذيها الآن.

ـ صحيح، غير أن الانفعالات الفرحة شيء آخر. صدقني يا عزيزي، إنني أعرف بالتجربة أن الانفعالات الفرحة لا تضرّ، حتى قد تُحَسِّن صحتها، فتشفيها.

والخلاصة أنه بلغ من فرط الافتتان بفكرته أن الحماسة استبدت به، فلا سبيل إلى كبحها. لم أقوَ على الاعتراض. واستشرت الطبيب. . . ولكن ما إن أخذ الطبيب يفكر في الأمر، حتى كان العجوز قد تناول قبعته وخرج لتنفيذ ما عقد النية عليه. قال لي وهو يذهب:

ليس المكان بعيداً. ها هنا مزرعة رائعة. . تباع أزهارها بأسعار زهيدة جداً، أسعار زهيدة تبعث على الدهشة، قل هذا لآنا أندريفنا، حتى لا يسيئها هذا الإنفاق. . اتفقنا. . ها، نعم. كنت أريد أن أسألك يا صديقي العزيز، إلى أين أنت ذاهب الآن؟ لقد فرغت من عملك، لقد أنجزت عملك، ولا شيء يستحثك على العودة إلى بيتك. ابق هنا هذه الليلة. سنضعك فوق، في الغرفة التي تحت السقف، كما في الماضي، هل تتذكر؟ سريرك لا يزال في مكانه، لم

يمسسه أحد. ستنام هنالك كملك. اتفقنا؟ تبقى؟ وسنستيقظ غداً مبكرين قليلاً، فنتعاون على تزيين الغرفة في الساعة الثامنة. وستساعدنا ناتاشا أيضاً: إن ذوقها أحسن من ذوقنا.. موافق؟ تقضي الليلة هنا؟

وكان للعجوز ما أراد، فقرروا أن أبقى. استأذن الطبيب وماسلوبويف بالإنصراف، وانصرفا. كان من عادة أسرة أخمنيف أن لا تتأخر في السهر، فهم ينامون في نحو الساعة الحادية عشرة. وبدا على ماسلوبويف، حين ذهب، أن في ذهنه شيئاً كان يريد أن يفضي به إليّ، ولكنه أرجأ ذلك إلى مرة أخرى. وصعدت إلى غرفتي التي تحت السقف بعد أن حييت أصدقائي تحية المساء، فما كان أشد انشداهي حين وجدت فيها ماسلوبويف. قال لي:

ـ عدت أدراجي يا فانيا لأنني أريد أن أتحدث إليك حالاً. إنها قصة غبية، ومؤسفة.

ـ ما هو الأمر؟

ـ صاحبك الأمير الوغد هو الذي أثار حنقي منذ خمسة عشر يوماً، وما زلت إلى الآن حانقاً..

ـ كيف هذا؟ أما زلت على صلة به؟

ـ هوه.. تظل تسأل «كيف هذا» كأنني قد اقترفت لا أدري أي إثم.. إنك مثل ألكسندرا سيمينوفنا تماماً.. ومثل جميع هاته النسوة اللواتي لا يُحتملن.. إنني لا أطيق النساء.. يكفي أن يسمعن نعيق غراب حتى يأخذن يسألن: «ما هذا، ولماذا؟».

ـ لا تزعل.

ـ لست أزعل، ولكن يجب أن يُنظر إلى الأمور بالمنظار الصحيح. فلا تُضَخِّم.. هذا كل شيء.

وسكت لحظة، كأن لا يزال حانقاً عليّ، فلم أقطع عليه سكوته، فاستأنف يقول:

ـ اسمع يا فانيا، لقد وقفت على سر.. أو قل إنني لم أقف على سر.. ولكنني استنتجت من بعض الأمور أن نللي.. ربما كانت.. الإبنة الشرعية للأمير.

ـ ماذا تقول؟

ـ هوه!.. عدنا إلى أسئلتك «ماذا تقول، ماذا تقول؟». إن من المستحيل حقاً أن يتحدث المرء مع هؤلاء الناس؟ هل ذكرت لك هذا على أنه حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها؟.. هل قلت لك: إن من الثابت إنها الإبنة الشرعية للأمير؟ ما هذا الطيش!..

بهذا صاح منزعجاً، فقاطعته وقد اضطربت اضطراباً شديداً:

ـ اسمع يا عزيزي. ناشدتك الله لا تصرخ. واشرح ما عندك شرحاً واضحاً. أؤكد لك أنني سأفهمك، ولكن تذكر خطورة الموضوع وتصور النتائج التي تترتب..

ـ نتائج ماذا؟ أين البراهين؟ أن الأمور لا تعالج بهذه الطريقة، وأنا أقول لك الآن هذا الكلام على أنه سر يجب إن لا يُفشى، وسأشرح لك فيما بعد ما قصدت إليه من مواجهة هذا الموضوع. كان لا بد من ذلك. اسكت الآن، واصغ إلي، ولا تنس أن هذا كله سر.. إليك ما حدث. في هذا الشتاء، قبل موت سميث، ما كاد الأمير يعود من فارسوفيا، حتى بدأ يتابع القضية.. الحق أنه كان يتابعها منذ مدة طويلة، منذ السنة الماضية. ولكنه كان يومئذٍ يلاحق هدفاً، وهو اليوم يلاحق هدفاً آخر. المهم أنه قد فقد الخيط الذي كان يمسك به. لقد ترك ابنة سميث بباريز منذ ثلاثة عشر عاماً، ولكنه ظل يراقبها طوال ذلك. فكان يعرف أنها تعيش مع هنري الذي جاء

ذكره اليوم، وكان يعرف أنها ولدت نللي، وأنها مريضة. أي كان يعرف كل شيء، ولكنه فقد الخيط فجأة. وقد فقده بعد موت هنري بقليل، فيما أعتقد، أي حين رجعت ابنة سميث إلى بطرسبرغ. كان في وسعه أن يعثر عليها ببطرسبرغ بسرعة، مهما يكن الاسم الذي انتحلته عائدة إلى روسيا، ولكن جواسيسه في الخارج بعثوا إليه بتقارير خاطئة. لقد أكدوا له أنها تعيش في مدينة صغيرة مجهولة بجنوب ألمانيا. وكانوا يعتقدون هم أنفسهم بذلك، نتيجة إهمال، فقد تشابهت عليهم مع امرأة أخرى، وانقضى على ذلك عام أو يزيد. وفي خلال هذه السنة ساورت الأمير شكوك: وكان قد تراءى له قبل ذلك من بعض الدلائل أن تلك التي يراقبونها امرأة أخرى. فتساءل عندئذ: تُرى أين هي ابنة سميث؟ وخطر بباله (هكذا، دون الاستناد إلى أية معلومات) أنها ببطرسبرغ. فكلف بعضهم بإجراء تحقيق في الخارج، وبدأ بإجراء تحقيق آخر هنا. فتعرف إليَّ، لأنني زُكِّيت له، وقيل له: إنني أُعنى بمثل هذه الأمور، وأنني من هواتها، وأنني كذا وكذا.

فعرض عليَّ القضية، ولكنه عرضها عرضاً غامضاً مظلماً ملتبساً، هذا الشيطان بن الشيطان. وكان يخطىء، فيصوِّر الأمور صوراً مختلفة في آن واحد.. إن الإنسان مهما يمكر، لا يستطيع إخفاء جميع الخيوط، هذا أمر مسلّم به! فاندفعت في خدمة الأمير بكل ما في نفسي من سذاجة، وأخلصت له إخلاص العبد لسيده. ولكنني، وفقاً لقاعدة كنت قد أخذت بها إلى الأبد، ووفقاً لقانون من قوانين الطبيعة أيضاً (ذلك أن هذا قانون من قوانين الطبيعة) تساءلت أولاً: هل الأمر الذي حدثني فيه الأمير هو ما يحتاج إليه حقاً، وثانياً: ألاَّ تختفي وراء هذه الحاجة التي أفصح عنها حاجة أخرى لم يكشف إلا

عن جزء منها. ذلك أن الأمير، إن صح أن هنالك حاجة أخرى، وأنت تفهم هذا من تلقاء نفسك ما دمت تملك دماغ شاعر، يكون قد سرقني: فإذا كان أجر حاجة من الحاجات روبلاً واحداً مثلاً، وكان أجر حاجة أخرى أربعة روبلات، فإنني أكون غبياً لو أعطيت بروبل واحد ما يساوي أربعة روبلات. لذلك أخذت أتعمق في الموضوع وأتقصّى وأنبش، إلى أن وقعت على عدة أمور: الأمر الأول اكتشفته بواسطته، والثاني بواسطة شخص آخر لا شأن له بالقضية، والثالث وصلت إليه بذكائي وحده. فإذا سألتني كيف خطر ببالي أن أتصّرف في الأمر هذا التصرّف، أجبتك بأن السبب الوحيد الذي دفعني إلى ذلك هو ما لاحظته في الأمير من اضطراب شديد وقلق عميق. فتساءلت: ما الذي يخشاه الأمير؟ لقد انتزع فتاة من أبيها، ثم حملت منه، ثم هجرها.. أي غرابة في هذا! إنها شطارة لا أكثر من ذلك ولا أقل. إن شخصاً كالأمير لا يمكن أن يضطرب هذا الاضطراب كله لأمر تافه كهذا.. أما وأنه خائف، فلا بد أن يكون ثمة أمور أخرى. هكذا راودتني الشكوك، فمضيت أبحث، حتى عثرت على آثار هامة ترجع إلى هنري. لقد مات هنري طبعاً، ولكن إحدى قريباته (وهي الآن زوجة خبازٍ هنا ببطرسبرغ) وكانت تحبه في الماضي حباً جامحاً، وظلت تحبه خلال خمسة عشر عاماً، رغم خبازها السمين الذي أنجبت منه ثمانية أولاد دون أن تنتبه إلى ذلك، أقول: إن قريبته هذه قد كشفت لي، بعد مداورات كثيرة متنوعة من جهتي، عن أمر هام. لقد كان هنري يكتب إليها، على عادة الألمان، وكان يبعث إليها بيومياته. وقبل موته بمدة قصيرة أرسل إليها بعض الأوراق. لم تفهم الحمقاء قيمة هذه الأوراق، وكانت لا تعنيها فيها إلا الفقرات التي يدور فيها الحديث على القمر

وما إلى ذلك.. أما أنا فقد عثرت في هذه الأوراق على معلومات كنت في حاجة إليها، واطلعتني هذه الرسائل على أمور جديدة. عرفت، فيما عرفت، وجود سميث، ورأس المال الذي سرقته منه ابنته، وعرفت أن الأمير استولى على المال، ولمحت أخيراً من خلال كثير من إشارات التعجب ومن اللف والدوران والتلميحات والرموز، لمحت في هذه الرسائل الجوهر الحقيقي في هذه القضية. ولكن، افهمني حق الفهم يا فانيا، لست أدعي أن ما لمحته هو الحقيقة الثابتة التي لا شك فيها.. لقد كان هذا السخيف هنري يتعمد الإخفاء ويكتفي بالإشارات، ولكن ما يتراءى لي من هذه الإشارات ومن كل هذه الأشياء، ينسجم في نظري انسجاماً تاماً، ويدل على أن الأمير قد تزوج ابنة سميث. فإذا سألتني أين تم ذلك الزواج، ومتى تم؟ هل تم في الخارج أم تم في بطرسبرغ؟ وأين هي الوثائق التي تثبته؟ لم أستطع أن أجيبك بشيء.. يستحيل أن تعرف هذه الأمور.. لقد بحثت يا عزيزي فانيا، ثم بحثت، ليل نهار، فلم أعثر على شيء، فكنت أشد شعري حسرةً وأسفاً.

واكتشفنا سميث أخيراً، ولكنه مات فجأة. حتى إنني لم أستطع أن أراه حياً. ثم علمت، صدفة، أن امرأة كانت تحوم حولها شكوكي، قد ماتت في فاسيلي أوستروف. فهرعت إلى فاسيلي أوستروف، وكان ذلك في اليوم التي لقيتك فيه، هل تتذكر؟ واكتشفت يومئذٍ أشياء كثيرة.

وأوجز فأقول إن نللي قد ساعدتني في تلك اللحظة مساعدة كبيرة.

ـ اسمع، هل تعتقد أن نللي تعرف..

ـ ماذا؟

ـ إنها ابنة الأمر؟

ـ إنك تعرف ذلك، فلماذا تسألني هذه الأسئلة الزائدة، أيها الطائش؟

قال لي ذلك وهو ينظر إليَّ نظرة لوم ماكرة. ثم أضاف يقول:

ـ المهم ليس هذا.. المهم هو أن نللي ليست ابنة الأمير فحسب، بل هي ابنته الشرعية أيضاً.. هل تفهم؟

فصرخت قائلاً:

ـ هذا مستحيل!

ـ أنا أيضاً كنت في أول الأمر أقول لنفسي: «هذا مستحيل!».. وما زلت إلى الآن أقول لنفسي أحياناً: «هذا مستحيل»، ولكن الواقع هو أن ذلك ليس مستحيلاً، بل أغلب الظن أنه هو الواقع.

ـ لا، يا ماسلوبويف، لا، أنت تذهب بعيداً جداً.. إنها لا تجهل ذلك فحسب، بل هي ابنة غير شرعية أيضاً. وإلا، فكيف كان يمكن أن تحتمل أمها ذلك المصير القاسي الذي عاشته ببطرسبرغ، لو كانت تملك أي دليل، وكيف كان يمكن عدا ذلك أن تترك ابنتها على هذه الحالة؟ أنت تمزح يا ماسلوبويف. هذا مستحيل.

ـ أنا أيضاً خطر ببالي ذلك، وما زالت الشكوك تراودني إلى اليوم. ولكن مما لا شك فيه أن ابنة سميث كانت امرأة مجنونة لا تضارعها في جنونها امرأة. فكِّر في الظروف والملابسات: لقد كانت حياتها رومانسية عجيبة.. إن أخيلتها وشذوذها وتهاويلها قد بلغت حدوداً غريبة لا تصدق. فكر في هذا فقط: لقد كانت تحلم، أول الأمر، بنوع من الجنة على الأرض، كانت تحلم بملائكة، ثم أحبت حباً جامحاً محموماً، فمحضت ذلك الذي أحبته ثقة ليس لها حدود، وأنا على يقين من أنها جُنَّت لا لأنه أصبح لا يحبها، ولا لأنه

هجرها، بل لأنها خدعت في أمره، لأنه كان قادراً على أن يخونها وأن يهجرها، لأن ملاكها قد استحال وحلا، فلطخها ووسخها. إن روحها الرومانسية الطائشة لم تستطع أن تطيق هذه الاستحالة. وهناك فوق ذلك كله الإهانة: هل تفهم أية إهانة؟ إنها، في سورة من حنقها ومن كبريائها خاصة، قد انصرفت عنه باحتقار شديد، فحطمت جميع الصِّلات، ومزقت جميع الأوراق، واستخفت بالمال، حتى لقد نسيت أنه ليس مالها بل مال أبيها، ورفضته كأنه تراب أو وحل، كل ذلك من أجل أن تسحق هذا الذي أغواها، أن تسحقه بأنَفتها وشممها، من أجل أن تستطيع اعتباره لصاً، من أجل أن يحق لها احتقاره مدى الحياة ولا شك أنها رأت في تلك اللحظة أن من العار عليها أن تدعي أنها زوجته. إن الطلاق عندنا لا وجود له، ولكنها طلقته عملياً. فكيف يمكن، والحالة هذه، أن تطلب المعونة؟ تذكر ما قالته هذه المجنونة لابنتها وهي على فراش الموت: «لا تذهبي إليهم، اعملي، واهلكي، ولكن لا تذهبي إليهم، كائناً من كان الشخص الذي يدعوك» (كانت تتوقع أن يدعوها أحد، وأن يتاح لها أن تنتقم مرةً أخرى، وأن تسحق بالاحتقار ذلك الذي سيدعوها. والخلاصة أنها كانت تتغذى بأحلام الانتقام، بدلاً من الخبز). لقد أمدتني بمعلومات كثيرة. وما أزال أستمد منها بعض المعلومات من حين إلى حين. لقد كانت أمها مريضة، مريضة بالسل. وهذا المرض يجعل المريض شديد التأذي، ويولد فيه جميع أنواع السخط والغيظ والحنق. ومع ذلك فأنا أعلم علم اليقين، بواسطة إشبينة بوبنوفا، أنها كتبت إلى الأمير، نعم، إلى الأمير نفسه!

فصرخت نافد الصبر:

ـ صحيح؟ وهل وصله كتابها؟

ـ لا أعرف أوصله أم لا. ولكنني أعرف أن ابنة سميث قد اتفقت مع إشبينة بوبنوفا (ألا تتذكر تلك المرأة المبهرجة التي رأيتها عند بوبنوفا؟ إنها الآن في السجن) على أن تحمل إليه الرسالة: وكتبت الرسالة ولكنها لم تدعها لها، بل استردتها منها، وهذه الواقعة ذات دلالة: إذا كانت قد قررت إرسال الرسالة، فليس يضير أنها استردتها.. إذ يمكن أن تكون قد أرسلتها بعد ذلك. ولكنني لا أعرف هل أرسلتها أو لا. ومن حقنا أن نقدِّر أنها لم ترسلها، لأن الأمير لم يعلم بوجود ابنة سميث في بطرسبرغ إلا بعد موتها. ولا شك أن ذلك سره كثيراً.

ـ نعم أتذكر أن أليوشا قد حدثني عن رسالة سرَّت أباه كثيراً.. ولكن ذلك حدث منذ وقت غير بعيد، منذ شهرين أو ثلاثة أشهر في أكثر تقدير. طيب. وبعد، ما أنت صانع بالأمير؟

أنا؟ اسمع. إنني في قرارة نفسي متيقن كل التيقن. ولكن ليس ثمة برهان قاطع: ليس ثمة أي برهان، رغم كل ما أنفقت من جهد، وتحملت من عناء. إن الموقف حرج. ينبغي القيام ببعض التحريات في الخارج. ولكن أين؟ ما من أحد يعرف. لقد قدرت طبعاً أنني سأغلب، وأن كل ما أستطيعه هو أن أخيفه ببعض التلميحات، وأن أتظاهر بمعرفة أشياء لا أعرفها في الواقع!!

ـ ثم؟

ـ لم يقع في الفخ. ولكنه، من جهة أخرى، خاف كثيراً، خاف خوفاً شديداً ما يزال يرتجف منه إلى اليوم. التقينا عدة مرات، فكان يصطنع مظهر من يستحق أن يُرثى لحاله، وفي ذات مرة، أخذ يقص عليَّ من تلقاء نفسه كل شيء، كصديق، وذلك حين قدّر أنني أعرف كل شيء. كان يتحدث حديثاً بارعاً، لا يخلو من لهجة العاطفة

والصدق، ولكنه كان يكذب طبعاً. . عندئذٍ أدركت مدى خوفه مني. اصطنعت أمامه، خلال لحظة من اللحظات، وضع شخص غرّ يتظاهر بالمكر، وتعمدت الغباء في تخويفه. وأغلظت له القول بعد ذلك عن قصد. وأخذت أهدده. كل ذلك من أجل أن يعدني غبياً أبله، وأن يلقي بما عنده. ولكن الوغد أدرك ما أرمي إليه. وفي مرة تظاهرت بالسكر فلم يفلح ذلك أيضاً. إنه خبيث. هل تستطيع أن تفهم هذا يا فانيا: كنت أريد أن أعرف أولاً مدى خوفه مني. وأن أشعره ثانياً بأنني واقف على أمور لست واقفاً عليها في الواقع.

ـ وإلى ماذا انتهيتما؟

ـ لم ننته إلى شيء. كنت في حاجة إلى براهين، ولم يكن لديَّ أي برهان. كل ما رآه هو أنني أستطيع أن أفضحه. هذا هو الشيء الوحيد الذي يخشاه، خاصةً وأنه بدأ يعقد هنا صِلات. هل تعرف أنه سيتزوج؟

ـ لا.

سيتزوج في السنة القادمة. لقد اختار خطيبة منذ عام. لم يكن سنها في العام الماضي إلا أربعة عشر عاماً، وهي الآن في الخامسة عشرة. أعتقد أنها ما تزال في «المريلة»، هذه الطفلة الشقية. وأبواها مفتونان بالخطبة! الآن تفهم كم كان في حاجة إلى أن تموت زوجته! إن الفتاة ابنة جنرال. إنها تملك مالاً كثيراً، كثيراً جداً. لا أنا ولا أنت يمكن أن نتزوج زواجاً كهذا. ولكن الشيء الذي لن أغفره له مدى الحياة، هو أنني وقعت في أحابيله منذ خمسة عشر يوماً، هذا الوغد الحقير. .

قال ماسلوبويف جملته الأخيرة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية.

ـ كيف كان كذلك؟

ـ نعم: لاحظت أنه فهم أنني لا أملك شيئاً راهناً دامغاً، وشعرت أخيراً أنه سيدرك عجزي إذا طال الأمر، فقبلت منه ألفي روبل.

ـ قبضت منه ألفي روبل؟

ـ روبل فضة، يا عزيزي. أخذتها منه وأنا أشد على أسناني من الحنق. ألفا روبل من أجل قضية كهذه؟ يا له من ذُلّ.. لكأنه أغرقني بالبصاق! قال لي: «إنني لم أدفع لك بعدُ أتعابك يا ماسلوبويف (وكان قد أعطاني مائة وخمسين روبلاً، مقدماً، حسب الاتفاق)، وأنا الآن مسافر، فإليك هذين الألفين. أرجو أن تكون قضيتنا قد انتهت تماماً». فأجبته بقولي: «نعم لقد انتهت تماماً أيها الأمير». حتى إنني لم أجرؤ أن أنظر إلى وجهه، قائلاً لنفسي: إنني لو نظرت إلى وجهه لقرأت فيه قوله: «ها أنت تقبض المبلغ الضخم، ولكنني لا أعطيك هذا المبلغ إلا رأفة بك أيها الغبي». ولا أذكر الآن كيف خرجت من عنده!

صحت قائلاً:

ـ ولكن هذا جبن يا ماسلوبويف. ما أنت صانع بنللي؟

ـ ليس هذا جبناً فحسب، بل هو حقارة يستحق صاحبها الشنق.. هذا.. هذا.. ما من كلمة يمكن أن يوصف بها هذا العمل..

ـ رحماك يا رب! ولكن كان يجب على الأقل أن يؤمِّن مصير نللي!..

ـ نعم، كان يجب.. ولكن كيف تجبره على ذلك؟ بتخويفه؟ لا يمكن أن ينجح التخويف.. لقد قبلت المال. أنا نفسي اعترفت بأن كل الخوف الذي يمكن أن أبثه فيه لا يساوي أكثر من ألفي روبل. أنا نفسي قدرت نفسي بهذا الثمن! فكيف تريد أن تخوفه الآن؟

فصحت، شبه يائس:

ـ هل يمكن أن تكون قضية نللي خاسرة؟

فهتف ماسلوبويف فائراً محتداً وهو يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه:

ـ مستحيل. لن أدع الأمور تمر هكذا. سأشرع في عمل آخر يا فانيا، لقد قررت ذلك. لا ضير في أنني قبضت ألفي روبل. إنني لا أقيم وزناً لهذا. لقد اعتبرت المبلغ إهانة، لقد عبث بي هذا الحقير، لقد سخر مني. إنه يخدعني، ثم يستخف بي. لا، لا، إنني لا أستطيع احتمال ذلك!.. ونللي هي التي سأبدأ بها الآن.. إنني مقتنع اقتناعاً تاماً، على أساس بعض الملاحظات التي لاحظتها، أنها هي التي ستحل العقدة. إنها تعرف كل شيء.. لقد قصّت عليها أمها كل شيء. قصت عليها ذلك أثناء الحمى، أثناء الهذيان.. لم يكن هناك أحد تشكو إليه أمرها. لم يكن هناك إلا نللي، فأفضت إليها بأسرارها. حتى لقد نجد بعض الأوراق (قال هذا وهو يفرك يديه تهللاً وطرباً). هل فهمت الآن لماذا أحوم هنا؟ أولاً للصداقة التي بيني وبينك طبعاً. ولكن ثانياً وخاصة لألاحظ نللي، وثالثاً، يا صديقي، يجب عليك أن تساعدني، شئت أم أبيت، لأن لك سلطاناً على نللي؟

فهتفت أقول!

ـ طبعاً سأساعدك، أقسم لك، ولكن أرجو يا ماسلوبويف أن تستهدف من كل هذا مصلحة نللي، هذه اليتيمة الشقية المهانة، لا أن تستهدف مصلحتك أنت وحدها.

ـ المهم أن نصل إلى غايتنا، كائناً من كان الشخص الذي أعمل لمصلحته. لا شك أن الصغيرة هي أهم ما في الأمر، فالإنسانية

تقضي بذلك، ولكن لا تحكم عليَّ حكماً قاطعاً لا يقبل النقض إذا رأيتني أهتم قليلاً بنفسي، يا صغيري فانيا. أنا رجل فقير، ولا يخطرنَّ ببال ذلك الوغد أن يهين الفقراء! هل تعتقد أن عليَّ أن أوفر حقيراً كهذا الحقير أكثر مما فعلت؟ . .

لم ينجح عيد الأزهار الذي هيّأناه، ذلك أن حالة نللي ساءت فلم تستطع أن تخرج من غرفتها.

وأصبح يجب عليها أن لا تخرج أبداً.

وماتت بعد ذلك بخمسة عشر يوماً! وخلال هذين الأسبوعين اللذين استغرقهما الاحتضار لم تستطع أن تعود إلى صوابها مرة واحدة، ولا أن تتخلص من أخيلتها الغريبة. كان يبدو أن عقلها اختل. ظلت مقتنعة اقتناعاً جازماً، إلى أن ماتت، بأن جدها يدعوها، بأنه حانق عليها لتأخرها عنه، بأنه يضرب الأرض بعصاه، ويأمرها أن تذهب في طلب الصدقة ليشتري خبزاً وتبغاً. وكثيراً ما كانت تبكي أثناء النوم، حتى إذا استيقظت ذكرت أنها رأت أمها.

وفي بعض الأحيان كان يبدو أن عقلها عاد إليها. ففي ذات مرة كنا وحدنا، فانحنت عليَّ، وتناولت يدي بيدها الهزيلة المحترقة بالحمى، وقالت لي:

ـ حين أموت يا فانيا، تزوج ناتاشا.

يُخيَّل إليَّ أن هذه الفكرة كانت تحاصرها منذ مدة طويلة. فابتسمت لها دون أن أجيب، فابتسمت هي أيضاً، ولوّحت لي بإصبعها الصغيرة المعروقة مهددة، ونظرت إليَّ نظرة متخابثة، وقبّلتني.

وقبل موتها بثلاثة أيام، وكان ذلك في مساء جميل من أماسي الصيف، أمرت بإزاحة الستارة وفتح النافذة التي تطل على الحديقة،

ونظرت طويلاً إلى الخضرة الكثيفة، وإلى أشعة الشمس الغاربة، ثم طلبت فجأة أن يتركونا وحدنا، أنا وهي.

قالت لي بصوت لا يكاد يُسمع لأنها كانت ضعيفة جداً:

ـ يا فانيا، سأموت قريباً، قريباً جداً. وقد أردت أن أطلب منك أن لا تنساني. وهذا ما أتركه لك على سبيل الذكرى (قالت ذلك وأرتني كيساً صغيراً كان يتدلى من عنقها مع صليبها). لقد تركت لي أمي هذا وهي تموت. فإذا مت أنا، فاخلع هذا الكيس، وخذه لك، وستقرأ ما فيه. سأقول لهم اليوم أن لا يعطوا الكيس لأحد غيرك. حتى إذا قرأت ما هو مكتوب في الكيس، فاذهب إليه، وقل له: إنني مت، وإنني لم أغفر له. وقل له أيضاً: إنني قرأت الإنجيل منذ مدة قصيرة، وفيه يقول المسيح: «اغفروا حتى لأعدائكم»، قل له: إنني قرأت هذا الكلام، ومع ذلك لم أغفر له، وأن الكلمات الأخيرة التي نطقت بها أمي قبل أن تموت، قبل أن تعجز عن الكلام هي: «إنني ألعنه». وقل له: إنني ألعنه أنا أيضاً، لا من أجلي، بل من أجل أمي. أذكر له كيف ماتت أمي، وقصّ عليه كيف بقيت وحدي مع بوبنوفا. أخبره بأنك رأيتني عند بوبنوفا، أنبئه بكل شيء، وقل له: إنني آثرت أن أبقى عند بوبنوفا على أن أذهب إليه.

قالت نللي ذلك، واصفرّ وجهها اصفراراً شديداً، واتقدت عيناها، وأخذ قلبها يخفق خفقاناً قوياً حتى إنها هوت على الوسائد وظلت بضع دقائق لا تستطيع أن تقول شيئاً.

قالت أخيراً بصوت ضعيف:

ـ نادهم يا فانيا، أريد أن أودعهم جميعاً، وداعاً يا فانيا!

وشدتني بذراعيها شداً قوياً، مرة أخيرة إلى الأبد. ودخل أصدقاؤنا جميعاً. كان العجوز لا يستطيع أن يصدق أنها ستموت.

كان لا يستطيع أن يسلم بهذه الفكرة. وظل إلى آخر لحظة يتشاجر معنا حول هذا الأمر، ويؤكد أنها ستشفى لا محالة.. لقد أفناه القلق، وبات يقضي أياماً برمتها أمام سرير نللي. وفي الليالي الأخيرة، لم يغمض له جفن.. أقول لم يغمض له جفن، وأعني ذلك حرفاً حرفاً. كان يسارع إلى تحقيق أيسر نزوة من نزواتها، وأيسر رغبة من رغباتها.. وكان إذا خرج من عندها، يبكي بكاء مراً. ولكنه ما يلبث بعد دقيقة أن يسترد آماله، فيؤكد أنها ستسترد عافيتها. لقد ملأ غرفتها بالأزهار. وفي ذات يوم، اشترى لها باقة ضخمة من أروع الورود البيضاء والحمراء، ذهب يشتريها من مكان بعيد ليقدمها هدية إلى صغيرته نللي.. وكان هذا كله يحدث في الطفلة اضطراباً كبيراً. كان لا يمكنها أن لا تستجيب من أعماق قلبها لهذه العاطفة التي يحطيها بها كل مَنْ في البيت. وفي ذلك المساء، في ذلك المساء الذي ودعتنا فيه، لم يشأ الشيخ أن يكون هو الوداع الأخير. فابتسمت له نللي، وحاولت طوال السهرة أن تبدو مرحة، فكانت تمازحه، حتى لقد كانت تضحك.. وحين تركناها، كان قد تحرك فينا شيء من الأمل، ولكنها أصبحت في الصباح، فإذا هي عاجزة عن الكلام. وماتت بعد يومين.

ما زلت إلى الآن أرى العجوز وهو يزيّن تابوتها الصغير بالأزهار، وينظر، وقد هدّه اليأس، إلى وجهها الهزيل الذي لا حياة فيه وإلى ابتسامتها الجامدة، وإلى يديها المتصلبتين فوق صدرها. لقد بكاها كما يبكي أب ابنته. وحاولنا، أنا وناتاشا والجميع، أن نواسيه، ولكن لم يكن ثمة سبيل إلى مواساته، حتى لقد مرض بعد دفن نللي مرضاً خطيراً.

أعطتني آنا أندريفنا الكيس الصغير الذي انتزعته من عنق نللي.

كان الكيس يحتوي على الرسالة التي كتبتها أم نللي إلى الأمير. وقد قرأتها يوم موت نللي، فرأيتها تلعن الأمير، وتقول: إنها لا تستطيع أن تغفر له، وتصف له الفترة الأخيرة من حياتها، وتتوسل إليه أن يعمل شيئاً من أجل نللي. «هذه ابنتك، وأنت تعلم أنها ابنتك حقاً. لقد قلتُ لها أن تذهب إليك بعد موتي، وأن تعطيك هذه الرسالة.. فإذا أنت لم تطرد نللي، فقد أغفر لك هناك، في العالم الآخر، يوم الحساب الكبير. سأقف يومئذٍ أمام عرش الله أتوسل إلى عدالته الإلهية أن يُذهب عنك خطاياك. إن نللي تعرف ما في هذه الرسالة. لقد قرأتها لها، وقصصت عليها كل شيء، كل شيء..».

ولكن نللي لم تنفِّذ وصية أمها. كانت تعرف كل شيء، ولكنها لم تذهب إلى الأمير وماتت دون أن تصالحه.

حين فرغنا من دفن نللي، مضيت إلى الحديقة مع ناتاشا. كان يوماً حاراً مضيئاً. سيسافرون بعد أسبوع. ألقت عليَّ ناتاشا نظرة طويلة غريبة. وقالت:

ـ فانيا، فانيا، كان هذه كله حلماً، أليس كذلك؟

ـ ما الذي كان حلماً؟

وقرأت في عينيها:

«كان يمكن أن نسعد معاً إلى الأبد».

حواش

صفحة

20 أرنست تيودور آميدي هوفمان (1776 ـ 1822)، كاتب رومانسي ألماني، مؤلف «حكايات خيالية».

22 «حبيبي أوغسطين»، أغنية هزلية ألمانية. كانت رائجة جداً في ذلك الزمان.

23 موريتس جوتليب زافير (1795 ـ 1858)، فكاهي نمسوي ولد في المجر من أصل يهودي.

دورفباربير (حلاق القرية). جريدة فكاهية ألمانية كانت تصدر بمدينة لايبزغ في زمن دوستويفسكي.

52 «ألفونس ودالند»، حكاية أخلاقية للأطفال، نشرت في مجلة نوفيكوف «قراءة الطفل» سنة 1787 بعنوان «ألفونس ودالند» أو «معجزات الفن والطبيعة».

51 ألكسندر سوماروكوف (1718 ـ 1777)، كاتب مسرحيات تراجيدية وجنرال في الجيش.

جابرييل درجافين (1743 ـ 1816)، شاعر كبير، نظم قصائد تتغنى بعهد كاترين الثانية.

ميشيل لومونوسوف (1711 ـ 1765)، هو ابن فلاح أصبح عالماً محيطاً وكاتباً مرموقاً، وقد أسس جامعة موسكو.

53 روسلافليف ويوري ميلوسلافسكي، بطَلان من أبطال

الروايات الوطنية التي كتبها زاجوسكين ومنها رواية: «روسلافليف أو الروس سنة 1812» التي ظهرت عام 1831 ورواية «يوري ميلوسلافسكي أو الروس سنة 1612» التي ظهرت عام 1821.

54 «تحرير موسكو»، رواية تاريخية أصبحت الآن منسية، ظهرت سنة 1840 بعنوان: «الأمير بوجارسكي والمواطن الصغير أو تحرير موسكو»، وهي كرواية زاجوسكين اصف الكفاح ضد البولونيين بعد احتلالهم موسكو.

كان الكاتب الشهير جوجول يتقاضى مساعدة من صندوق الإمبراطور نيقولا الأول طوال مدة إقامته في إيطاليا.

58 «آبادونا» (الملاك الساقط، قصة رومانسية للكاتب نيقولا بوليفوي، ظهرت سنة 1834.

الناقد ب... هو الناقد الشهر بيلنسكي الذي كانت تهاجمه الجريدة الرجعية «نحلة الشمال».

85 كان مؤلف المسرحيات الهزلية، أوجين سكريب، ذائع الصيت في روسيا، يقدِّره الناس تقديراً عظيماً.

100 «القديس إسحاق»، حين بنى بطرس الأكبر مدينة سان بطرسبرغ أهدى فيها كنيستين، إحداهما للقديس بطرس وبولس والثانية للقديس إسحاق الدلماسي الذي يقع عيده في 30 أيار (مايو) عيد ميلاد القيصر. وجاء ألكسندر الأول فبنى كاتدرائية القديس إسحاق وفقاً لتصميم وضعه المهندس الفرنسي ريشار مونفران.

112 إيفان الرهيب، قيصر روسيا من سنة 1533 إلى سنة 1584؛ ألكسي ميخائيلوفتش قيصر روسيا من سنة 1654 إلى سنة

1676، وهو أبو بطرس الأكبر، «تاريخ روسيا». ألفه نيقولا كرامازين، وظهر في 12 مجلداً بين سنة 1816 و1826.

131 هذه الأبيات مستمدة من قصيدة للشاعر جاك بولونسكي (1820 ـ 1897)، نشرت سنة 1854 في مجلة «المعاصر» بعنوان: «الجرس الصغير».

157 كان «استحضار الأرواح» رائجاً في أوساط المجتمع الراقي في ذلك الزمان.

157 «غط قلمك»: في مسرحية من مسرحيات جوجول نرى عمة البطل المشلولة توقِّع وصيتها بكلمة Obmokni (غط قلمك) بدلاً من أن تذيّل الوصية باسمها.

188 إن الشوارع العرضانية في فاسيلي أوستروف تسمى بأرقام من صفر إلى عشرين.

191 «الجادة الصغرى» (أو «الشارع الصغير») هي أحد الشوارع الرئيسية في فاسيلي أوستروف.

203 «سيزوبريوخوف»، اسم نحته دوستويفسكي من كلمتين هما سيزو، ومعناها الكرش، وبريوخو ومعناها المزرق، ويطلق المؤلف هذا الاسم البشع على ابن التاجر سخرية.

204 «وهو يبدو بمعطفه المخملي من المتعصبين للسلافية»، كان دعاة السلافية سنة 1840 يحبون أن يرتدوا ملابس الشعب الروسي التي هجرتها طبقة النبلاء منذ عهد بطرس الأكبر.

«النادي الإنجليزي»، أنشئ في سان بطرسبرج في عهد كاترين الثانية، وكان ملتقى الطبقة الأرستقراطية.

335 «الطفولة والمراهقة»، كتبها ليون تولستوي، وظهرت سنة 1852 ـ 1853 في مجلة «المعاصر»، وظهرت سنة 1856

في طبعة مستقلة.

385 «إنكم لا تتحدثون إلى عن البؤس، والمعاطف الضائعة، وناظري المحطات...»: الإشارة هنا إلى قصة «المعطف» التي كتبها جوجول، وإلى قصة ناظر المحطة التي كتبها بوشكين، وإلى أمثال هذه القصص.

524 «انظر إلى س...»: الإشارة هنا إلى الكونت ليون تولستوي الذي كتب ثلاثيته التي يعرض فيها قصة حياته على فترات تبلغ كل منها سنتين، و«انظر إلى ن...»: الإشارة هنا إلى جونتشاروف الذي نشر «حلم أوبلوموف» سنة 1849 ثم لم ينجز كتابة رواية «أوبلوموف» إلا سنة 1959.

دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في 1821/11/11 من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام 1845.

اعتقل عام 1849 بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور، ليطلق سراحه بعد 10 سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة "العصر". وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في 9 شباط/ فبراير من عام 1881، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.

سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام 1921 بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرة عام 1961.
* عمل مدرساً للفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وإسبانيا، ومندوباً لسوريا في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي ومؤلفات لتولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام 1976، ومنح جائزة "لوتس" بعد المهات (1978).

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتّاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشدّ القارئ، وبتعبيرها القوي عن دواخل النفس الإنسانية، وقد عبّر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر، المراهق، مذلون مهانون، الجريمة والعقاب، الأبله...

ورواية «مذلون مهانون» كانت مدخل متاهة دوستويفسكي إلى المكبوت عند الإنسان، عبّر فيها عن ذلك الخضوع غير المحدود، والاستعداد لتقبّل الذلّ والمهانة، بل التمتّع بذلك الذلّ وتلك المهانة، حتى ليظن المرء أن شخصيات هذه الرواية هم مجموعة مرضى، أو مجانين. والحقيقة أنهم ما لا نجرؤ أن نكونه. إن دوستويفسكي يُظهر إلى النور ما نكبته في ظلمات أنفسنا.

إن كل شخصيّة في هذه الرواية، قد نرى فيها قديساً، أو مصاباً بالهيستيريا. ابناً باراً محباً، أو جاحداً ولا يهمه ما يسببه من بؤس وشقاء. وهو يريد بذلك التعبير عن الصراعين الروحي والشعوري اللذين يدفعان المرء إلى التضحية دونما تردّد. وهذا ما نجده في هذا الحب الغريب الذي تحمله ناتاشا وكاتيا كلتاهما، وهما الغريمتان، للشاب الطائش الخفيف أليوشا.

كيف أمكن أن تُفتن فتاة مثل ناتاشا المليئة طهارة وحرارة وعقلاً، بشاب مثل أليوشا مليء تفاهة وفراغاً وتردداً وضعفاً؟ كيف أمكن لها، وهي وحيدة والديها، المحبّة لهما، حباً لا نظير له، أن ترميهما في البؤس؟

ذلك ما يقدّمه لنا دوستويفسكي في هذه الرواية بعبارات عنيفة قوية، تُعبّر عما يتّصف به الحب الجارف من التباس وتناقضات.

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-402-4
9789953684024

لوحة الغلاف للفنان روبنس